

المشروع القومي للترجمة

كشف المحجوب

(الجزء الأول)

تأليف : أبو الحسن على بن عثمان الهجویری

دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادی قنديل

تقديم : بدیع جمعة



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الغزنوى الهجویری
كشف المحجوب / للهجویری ؛ دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادى
قنديل ؛ تقديم : بديع جمعة - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ .
٤٠٠ ص ؛ ٢٤ سم ؛ مج ١ - (المشروع القومى للترجمة : ١٠٤٣)
(أ) التصوف الإسلامى .
(ب) إسعاد عبد الهادى قنديل (دراسة - مترجمة - معلق) .
(ج) جمعة ؛ بديع (مقدم) .
(د) العنوان ٢٦٠

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٩٧١
الترقيم الدولى 6 - 202 - 437 - 977 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب
الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم

كتاب كشف المحجوب فى اللغة الفارسية بمكانة كتاب "اللمع" فى اللغة العربية ؛ فكل منهما يُعد أقدم المؤلفات الصوفية فى لغته ، وهما أكثر كتب التصوف فى اللغتين قيمة وأوفرها مادة فى دراسة التصوف .

وقد اعتمد الهجویری ، مؤلف كشف المحجوب ، على الكتب العربية فى التصوف السابقة عليه ، أمثال : "اللمع" ، و "طبقات الصوفية" و "الرسالة القشيرية" . ونتيجة لأنه أول كتاب فارسى فى هذا المضمار ، فقد أفاد منه جميع من جاؤا بعده من المؤلفين الفرس ، ومنهم فريد الدين العطار فى كتابه "تذكرة الأولياء" . وعبد الرحمن الجامى فى مؤلفه "نفحات الأنس" ، وقاسم غنى فى كتابه "تاريخ تصوف دار اسلام" وغيرهم كثيرون .

وقد أثر الهجویری أن يختار لكتابه عنواناً دالاً وهو : "كشف المحجوب" ؛ حيث قال : « طالما كان اسم الكتاب ناطقاً على ما فيه ، فإن أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون الغرض منه ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية ، فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وقد ألّف الهجویری كتابه استجابة لسؤال أحد مواطنيه عن أصول الطريقة ومقام الصوفية ومعاملاتهم ، فاجتهد الهجویری أن يقدم للسائل منهجاً كاملاً لعلم التصوف : أصوله وفروعه وأدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون أصحابه بالجهل ، بأن لعلم التصوف أصولاً راسخة تقوم على أسس علمية سليمة ، إلى جانب استنادها إلى آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث النبوى الشريف .

ونتيجة لهذا المنهج العلمى السليم الذى اتبعه الهجويرى فى كتابه ، فقد حظى هذا الكتاب منذ تأليفه وحتى اليوم باهتمام جميع من شغلوا بدراسة التصوف الإسلامى سواء من علماء المسلمين أو من المستشرقين الذين أولوا هذا العلم جل اهتمامهم .

وقد توفر لهذه الترجمة العربية لكتاب "كشف المحجوب" عدد من كبار الأساتذة المهتمين بالتصوف الفارسى فى مصر ، كان أولهم المرحوم الأستاذ الدكتور أمين الشواربى الذى طالما كان ينوه بقيمة هذا الكتاب وأهميته فى محاضراته الجامعية ، والتى كانت الدافع لاختياره هذا الكتاب موضوعاً لنيل درجة الدكتوراه للمت ترجمة المرحومة الأستاذة الدكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل تحت إشراف أستاذنا المرحوم الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ اللغة الفارسية وأدائها فى كلية الآداب جامعة عين شمس ، وبعد الانتهاء من إعداد الرسالة ونيل درجة الدكتوراه شرعت المترجمة فى تحقيق آمال أستاذها المرحوم الدكتور الشواربى فى ضرورة ترجمة هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ، وقد استعانت المترجمة فى إتمام هذا العمل بمراجع مشهود له بالدقة العلمية المتناهية وهو المرحوم الأستاذ الدكتور أمين عبد المجيد بنوى . وقد تلازمت دقة الترجمة وتبخرها فى علم التصوف مع التزام الدكتور أمين بحرفية الترجمة وأمانتها ، وكانت النتيجة أن قدما للمكتبة العربية ترجمة دقيقة ملتزمة لهذا الكتاب القيم الذى لا غنى عنه لأى دارس للتصوف الإسلامى أو للفلسفة الإسلامية فى اللغتين العربية والفارسية .

رحم الله كل من شارك فى إخراج هذا العمل المتميز ونقله إلى اللغة العربية وأثرها بهذا المؤلف الجدير بالاعتناء والدراسة ، والشكر كل الشكر للمجلس الأعلى للثقافة بمصر لإقدامه على إعادة طبع هذا الكتاب وتوفيره لدارسى التصوف ولریدی هذا الفكر الإسلامى المستنير .

وبالله التوفيق؛ ..

أ. د. بديع محمد جمعة

كلمة وفاء

بدأت معرفتي بالهجویری وكتابه « كشف المحجوب » في عام ١٩٥٧ ، حين كنت أدرس التصوف في إيران على أستاذي الجليل المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربي أستاذ اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس. وكان أستاذي رحمه الله كثير الإشارة الى الكتب الفارسية في التصوف الاسلامي ، وكان يألم ويأمل من أجلها : يألم لأن المستشرقين سبقوا الى نشر بعضها ، وترجمة البعض الى لغاتهم ، ويأمل في أن يقوم تلاميذه يوماً بنقل هذا الجزء الهام من التراث الاسلامي الى اللغة العربية واثراء المكتبة العربية بهذا النتاج القيم للفكر الاسلامي .

وكان من بين الكتب التي عنى أستاذي بالحديث عنها كتابان طالما نبه الى قيمتهما في دراسة التصوف ، وهما : كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » لمحمد بن المنور ، وكتاب « كشف المحجوب » لعلي بن عثمان الجلابي الهجویری .

وعندما تهيأت للدراسات العليا وقع اختياري على الكتاب الأول ليكون موضوع دراستي للماجستير ، وانهت في عام ١٩٦٤ اعداد بحث عن أبي سعيد بن أبي الخير مع ترجمة كتاب أسرار التوحيد . وفي نفس العام اخترت الكتاب الثاني ليكون موضوع دراستي للدكتوراه ، وعلى مدى خمس سنوات تمكنت بمعون الله في عام ١٩٦٩ من اعداد بحث عن « الهجویری ومذهبه في التصوف كما يبدو من كتابه كشف المحجوب » تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبد التعميم محمد حسنين .

غير أن صحبتي لكشف المحجوب لم تنقطع بعد الدكتوراه ، فقد كنت أشعر في قرار نفسي بأهمية نقل هذا الكتاب النفيس الى اللغة العربية حتى يفيد منه الدارسون للتصوف الاسلامي ممن لا يعرفون اللغة الفارسية ، فعكنت على ترجمة الكتاب ، واعداد حواش وافية وتعليقات على

الترجمة ، وتحقيق ما ورد في الكتاب من أقوال وروايات وردها الى
أصولها العربية .

وتم هذا العمل بعون الله ، واني أرجو به ان أكون قد وفقت الى تحقيق
شيء مما كان يأمل فيه استاذي ، وأن يعمل غيري لاكمال المسيرة ، فيتم
نقل جميع الكتب الصوفية الفارسية الى لغتنا العربية الحبيبة .

والله ولي التوفيق ..

د. اسعاد عبدالهادي قنديل

جمادى الأولى ١٣٩٣
يونيو ١٩٧٣

تقديم

مؤلف كشف المحجوب هو : أبو الحسن على بن عثمان بن أبي على الجلابي الهجویری الغزنوی، كان عالما من علماء الصوفية في القرن الخامس الهجري ، ومعاصرا للدولة الغزنوية (٣٨٧ — ٥٨٢ هـ) ، وتوفي في عهد السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) .

والهجویری ولد في مدينة «غزنه» بالهضبة الامغانية ، ومنها استمد لقبه « الغزنوی » ، كما يلقب بالجلابي والهجویری نسبة الى « جلاب » و « هجویر » وهما محلتان من توابع غزنة . وتاريخ ميلاد الهجویری غير معروف ، وان كان من المرجح انه ولد في أواخر القرن الرابع الهجري .

ولا نعرف عن حياة الهجویری الخاصة الا القليل مما يشير اليه في كتابه كشف المحجوب ، ونجيب منه انه تتلمذ على أبي العباس الشقاني ، وسلك طريق الصوفية بارشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلي ، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبي القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان ، والتقى بمعاصره أبي القاسم القشيري (٤٦٥ هـ) .

ويبدو أن الهجویری تلقى علومه الأولى في موطنه غزنة،ولما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره في السفر والتجول ، وقام برحلات واسعة النطاق ، تنقل خلالها في أرجاء العالم الاسلامي : من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهند ، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وفارس وآذربيجان وجرجان والهند ، وأمضى في هذه المناطق فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحيانا ، واختلف خلالها الى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين ، فكان يلازم بعضهم وينخرط في سلك مريدتهم ، ويتردد على البعض الآخر ويتلقى منهم تعاليمهم .

وقد امتدت رحلات الهجویری حتى سنة ٤٣١ هـ ، وهي السنة التي زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى ، وكان لا يزال في هذه المدينة

عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥ هـ في عهد السلطان مودود الغزنوى (٤٣٢ - ٤٤١ هـ) وأسر بين الأبرى . ومن المرجح أن الهجویری ترك لاهور عائدا الى غزنه وخراسان في الفترة ما بين ٤٣٥ ، ٤٤١ هـ ، غير أنه رجع الى الهند مرة أخرى ، واستقر به المقام نهائيا في مدينة لاهور ، وظل بها الى أن توى .

وقد هيأت هذه الرحلات الطويلة للهجویری سبيل الانصال بعدد كبير من شيوخ الصوفية ، وأئمة المذاهب الدينية ، ورؤساء الفرق الاسلامية المختلفة ، ومكنته من الوقوف على جميع النيارات الدينية التي كانت تسود العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري . ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاكسب عن طريق هذا وذاك خبرات علمية واسعة ، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا . كما أمدته هذه الرحلات بحصيلة وغيرة من المعلومات القيمة التي ضمنها كتابه واستخدمها في مناقشاته للموضوعات التي تناوئها .

وكان الهجویری من أوائل الدعاة الى الاسلام في شبه القارة الهندية ، وقد أسهم في تحول عدد كبير من سكان لاهور الى الاسلام ، وكان في مقدمتهم « راى راجو » نائب لاهور في عهد السلطان مودود . وظل الهجویری يعمل على نشر الدين الاسلامي والتعاليم الروحية في مدينة لاهور حتى أدركه الوفاة بها حوالي سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بهذه المنيمة ، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار « داتا كنج بخش » وهو الاسم الذي يعرف به الهجویری في الهند وباكستان .

والهجویری الى كتب كثيرة اشير الى اسمائها في كشف المحجوب ، وبعض هذه الكتب فقد في حياة المؤلف ، وبعضها فقد بعد وفاته . ولم يبق من مؤلفات الهجویری سوى كتابه كشف المحجوب الذي يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه .

وكتاب كشف المحجوب يعتبر أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الاصول النظرية والعملية للتصوف . وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامي ، سواء منهم من بحثوا في هذا الموضوع ، أو من قصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها .

وتاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، وان كان من المرجح أن مؤلفه بدأه حوالي سنة ٤٣٥ هـ ، وأنه حوالي سنة ٤٤٢ هـ .

ويشتمل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف في الأصول النظرية والعملية للتصوف ، وتراجم الأئمة وشيوخ الصوفية ، وأقوال الصوفية ورموزهم ، والفرق الصوفية ، والعقائد الدينية والعبادات ، والمعاملات ، ورسوم الصوفية وتقاليدهم .

وموضوع كتاب كشف المحجوب جاء ردا على السؤال الذى وجهه الى الهجویری أحد رفاقه في غزنة وطلب اليه ان يبين له طريق الصوفية ومقدماتهم ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم ومعاملاتهم . وقد أجاب الهجویری على هذا السؤال اجابة مطولة ، ذلك انه وضع في اعتباره ان يوضح لعامة الناس الطريقة والشريعة ، وان يوائم بين تعاليم الصوفية والدين الاسلامی، وهو ما حاوله قبله مؤلفو الصوفية كآبى نصر السراج الطوسی في اللمع ، وآبى القاسم القشیری في الرسالة ، وما فعله بعده الامام الغزالی في احیاء علوم الدين .

وكتاب كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء في المنهج العام ، أو المواد التى تناولها كل من مؤلفيهما ، مما يوضح ان الهجویری اعتمد على اللمع . كما يتضمن كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض اصول من الرسالة القشيرية ، مما يؤكد ان مؤلفه اطلع عليها وأفاد منها .

وبالإضافة الى اللمع والرسالة ، فقد اعتمد الهجویری اعتمادا كبيرا على كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمی ونقل عنه كثيرا ، لاسيما في الجزء الخاص بتراجم شيوخ الصوفية .

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من كشف المحجوب ، وعلى الأخص « فريد الدين العطار » في كتابه « تذكرة الأولياء » ، و « عبد الرحمن الجاسى » في كتابه « نفحات الأنس » . كما أفاد من كشف المحجوب ، على نطاق واسع ، اثنان ممن كتبوا في التصوف في العصر الحديث وهما : قاسم غنى ، وآبو العلا عفيفی ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسی لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الانجليزية للكتاب .

وكشف المحجوب طبع لأول مرة في ليننجراد سنة ١٩٢٦ م ، وطبع للمرة الثانية في طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش (ويقابلها ١٣٧٧ هـ ق — ١٩٥٧ م) ، وقام بترجمته الى الانجليزية المستشرق الانجليزى نيكولسون ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م .

ولما كان موضوع هذه الدراسة هو : كتاب كشف المحجوب ، فقد قسمتها الى بابين :

الباب الأول : في التعريف بمؤلف الكتاب

ويشمل الحديث عن عصر الهجویری من النواحي السياسية والثقافية والدينية والصوفية ، والتعريف بمدينة « غزنه » باعتبارها موطن الهجویری ومسقط رأسه ، ومدينة « لاهور » باعتبارها الموطن الثانی للهجویری ومثواه الآخر .

ويتبع ذلك التعريف بالهجویری من حيث اسمه واللقاب ومولده ونشأته وزواجه والعلوم التي حصلها وأساتذته وشيوخه ورحلاته ووفاته ومؤلفاته .

والباب الثاني : في التعريف بكتاب كشف المحجوب

ويشمل الحديث عن الكتاب وموضوعه وأقسامه ومصادره ومفزلته بين كتب التصوف العربية والفارسية السابقة عليه والمؤلفة بعده ، والقيمة العلمية للكتاب .

ويتبع ذلك تعريف بمخطوطات الكتاب وطبعاته والترجمة الانجليزية .

القسم الأول

دراسة حول

الاجبيري وكتابه كشف المحجوب

الباب الأول
التعريف بالاجبيري

المصالح الأولى

عصر الجويرى

من النواحي السياسية والثقافية والدينية

أولا : الناحية السياسية :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجویری » مواطن غزنوی ينسب الى مدينة « غزنه » موطن الأسرة الغزنوية التي أسست في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى دولة كبيرة ، عرفت في التاريخ الاسلامى باسم الدولة الغزنوية .

والهجویری عاش حياته كلها في ظل الدولة الغزنوية . وعلى الرغم من أننا لا نعرف تاريخ ميلاده ووفاته على وجه التحديد ، إلا أنه من المرجح أنه عاش في الفترة ما بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى والعقد السابع من القرن الخامس الهجرى ، وهذه الفترة تعاصر في نصفها الأول فترة المجد الحقيقى للدولة الغزنوية التي حكم فيها أشهر سلاطينها الثلاثة الأول : « سبكتكين » وابنه « محمود » و « مسعود بن محمود » ، وتعاصر في نصفها الثانى فترة اقل قوة في تاريخ الدولة الغزنوية ، حكم فيها سلاطين ثلاثة آخرون هم : « مودود بن مسعود » و « عبد الرشيد بن محمود » و « فرخزاد بن مسعود » . وتوفى الهجویری في عهد « ابراهيم بن مسعود » .

ويعتبر « سبكتكين » المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية التي قامت أول الامر في مدينة غزنة عندما أسسها مولى من الموالى الأتراك يدعى « البتكين » — وكان يلى قيادة الجيش السامانى من قبل عبد الملك السامانى ، فلما توفى عبد الملك انسحب البتكين الى غزنة — وكان أبوه حاكما عليها من قبل السامانيين ، فتولى حكمها بعده .

وكان لالبتكين عبد مملوك يدعى سبكتكين ، لم يلبث أن أصبح صهرا له ، ثم خلفه في حكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وضم اليها قصدار

والباميان وطخارستان (١) ، وشن حملتين موفقتين على ملك البنجاب « جيال » وهزمه واكرهه على أن يتخلى له عن إقليم كابل الذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب (٢) .

وعندما استنجد نوح بن منصور الساماني بسبكتكين على قواده ، أسرع اليه ومعه ابنه محمود ، وأحرزا له النصر ، فكافأ سبكتكين بولاية خراسان ، وولى ابنه محمودا قيادة الجيش . وهكذا سيطر سبكتكين على خراسان وصفت له (٣) .

وبعد وفاة سبكتكين في بلخ سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، خلفه في الحكم ابنه الأصغر اسماعيل ، غير أن أخاه محمودا لم يلبث أن انتزع العرش منه .

ويعتبر « محمود الغزنوي » (٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) أشهر حكام الغزنويين على الإطلاق ، وواحدا من الشخصيات العظيمة التي لعبت دورا كبيرا في آسيا الوسطى (٤) . وهو أول شخص في الاسلام خطب بلقب السلطان من قبل الخليفة (٥) العباسي القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) .

وقد بلغت الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود أوج مجدها واتسعت ممتلكاتها حتى ضمت جميع بلاد العجم : من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وفارس وجبال الغور وطخارستان ، وانقاد له ملوك التركستان (٦) . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهه شطر الهند ، فغزاها سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما (٧) فيما بين عامي ٣٩١ ، ٤١٧ هـ (١٠٠٠ ، ١٠٢٦ م) فخضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ، ومن الهملايا الى الدكن ، واكسبته هذه الغزوات وحبه للاسلام لقب « محطم الأصنام » . وتوفي السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ (٨) .

وإذا كان السلطان محمود قد استطاع عن طريق غزوانه أن يرفع راية الاسلام فوق قلاع الهند ومعابدها ، وأن يخطط بأسنة سهامه وسيوفه تربة

(١) « طبقات ناصري » منهاج السراج : كابل ١٣٤٢ هـ ش ص ٢٢٦

(٢) « تاريخ الشعوب الاسلامية » بروكلمان : ترجمة نبيه امين : بيروت ١٩٥٣ ج ٢ ص ١١٩

(٣) « طبقات ناصري » ص ٢٢٧ .

(٤) « Sykes » : A History of Persia, London, 1961, V. 2, p. 26.

(٥) « طبقات ناصري » ص ٢٢٨ .

(٦) « السابق » ص ٢٣٠

(٧) « الكابل » ابن الاثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ . (انظر حوادث سنة ٣٩١ — ٤١٧ .

(٨) « الكابل » انظر حوادث ٤٢١ هـ .

تلك الديار ويمهدا لبذر بذور الدين الاسلامي ، فانه لم تمض وقت طويل حتى ذهب الى تلك البلاد غزنوى آخر ، فبذر تلك البذور بالخرقة والسجادة بدلا من السهام والسيوف ، وكان ذلك الرجل هو « على بن عثمان بن ابي على الهجویری الغزنوی » (١) .

وقد تميز أواخر عهد السلطان محمود بظهور قوة ناشئة هي قوة السلاجقة التي بدأت تمارس نشاطها في اقليم خراسان ، واكن محمودا أوقفهم عند حدهم ، فلزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياته ، غير ان خطرهم لم يابث ان تفاقم بعد وفاته ، فسيطرو على الولايات الغربية من الدولة الغزنوية ، واستطاعوا في أقل من عشر سنوات ان ينتزعوا خراسان جميعها من ابنه مسعود .

وكان « مسعود » (٤٢١ — ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٤٠ م) قد استخلص الملك من أخيه الأصغر « محمد » — الذي أجلسه رجال الحاشية والأمراء على العرش في غزنة بعد وفاة أبيه — وسجنه بقلعة « كوهتيز » وأرسل الى الخليفة القادر في طلب اللواء والعهد ، فأقره الخليفة على ما دخل في حوزته من ولايات : « الرى » و « الجبال » و « اصفهان » ، وأمره بأن يعجل بالسير الى خراسان كيلا يقع اضطراب في ذلك الثغر العظيم (٢) .

غير ان ما كان يخشاه الخليفة قد حدث بالفعل ، فقد كانت قوة السلاجقة آخذة في الازدياد ، وبدأوا يغيرون غارات منظمة على خراسان منذ عام ٤٢٥ هـ ، مما جعل مسعودا يذهب بنفسه الى نيسابور لقتالهم ، وتمكنت جيوشه من هزيمتهم بالقرب من « نسا » عام ٤٢٦ هـ . وعندما بلغ هذا الخبر مسامع داود السلجوقي استنعا بجيش كبير وقاتل الغزنويين ، وتغلب عليهم (٣) وكانت هذه اول هزيمة جدية وقعت لمسعود ، واضطر معها الى ان يعقد صلحا مع السلاجقة لكي يتفرغ للذهاب الى الهند ، ولم يلبث ان سار اليها وفتح قلعة « هانسي » سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وعند عودة مسعود من الهند علم بارتفاع شأن السلاجقة في خراسان وجاؤل ان يجلبهم عنها ، وهاجمهم بالقرب من « سرخس » عام ٤٢٩ هـ ،

(١) مجلة « هلال » جلد بنجم شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ هـ ش : مقال بقلم « غلام سرور »

(٢) « تاريخ البيهقي » أبو أفضل البيهقي : ترجمة يحيى الخشاب وصديق نشأت ، القاهرة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م : ص ١٧ .

(٣) « زين الاخبار » الكرديزي : طهران ١٣١٥ هـ ش . ص ٨١

(٤) « السابق » ص ٨٣ ، « تاريخ البيهقي » ص ٥٨٠ .

غير أن السلاجقة تمكنوا من هزيمته ولم يلبث « طغرل بك » السلجوقي أن دخل نيسابور ، وجلس على عرش مسعود ، وأعلن نفسه سلطانا للسلاجقة (١) .

وازداد مسعود غضبا على السلاجقة ، وخرج من غزنة الى خراسان قاصدا النار ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، فقد هزمه السلاجقة هزيمة نكراء عند « داندانقان » بالقرب من « مرو » عام ٤٣١هـ (٢) ، وكانت هذه الموقعة حدا فاصلا في تاريخ الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، فقد قضت نهائيا على نفوذ الغزنويين في خراسان ، وأكدت نفوذ السلاجقة بها .

ورجع السلطان مسعود الى غزنة التي كان يسودها الاضطراب والمذابح والمعارك ، فقد حاصرها السلاجقة وسدوا الطريق اليها ، وقبض مسعود على بعض الفارين من رجاله وأرسلهم الى الهند ليسجنوا بها .

وخلال تلك الاضطرابات رحل الهجویری عن غزنة على عجل ، بحيث لم يستطع أن يحصل معه كتبه ، فتركها هناك (٣) ، وتوجه الى بلاد الهند . وكان ذهابه اليها حوالي سنة ٤٣١هـ (٤) .

ويبدو أن الهجویری كان مرتبطا في حياته بالدولة الغزنوية ، يعيش في المناطق الخاضعة لنفوذها ، ويتنقل بينها . وقد عرفنا من كشف المحجوب أنه قضى فترة كبيرة من حياته في السفر والتجول ، ومن خلال تتبعنا لرحلاته نعرف أنه قضى الجزء الأكبر من فترة التجول في إقليم خراسان ، وزار عددا كبيرا من مدنه ، وأقام ببعضها فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحيانا (٥) . ومن الواضح أن الفترة التي قضاها متنقلا بين مدن خراسان تقابل الفترة التي كان فيها نفوذ الغزنويين يسيطر على هذه المنطقة فلما انحسر نفوذهم عنها رجع الى غزنة ، وواجه فيها تلك الاضطرابات . وربما أحس الهجویری

(١) « تاريخ البيهقي » ص ٣٠٦ ، « الكابل » حوادث ٤٢٩ ، « راحة الصدور » الراوندي : ترجمة ابراهيم الشواربي وعد النعيم حسنين ونواد الصيد : القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٨ .

(٢) « تاريخ البيهقي » ص ٦٨٤ ، « راحة الصدور » ص ١٦٣ ، « طبقات ناصري » ص ٢٢٣ .

(٣) « كشف المحجوب » لابي الحسن علي بن عثمان بن ابي علي الجنلابي الهجویری الغزنوي : طهران ١٣٣٦ هـ ش (انظر : ص ١١٠) .

(٤) « تذكرة حضرت علي هجویری » حكيم سيد أمين الدين دهلوي : لاهور ١٩٦٢ ص ٢٠ .
The Life and Teachings of Hazrat Data — Ganjbakhsh : Lahore 1967, p. 23.

(٥) « كشف المحجوب » انظر ص ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ .

عقب هزيمة مسعود أن الأمر على وشك أن يخرج من أيدي الغزنويين في غزنة ، كما خرج من أيديهم في خراسان ، فترك غزنة إلى الهند حيث بدأ يمارس نشاطه الديني والروحي في تلك البلاد تحت رعاية الغزنويين ، وقام بنشر تعاليم الدين الاسلامي ، وهداية الناس وارشادهم .

أما السلطان مسعود فقد فكر ، بعد هزمته على أيدي السلاجقة ، في أن يذهب إلى الهند ليجمع جيشا يحارب به السلاجقة من جديد ، وخرج من غزنة حاملا معه خزانته . وعند « ماريكله » خرج عليه غلمانه ، وقبضوا عليه ، وأرسلوه إلى قلعة كسرى (١) ، وأجلسوا أخاه محمدا على العرش . ثم لم يلبث مسعود أن قتل على أيدي أبناء محمد سنة ٤٣٢ هـ (٢) .

وتولى مودود بن مسعود أمر الغزنويين في غزنة عام ٤٣٢ هـ (٣٠٤٠ م) . وكان أول عمل قام به أن اتجه لقتال عمه محمد ، انتقاما لمقتل أبيه ، فقبض على محمد وابنه والقواد وقتلهم (٣) .

وفي سنة ٤٣٥ هـ ، أراد مودود أن يسترد نفوذ الغزنويين في خراسان ، فسير إليها حاجبه . وعلم بذلك داود السلجوقي فأرسل ابنه « ألب أرسلان » والتقى الطرفان واقتتلا ، وكان الظفر لألب أرسلان ، وعاد عسكر غزنة منهزما (٤) ، واستولى السلاجقة على « بست » و « سيستان » ، وبذلك انتهى حكم الغزنويين في إيران ، واقتصر نفوذهم على غزنة وممتلكاتهم بالهند .

ومن أبرز الأحداث التي وقعت في الهند في عصر مودود : فتنة الراجات ، فقد اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وحاصروا لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وعلم السلطان مودود بذلك ، فأرسل جيشا تمكن بالتعاون مع مقدم العساكر الاسلامية في تلك الديار من هزيمتهم (٥) وتسلم قواد مودود جميع القلاع ، وغنم المسلمون الاموال ، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا خمسة آلاف رجل (٦) . ومن المرجح أن الهجویری كان بين الأسرى ، فقد أشار في كشف المحجوب إلى أنه وقع أسيرا في لاهور حيث شغل بتأليف كتابه (٧) .

-
- (١) « زين الأخبار » ص ٨٧
(٢) الكامل : حوادث سنة ٤٣٢ ، « زين الأخبار » ص ٨٧ ، « طبقات ناصري » ص ٢٣٤
(٣) « زين الأخبار » ص ٨٨ - ٨٩ ، « الكامل » حوادث ٤٣٢ .
(٤) « الكامل » : حوادث ٤٣٥ .
(٥) « جامع التواريخ » رشيد الدين فضل الله : أنقره ١٩٥٧ ، المجلد الثاني ج ٤ ص ٢١٧
(٦) « الكامل » أنظر حوادث ٤٣٥ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

وتوفى السلطان مودود سنة ٤٤١ هـ (١) .

وتوالى على عرش غزنة بعد مودود : « محمود بن مودود » ، و « على ابن مسعود » . ولما لم تكن لهما دراية بأمور الحكم فقد خلعا وسجنا ، وجلس على العرش بعدهما عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين (٤٤١ هـ - ٤٤٤ هـ) (١) .

ثم تولى عرش غزنة من بعده : « فرخزاد بن مسعود » (٤٤٤ - ٥١١ هـ ١٠٥٢ - ١٠٥٩ م) الذى استطاع هزيمة السلاجقة وأسر قائدهم فى إحدى المعارك التى دارت بين الدولتين ، فلم يفكر السلاجقة فى مهاجمة غزنة طوال فترة حكم فرخزاد . وتوفى فرخزاد عام ٥١١ هـ (٢) ، وتولى بعده : « ابراهيم بن مسعود » (٥١١ - ٥٩٢ هـ / ١٠٥٩ - ١٠٩٨ م) ، فأحسن السيرة واستعد لجهاد الهند ، وفتح حصونا امتنعت على أبيه وجده ، منها قلعة آجود (٤) . وقلعة يقال لها روبال (٥) .

وتميز عصر ابراهيم بالمهادنة مع السلاجقة ، وسعى « داود » السلجوقى لعقد صلح معه ، ووقع بذلك عهدا ، وثبت عليه ابنه ألب أرسلان الذى تولى بعده (٦) . وزوج ابراهيم ابنه من ابنة ملكشاه السلجوقى ، وبهذه المصاهرة أمن جانب السلاجقة . وطالت مدة حكمه ، وأعاد لدولة محمود رونقها ، وعمر كثيرا من الأماكن ، وحكم ٤٢ سنة .

وفى خلال فترة حكم السلطان ابراهيم توفى الهجویری حوالى سنة ٤٦٥ هـ . ، وقام السلطان ببناء ضريح له (٧) .

وتوالى على عرش غزنة بعد وفاة السلطان ابراهيم سنة ٥٩٢ هـ : « مسعود بن ابراهيم » و « أرسلان نشاه بن مسعود » و « بهرامشاه ابن مسعود » الذى دعا للسلاجقة على منابر غزنة ، ولذلك يعتبر يوم جلوس بهرامشاه تاريخا لسقوط غزنة فى أيدي السلاجقة (٨) .

(١) « الكابل » انظر حوادث ٤٤١ .

(٢) « طبقات ناصرى » ص ٢٣٥ .

(٣) « الكابل » انظر حوادث سنة ٥١١ .

(٤) « جامع التواريخ » ج ٤ ص ٢١٨

(٥) « الكابل » انظر حوادث سنة ٤٧٢ ، سلطنت غزنويان : خليلي : كابل ١٣٣٣ ص ٢٤٨

(٦) « طبقات ناصرى » ص : ٢٣٩ .

(٧) تذكرة على هجویری ص ٤٩ .

(٨) سلطنت غزنويان . ص ٢٥٤ .

ويتميز عصر بهرامشاه بالنزاع مع ملوك الغور الذين ازداد خطرهم ، واستطاعوا أن يسيطروا نفوذهم على غزنة واقليم كابل ، بل انهم تعقبوا خسروشاه بن بهرامشاه الغزنوى وابنه بهرامشاه الثانى آخر سلاطين الدولة الغزنوية وطاردوها حتى قتلوها ، وبذلك انتهت سيرة دولة الغزنويين التى عمرت قرنين من الزمان ، ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد اقدام المسلمين فى أرض الهند .

ثانيا : الناحية الثقافية :

يعتبر العصر الغزنوى من ازهى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة الشرقية الاسلامية . وقد أجمع المؤرخون والنقاد على أن النهضة العلمية والأدبية برزت فى ذلك العصر على نحو لم يسبق له مثيل ، وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) الذى استطاع أن يجعل من قصره فى غزنة مركزا للنشاط العلمى والأدبى، كانت ترنوا اليه الأنظار ، وتشخص اليه الأبصار (١) .

وكانت هناك فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب اليها رجال العلم والأدب وهى :

قصر « صاحب بن عباد (٢) » فى اصفهان والرى .

قصر « السامانيين » فى بخارى .

قصر « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان .

قصر « المأمونيين » فى خيوه .

ولكن حدث فى الفترة ما بين ٣٨٧ : ٤٠٨ هـ، أن توفى صاحب بن عباد ، وزالت الدولة السامانية من الوجود ، وقتل قابوس بن وشمكير ومأمون الثانى ، واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك ، وبواسطة الفتح والغزو أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون هؤلاء الأمراء (٣) .

(١) تاريخ الادب فى ايران : ادوارد براون . ترجمة ابراهيم امين الشواربى القاهرة ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٤ م ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) « صاحب اسماعيل بن عباد » وزير البويهيين المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، ورد عنه أنه كان يملك من كتب العلم ما يحمل على أربعمئة جيل أو أكثر وكان فهرس كتبه يقع فى عشر مجلدات (انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » آدم ميتز : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٣) .

(٣) « تاريخ الادب فى ايران » براون ص ١١٧ — ١١٨ .

ومن المشهور عن بلاط السلطان محمود في غزنة أنه كان يجتمع فيه من أهل الأدب زهاء أربعمائة (١) ، من بينهم مجموعة من الشعراء الكبار ، أمثال « عنصرى » و « فردوسى » و « أسدى » و « عسجدى » و « غضائرى » و « فرخى » (٢) . وكان السلطان محمود يصطحب معه في غزواته بعض هؤلاء الشعراء فكانوا يصفون المعارك والأحداث ، ويسجلون الوقائع والغزوات .

وقد خلف هؤلاء الشعراء والأدباء دواوين رائعة تزخر بالمدائح لهذا السلطان ، والفوا المؤلفات المسددة في محامده ومآثره ، نظماً ونثراً ، باللغتين العربية والفارسية ، ألف أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتقى تاريخه المعروف بتاريخ العتقى (٣) وأتم الفردوسى شاهنامته التى تعد أروع دليل على روح الأسلوب الملحمى الفارسى في قمة اكتماله .

لم تكن عناية السلطان محمود بالعلوم أقل من عنايته بالأدب ، فكان يحرص على أن يضم إلى بلاطه في غزنة النابهين من العلماء ، ولم يدخر وسعاً في استقدامهم إليه حتى أنه كما يلجأ إلى الترغيب تارة والترهيب تارة (٤) . وقد نجح في أن يضم إليه « العراق » و « الخمار » و « البيرونى » وكان كل من هؤلاء أماماً في فنه ، فقد كان أبو نصر العراق الثانى لبطليموس في العاوم الرياضية ، وأبو الخير الخمار الثالث لبقرات و « جالينوس » في الطب (٥) ، وأما أبو ريجان البيرونى فكان عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء في العالم الإسلامى كله . وقد التحق ببلاط السلطان محمود بعد مقتل مأمون الثانى ، ومن غزنة قام البيرونى بعدة رحلات علمية في الديار الهندية وتعلم اللغة السنسكريتية ، وألف كتابه الشهير عن الهند (٦) الفريد في الأدب العربى ، والذى أدى للدراسات الأوروبية خدمة جليلة أيضاً (٧) .

وكان السلطان محمود يطمح في أن يضم إلى بلاطه « ابن سينا » ولكنه فر (٨) وظل محمود يأسف لفراره طويلاً .

(١) « شعر النجم » شيلى نيماسى ترجمة : محمد تقى فخر دأى كيلانى طهران ١٣١٦
أنظر ج : ١ ص ٣٦

(٢) السابق « ص ٢٨ » .

(٣) تاريخ العتقى : قام بشرحه أحمد المنين ويعرف بتاريخ يمينى .

(٤) جهاز مقاله « نظامى عروضى سمرقندى ليدن » ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م ص : ٧٧

(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٦

(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في القول أو مردولة » أنظر « سبك شناسى »

بهار : طهران ١٣٢١ هـ ش ج ٢ ص ٢٨ حاشية ٢١

(٧) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٢١

(٨) جهاز مقاله ، ص ٧٧

ومما يدل أيضا على عناية السلطان محمود بالعلوم والآداب ، تلك المدرسة التي ألحقها بجامع غزنة وكانت تعرف بدار العلم ، وأسس فيها مكتبة جمع فيها جميع المؤلفات القديمة والنادرة التي لم يتوفر وجودها إلا في غزنة (١) .

ولم تكن العناية بالعلوم والآداب مقصورة على السلطان محمود وحده ، فقد كان ابنه السلطان مسعود يهتم بالشعراء والأدباء ، ويصلهم بصلات كبيرة ، قال عنه ابن الأثير أنه كان محبا للعلماء ، كثير الإحسان اليهم والتقرب لهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلم ، وأجاز الشعراء جوائز عظيمة ، أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم (٢) .

ثالثا : الناحية الدينية :

كان المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين : أهل السنة ، والشيعة ، فالخلفاء العباسيون في بغداد ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة ، والفاطميون في مصر والشام والمغرب ، وبنو بويه في العراق شيعيون يتعصبون للشيعة ، وكان الخلاف قائما على أشده بين الكتلتين .

وفي القرن الخامس الهجري كثرت انفرق الإسلامية واشتد النزاع بينها ، ولم يعد الخلاف مقصورا على أهل السنة والشيعة ، بل تعدى ذلك الى أهل السنة فيما بينهم ، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية ، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض ، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والإسماعيلية ، وأيضا النزاع والجدل بين المذاهب السنية ، الى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهي أحيانا بالعراك والقتل والنهب والحرق (٣) .

ولم تكن الدولة الغزنوية بمعزل عما يجري في العالم الإسلامي ، فقد كان الغزنويون يعشقون مذهب أهل السنة ، ويدينون بالولاء للعباسيين أصحاب هذا المذهب ، ويشاركون فيما يجري حولهم من أحداث .

(١) نسر المجمع ج ١ ص : ٢٥

(٢) « الكابل » : حوادث ٤٢٢ .

(٣) « تاريخ تصوف در اسلام » قاسم غنى : طهران ١٣٢٢ هـ ش ، ص ٤٦٨ .

وعلى الرغم من أن الدولة التي سبقت الفزنويين في إيران ، وهى الدولة السامانية . كانت أيضا تنتمى الى المذهب السنى ، وتدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، الا أنها كانت تهادن المخالفين لمذهبيها ، حتى أن الاسماعيليه بلغوا شيئا من النفوذ فى عهد نصر بن أحمد السامانى . وربما كان هناك أثر للنعصب المذهبى فى بعض نواحى إيران ، مثل نيسابور ، الا أن الحكومات لم تكن تتدخل فى هذه الأمور (١) . غير أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير فى القرن الخامس ، وأخذ الملوكة والحكام يتدخلون بالتدريج فى هذا الصراع . وكان السلطان محمود الفزنوى أول ملك من ملوك إيران نكل بالمخالفين لمذهبه (٢) . وقد بلغ من تعصبه للمذهب السنى الذى كان يعتنقه ، أن امتثل لأمر الخليفة العباسى « القادر » ، وشن حربا لا هوادة فيها على المعتزلة والفلاسفة والاسماعيليه والقرامطة وأعمل فيهم القتل والصلب ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم . وجعل كثيرا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران (٣) . واعترف هو نفسه بهذا ، فقال أنه أدخل أصبعه ، من أجل العباسيين ، فى كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة (٤) .

وفى ذلك الوقت كانت مذاهب أهل السنة بعضها يتجه الى الضعف وبعضها يتجه الى الانتشار والرواج . وكان القبول من المذاهب الأصلية فى جميع الممالك الإسلامية : « المالكية » و « الحنفى » و « الشافعى » ، وكان رواج المذهبين الشافعى والحنفى أكثر من غيرهما فى إيران . وقد ورد عن السلطان محمود أنه كان يعتقد المذهب الحنفى ، ولم يلبث أن تحول عنه الى المذهب الشافعى ، يقول ابن خلكان : « وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعى فوقع فى خلده حكمه » (٥) .

وكان الشيوخ والأئمة والحكماء يجتمعون فى بلاط غزنة ويتجادلون حول

(١) « تاريخ أدبيات در ایران » دبیح الله صفا : طهران ١٣٤٢ هـ ش ١ ص ٢٠٢

(٢) « السابق » ص ١٣٧ .

(٣) « لما أغار السلطان محمود على الرى » سنة ٤٢٠ هـ استخراج من بيت كتب « الصاحب » كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه (« ميز » ج ١ ص ٢٤٦) . وظلع « محد الدولة » وأمر بنعه فى خراسان ، وأسع ذلك بصلب جماعة من الساطنية وتشريد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجيين . أنظر « الكامل » حوادث ٤٢٠

(٤) « تاريخ البوتى » ص ١٩٤ .

(٥) « وفيات الاعيان » : ابن خلكان ج ٢ ص ٨٦

المذاهب بين يدى السلطان . ويبدو أن الهجویری كان یشارك فی هذه المجادلات ، فقد ورد فی « رسالة ابدالية » انه تجادل مرة مع واحد من حکماء الهند فی مجلس السلطان محمود وأفحمه تماما (١) .

وأشار الهجویری فی كشف المحجوب انی مجادلة وقعت فی بلاط غزنة بینہ وبين واحد ممن كانوا يدعون الامامة والعلم فی مسألة تتعلق بالتصوف (٢) .

وعلى الرغم من أن الصوفية كانوا خصوما الداء للفهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه تعبیرا قاسیا فكانوا یسمونه عام الدنيا (٣) ، إلا أن شیوخ القرنين الرابع والخامس الهجريين ، نظرا لمعاصرتهم للحكام السنيين المتعصبين ، أخذوا یسعون لتحصيل علوم الظاهر (٤) واتجهوا لتألیف الكتب ، فبدأ فی القرن الرابع الهجرى تألیف الكتب فی مقامات الصوفية وشرح أسس التصوف ، بحيث وجدت فی اواخر هذا القرن كتب قيمة مثل « اللمع » و « النعرف » و « قوت القلوب » ، وجميعها مؤلفة باللغة العربية .

(١) «Bulletin of the School of Oriental Studies» London, 1926.

نقلا عن : « رسالة ابدالية » یعقوب بن عثمان جرجی

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ١١٥ .

(٣) « الحضارة الاسلامية » : میتر ج ١ ص ٢٦٦

(٤) « سبک شناسی » ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثانى

« التصوف فى عصر الهجويرى »

تمهيد :

اتجه كثير من المستشرقين والباحثين فى أصل التصوف الى رده لعوامل خارجية بعيدة عن البيئة الاسلامية ، فمنهم من أرجعه الى أصل هندي ، ومنهم من رده الى الرهبنة المسيحية ، ومنهم من قال انه رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاه المسلمون على أهل فارس فرضا ، ومنهم من زعم انه وليد الفلسفة اليونانية . وهناك من خالف هؤلاء وقال ان التصوف الاسلامى نابع من البيئة الاسلامية والدين الاسلامى . والصوفية انفسهم يعتقدون أن طريقتهم مشيدة بالكتاب والسنة ، وانها مبنية على سلوك اخلاق الانبياء والاصفياء (١) .

والتصوف نزعة روحية تميل بالانسان عن العالم المادى وترتفع به الى العالم الروحى ، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ فى كل بيئة دينية ، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة فى تلك البيئة ، فمما لا شك فيه أن التصوف الاسلامى جزء من الاجزاء التى يتألف منها التراث الدينى والعقلى والنفسى للاسلام ، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الاسلامية لعوامل النشوء والارتقاء ، وأن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، ومظهر من مظاهر هذا الدين ، وما أحاط به من ظروف ، وما دخل فيه من شعوب ، وليس شبيها اجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الاسلامى وروحه وتعاليمه .

على اننا يجب ألا ننكر وجود مؤثرات خارجية ساعدت على نموالتصوف الاسلامى وتطوره ، فقد تعاونت العناصر الروحية الوافدة على البيئة الاسلامية مع العوامل الدينية التى كانت موجودة فى تلك البيئة ، وعملت

(١) « الطبقات الكبرى » : الشعرانى القاهرة ١٣١٦ هـ ج ١ ص ٢

معها على تطوير التصوف وبلوغه النضج والكمال ، وان كان هذا فيما بعد نشأته الأولى .

(١) نشأة التصوف الاسلامى والمراحل التى مر بها حتى عصر الهجورى :

نشأ التصوف الاسلامى نشأة اسلامية ، فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وكان قوامه الانصرافا عن الدنيا ومتاعها ، والعناية بأمور الدين ، ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع اليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان الله والنجاة من عقابه .

وكان زهد الزهاد والعباد فى صدر الاسلام معتدلا ، بمعنى أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويرعون أوامر الدين والشرع بكل طاقتهم ، ويحافظون عليها بأرواحهم .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ظهر من بين الزهاد أفراد يحيون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة فى الزهد ، وترك متاع الدنيا ، ورياضة النفس ، فكان لا بد أن يتسموا باسم خاص ، فأطلق عليهم اسم الصوفية . وكان تصوف هؤلاء امتدادا لزهد ومسلك زهاد القرن الأول مع شيء من المبالغة ، فقد قطعوا فى طريق الزهد مراحل أبعد من زهاد القرن الأول ، الا ان المتأمل فى أقوالهم لا يجد فيها شيئا من العناصر الأساسية للتصوف مثل المحبة والفناء ووحدة الوجود ، والشخص الوحيد الذى تحدث من بينهم عن المحبة الالهية هو « رابعة العدوية » (١) المتوفاه سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وبظهور رابعة تطور مفهوم التصوف ، فقد أصبح الزهد وسيلة من الوسائل التى يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلى .

وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين وصل التصوف الى مرحلة النضج ، وأخذت المسائل الصوفية التى ظهرت أول الامر غامضة ساذجة تتضح وتدى ، ذلك أن العناصر الغريبة التى بدأت تتسرب الى الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى أخذت تنفذ الى التصوف وتتفاعل معه . وكان من نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم التصوف وأصبح شيئا جديدا لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة ، ولا يقنع فيه الإنسان بالمشاهدة ، وانما تجاوز هذا

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٣١

كله الى غاية أسبى هى فناء الانسان عن نفسه ، ويقاؤه بربه ، واتحاده به .

والمقابل فى اقوال صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين يلمس تحولاً فكرياً طرأ على مفهوم التصوف ، فقد ظهرت فى اقوالهم أفكار جديدة ، واصطلاحات وتعبيرات خاصة ، بعضها يتعلق **بالجانب النظرى للتصوف** : من تحديد لمعالم الطريق ، وترتيب للمقامات والاحوال . وكان من الرواد الأوائل فى هذا المجال « ذى النون المصرى » (٢٤٥ هـ) و « سرى السقطى » (٢٥١ هـ) ، فيعزى الى ذى النون انه أول من تكلم فى مصر فى الاحوال والمقامات (١) ، والى سرى انه أول من تكلم فى بغداد فى ترتيب المقامات وبسط الاحوال (٢) . وبعضها يتعلق **بالجانب النفسى والوجدانى** الذى يرمى الى الفناء فى الله ، واتحاد المحب والمحبوب ، ومحو الوجود المجازى فى الوجود المطلق الحقيقى . ونشأ عن هذا ، القول بوحدة الوجود ، وان الموجود الحقيقى هو الله ، وأن ما سواه عدم محض .

وكما كان الحب طابعاً للزهد الذى عرف عند رابعة فى القرن الثانى الهجرى فقد أصبح هذا الحب من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرن الثالث ، فأقوال « معروف » و « الجنيد » و « ذى النون » تشتمل على هذه الكلمة ، وظهر فى القرنين الثالث والرابع رجال عرفوا بنظريات فى المحبة ، منهم « المحاسبى » و « التستري » و « سمنون » و « الشبلى » وغيرهم ، وبلغت فكرة الحب الالهى ذروتها عند أصحاب وحدة الوجود أمثال أبى يزيد البسطامى والحسين بن منصور الحلاج .

ومن الموضوعات التى تطرقت الى التصوف فى هذه الفترة أن روح أحكام الشريعة وباطنها أهم من شكلها وصورتها الظاهرية ، وأن النية مقدمة على العمل ، وأن السنة خير من الفرض ، وأن الطاعة خير من العبادة . وقد أثارت هذه الأقوال انتباه الناس فى تلك الوقت واسترعت أنظارهم ، وخصوصاً طبقة الفقهاء الذين عدوا هذه الأقوال خطراً على المجتمع الإسلامى ، واتهموا الصوفية باختلاق البدع تارة ، وبالكفر والالحاد تارة (٣) . كما جرت عليهم اقوالهم فى المحبة والاتحاد والحلول سخط الفرق الإسلامية الأخرى .

(١) « فى التصوف وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى ص ٧

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٣٧

(٣) « تاريخ تصوف » ص ٥٢

وبالنسبة للفقهاء ومواقفهم من الصوفية، قد شهد القرن الثالث الهجري بداية الصراع بين هاتين الطائفتين . ويرجع النزاع بينهما الى أن أحكام الشريعة في أول عهد الاسلام كانت تؤخذ بالرواية ، لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات ، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمي ، ويدونون ما يناقشون فيه . وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه يناقشون في تدارسه والعمل بأحكامه ، حتى أن كثيرا من المسلمين كانوا يظنون الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين (١) .

ثم ظهر أمر الصوفية ، وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية ، فقد كانوا يرون أن الدين أصبح في عرف الفقهاء جملة من رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها ، وأن الكمال الديني يكمن في البحث في المعاني الباطنية للأحكام بالإضافة الى معانيها الظاهرية : ومن هنا ظهر علم التصوف ، أو بمعنى آخر ، انقسم علم الشريعة الى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعنى الصوفية بالباطن ، وأصبح لكل من الطائفتين وجهة نظرهم الخاصة في ماهية الدين (٢) .

وكان من الطبيعي أن يقع الصدام بين الطائفتين لاختلاف وجهتي نظرهما وما لبث الفقهاء أن أعلنوا عن عدائهم للصوفية، فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة . وقد حفظت لنا الكتب المتقدمة أخبار سلسلة من الاضطهادات التي لاقاها الصوفية على أيدي الفقهاء ، حتى أن مجموعات كبيرة من شيوخ الصوفية سيقوا الى المحاكمات وحكم عليهم بالموت ، واستطاع بعضهم أن يفلت من العقوبة ، وراح البعض الآخر ضحية لهذا التعصب .

وقد ظهر اضطهاد الفقهاء للصوفية على أشده فيما عرف بمحنة الصوفية ببغداد ، أو محنة غلام الخليل (٣) ، وهي المحنة التي فر على أثرها أبو سعيد الخراز الى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا

(١) « النصوص الثورية الروحية » ص ١١١ - ١١٢

(٢) « النصوص الثورية الروحية » ص ١١٣

(٣) « هو أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس » . ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ولكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء . وقد وصفه الهجويزي بالكر والشعوذة والحقد على الصوفية (انظر كشف المحجوب ص ١٧٢ وما بعدها)

بالزندقة ، من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم بالموت ، وكاد الحكم ينفذ في بعضهم ، ثم أفرج عنهم (١) . إلا أن هذا الاضطهاد بلغ ذروته في المأساة التي ذهب ضحيتها الحسين بن منصور الحلاج ، فسجن وعذب وقتل ، وكان مقتله بافتاء من الفقهاء وأن بدا بأمر الخليفة .

وبالنسبة للفرق الإسلامية الأخرى التي أظهرت عداها للصوفية ، فمنها : « الإمامية » في القرن الثالث ، الذين أنكروا كل نزوع إلى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضرباً من الحياة الشاذة . ومنها « الحشوية » ، الذين أخذوا على التصوف أنه يغذى الفكر ، ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ، ويحماهم على طلب الخلعة مع الله ، فيستبيحون اغفال الفرائض . و « المعتزلة » ، الذين كانوا يستكرون العشق الإلهي لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والطلول (٢) .

وقد كان من نتيجة هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتشبهون أكثر من ذي قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية ، وأنشغلوا بالتأليف والتصنيف ، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلاح الكتاب (٣) . ولعل علم التصوف أصبح علماً مدوناً في هذه الفترة ، فقد بدأ في القرن الرابع الهجري تأليف الكتب في مقامات الصوفية ، وبيان أنواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجيد ، والفت في هذه الفترة كتب قيمة مثل « اللمع » لأبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) ، « والتعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذي (٣٨٠ هـ) ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكي (٣٨٦ هـ) .

وقد انتشر الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وأخذوا ينظمون أنفسهم في جماعات وفرق لها طرقتها الخاصة وشيوخها وسالكوها . وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف (٤) في هذه الفترة ، لكل منها طابع معين . وقد عدد لنا الهجویری الفرق الصوفية أو — المدارس الصوفية بالنعير الحديث — التي وجدت في هذه الفترة باثني عشرة فرقة . ونسب كل واحدة منها إلى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين .

(١) (أنظر : الرسالة الغشبية ج ٢ ص ٥٠٣)

(٢) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : « تصوف » .

(٣) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٥٤

(٤) « التصوف النورة الروحية » : أنظر ص ٩٤ وما بعدها .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد حفلا بكثير من الشخصيات الصوفية الفذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية التي سوف نتعرف عليها من خلال الباب المتمع الذي أفرده الهجویری فی كشف المحجوب للحديث عن الفرق الصوفية (١) .

وقصارى القول ، أن الصرح المتكامل للتصوف الإسلامی اذی خلد على مر الزمان وبدا متین الأساس شامخ البنيان ، قد أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا فی القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ووضع كل منهم ابنة فی هیکله حتى اكتمل البناء . وإذا كانت هناك تغيرات طرأت على التصوف بعد ذلك فإن أكثر هذه التغيرات يرجع الى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر والأشكال ، أما الأساس فقد ظلت ثابتة حتى الآن .

(ب) التصوف فی عهد الهجویری (التصوف فی القرن الخامس الهجری) :

كان العالم الإسلامی فی القرن الخامس الهجری تسوده الاضطرابات والمنازعات فی النواحي السياسية والدينية والعلمية ، وفى الناحية السياسية كانت الخلافات مستمرة بين الخلفاء العباسيين فی بغداد ومن يوالونهم من الحكام السنيين كالغزنويين والسلاجقة فی ایران ، وبين الفاطميين فی مصر وأتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا فی أنحاء كثيرة من العالم الإسلامی ، وخصوصا فی ایران . وفى الناحية الدينية كانت الخلافات المذهبية على أشدها ، وكثر النزاع المذهبى بين الفرق الإسلامية ولم يكن هذا النزاع مقصورا على السنة والشيعة بل تعدى ذلك الى المذاهب السنية فيما بينها . أما الناحية العلمية فلم تكن أحسن حالا ، فقد سرت العداوة والبغضاء بين أهل العلم ، واستحكمت الخلاف بين الفقهاء والفلاسفة بحيث انقرض البحث الحر ، وركد كل ما كان مخالفا للدين والسياسة (٢) .

وعلى الرغم مما أوجده هذه الاضطرابات والفتنة والمنازعات من أثر سبىء فی شتى المجالات ، إلا أنها أحدثت نتائج عكسية فی مجالين ، هما : المجال الصوفى ، والمجال العلمى .

ففى المجال الصوفى ، ساعدت هذه الاضطرابات على انتشار التصوف انتشارا كبيرا ، وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب ، فإن اضطراب الحياة السياسية ، وتفرق الناس فی مذاهبهم شيعة وأحزابا ، وجنوح كل فريق

(١) « انظر : الباب الرابع عشر من كشف المحجوب » .

(٢) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٤٧٠

الى التعصب ، أشاع في الناس اليأس والقنوط ، وملأ نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف .

ومن ناحية أخرى فإن الانتشغال بالاضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هيا الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم . وكان لبعدهم عن الجدالات المذهبية أثر كبير في احترام الناس والامراء والسلاطين لهم ، مما أدى الى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة (١) . وقد ظهرت في هذا القرن جماعة من كبار شيوخ الصوفية في العالم الاسلامي عامة ، وفي ايران خاصة ، فكان هناك في النصف الأول من القرن الخامس أمثال السلمي والخرقاني وأبي سعيد بن أبي الخير وأبي القاسم الجرجاني والقشيري وغيرهم ممن يرجع اليهم الفضل في تربية جيل من التلاميذ والمريدين الذين صاروا اعلاما في تاريخ الحياة الروحية في القرون التالية .

على أن انتشار التصوف في هذه الفترة ساعد على أن اندس بين الصوفية كثير من الادعياء والصوفية المزيفين الذين انضموا الى صفوف الصوفية اما لحماية أنفسهم ، واما طمعا فيما كان يتمتع به هؤلاء من احترام وتقدير . وقد قام هؤلاء الادعياء بترويج البدع والخرافات ، ودعا بعضهم الى التحرر من التقاليد الاسلامية ، واسقاط التكاليف الشرعية ، وروج بعضهم العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية ، الأمر الذي اساء الى الصوفية وألقى ظلالة قاتمة على التصوف .

اما المجال العلمي ، فإنه بالرغم مما أحدثته هذه الاضطرابات من ظهور الفرقة بين الطوائف المختلفة ، قد كان لها أثر كبير في ايجاد نهضة علمية واسعة ، اذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلح القلم ، وظهرت كثير من المؤلفات التي ألفها المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة (٢) .

وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ، فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك الوقت ، وتركزت هذه الحركة بصفة خاصة في خراسان التي أصبحت أكبر مركز للتصوف في العالم الاسلامي .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى أن اقليم خراسان الفارسي كان مهد الكتابات لصوفية ، وموطن كبار العلماء الذين ألفوا في التصوف الاسلامي مثل أبي

(١) « سلاجقة ايران والعراق » عبد النعيم حسنين : القاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١

(٢) « سلاجقة ايران » ص ١٩٢

نصر السراج الطوسي ، وأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، وأبى القاسم القشيرى النيسابورى ، وحجة الاسلام الامام الغزالى الطوسى .

ومن أهم الكتب الصوفية التى الفت فى القرن الخامس الهجرى كتابان ألفا فى التصف الأول منه ، وهما : « الرسالة » و « كشف المحجوب » .

والرسالة ألفها بالعربية « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى » وشرح فيها الاسس الصوفية واحوال المتصوفة . وآراؤه فيها مثل للتوسط والاعتدال (١) .

وكشف المحجوب ألفه بالفارسية «أبو الحسن على بن عثمان الهجویری» وسلك فيه مسلك معاصره القشيرى فى الاعتدال ، فهو يربط فى كتابه بين الشريعة والحقيقة ، ويبين أن الشريعة بدون الحقيقة ليست الا رياء ، وأن الحقيقة بدون الشريعة ليست الا نفاقاً (٢) .

والواقع أن القشيرى والهجویری كانا من الرواد الأوائل وكانت لهما جهودها التى لا تنكر فى سبيل إعادة التصوف الى سيرته الأولى وتنقيته مما علق به من شوائب ، فقد ألفا كتابيهما فى وقت كان التصوف فيه قد بلغ حدا جعل الكثيرين يأخذون أنفسهم بالازورار عنه ، والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن اليه ، والقاء الشبهات على تعاليمه ، فقد كان ينظر الى التصوف ومثثذ على انه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه بعض الصوفية من التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف فحسب، وانما كانت ناشئة أيضا عما كان هناك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية (٣) .

وقد كان لهذه الحال اثرها العميق فى نفوس المخلصين من مفكرى الصوفية أمثال القشيرى والهجویری ، وان من يقرأ مقدمة « الرسالة » و « كشف المحجوب » يقف على مدى أسف مؤلفيهما لانهيار التصوف فى عصرهما ، ولهفتهما على العودة به الى سابق عهده ، ويلمس الحرارة والاخلاص فيما كتبه كل منهما، والأمل الذى راودهما فى زوال النكسة التى حلت بالتصوف ، هذا الأمل الذى دعاها الى تأليف كتابيهما . كما يقف فى نفس الوقت على مدى العلاقة الوثيقة بين هاتين المقدمتين ، فقد عالج المؤلفان بعمق ،

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٦

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٩٩

(٣) « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى طهى ، القاهرة ١٩٤٥ : انظر ص ٢٢١

نفس الموضوع ، وانفقا على التفاصيل ، بل وفي استخدام نفس التعبيرات ،
وان كانت المعالجة على أساس مختلف :

فالتشيرى يعالج الموضوع على أساس انقراض الممثلين الحقيقيين
للتصوف ، وان كان لا يفكر وجود التصوف ، فهو يقول :

« اعلّموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقراض اكثرهم
ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا اثرهم ، كما قيل :

اما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساها

حصلت الفترة في هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة .
مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم
وسنتهم اقتداء » (١) .

ويذكر التشيرى ان هذا هو السبب الذى دعاه لان يؤلف رسالته
ويضمنها سير الشيوخ السابقين ، مبينا آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم
وعقائدهم ومواجيدهم ، لتكون نبراسا لجيل جديد من المريدين الصائقين .

يقول : « فعلقت هذه الرسالة اليكم ، اكرمكم الله ، وفكرت فيها
بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وعقائدهم
بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيتهم من بدايتهم الى
نهايتهم ، لتكون لريدى هذه الطريقة قوة » (٢)

واما الهجويرى ، فيعالج نفس الموضوع على أساس الاختفاء التام
للعلم التصوف في زمنه ، وخصوصا في المنطقة التى يعيش فيها ، وأنه لم
يبق منه الا صورة مشوهة مخالفة للأصل .

يقول : « اعلم أن هذا العلم قد اندرس في الحقيقة في زماننا ، وبخاصة
في هذه الديار حيث انشغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق
الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه
الطريقة على خلاف أصلها ، فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدي أهل
هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد
أهل الإرادة ، وانعزلت من وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة

(١) « الرسالة » ج ١ ص ٢٠

(٢) « السابق » ص ٢٢

الحق ، ورضى خاصة الخلق وعامتهم من ذلك بالعبارة ، واشتروا حجابهم عنه بالروح والقلب ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد «(١) .

فهذه الصورة المشوهة للتصوف هي التي دفعت الهجویری لأن يرسم في كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية ، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة ، ويوائم بين التكاليف الشرعية والمعاني الصوفية التي تنطوي عليها ، ويتصدى لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا الى التصوف والصوفية .

وقد كان لهاتين المحاولتين من القشيري والهجویری اثرهما في تنبيه الأذهان الى الخطر الذي حاق بالتصوف ، والدعوى الى تنقيته وتصفيته مما لحق به من شوائب . وقد قیض لهاتين المحاولتين الصادقتين أن تؤتيا اكلهما على يد الامام الغزالي الذي جاء بعدهما وبذل جهده لادخال التصوف في صلب الاسلام السني ، وأصبح كتابه « احياء علوم الدين » الذي ألفه في أواخر القرن الخامس مصدرا للتصوف السني بغير جدال (٢) .

واذا كان الفضل يرجع للغزالي في اقامة التصوف الذي يعتبر أبلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السني (٣) ، فقد كانت للقشيري والهجویری جهودهما التي لا تنكر في الدعوة الى هذا الاصلاح وتهيئة الجو له .

ومن المميزات التي تميز بها التصوف في هذه الفترة أن نفوذ التصوف بدأ يظهر في الشعر الفارسي وأخذ هذا النفوذ يزداد قوة على مر الأيام ، وأصبح للشعراء الصوفية في القرن الخامس لسان مرموز ، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس الفاظ ومصطلحات القرن الرابع ، إلا أنهم استعملوها على سبيل الكنايات والاستعارات ، فالله عندهم هو « الحبيب » و « المعشوق » و « المحبوب » ، والوجد الحاصل من التفكير فيه : هو « الخمر » و « الخمار » ، والظاهر والباطن منه عبارة عن « طلعتة المنيرة » أو « طرته السوداء القائمة » ، وما الى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة (٤) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٧

(٢) « تاريخ الفلسفة العربية » حنا الفاخوري : بيروت ١٩٥٧ . ص ٣٤٨

(٣) « تاريخ الادب في ايران » ج ٢ ص ٣٦٨

(٤) « تاريخ الادب في ايران » براون ج ٢ ص ٣٣٤

وكان أبو سعيد بن أبي الخير أول من استعمل هذا اللسان المرموز من شعراء الصوفية في إيران . ويعزى إليه أنه أول ما ابتدع الشعر الصوفي ، ويعتبر في ذلك إماما لمن جاء بعده من شعراء الصوفية الكبار في إيران أمثال « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » .

وقد استقر صوفية القرن الخامس في الخانقاهات التي بدأت في الانتشار منذ القرن الرابع الهجري ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ في أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الإسلامي . وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات في خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من إيران (١) ، ووضعوا نظاما معيناً للحياة فيها ، وكان يقوم بإدارة كل واحدة منها شيوخ من شيوخ الصوفية المعروفين في هذه الفترة . ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبي الخير الذي يعتبر أول من شرع نظام الحياة في الخانقاهات ، وأدار عددا منها ، واعتلى المنبر في نيسابور ، وعقد المجالس ، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرض حياته للخطر في بعض الأحيان (٢) . وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية في خراسان ، مستقرا في نيسابور وموطنه « ميهنه » تارة ، ومتنقلا ما بين « طوس » و « خرقان » و « مرو » تارة أخرى ، وتجمع حوله المريدون من كل مكان ، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة .

والواقع أن أبا سعيد قاد حركة صوفية واسعة النطاق في إقليم خراسان في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وخصوصا بعد انقضاء فترة الفزنويين الكبار وظهور أمر السلاجقة في إيران ، فقد فتح الميدان أمام المتصوفة في هذه الفترة وراجت سوقهم في العصر السلجوقي .

ونجد في « راحة الصدور » و « أسرار التوحيد » اشارات الى زيارات (٣) ولقاءات (٤) بين أمراء السلاجقة وشيوخ الصوفية في عصرهم .

وقد تعاصر مع أبي سعيد عدد من شيوخ الصوفية المعروفين أمثال أبي عبد الرحمن السلمي (٤١٢ هـ) ، وأبي حسن الخرقاني (٤٢٥ هـ) ، وأبي العباس الشقاني ، وأبي الفضل الختلي ، وأبي القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) ، وأبي القاسم القشيري (٤٦٥ هـ) . وقام كل من هؤلاء بنشاط

(١) « أسرار التوحيد » تأليف محمد بن المنور : ترجمة اسمعاد عبد الهادي ، القاهرة ١٩٦٦ : انظر من ٤١ ، ٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٨٢ وغيرها .

(٢) « السابق » انظر من ٨٩ — ٩٥ .

(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة : انظر من ١٤٠ ، ١٨٢

(٤) « راحة الصدور » الترجمة : انظر من ١٦٠ — ١٦١

كبير في نشر التعاليم الصوفية في خراسان وأجزاء أخرى من إيران ،
وانشغل كل منهم بتربية عدد من المريدين الذين برزت منهم مجموعة
بلغوا بدورهم مرتبة الشيوخ ، وقاموا بتربية جيل آخر من المريدين ،
وإداروا الخانقاهات ، وقاموا برحلات واسعة النطاق لنشر التعاليم
الصوفية . ومن هؤلاء :

« أبو علي الفارمدى » (٤٧٧ هـ) شيخ حجة الاسلام الغزالي ، فقد
كان تلميذا ومريدا لكل من أبي القاسم القشيري وأبي القاسم الجرجاني ،
وتلقى الخرقة على يد هذا الأخير وخلفه بعد وفاته ، وأصبح شيخ
شيوخ خراسان (١) .

و « أبو الفتح بن سألبة » (٤٧٣ هـ) ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن
ابن سألبة البيضاوى ، وكان تلميذا ومريدا لأبي مسلم الفارسي وخواجه
على بن حسن الكرماني ، وصحب الشيخ أبا علي الداستاني ، واتخذ
ببواب كوار خانقاهها خدام فيها ثلاثين سنة ، وجاور عنده كثير من العلماء
والصالحين . وتوفي سنة ٤٧٣ هـ ودفن في خانقاهه (٢) .

و « أبو الحسن علي بن عثمان الهجویری » (٤٦٥ هـ) الذي تتلمذ
على يد أبي العباس الشقاني ، وكان مريدا لكل من أبي الفضل الختلي
وأبي القاسم الجرجاني ، والتقى بمعاصره القشيري ، وقام برحلات واسعة
النطاق في أنحاء العالم الاسلامي التقى خلالها بعدد كبير من شيوخ
الصوفية الكبار والأئمة ورؤساء المذاهب ، وجمع معلومات قيمة ضمنها
كتابه كشف المحجوب ..

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .

(٢) « شد الأزار » ص ١٨٠ - ١٨١

الفصل الثالث

التعريف بالهجويرى موطنه - أسرته - اسمه وألقابه - مولده - زواجه

موطنه :

الحديث عن موطن الهجويرى لا يقتصر على التعريف بمنطقة واحدة ، فحياته مقسمة الى ثلاث فترات ، أمضى كل فترة منها فى بقعة ، فقد ولد فى مدينة « غزنه » وأمضى بها الفترة الاولى من حياته ، ولما بلغ مبلغ الشباب تجول فى أرجاء العالم الاسلامى وزار عددا كبيرا من مدنه وأقاليمه ، ثم استقر به المقام فى مدينة « لاهور » بالهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته . ومن هنا يشمل حديثنا عن موطن الهجويرى :

١ — التعريف بمدينة غزنه باعتبارها مسقط رأس الهجويرى ، والمدينة التى أمضى بها فترة طفولته وصباه .

٢ — التعريف بمدينة لاهور باعتبارها المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته ، ومثواه الأخير .

أما الفترة التى تتوسط هاتين فئتين فيصعب أن نحدد له فيها موطننا ، لأنه لم يكن مستقرا فى بقعة معينة .

التعريف بغزنه :

عرفت « غزنه » فى التاريخ الاسلامى بأنها موطن سلاطين الغزنويين وعاصمتهم الاولى التى أصبحت فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من أشهر المدن الاسلامية والمدينة الثانية بعد بغداد ، التى ترنو اليها أنظار المسلمين فى جميع العالم الاسلامى وتهفو اليها أفئدتهم ، وتحمل من تاريخهم مركزا مرموقا ، فمنها خرجت جيوشهم الى حيث لم تبلغه فى الاسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية (١) .

(١) « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٨٥

و « غزنه » (١) التي تعرف بهذا الاسم تارة ، وعرفت باسم « غزني » و « غزنين » (٢) تارة أخرى : هي مدينة تقع في وسط الهضبات الأفغانية المرتفعة . وهذه المدينة توجد الآن على الطريق بين كابل وقندهار (٣) في أفغانستان .

وغزنة مدينة قديمة ، ورد ذكرها في كتب التاريخ والجغرافيا قبل الغزنويين . وقد ذهب إليها السائح الصيني « هيوآن تسانج » حوالي سنة ٦٤٤ م ، وسماها عاصمة « تساوكيوتو » أي « زابلستان » ، وسجل اسمها على هذا النحو : « هوسى نا » أي « غزنه » (٤) .

وقد ضبط ياقوت اسمها فقال : « غزنه » بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون ، هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء « غزنين » ويعربونها فيقولون « جزنه » ويقال لمجموع بلادها زابلستان ، وغزنه قصبته ، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند (٥) .

وكان الجغرافيون العرب يسمون الإقليم الجبلي في أعالي نهر هيلند ونهر قندهار « زابلستان » وهي البلاد التي حول غزنه ، أما المنطقة التي بين غزنه وكابل فكانت تعرف بكابلستان (٦) .

ويعرف ياقوت زابلستان بأنها كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وهي منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان ، ويقول ان العجم يزيّدون السّين وما بعدها في أسماء البلدان (٧) .

وكانت غزنه تضم في أطرافها عددا من المحلات والقرى من توابعها ، من بينها محلتين باسم « جلاب » (٨) و « هجوير » (٩) ، استوطنتهما أسرة الهجويري فانتقلت من أحدهما الى الأخرى (١٠) ، ومنهما استمد لقبه ، فهو

-
- (١) هكذا يسميها « ابن الأثير » و « النسوي » و « رشيد الدين فضل الله »
 - (٢) تسمى غزنين في : « زين الاخبار » و « تاريخ بيهقي » و « راحة الصدور » و « طبقات ناصري » .
 - (٣) « سلطنت غزنويان » : انظر مقدمة المؤلف :
 - (٤) « السابق » .
 - (٥) « معجم البلدان » ياقوت الصوى : طهران ١٩٦٥ ج ٦ ص ٢٨٩
 - (٦) « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٣٨٨
 - (٧) معجم البلدان ج ٢ ص ٩٠٤
 - (٨) « جلاب » ضاحية من ضواحي غزنة اشتهرت بنوع من المرمر النفيس
 - (٩) « هجوير » بضم الهاء وسكون الجيم : من مضافات غزنين (انظر « هدية العارفين » اسماعيل البغدادي استانبول ١٩٥١ ج ١ عمود ٦٩١
 - (١٠) « سفينة الاولياء » : دارا شكوه : لکهنو ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٨ م ص ١٦٤

يلقب بالجلابى تارة ، وبالهجویری تارة أخرى ، وكثيرا ما يضاف كلاهما الى اسمه فيقال له : الجلابى الهجویری (١) .

ولا يوجد فى مدينة غزنه حاليا أو على مقربة منها موضع باسم جلاب أو هجویر ، وقد قام السيد « حبيبى » منذ سنوات بزيارة ضريح الشيخ عثمان والد الهجویری ، وذكر أن هذا الضريح يوجد الآن فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه ، وأنه ربما كانت واحدة من المملكتين السابقتين تقع فى موضع أربابها غير أن دورة الأيام محت اسمها أو بدلتها (٢) .

ويبدو أن الهجویری كان يحب موطنه غزنه حبا جما ، وظل برغم رحلاته العديدة مرتبطا بهسقط رأسه يحمل له الاعزاز والتقدير ، فهو لا يذكر اسم غزنین الا بقوله : « غزنین حرسها الله » (٣) . وقد أبدى أسفه لأنه عندما كان يؤلف كتاب كشف المحجوب ، فى مدينة لاهور ، لم يكن فى متناول يده كتبه ومراجعته التى كان قد تركها فى غزنین (٤) .

التعريف بلاهور :

تعتبر « لاهور » الموطن الثانى للهجویری ، فهى المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته وتوفى بها ، ولا يزال قبره فيها .

و « لاهور » مدينة هندية قديمة يرجع تاريخها الى ألفى عام ، وتدخل الآن ضمن نطاق الأراضى الباكستانية .

ويرد اسم لاهور فى التفاسير الهندية القديمة على أنه مأخوذ من الكلمة السنسكريتية « لوه أور » التى تعنى : قلعة « لوه » أحد توائم الإله الهندى العظيم « راما » بطل الملحمة الهندية الشهيرة « رامايانا » . وقد أشار السائح الصينى « هيوان تسانج » الى لاهور فى سجله عام ٦٣٠ م . وتذكر لاهور فى بعض المصادر على أنها : « لهاوور » (٥) أو « لوهور » أو « لهانور » (٦) أو « لاهوور » . وضبط ياقوت اسمها فقال : « لوهور » بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد « لهاوور » وهى مدينة عظيمة ومشهورة فى بلاد الهند (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١

(٢) « هلال » جلد بنجم شماره ١ - خرداد ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ ، ١١٥

(٤) « السابق » ص ١١٠

(٥) أنظر : « الكايل » حوادث ٤٣٥ ، جامع التواريخ المجلد الثانى ج ٤ ص ٣١٧

(٦) « كشف المحجوب » ص ١١٠ حاشية ٣٥

(٧) « معجم البلدان » ج ٤ ص ٣٧١

ولاهور عاصمة اقليم البنجاب ، وهو واحد من الأقاليم الأربعة التي يشتمل عليها وادى السند ، وهى : « البنجاب » و « راجبوتانا » و « والكجرات » و « والسند » ، ويسمى هذا الوادى بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ، ولما احتواه من المباني التي اسفرت عنها الحضارة الإسلامية (١) .

ويقع اقليم البنجاب فى أسفل جبال الهملايا . وكلمة البنجاب مكونة من كلمتين « بنج » و « آب » ومعناها بالفارسية : الأنهار الخمسة ، اذ تجرى فى البنجاب الأنهار « ستلج » و « جناب » و « بياس » (الاندوس) و « جهلم » و « راوى » وجميعها روافد لنهر السند ، تتبع من جبال همالايا الغربية ، وتجرى حاليا فى أرض الباكستان وتتخلل البنجاب سلسلة من التلال ، وبها منطقتان من الغابات فى مقاطعتى : مولتان ولاهور (٢) .

ويرد ذكر لاهور فى كشف المحجوب على انها من توابع المولتان (٣) ، بينما يذكرها القزوينى على أنها من المدن الكبرى فى السند شأنها فى ذلك شأن المولتان ، يقول : « السند مملكة كبيرة من الأقاليم الثانى ، ومدنها الكبرى هى : المنصورة ، ملتان ، لاهور ، هياطيه (بهاطيه) ، فرشاور (بشاور) ... والاهالى هناك يتحدثون ، غالبا بالفارسية » (٤) .

و « لاهور » تقع قرب الشاطئ الأيسر لنهر راوى ، وتشغل موقعها منذ أزمنة مبكرة ، ومعظم مناطقها أكثر علوا من المناطق المحيطة بها ، وقد أقيمت المدينة الحالية على بقايا المساكن القديمة التى كانت فى تلك المنطقة (٥) ، ولا تزال بعض المناطق القديمة باقية على حالها حيث كانت تقوم المدينة القديمة ، ويوجد بها مزار الهجویری (٦) .

وتمتاز لاهور بأنها أكبر مركز للثقافة الإسلامية فى شبه القارة الهندية ، وهى مقر جامعة البنجاب أقدم أكاديمية للأدب والعلوم فى الهند .

نسب الهجویری وأسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أسرة الهجویری ، فهو لم يشر قط فى كتابه الى أسرته أو أبويه . وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد هو مجرد إشارة

(١) « حضارة الهند » جوستاف لوبون : ترجمة عادل زعير - القاهرة ١٣٦٧ هـ -

١٩٤٨ م ص ٦٩ .

(٢) السابق « باكستان المعاصرة » حافظ حمى ومحمود الشراوى : القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « نزهة القلوب » ص ٢٥٩ .

(٥) Encyclopaedia - Britannica : Vol. 13 : « Lahore » p. 595.

(٦) « تذكرة حضرت على هجویری » أنظر : ص ٨٧ .

طفيفة وردت في سفينة الاولياء ، لا تتعدى انه كان من اسرة تنصب بالتقوى
والزهد ، استوطنت مدينة غزنه (١) .

وهناك شجرة لنسب الهجویری ، لم يرد ذكرها الا في « خزينة
الاصفياء » ، وهذه الشجرة توصل نسبه الى الامام على بن ابي طالب .
وذكر مؤلف الخزينة ان هذه الشجرة مدرجة في تواريخ السابقين ، ولكنه
لم يذكر أسماء هذه التواريخ .

يقول : « شجره نسبی حضرت ممدوح بدین نوع درج تواریخ متقدمین
است که حضرت مخدوم علی بن عثمان بن سید علی بن عبد الرحمن بن شاه
شجاع بن ابو الحسن علی بن حسین اصغر بن سید زید شهید بن حضرت
امام حسن رضی الله عنه بن علی کرم الله وجهه » (٢) .

وترجمته : « شجرة نسب حضرة الممدوح مدرجة في تواريخ المتقدمين
على هذا النحو : ان حضرة المخدوم على بن عثمان بن السيد على بن عبد
الرحمن ، بن شاه شجاع بن ابي الحسن على بن الحسين الاصغر ، ابن
السيد الشهيد زيد ، ابن حضرة الامام الحسن رضی الله تعالى عنه ، ابن
على کرم الله وجهه » .

وقد اشير الى هذا النسب في هدية العارفين ، فاضاف البغدادي لقب
« الحسيني » الى اسم الهجویری (٣) . وورد ذكره ايضا في مقالين في مجلة
(هلال) ، فذكر الكاتب في المقال الاول ان نسب الهجویری يتصل من
ناحية ابيه بالامام الحسن (٤) ، وذكر في الثاني ان الشيخ عثمان والد
الهجویری يتصل نسبه في الظهر الثامن بالامام على المرتضى (٥) . ويبدو
من هذه العبارات ان الهجویری كان من اصل عربي .

والده :

والد الهجویری هو الشيخ عثمان بن ابي على ، وكان — كما وصفه —
غلام سرور — رجلا متدينا جدا ، على قدر كاف من التصوف والعرفان .

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٢) « خزينة الاصفياء » مفتي غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (انظر : ج ٢ ص ٢٢٣) .

(٣) « هدية العارفين » ج ١ عود ٦٩١ .

(٤) « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .

(٥) « هلال » جلد پنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

ويبدو أن الشيخ عثمان كان على قيد الحياة حتى عصر السلطان محمود
الغزنوى ، وأدرك فترة ازدهار غزنه في ذلك العصر . يقول غلام سرور
ما ترجمته :

« وفي تلك الفترة كان العلماء والفضلاء وأرباب المعرفة والشعراء
والصوفية يتوجهون الى مدينة غزنه من جميع أرجاء العالم الاسلامى ،
بحيث أصبحت تلك المدينة والقرى التابعة لها مركزا للعلوم الدينية
والآداب الاسلامية . وكان الشيخ عثمان من بين الوافدين على غزنه ،
فاتخذ مسكنه في ضواحيها ، وصار موضع احترام الأهالى ، ومحل
ثقتهم واعتقادهم » .

وتوفى الشيخ عثمان في غزنه ، ولا يزال قبره بها ، في قرية تسمى
« أربابها » على بعد ميل من غزنه الحالية (١) .

والفته :

أما عن والده الهجویری ، فقد كانت هى أيضا من بيت متدين . وقد أشار
« داراشكوه » الى واحد من أخوتها باسم الشيخ « تاج الأولياء » ، ويبدو
أنه كان من الرجال الصالحين المعروفين في غزنه وتوفى ودفن بها ، ولا يزال
ضريحه معروفا باسمه هناك . وقد زار « دارا شكوه » هذا الضريح
الذى يقع بالقرب من ضريح والد الهجویری ، ويتصل به قبر والدته (٢) .

اسمه والقباه :

« الهجویری » اسمه : « على بن عثمان » . وقد أثبت هذا الاسم في
مقدمة كشف المحجوب (٣) ، وكرره كثيرا في ثنايا الكتاب ، فقد كان في كل
مرة يتحدث فيها عن نفسه ، يصر على أن يقول :

« ومن كه على بن عثمان الجلابى ام » .

أى : « وأنا على بن عثمان الجلابى » .

حتى أن هذه العبارة وردت ثمان وعشرين مرة في كتاب كشف المحجوب (٤)

(١) « هلال » جلد بنجم - شماره ١ ، خرداد ماه ١٣٣٦

(٢) « سفينة الأولياء » ص ١٦٥

(٣) « كشف المحجوب » ص ١

(٤) « السابق » (انظر الصفحات رقم : ١ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ،

٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ،
٣٦٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦) .

والاسم الكامل الذى يرد للهجویری ، مضافا اليه ختيته والقباه ، هو :

« أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابی الهجویری الغزنوی » ،
ويعرف في بعض المصادر باسم : « داتا كنج بخش لا هوری » (١) . كما
أنه يسمى أحيانا في اختصار : « الغزنوی » أو « الهجویری » أو « الجلابی »

وإذا تأملنا هذا الاسم الطويل ، نجد أنه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

كنية ، اسم ثلاثى ، القاب .

فالكنية : أبو الحسن (٢) .

والاسم : على بن عثمان بن أبى على (٣) .

واللقاب : الجلابی والهجویری والغزنوی .

ولا يوجد في أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری خلاف حول
كنيته ، أو اسمه أو اسم أبيه ، وإن كان هناك خلاف يسير حول اسم جده ،
فقد ذكرته بعض المصادر على أنه « على » (٤) وذكرته بعضها الآخر على
أنه « أبو على » . ويبدو أن الأخير هو الأصح لأنه المذكور في مقدمة
كشف المحجوب .

أما عن الألقاب التى يلقب بها الهجویری ، فقد ارتبطت كلها بموطنه
والأمكن التى عاش فيها :

فهو يلقب بالجلابى نسبة الى « جلاب » .

ويلقب بالهجویری نسبة الى « هجویر » (٥) .

(١) « خزينة الاصفاء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر ج ٢ ص ٢٢٤) ،

« سلطنت غزنویان » ص ٢٢٨ ، « فهرست کتابهای جایی فارسی » خنایا مشار :
تهران ١٣٣٧ (أنظر ج ١ عبود ١٢٦٥) ، تذكره حضرت على هجویری « ص ١٧ ،
وكلمة « داتا » تطلق على رجل الدين في مقابل الكلمة العربية ، و « كنج بخش »
بمعنى : واهب الكنز ،

(٢) « نفحات الانس » عبد الرحمن بن أحمد جامی : طهران ١٣٣٦ هـ ش - ص ٣١٦ ،
« سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « هدية العارفين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١ ، « نفحات الانس » ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤

(٤) أنظر : « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب ، « Ethé »
Catalogue of persian Manuscripts (India office Library) Vol. I.

(٥) يخطئ البعض في ترجمة لقب الهجویری عن الانجليزية فيترجمونه : « الهجویری »
أنظر : « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى » آدام ميتز : ج ٢ ص ١٧
وغيرها ، « مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمى » فرانتز روزنتال : ترجمة
أنيس فريجة : بيروت ١٩٦١ ص ١٢٨ .

ويلقب بالغزنوى نسبة الى « غزنه » .

وجلاب وهجوير محلتان من محلات مدينة غزنه مسقط رأس الهجويرى .
يبقى بعد ذلك لقب : داتا كنج بخش لاهورى ، الذى تطلقه بعض المصادر
على الهجويرى . وقد ذكر صاحب « خزينة الاصفياء » أن « معين الدين
حسن السنجرى » (١) هو الذى أطلق عليه هذا الاسم ، ذلك انه عندما
تقلد خلعة قطب لاهور ، ذهب الى ضريح الهجويرى واختلى هناك ،
وعندما هم بمغادرة المكان وقف في مواجهة القبر وقال هذا البيت :

كنج بخش هردو عالم مظهر نور خدا
كاملان رابير كامل ناقصان را راهنما

وترجمته :

انه واهب كنز كلا العالمين ومظهر نور الله ،
وشيخ كامل للكاملين ، وهاد للناقصين .

ومنذ ذلك اليوم اشتهر باسم : « كنج بخش » (٢) .

غير انه ورد في مقال في مجلة « هلال » ان هذه الرواية موضة شك ،
وذكر الكاتب أن هذا اللقب ورد على لسان الهجويرى في كتابه « كشف
الاسرار » حيث يقول ما ترجمته :

« يا على ، ان الناس يسمونك بالوهاب ، وانت لا تملك فلسا
واحدا . فلا تدع لهذا الادعاء سبيل الى قلبك ، والا كان هذا
محض غرور . فالوهاب هو الله وحده ، فلا تكن شريكا له والا هلكت .
وهو بلا شك اله واحد ، وليس له شريك » (٣) .

ويبدو من هذه العبارة ان الهجويرى كان يلقب بداتا كنج بخش اثناء
حياته ، وأنه لم يكن يستحسن هذا اللقب .

« وداتا كنج بخش » هو الاسم الذى يعرف به الهجويرى في الهند
وبباكستان ، منذ قرون طويلة . وقد لا يعرف عامة الناس هناك اسم
« على الغزنوى » ، ولكن لا يوجد من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا
كنج بخش » .

(١) « معين الدين حسن السنجرى » من سلسلة شيوخ الجشتية . كان مريدا للشيخ
مثنى الهارونى وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (انظر ترجمته في : « سفينة الاولياء » ص ٩٢
— ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها) .

(٢) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤
(٣) انظر : مجلة « هلال » شماره سوم : ارديبيست ١٣٣٢ .

أما لقب « لاهورى » (١) فقد اكتسبه الهجویری من اقامته في مدينة لاهور خلال الفترة الأخيرة من حياته .

مولده ونشأته :

تاریخ میلاد الهجویری مجهول تماما ، فكتاب كشف المحجوب خال من الاشارة الى هذا الأمر ، كما انه لم يرد ذكر هذا التاريخ في أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری ، حتى أقربها اليه عهدا .

والواقع انه لا سبيل امامنا لمعرفة تاريخ ميلاده ، على وجه التقريب الا بالرجوع الى بعض الاشارات ، غير المباشرة ، التى وردت في كشف المحجوب ، والتى يشير فيها الهجویری الى معاصره من الصوفية .

ومن المعروف ، في كثير من المصادر ، ان الهجویری عاصر كلا من أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ) ، وأبى القاسم القشیری (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) .

وبالنسبة لأبى سعيد ، فقد ذكرت بعض المصادر انه والهجویری كانا مریدین لشيوخ واحد هو « أبو الفضل حسن السرخسی » (٢) ومن هنا أطلقت عليه لقب « شقيق أبى سعيد » (٣) . ولكننا بالرجوع الى كشف المحجوب نضع أيدينا على الحقائق التالية :

اولا : ان الهجویری كان مریدا لأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى (٤) ، لا أبى الفضل حسن السرخسی ، وهو لم ير هذا الأخير وانما حدثه عنه (خواجه) الامام الحزামী (٥) .

(١) أنظر : « خزينة الاسفياء » ج ٢ ص ٢٢٢

« سلطنة غزنويان » ص ٢٣٨

« بزم شوق » نشریه ماهیانه ادبی و فرهنگی : اکادمی فارسی کراچی نومبر ١٩٦٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٢) أنظر :

مقدمة مخطوطة كشف المحجوب التابعة لمكتبة فينا ، والمحفوطة تحت رقم ٢٤٤ من مجموعة « هابر » ، « فصل الخطاب » محمد بارسا (نقلا عن « كشف المحجوب »

مقدمة المصحح ص ٦١ — ٦٢) ، « سبك شناسی » ج ٢ ص ١٨٧ .

« هلال » جلد سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « رسالة آبدالية » يعقوب بن عثمان الجرجی نقلا من :

« Ethe », Cat. Vol. I.

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٥) « السابق » ص ٢٨٧ .

ثانيا : لم يلتق الهجویری بأبی سعید بن أبی الخیر أثناء حياته ، وإنما قام بزيارة قبره في ميته (١) بعد وفاته ، والتقى بابنه « المظفر » ، وخادم أبی سعید الخاص « حسن بن المؤدب » . وسمع من هذا الآخر بعض أخبار أبی سعید (٢) ، وسمع بعضها الآخر من أبی مسلم الفارسی أحد معاصري أبی سعید (٣) .

ثالثا : ترجم الهجویری لأبی سعید ضمن عدد من شيوخ الصفوة من معاصريه ، وذلك في الباب الثاني عشر من كشف المحجوب المسمى « باب في ذكر أئمتهم من المناخرين » (٤) :

والمجموعة الأولى من هؤلاء الشيوخ لم يدركهم الهجویری ، وهم بالنسبة لأبی سعید أما شيوخه مثل : أبی العباس القصاب (٣٩٧ هـ) (٥) وأبی علی الدقاق (٤٠٥ هـ) (٦) ، وأما رفاقه مثل : أبی عبد الله الداسستانی (٤١٧ هـ) وأبی الحسن الخرقانی (٤٢٥ هـ) .

والمجموعة الثانية : وإن كانوا أيضا من طبقة أبی سعید ، إلا أن الهجویری أدركهم وتلمذ عليهم ، وهم يمثلون أساتذته : شيوخه ، مثل : أبی العباس الشسكتی (٧) ، وأبی القاسم الجرجانی (٤٥٠ هـ) (٨) وأبی الفضل الختلی وخواجه مظفر بن حمدان (٩) .

ويتضح من هذا الموضع الذي ترجم فيه الهجویری لأبی سعید ، ومن لهجة التقدير والاحترام الكبير التي ترجم له بها ، أنه كان يعده في مرتبة شيوخه وأساتذته الذين كانوا جميعا ينتمون الى جيله ، وبالتالي فإن الهجویری يمثل الجيل الذي تلا هؤلاء الشيوخ وهو جيل تلاميذهم ومريديهم .

وبالنسبة للقشيري : فمن الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری التقى به وسمع منه بعض آرائه (٩) . ولكننا في الوقت نفسه نستشف من الموضع الذي ترجم له فيه — وهو نفس الباب الذي ترجم فيه لأبی سعید

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٠١

(٢) « السابق » ص ٢٠٥

(٣) السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١

(٤) السابق ص ٢٠٢ — ٢١٤

(٥) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٥٦ ، ٦٣

(٦) « السابق » أنظر ص ٧٠ — ٧١

(٧) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٢٤٦ — ٢٤٧

(٨) « السابق » أنظر ص ٨١

(٩) « السابق » ص ٢٢٠ — ٢٢١

(١٠) « كشف المحجوب » ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧

ولاساتذته وشيوخه — ومن اللهجة التي تحدث بها عنه ، أنه كان يعدده هو الآخر في عداد أساتذته . وليس هذا غريبا ، فالحقشيري كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير ، وقد تلازما مدة طويلة في نيسابور (١) ، كما عاصر الحقشيري أيضا أساتذة الهجويري وشيوخه (٢) ، وكان على اتصال وثيق بهم .

وكان يوجد الى جوار هذه المجموعة من الشيوخ ، التي تضم أبا سعيد والحقشيري وأساتذة الهجويري وشيوخه ، عدد من التلاميذ والمريدين الذين كانوا يتعلمون على بعض هؤلاء الشيوخ ويلزمون بعضهم ، وهؤلاء التلاميذ عرفوا فيما بعد ، وبلغوا هم أيضا مرتبة الشيوخ ، ونذكر منهم « أبا الفتح ابن سالبه » (٣) و « أبا علي الفارمدى » .

أما « أبو الفتح » فهو ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن بن سالبه البيضاوي (٤) ، كان تلميذا لعدد من الشيوخ من طبقة أبي سعيد (٥) ، وتوفي سنة ٤٧٣ هـ . وقد أشار اليه الهجويري ، في كشف المحجوب ، بما يدل على أنه كان من طبقته ، وصرح بأنه لم ير شيخ الشيوخ ولكنه رأى ابنه ، وذكر اسم أبي الفتح بين أسماء الصوفية المعاصرين له ، وقال انه سوف يصبح خلفا طيبا لأبيه ، ومرجوا فيه (٦) .

وأما « أبو علي الفارمدى » (٧) المتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، فقد كان مريدا

(١) أسرار التوحيد : انظر : الفصل الاول من الباب الثاني .

(٢) كشف المحجوب » ص ١٨٩ .

(٣) « أبو الفتح بن سالبه : عبد السلام بن أحمد ، « أبو الفتح الصوفي ويعرف بابن سالبه » ، من أهل فارس . سافر الكثير ، وجال في البلاد وسبع بها الحديث . ورد بغداد في سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، فسمع بها من أبي القاسم بن بشران ، وأبي علي ابن شاذان . وتوفي ببغداد سنة ٤٧٣ هـ » انظر : « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ابن الجوزي : حيدر آباد ١٣٥٨ هـ — ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٤) « شيخ الشيوخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البيضاوي المعروف بابن سالبه » ، وكان من كبار مشايخ الصوفية في فارس في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس . من معاصري أبي اسحاق بن شهريار الكازروني (٤٢٦ هـ) وأبي حيان التوحيدي (٤٠١ هـ) . توفي سنة ٤١٥ هـ ، ودفن في بيضاء فارس . « شد الأزار في حط الأوزار من زوار المزار » معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازي . تصحيح : محمد قزويني وعباس اقبال : طهران ١٣٢٨ هـ — انظر حواشي ص ٤٧٦ .

(٥) تاديب « أبو الفتح » بالشيخ أبي مسلم الفارسي ، ولقى الشيخ أبا الحسن علي بن خواجه الزماني ، وصحب الشيخ أبا عبد الله الداسقاني — وثلاثتهم من معاصري أبي سعيد وزملائه .

(٦) انظر : « شد الأزار » ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٧) كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٧) « أبو علي الفارمدى » : شيخ حجة الاسلام الغزالي (انظر : نفحات الانس ص ٣٧٠) ، اسمه الفضل بن محمد بن علي الفارمد ، وفارمد من تسمى طوس (انظر : « معجم البلدان » ج ٣ ص ٨٣٩) ، وكان شيخ شيوخ خراسان وتلميذا للامام الحقشيري ، ومريدا للشيخ أبي القاسم الجرجاني ، والتقى بالشيخ أبي سعيد بن أبي الخير . وتوفي سنة ٤٧٧ هـ ، وقبره في طوس (انظر : « سفينة الأولياء » ص ٧٥) .

لأبى الحسن الخرقانى (١) ، وتلميذا ومريدا لأبى القاسم القشيرى ، ثم انضم الى حلقة مريدى أبى القاسم الجرجانى (٢) . وفى خلال فترة تلمذته على الجرجانى ، بعث به الى أبى سعيد بن أبى الخير ، فأقام عنده فترة فى ميهنة (٣) ، ثم رجع الى الجرجانى وتسلم منه الخرقة ، وأصبح خليفة له بعد وفاته .

وقد أشار الهجويرى الى الفارمدى خلال ترجمته لشيخه أبى القاسم الجرجانى ، ووصفه بأنه لسان الوقت ، وتنبأ له بأنه سوف يكون خير خلف للشيخ وخير قدوه للصوفية . ثم أشار الى نفسه فى الترجمة ذاتها بما يفيد أنه ، عند اتصاله بأبى القاسم الجرجانى وتعرفه على مريده الفارمدى ، كان لا يزال فى سن الشباب (٤) .

ويتضح من هاتين الاشارتين أن الهجويرى والفارمدى كانا مريدين لشيخ واحد ، هو « أبو القاسم الجرجانى » ، وكانا كلاهما ينتميان الى جيل التلامذة والمريدين ، مما يدل على أنهما متقاربان فى السن ، ومن طبقة واحدة ..

وبالإضافة الى هؤلاء ، أشار الهجويرى فى الباب الثالث عشر من كشف المحجوب (باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على حسب البلدان) (٥) الى عدد من الصوفية من بينهم مجموعة من الشبان من أبناء الشيوخ من طبقة أبى سعيد ، وهم :

المظفر بن أبى سعيد (٤٤٠ هـ) .

أحمد بن أبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

أبو الحسن على بن أبى على الأسود (سياه) (٤٢٤ هـ) .

وربما كان هؤلاء يمثلون الطبقة التالية لطبقة الهجويرى ..

وبعد هذا العرض لطبقات ثلاث من معاصرى الهجويرى ، نستنتج أنه كان يمثل طبقة تتوسط طبقة الشيوخ من أقران أبى سعيد بى أبى الخير ، وطبقة أبناء هؤلاء الشيوخ . وبناء عليه يمكن أن نرجح أنه ولد فيما بين العقدين

(١) نفحات الانس « ص ١٦٨ .

(٢) أسرار التوحيد « انظر ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٣) السابق « ص ٢٠٧ .

(٤) كشف المحجوب « ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٥) كشف المحجوب « ص ٢١٤ - ٢١٨ .

التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى . واذا افترضنا أنه ولد حوالى منتصف هذه الفترة ، فان ذلك لا يتعارض مع ما ورد فى بعض المصادر من أنه عاصر السلطان « محمود الغزنوى » (١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وابنه السلطان مسعود (٢) (٤٣٢ هـ) .

أما عن نشأة الهجویری ، فمن الواضح أنها كانت نشأة دينية خالصة ، فقد ولد فى بيئة متدينة عرفت بالزهد والتقوى (٣) ، بين أب على قدر كاف من التصوف والعرفان (٤) وأم من بيت متدين عرف أفرادہ بالصلاح والتقوى فتلقى التعاليم الأولية للدين الإسلامى على أفراد أسرته ، وصحب أباه خلال فترة طفولته ، فتعرف على مبادئ التصوف فى سن مبكرة ، وتشرب روحه منذ الصغر ، وكان لذلك أثره الكبير فى اتجاهه الى التصوف ، وسلوكه طريق الصوفية .

زواجه :

وردت فى كشف المحجوب إشارة عابرة أشار فيها الهجویری الى زواجه، ويبدو منها أن تجربته فى الحياة الزوجية كانت قصيرة وغير سارة ، ذلك أن القدر أراد له أن يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها ، وأفسدت عليه هذه المرأة حياته لمدة عام ، انتقلت بعده الى رحمة الله .

يقول ما ترجمته : « وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هناك رؤية . وقد استغرقت فى ذلك عاما بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته . والحمد لله على جزيل نعمائه » (٥) .

وقد اختلف « زوكوفسكى » و « نيكولسون » فيما إذا كان الهجویری قد مر بتجربة عاطفية خلال هذا العام ، أم أنه تزوج فعلا . ويبدو أن

(١) « سلطنت غزنویان » ص ٣٢٨ ، « رسالة آبدالية » (نقلا من مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٢) « تصوف » عباس مہرین : کابل ص ٣٢ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « هلال » جلد بنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٤٧٦ .

زوكوفسكى فهم من العبارة السابقة أن الهجویری لم يكن متزوجاً (١) ، وأن التجربة النی مر بها كانت تجربة عاطفية (٢) ، بينما يرى نيكولسون أنه قد تزوج فعلاً (٣) .

ولا شك أن الصواب في جانب نيكولسون ، لأننا إذا رجعنا الى النص نجد الهجویری يقول :

« من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، فقد قدر أن وقعت في الفتنة » ومعنى هذا أن تغيراً قد حدث من حالة الى حالة مغايرة ، أى من عدم الزواج الى الزواج ، واستمر هذا التغير لمدة عام . .

وقد ذكر « محمد الدين » مؤلف كتاب : « حیات حضرت دانا كنج بخش » في فصل من الكتاب عنوانه : « الزواج الأول والثانى لحضرة دانا كنج بخش » أن الهجویری تزوج مرتين ، واستند في ذلك الى النص الذى ورد في كشف المحجوب .

وبدا الكاتب هذا الفصل بقوله أن حضرة دانا كنج بخش آثار الى زواجه الثانى ولم يذكر شيئاً عن زواجه الأول ، عندما قال في كشف المحجوب .

« وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، فقد قدر أن وقعت في الفتنة » .

واستنتج الكاتب من هذه العبارة أن الهجویری تزوج مرتين :

المرة الأولى : عندما كان لا يزال صغيراً ، فتزوج بناء على رغبة والديه ، غير أن هذا الزواج لم يدم طويلاً ، اذ توفيت الزوجة الأولى .

وظل الهجویری بدون زواج لمدة أحد عشر عاماً ، كما هو واضح من عبارته .

والمرة الثانية : عندما قدر له أن يقع في حب الأسرة والاولاد ، وكانت تسيطر عليه عندئذ عاطفة قوية جعلته يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها من

(١) « يشترك » مبرز مع زوكوفسكى في هذا الراى ، انظر : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع » ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Bulletin of : Oriental Studies : A Translation of Zhukovsky's Intro duction.

(٣) انظر : نيكولسون : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

قبل ، فتزوج بها ، ولم يقدر له التوفيق في زواجه الثاني ، ذلك أن المرأة التي تزوجها كادت أن تفسد عليه دينه . واستمرت هذه التجربة القاسية لمدة عام ، كما يدل عليه قوله :

« واستغرقت في ذلك عاما ، حتى كاد يفسد على ديني ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه ، عصمته لاستقبال قلبي المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته » .

فهذه العبارة تدل ، في رأى الكاتب ، على أن الزوجة الثانية توفيت أيضا بعد عام من الزواج . ويضيف الكاتب أن الزواج الثاني للهجویری تم أيضا استجابة لرغبة والديه ، ذلك أنه على الرغم من كراهيته للزواج — كما يتبين من أقواله في كتابيه : كشف المحجوب وكشف الأسرار — اضطر امتثالا لأوامرهما أن يتزوج مرتين ، اذ لم تكن لديه المقدرة على رفض طلبهما ، احتراما لهما (١) .

والواقع أن الكاتب حل النص الوارد في كشف المحجوب تحليلا لا بأس به ، توصل عن طريقه الى ترجيح أن الهجویری تزوج مرتين ، وهو ما تؤيده فيه ، الا أننا نأخذ عليه بعض التضارب في أقواله ، فهو تارة يقول ان الهجویری تزوج في المرة الثانية استجابة للرغبة القوية التي تملكته حبا في تكوين الأسرة والأولاد ، وتارة أخرى يقول انه كان كارها للزواج عازفا عنه ، وإنما اضطر اليه ارضاء لوالديه .

وفي رأينا أن الهجویری تزوج للمرة الأولى في حياة أبويه ، وكان لا يزال شابا حديث السن . وربما كان زواجه استجابة لرغبة والديه ، كما يقول « محمد الدين » .

أما المرة الثانية فيبدو أنها كانت بعد وفاة أبويه . ومن المرجح أن زواجه الثاني تم خلال فترة الرحلات ، ذلك أن العبارة الواردة في النص تشير الى انه ظل بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، ومعنى هذا أنه كان قد تخطى الثلاثين من عمره . ومما لا شك فيه ان هذه الفترة من عمره تقابل فترة الرحلات .

وقد انعكست مرارة التجربة الثانية الفاشلة للهجویری في الزواج على أقواله ورأيه في الزواج في كتابه كشف المحجوب ، وجعلته يقسو على النساء في حكمه ، حتى أنه صرح بأن المرأة سبب البلاء في الدنيا والآخرة ، وأنها كانت كذلك منذ البداية ، وبقيت هكذا الى يومه (٢) .

(١) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

.

1

.

الفصل الرابع

ثقافته - أساتذته وشيوخه

الشخصيات التي تأثر بها

١ - ثقافته ونوع العلوم التي حصلها :

من الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری كان على درجة كبيرة من ثقافة عصره ، فكتابه مرآة لثقافة دينية واسعة النطاق ، ودراية كاملة باللغتين الفارسية والعربية . ويبدو أنه بدأ دراسته في موطنه غزنه في سن مبكرة ، فاشتغل بما كان يشتغل به أترابه في ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة على عهده : كقراءة القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب ، وكرس جهدا كبيرا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كال تفسير والحديث والروايات والفقه . وقد توفرت له في شبابه فرصة طيبة لتنمية معارفه عن طريق الرحلات المتعددة التي تجول خلالها في أرجاء العالم الاسلامی (١) ، فتزود من أنواع الثقافة الاسلامية التي كانت منتشرة في كل بقعة من العالم الاسلامی .

وبالإضافة الى هذا ، فقد أفادته تلك الرحلات في الاطلاع على العديد من الكتب والمؤلفات الدينية عامة ، والصوفية خاصة ، مما وسع أفقه ، وعمق مفهومه للناحيتين الدينية والروحية .

وإذا استعرضنا بعض الشواهد البارزة والواضحة في كتاب كشف المحجوب ، فإنه يمكننا عن طريق ذلك أن نتعرف في وضوح على العلوم التي حصلها الهجویری أثناء دراسته ، والمعارف التي اكتسبها من اطلاعاته وقراءاته .

وأول ما يستلفت نظرنا في الكتاب ، كثرة الآيات القرآنية التي وردت فيه ، فالهجویری استعمل ٢٣٦ آية قرآنية (٢) استعمالا دلا على معرفته الكاملة بالقرآن الكريم ، واستيعابه للمعاني التي تهدف إليها آياته الكريمة ، والمغزى

(١) انظر تفصيل هذه الرحلات في الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) « كشف المحجوب » انظر فهرست الآيات القرآنية من ٥٧٦ - ٥٨٠ .

العميق الذى تنطوى عليه كل آية ، فكان يستشهد ببعض هذه الآيات لاثبات الآراء التى يذهب اليها ، ويرجع الى بعضها ليجلو معنى أساء البعض فهمه ، ويشرح بعضها ليطلع القارئ على المغزى الذى تنطوى عليه ، ويؤكد عن طريق عدد منها بعض الأسس والأصول الصوفية .

ولا شك أن هذا ان دل على شيء غانما يدل على أنه تعلم القرآن قراءة ، وتعمقه فهما وتفسيرا .

والى جوار الآيات القرآنية ، استعمل الهجویری ١٣٨ حديثا (١) ، وشرح كثيرا منها شرحا وافيا ، ونقل معظمها الى اللغة الفارسية . وفى هذا أيضا ما يدل على المسامحة الكبير بعلم الحديث ، مما يؤكد أنه درس هذا العلم دراسة وافية . وقد صرح هو نفسه بأنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن كانوا أساتذة فى علوم الحديث (٢) والتفسير (٣) .

وبالإضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث ، فقد روى الهجویری ما يقرب من خمسمائة قول لشيوخ الصوفية ، بعضها للسابقين عليه ، ابتداء من الرواد الأوائل للصوفية ، وبعضها لشيوخه والمعاصرين له .

وفى هذا دلالة على معرفته بالروايات التى كان شيخه الختلى من المبرزين فيها ، وكانت له مجموعة منها أشار الهجویری اليها فى كتابه (٤) .

أما عن دراسة الهجویری للفقه ، فقد بدأ اثر تلك الدراسة واضحا فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، الذى تحدث فيه عن الأحكام الشرعية للطهارة (٥) والصلاة (٦) والزكاة (٧) والصيام (٨) والحج (٩) ، فالهجویری فى هذه الأقسام يبين فى دقة الأحكام الشرعية لهذه العبادات من الناحية الفقهية — أى من ناحية ظاهرها وأحكامها التى تجرى على الجوارح — ثم يوائم بين هذه الأحكام الظاهرية وبين المعانى الباطنية التى تنطوى عليها ، والتى هى من أعمال القلوب لا الجوارح ، مما يدخل فى نطاق المفهوم الصوفى لهذه العبادات . كما تكلم فى المعاملات كالزواج والصحة وغيرها .

(١) « كشف المحجوب » انظر فهرست الأحاديث ص ٥٨١ — ٥٨٨ .

(٢) « انظر : ترجمة خواجه » المظهر بن حيدان ضمن التعريف بأساتذة الهجویری .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٤) « السابق » ص ١١٠ .

(٥) « السابق » ص ٣٧٤ — ٢٨٦ .

(٦) « السابق » ص ٢٨٦ — ٤٠٤ .

(٧) « السابق » ص ٤٠٤ — ٤١٣ .

(٨) « السابق » ص ٤١٣ — ٤٢٢ .

(٩) « السابق » ص ٤٢٢ — ٤٣٢ .

ويبدو أن الهجویری درس الفقه على مذهب أبی حنیفة ، فقد صرح في ترجمته له بأنه كان يميل اليه ويعتق مذهبہ (١) .

والى جوار العلوم الدينية ، فقد درس الهجویری اللغتين الفارسية والعربية ، وأجادهما أجادة مكنته من أن يمسك بزمام اللغتين ، فينقل من أحدهما الى الأخرى في سهولة ويسر . وقد حرص دائما على ترجمة الأحاديث والأقوال المأثورة وأقوال شيوخ الصوفية ، فهو يثبت أصل الحديث أو القول باللغة العربية ، ثم يتبعه بترجمة له بالفارسية . وكثيرا ما يشرح هذه الأحاديث والأقوال بالفارسية بما يبين المعانى الواسعة لها أو النواحي الغامضة فيها . والحق أن هذه الترجمات والشروح فيها الدليل الكافى على مدى إجادته للغتين ، والمسامه بدقائق كل منهما . .

وفى الكتاب أيضا كثير من الأشعار والاشارات الأدبية الفارسية والعربية، التى استعملها الهجویری فى مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبى سليم مدعم بدراسة واعية للأدب وإطلاع على الآثار الأدبية ، حقيقة أن الذوق الأدبى موهبة فطرية فى الإنسان ، إلا أن الدراسة تصقل هذه الموهبة وتبرزها وتنميتها . يضاف الى ذلك ما صرح به الهجویری من أنه كان شاعرا ، وله ديوان من الشعر ، وإن كان هذا الديوان مفقودا (٢) .

٢ - أساتذته وشيوخه :

ذكر الهجویری فى كتابه عددا من الاساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأناد منهم واقتدى بهم . وقد أدرك صحبة بعض هؤلاء الشيوخ ورافقهم لمدة طويلة ، وكان يتردد على البعض الآخر وينخرط فى سلك مریدیهم ، ويتلقى عنهم تعاليمهم الصوفية . وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا من الأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين الذين عاشوا فى الفترة ما بين النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، وهى الفترة التى تعد من أزهى الفترات فى تاريخ التصوف ، فقد برزت فيها معالم الحياة الصوفية فى أجلى صورها ، واتخذت شكل الفرق المنظمة ، وكان لكل فرقة منها نظمها وتقاليدها ورسومها الخاصة بها ، وإن التقت جميعها حول هدف واحد ينشده كل صوفى .

(١) « كشف المحجوب » ص ١١٦ .

(٢) « السابق » ص ٢٠ .

وكانت كل فرقة من هذه الفرق تقوم على مجموعة من التلاميذ والمريدين يلتفون حول شيخ يشرف على تربيتهم واعدادهم ، ويلقنهم تعاليمه ومبادئه ، فانتشرت الزوايا والخانقاهات في كل مكان ، وكانت كل واحدة منها يديرها شيخ من الشيوخ الكبار له نظامه الخاص في تربية تلاميذه ومريديه ، ويخلفه في رئاستها أشهر هؤلاء التلاميذ والمريدين .

ونعرف من المعلومات الواردة في كشف المحجوب أن الهجویری تتلمذ في بعض العلوم على « أبي العباس أحمد بن محمد الشقائي » ، وقد وصفه بأنه كان اماما في فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا في جميع المعاني ، رأى كثيرا من الشيوخ ، وكان من كبار أهل التصوف وأجلهم .

والشقائي كان من شيوخ الصوفية الذين يتمسكون بالشرعية ، فقد ذكر الهجویری أنه لم ير طيلة حياته رجلا من أي صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

ويبدو أنه كانت هناك روابط من المودة والعطف المتبادل تربط بين الهجویری وأستاذه ، على نحو ما يظهر من قوله عنه : « وكان لي معه انس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقه » (١) .

ولا ندرى متى توفي أبو العباس الشقائي على وجه التحديد ، وان كنا نعرف من كتابي « كشف المحجوب » و « أسرار التوحيد » (٢) أنه كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبي القاسم الجرجاني المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وكان الشقائي من القائلين بالفناء ، وله فيه عبارات غامضة اختص بها . وكان يصيح قائلا : « أشتي عدما لا عود فيه » (٣) .

أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي :

صرح الهجویری بأنه سلك الطريق بارشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلي ، وترجم له في كتابه فقال :

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

(٢) انظر : كشف المحجوب ص ١٨٩ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٢٤٧ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

« ومنهم زين الأوتاد وشيخ العباد : أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب مذهب الجنيد فى التصوف ، وكان مريدا للحصرى « (١)

ونتين من هذه العبارة أن الختلى كان جنيدى المذهب ، فهو مريد أبى الحسن الحصرى (٣٧١ هـ) . وكان الحصرى مريدا للشبللى (٣٣٤ هـ) ، والشبللى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧ هـ) .

وطريق الجنيد مبنى على الصحو على عكس أبى يزيد البسطامى فطريقه مبنى على السكر ، ومن ثم قال الختلى : « السكر ملعب الصغار ، والصحو مفنى الرجال » (٢) .

وعن الختلى اعتنق الهجويرى مذهب الجنيد وأشاد به .

وقد خلطت بعض المصادر بين أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى مرشد الهجويرى وقدوته ، وبين أبى الفضل حسن السرخسى مرشد أبى سعيد ابن أبى الخير ، وتكررت أن الهجويرى وأبا سعيد كانا مريدين لشيخ واحد (٣) . وعلى الرغم من أن سلسلة شيوخ أبى الفضل حسن السرخسى تنتهى أيضا إلى الجنيد (٤) ، إلا أنه — كما يدل عليه اسمه — سرخسى — منسوب إلى مدينة « سرخس » فى إقليم خراسان ، وقد عاش فى هذه المدينة وتوفى بها فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقبره هناك (٥) . أما أبو الفضل الختلى فقد عاش معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى قرية تسمى « بيت الجن » تقع بين « باتيار » و « دمشق » (٦) .

ولا نعرف متى توفى الختلى ، فلم يرد ذكر تاريخ وفاته فى « نفحات الأنس » أو « سفينة الأولياء » ، وإن كان صاحب « خزينة الأصفياء » يحدد لوفاته سنة ٤٥٣ هـ ويذكر أنه حصل على هذا التاريخ من حاشية لنفحات الأنس (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٢٢٢ .

(٣) سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « فصل الخطاب » (نقلا عن « كشف المحجوب » ص ٦١ ، ٦٢ من مقدمة زوكوفسكى) ، « هلال شمارة سوم — ارديبهشت ١٣٣٢ انظر : مقال بقلم غلام سرور .

(٤) أسرار التوحيد « الترجمة العربية » ص ٤٣ .

(٥) « السابق » ص ٦٠ ، « نفحات الأنس » ص ٢٨٤ ، « ديوان أبو سعيد أبو الخير »

نشر سعيد نفيسى : طهران ١٣٣٤ هـ ش (انظر ص ٣ من المقدمة) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٧) « خزينة الأصفياء » ج ٢ ص ٢٣١ .

ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا تماما ، ومن المرجح أنه توفي قبل هذا التاريخ وذلك للأسباب التالية :

أولا : أن الهجویری ذكر أنه رافق شيخه. الختلى لفترة طويلة ، وظل على صلة به الى أن توفي في بيت الجن ، واستمع الى آخر كلماته ، وهى الوصية التى أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (١) .

ثانيا : وردت في كشف المحجوب فقرة تفيد أن الهجویری بدأ تأليف الكتاب في بلاد الهند حيث كان أسيرا في مدينة لاهور بين أناس ليسوا من جنسه . وتضمنت الفقرة نفسها اشارة من الهجویری الى مجموعة الروايات التى جمعها الختلى ، وأبدى الهجویری أسفه لأنه ترك هذه المجموعة في موطنه غزنين (٢) .

ثالثا : بالنسبة لفترة الأسر المذكورة ، فقد كانت في عام ٤٣٥ هـ ، وهو العام الذى وقعت فيه فتنة الراجات الهند في لاهور ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين (٣) . ومن المرجح أن الهجویری كان من بين الأسرى .

رابعا : ذكر صاحب « تذكرة على هجویری » أن الهجویری ذهب الى لاهور بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوى على أيدي السلاجقة ووقوع الاضطرابات والقتال في غزنه وكان ذلك حوالى سنة ٤٣١ هـ (٤) .

واستنادا الى ما تقدم نستنتج أن الختلى توفي قبل عام ٤٣١ هـ . وهذا لا يتعارض مع ما ذكره الهجویری من أن شيخه الختلى كان من أقران شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبه (٥) المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وأبى عمر القزوينى ، (٦) المتوفى سنة ٤٤٢ هـ (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٢) « السابق » ص ١١٠ .

(٣) « الكامل » حوادث سنة ٤٣٥ هـ ، « سلطنة غزنويان » ص ٢٣٧ .

(٤) « تذكرة على هجویری » ص ٢٠ .

(٥) « خلط جامى بين شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبه المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وبين ابنه أبى الفتح المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، « ماالترجمة التى وردت في النفحات لشيخ الشيوخ هي ترجمة ابنه أبى الفتح التى وردت في شد الأزار (قابل بين « شد الأزار » ص ١٢٨ — ١٢٩ ، و « نفحات الانس » ص ٢٧٩) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٧) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ هـ ، « صفو الصفوة » أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى

حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری وأفاد منهم :

« أبو القاسم علی الجرجانی الطوسی » : من شيوخ الصوفية المعروفين من طبقة أبي سعيد بن أبي الخير (٤٤٠ هـ) ، ومريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) .

تحدث الهجویری عن الجرجانی فوصفه بأنه : « لا نظير له في عصره ، ولا بديل منه في زمانه ، وقام بأسفار شاقة في المعاملة » (١) .

وقد لجأ الهجویری الى الجرجانی لحل مشاكله ، ووضع فيه ثقته ، ومنحه أسرارہ ، ففى الوقت الذى كان لا يزال فيه الهجویری شاباً مغروراً ، كان الجرجانی يمثل القطب الذى يدور حوله أهل زمانه ، وتتجه اليه قلوب الصوفية في كل مكان ، ويعتمد عليه المريدون ، فقد كان آية في كشف وقائع المريدین ، وعالماً بفنون العلم (٢) .

وكانت للجرجانی كرامات وصف لنا الهجویری واحدة منها حدثت معه شخصياً (٣) ، ويبدو أنه كان يتردد عليه كثيراً في طوس ويسأله في كل ما يعن له من أمور ، فقد سأله عن الشروط التى ينبغى توفرها في الدرويش لكي يكون جديراً بأن يلقب بالفقيه (٤) . كما سأله عن شروط الصحبة (٥) .

وفى حديث للهجویری عن الأحوال وانروى التى ظهرت له ، والرياضات التى مارسها : قال له الجرجانی ، عندما رأى نخوة الصبى وجذوة الشباب تقوده الى الزهو والغرور :

« يا بنى ، ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة . والآدمى لا يخلص أبداً من أسار الزهو » (٦) .

وكان الجرجانی جديداً المذهب ، ترتبط سلسلة شيوخه بالجنيد بثلاث وسائط (٧) ، فهو مريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) ، وكان المغربي مريداً لأبى على الكاتب (٣٤٠ هـ) ، والكاتب مريداً لأبى على الرودبارى (٣٢٢ هـ) ، والرودبارى مريداً للجنيد البغدادي (٢٩٧ هـ) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١١ .

(٢) « السابق » ص ٢١١ .

(٣) « السابق » ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٤) « السابق » ص ٥٥ .

(٥) « السابق » ص ٤٤١ .

(٦) « السابق » ص ٢١٢ .

(٧) « نفحات الانس » ص ٣٠٧ .

ولكن « دارا شكوه » خلط بين الجرجاني وتلميذه ومريده أبى على الفارمدى ، فذكر أن الجرجاني كان يجمع بين مذهب الجنيد ، ومذهب أبى يزيد البسطامي عن طريق أبى الحسن الخرقاني(١) . والصحيح أن الفارمدى هو الذى كان مريدا للخرقاني من ناحية ، وللجرجاني من ناحية أخرى(٢) . أما الجرجاني فقد كان معاصرا لأبى الحسن الخرقاني وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى العباس الشقاني وأبى القاسم القشيري .

وكانت هناك علاقات ودية ، تقوم على أساس من التقدير والاحترام المتبادل ، تربط بين الجرجاني وأبى سعيد والقشيري ، فقد كان الجرجاني يرسل مريده الى أبى سعيد ليتم لهم تعليمهم(٣) ، وكان أبو سعيد يعد الجرجاني مساويا له في الدرجة(٤) . أما القشيري فقد اعترف بأن الجرجاني يتفوق عليه في مجال التصوف(٥) .

كذلك خلط « العطار » في تذكرة الأولياء بين أبى القاسم الجرجاني وأبى القاسم بشر ياسين ، فنقل عن « أسرار التوحيد » قصة لقاء أبى القاسم بشر ياسين بأبى سعيد بن أبى الخير عندما كان طفلا ونسبها الى أبى القاسم الجرجاني(٦) . ومن المعروف أن أبا القاسم بشر ياسين عاش في ميته موطن أبى سعيد ، وتوفي بها عام ٣٨٠ هـ(٧) .

وكان الجرجاني على قيد الحياة عندما ألف الهجويري كشف المحجوب ، وتوفي عام ٤٥٠ هـ(٨) ، وإن كان « ابن العماد الحنبلي » يذكر لوفاة الجرجاني تاريخا آخر هو عام ٤٦٩ هـ(٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأصح ..

وقد تتلمذ على الجرجاني ، بالإضافة الى أبى على الفارمدى ، « أبو بكر

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .

(٢) « نجات الانس » ص ٣٦٨ .

(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٠٧ .

(٤) « السابق » ص ٨١ .

(٥) « السابق » ص ١٤٤ .

(٦) « تذكرة الأولياء » فريد الدين العطار : نشر نيكلسون ليند ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م

النصف الثاني ص ٢٥٣ .

(٧) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٣٣ - ٣٦ .

(٨) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » ميمو مطبوعة : طهران ١٣١٨ هـ ،

ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي :

القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٣٣٤ .

النساج « أستاذ الشيخ أحمد الغزالي (١) شقيق الإمام الغزالي . وغيره من المريدين ممن وصفهم الهجویری بأن كلا منهم زينة لعالم (٢) .

والى جوار الشقاني والختلي والجرجاني ، توجد شخصية أخرى طالما تردد عليها الهجویری وتلقى عنها بعض التعاليم الصوفية ، وهى شخصية : (خواجه) أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان (النوقاني) (٣) الملقب بالسيد الإمام . كان من كبار الصوفية وأئمة أهل الحديث المعروفين (٤) ، ترجم له الهجویری فقال :

« ومنهم رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء : أبو أحمد المظفر بن أحمد ابن حمدان رضى الله عنه ، كان متربعا فى الرئاسة ، وقد فتح الله عز وجل له باب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة » (٥) .

ولا نعرف متى توفى خواجه المظفر ، ولكن يبدو من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد أنه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠ هـ) وأبى القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) ، ومن المرجح أنه توفى قبل تأليف كتاب كشف المحجوب ، فقد وردت فى الترجمة التى كتبها له الهجویری عبارة تدل على أنه لم يكن على قيد الحياة فى ذلك الوقت ، وأنه قد بقى منه خلف طيب هو ابنه السيد أحمد (٦) . ومعنى هذا أنه توفى قبل سنة ٤٣٥ هـ .

والمظفر كان من الصوفية الذين ينتمون الى أسر عريقة ، قطع فى طريق التصوف مرحلة كبيرة ، وبلغ فيه مكانة مرموقة تبدو من قوله : « ان ما أدركه العظماء بقطع البوادی والمغازات أدركته وأنا جالس على الحشاياء فى مكان الصدارة » .

وكان المظفر ممن يتكلمون فى الفناء والبقاء ، وله فيه بيان حسن وعبرة عالية (٧) .

وبالرغم من أن المظفر ألف كتابا فى إباحة السماع ، إلا أنه حذر الهجویری من التعود عليه ، وقال له عندما رأى نشوته به :

-
- (١) « فحاحات الاتس » ص ٣٧٠ ، طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٥١ .
(٢) « كشف المحجوب » : ص ٢١١ .
(٣) « أسرار التوحيد » : الترجمة : ص ٢١٣ .
(٤) « كشف المحجوب » : ص ٥٢٤ .
(٥) « السابق » ص ٢١٢ .
(٦) « السابق » ص ٢١٣ .
(٧) « السابق » ص ٢١٣ .

« سوف يأتى وقت يتساوى فيه لديك هذا السماع ونعيق الغراب ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فإذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع » (١) .

٣ - الشخصيات التى تأثر بها الهجویری :

بالإضافة الى الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری ، هناك عالم من علماء الصوفية وشيخ من شيوخهم من المعاصرين للهجویری ، كان له أثر واضح فى شخصيته وفى كتابه ، وهو :

« أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشیری » من شيوخ خراسان ، وإمام نيسابور ، وصاحب الرسالة القشيرية .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم ينص على أنه تتلمذ على القشیری ، إلا أنه من الواضح أنه كان من الشخصيات التى تركت أثرا بارزا فيه ، فقد حذوه فى كتابه (٢) ، ونقل من رسالته كثيرا من رؤوس الموضوعات التى تناولها ، وبعض الآراء المتعلقة بالأصول الصوفية ، بل أن هناك علاقة وثيقة بين مقدمة الرسالة للقشیری ومقدمة كشف المحجوب ، فالحقارىء للمقدمتين يدرك لأول وهلة مدى التشابه بينهما حتى فى استعمال نفس العبارات والألفاظ .

والقشیری كان مريدا لأبى على الدقاق (م ٤٠٥ هـ) (٣) ، واستأذا لشيخ شيوخ خراسان أبى على الفارمدى (م ٤٧٣ هـ) (٤) .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فى الباب الذى ترجم فيه لأسانذته وشيوخه (٥) . كما نقل عنه بعض الآراء التى سمعها منه شخصا ، كراهيه فى مسألة الفقر والغنى (٦) ، وراهيه فى المحبة (٧) ، وموقفه من الحلاج (٨) ، وقصد زيارته لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان (٩) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ .

(٢) « السابق » ص ١٤١ .

(٣) « سفينة الأولياء » ص ١٦٥ .

(٤) « نفحات الانس » ص ٣١٣ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٦) « السابق » ص ٢٨ .

(٧) « السابق » ص ٤٠١ .

(٨) « السابق » ص ١٠٩ .

(٩) « السابق » ص ٢٠٥ .

وكان القشيري ينتمي الى حلقة ابي سعيد بن ابي الخير ، وكان ابو سعيد يبدى اعجابه الشديد بالقشيري ويصفه بأنه أستاذ الاساتذة (١) . كما تحدث القشيري عن ابي سعيد بعد وفاته في احترام وتقدير عظيمين ، وقال في حقه : « عندما رأينا الشيخ ابا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره لقرانا التصوف في الكتب » (٢) .

وهناك عدد آخر من شيوخ الصوفية المعروفين تأثر بهم الهجویری علی الرغم من أنه لم يلتق بهم . ومن هؤلاء من كان معاصرا للهجویری ولم تسنح له الفرصة للقاءه مثل ابي سعيد بن ابي الخير ، ومنهم من كان سابقا عليه وتأثر به عن طريق اطلاعه على كتبه ومؤلفاته وجمع أخباره مثل الحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن علی الترمذی .

اما « ابو سعيد بن ابي الخير » فهو « ابو سعيد فضل الله بن ابي الخير محمد بن أحمد الميهني » ، من أكبر الشخصيات الصوفية التي عاشت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، والنصف الأول من القرن الخامس .

وقد ترجم الهجویری لأبي سعيد فوصفه بأنه « سلطان سلاطين المحبين ، ومملك ملوك الصوفيين ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال . كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة وشأن عظيم في درجة اشرافه على الأسرار ، وكان له آيات وبراهين كثيرة » (٣) .

وابو سعيد ولد في مدينة « ميهنه » من أعمال « خاوران » باقليم « خراسان » سنة ٣٥٧ هـ ، وتلقى علومه الأولى فيها ، ثم انتقل الى مدينة « مرو » لدراسة الفقه ، فقرأ على ابي عبد الله الخضرى خمس سنوات ، وبعد وفاته تحول الى ابي بكر القفال المروزی فقرأ عليه خمس سنوات أخرى ، ترك بعدها مرو الى « سرخس » حيث درس التفسير وعلم الأصول واخبار الرسول على الامام ابي علی زاهر بن أحمد (٤) . ثم لم يلبث ابو سعيد أن ترك دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية ، واتخذ ابا الفضل حسن السرخسی مرشدا له وقادة (٥) .

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .

(٢) « السابق » ص ٤١٣ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ .

(٤) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٤٠ .

(٥) « السابق » ص ٤١ - ٤٢ .

وقام أبو سعيد برياضات شاقة لمدة خمسة عشر عاما ، قضى سبعة أعوام منها معتكفا في زاوية داره (١) ، ثم رجع الى سرخس فمارس الرياضة تحت اشراف ابن الفضل عاما (٢) ، بدأ بعده فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضاهما متجولا في صحراء خاوران (٣) . وفي خلال هذه الفترة الأخيرة توفي أبو الفضل ، فالتقى أبو سعيد بأبي عبد الرحمن السلمي في نيسابور وتلقى منه الخرقة الاولى (٤) ، ثم اتصل بأبي العباس القصاب ونال على يديه الخرقة الثانية (٥) .

وكان أبو سعيد يعتقد مذهب أبي يزيد البسطامي ، الذي يقوم على فكرة وحدة الوجود ، وأصبح هو ومعاصره أبو الحسن الخرقاني من أكبر المروجين لهذه الفكرة (٦) .

ويعتبر أبو سعيد الرائد الأول لشعراء الصوفية من الإيرانيين ، فقد كان أول من صاغ عقائده نظما بالفارسية ، فكان مثالا احتذاه فيما بعد شعراء الصوفية الكبار من الإيرانيين أمثال « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » (٧) ، بل أن أغلب المستشرقين اعتمدوا في دراساتهم لتعاليم أبي سعيد وعلاقتها بالتطور التاريخي للصوفية على الرباعيات التي نسبت اليه (٨) .

وقد احتل أبو سعيد من التصوف الاسلامي مكانة مرموقة عندهما اتخذ ، في مطلع القرن الخامس الهجري من مدينة نيسابور مركزا لنشاطه (٩) ، وأخذ يعقد المجالس فيها لمدة طالت حتى قاربت الثلاثين عاما ، التقف خلالها حوله كثير من المريدين ، وذاع صيته في اقليم خراسان ، وتهافت الناس على مجالسته (١٠) ، واختلف اليها كثير من شيوخ الصوفية ورجال الدين وأئمة المذاهب المختلفة ، من بينهم « أبو العباس الشقاني » و « أبو القاسم الجرجاني » و « أبو محمد الجويني » (١١) والد امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، و « أبو القاسم القشيري » (١٢) .

(١) « اسرار التوحيد » ص ٤٤ .

(٢) « السابق » ص ٥٤ .

(٣) « السابق » ص ٤٥ ، ٥٦ .

(٤) « السابق » ص ٥٠ .

(٥) « السابق » ص ٦٤ .

(٦) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism : London, 1921, p. 76.

(٧) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسي انظر ص ٦ من المقدمة .

(٨) Studies in Islamic Mysticism : p. 48.

(٩) « اسرار التوحيد » : الترجمة ص ٧٧ .

(١٠) « السابق » ص ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٦ .

(١١) « السابق » ص ١٠٨ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٣١ .

(١٢) « السابق » ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ .

ويعزى الى أبى سعيد أنه أول من أسس نظام الخانقاهات فى الاسلام (١) ،
فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخانقاهات ، ووضع لحياتهم بها
القواعد والأسس (٢) .

وكان أبو سعيد يتميز بشخصية قوية ، ومقدرة فائقة على قراءة الأفكار ،
وقد مكنت له هاتان الميزتان من أن يسيطر على أعدائه والمنافسين له ،
فهابوه ، وتخلوا عن معارضتهم له (٣) .

وأثرت عن أبى سعيد كرامات كثيرة تحدث عنها حفيده « محمد بن المنور »
باسهاب فى كتاب أسرار التوحيد . وتوفى أبو سعيد فى ميهنة عام ٤٤٤هـ (٤) .

وعلى الرغم من أن الهجويزى لم يلتق بأبى سعيد فى حياته ، إلا أنه تأثر
ببعض أقواله وآرائه التى استمع اليها من معاصريه ، وناقش رأى
أبا سعيد فى الفقر والفنى (٥) واستشهد ببعض أشعاره وأقواله فى مواضع
من كشف المحجوب . وقام بزيارة قبره بعد وفاته ، وأقام على القبر ثلاثة
أيام ، رأى خلالها كرامة من كرامات أبى سعيد (٦) .

وأما « الحلاج » (٧) نرجع اهتمام الهجويزى به الى بداية شبابه ، وقد
خصه فى ذلك الوقت بكتاب مستقل شرح فيه أقواله ، وتحدث عن أحواله
فى كتاب آخر له اسمه : « منهاج الدين » (٨) .

وكان الهجويزى قد قرأ معظم مؤلفات الحلاج التى وقعت فى يده ،
وجمع أشعاره وأقواله وحكمه من مختلف الشيوخ ، واستخدمها فى
مناقشاته وجدله فى كشف المحجوب (٩) . كما ضمن الكتاب ترجمة للحلاج ،
وبين موقف شيوخ الصوفية منه ، وصرح بأن اثنين من شيوخه ، وهما :
« أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » كانا من بين المعتقدين
فى الحلاج ، والمعظمين لأمره (١٠) .

(١) « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى القاهرة

١٢٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ .

(٢) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

(٣) « السابق » ص ٨٩ - ٩٤ .

(٤) « السابق » ص ٣٩٨ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٤ ، ٢٦ .

(٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٧) « ترجم له السلى فى الطبقات فذكر أن اسمه » : أبو بغيث الحسين بن منصور

الحلاج (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٠٨) ويسميه ابن النديم : عبید الله بن أحمد

ابن أبى طاهر الحسين بن منصور الحلاج (انظر : ألفهرست ص ٢٦٩) .

(٨) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

(٩) « السابق » انظر : ص ٢٣٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٣٦١ وغيرها .

(١٠) « السابق » ص ١٨٩ .

وقد اختلف شيوخ الصوفية في الحلاج ، فمنهم من قبله ، ومنهم من رده ،
ومنهم من توقفوا في أمره :

فالذين ردوه كثيرون . والذين قبلوه منهم : « ابن عطاء » و « ابن خفيف »
و « النصرابادي » ، ومن المتأخرين « أبو سعيد بن أبي الخير » ، وقد أشاد
أبو سعيد بالحلاج ووصفه بأنه كان فريد عصره في علوم التصوف في المشرق
والمغرب (١) .

وأما الذين توقفوا في أمره فمنهم : « القشيري » (٢) والشيخ « عبد الله
الأنصاري » (٣) .

والحلاج صلب ببغداد سنة ٣٠٩ هـ ، ويرجع السبب في قتله الى مقالته
المشهورة : « أنا الحق » التي أعلن فيها اتحاده بالذات الالهية ، والى
مجبوعة أخرى من الأسباب . كما اتهم بالسحر والشعوذة وادعاء
الكرامات .

وقد دافع الهجویری عن الحلاج دفاعا حارا ، وحاول أن ينفي عنه
ما نسبوه اليه من الاحتیال والسحر ، ظننا منهم أن الحسين بن منصور
الحلاج هو الحسن بن منصور الملحد البغدادي ، استاذ محمد بن زكريا ورفيق
أبي سعد القرمطي (٤) .

وكان الهجویری أول من طرق هذه الفكرة بأنه كان هناك شخصان يدعى
كل منهما الحلاج : أحدهما ذلك الملحد الذي ينسب الى بغداد ، والآخر
الحلاج الحقيقي الفارسی المنسوب الى بيضاء فارس . وقد نقل كل من
« العطار » (٥) و « محمد بارسا » (٦) هذه الفكرة عن الهجویری .

ويذكر الهجویری أن الحلاج الحقيقي الذي اختلف المشايخ في أمره
وهجروه ، لم يكن هجرهم له يعنى الطعن في دينه ومذهبه ، بل في حال
دنياه ، والا لما قال عنه الشبلي : « أنا والحلاج شيء واحد » ، وقال محمد
ابن خفيف « هو عالم رباني » . وانها كان هجرهم له بسبب اغضابه
لشيوخه ، فقد كان في بداية أمره مريد سهل بن عبد الله ، وانصرف عنه دون

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة ص ٩٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) « نفحات الانس » انظر : ص ١٥٠ .

(٤) « كشف المحجوب » ١٩٠ .

(٥) « تذكرة الاولياء » (انظر ج ٢ ص ١٤٦) .

Bulletin of Oriental Studies : Zhukovsky's Introduction. (٦)

نقلا عن : فصل الخطاب .

استئذان واتصل بعمر بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق بالجنيد ، فلم يقبله . ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل (١) .

وساق الهجویری الدلیل علی بطلان ما نسب الی الحلاج من السحر فذكر أن السحر فی أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، وأن اظهار السحر فی حال الکمال کفر واطهار الکرامة معرفة ، لأن الاول يكون نتيجة لسخط الله جل جلاله ، والاخر قرينة علی رضائه .

وأضاف الهجویری أن أهل السنة والجماعة متفقون علی أن المسلم لا يكون ساحرا ، وأن الکافر لا يكون مكرما ، لأن الاضداد لا تجتمع . والحسين بن منصور كان طوال عمره فی ثياب الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذکار ومناجيات كثيرة ، وصیامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونکات لطيفة فی التوحيد ، غلو كانت أفعاله سحرا لکان هذا كله منه محالا . وعلى هذا فان ما نسب الیه کان من الکرامات . والکرامات لا تكون الا لولی محقق (٢) .

کذلك دافع الهجویری عن الحلاج للمرة الثانية بشأن ما نسب الیه من الأقوال التي تعبر عن الامتراج والاتحاد ، فذكر أن ذلك کان مبالغة منه وتهويلا فی العبارة لا فی المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب علی العبارة حتی تصح عبارته فی غلبة الحال . وذكر أيضا أنه يجوز أن يكون معنى تلك العبارات صعبا فلا يستطيعون فهم مقصوده منها ، ويصور لهم وهمهم صورة عنها ينكرونها ، وانکارهم هذا يرجع الیهم لا الی ذلك المعنى (٣) .

ولا شك أن رأى الهجویری هذا فی الحلاج يختلف كثيرا عن آراء غيره فيه . ويبدو هذا الاختلاف جليا اذا ما قارنا أقواله بقول واحد من معاصري الحلاج ، وهو : « الاصطخرى » الذى أشار الی الحلاج وصور نظريته فی الحلول فقال : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ، وكان رجلا حلاجيا ينتحل النسك ، فما زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال الی أن زعم أن من هذب فی الطاعة نفسه ، واشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر علی مفارقة اللذات ، وملك نفسه فی منع الشهوات ارتقى به الی مقام المقربين . ثم لا يزال يتنزل فی درج المصافاة حتى يصفو

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ .

(٢) « السابق » ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

عن البشرية طبعه ، فاذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذى كان منه عيسى بن مريم ، فيصير مطاعا فلا يريد شيئا الا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله « (١) » .

وعلى الرغم مما رأيناه من الدفاع المستميت للهجویری عن الحلاج ، الا أنه يصرح بأنه لم يكن يصلح لأن يكون قدوة ، وهو يوضح السبب في ذلك فيه ذكر أنه كان مغلوبا في حالة غير متمكن ، وينبغى للقدوة أن يكون متمكنا حتى يمكن الاقتداء به . وكذلك لم يمنعه تصريحه بأن الحلاج يحتل من قلبه مكانا عزيزا ، من أن ينقد طريقه ، فيصفه بأنه لم يكن مستقيما على أى أصل ، وأن حاله غير مستقرة على وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة (٢) .

وذكر الهجویری أنه رأى في بغداد ونواحيها طائفة من الملاحدة يدعون توليهم للحلاج ، وقد اتخذوا من أقواله حجة لزندقتهم ، وأسماوا أنفسهم الحلاجيين .

وتنسب الى الحلاج مؤلفات كثيرة ، رأى منها الهجویری خمسين مؤلفا ، بعضها في بغداد ، وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان (٣) . وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين مؤلفا من مؤلفات الحلاج (٤) .

والى جوار الحلاج كانت هناك شخصية أخرى تأثر بها الهجویری وهى شخصية « أبى عبد الله محمد بن على الترمذی » المعروف بالحكيم . وهو متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقه حنفى ، توفى عام ٢٨٥هـ (٥) . ذكره السلى في طبقات الصوفية على أنه من كبار شيوخ خراسان (٦) ، وترجم له الهجویری فوصفه بأنه كان كاملا واماما في فنون العلم ، ومن المشايخ المحتشمين ، له تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة (٧) . وكانوا يطلقون عليه اسم « حكيم الاولياء » (٨) .

-
- (١) انظر ص ١١٤ من : « الحياة الروحية في الاسلام » محمد مصطفى طس : القاهرة ١٩٤٥ (نقلا عن الاصطخرى) .
- (٢) كشف المحجوب ص ١٩٢ .
- (٣) كشف المحجوب ص ١٩١ .
- (٤) الفهرست ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
- (٥) التصوف الثورة الروحية ص ٣٠٨ .
- (٦) طبقات الصوفية ص ٢١٧ .
- (٧) كشف المحجوب ص ١٧٧ .
- (٨) تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ .

وكان الترمذى شيخا لأبى على الجوزجاني ، وأبى بكر الوراق الترمذى وروى عنه هذا الآخر أن الخضر عليه السلام كان يحضر إليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع (١) .

وقد حظى الترمذى بتعظيم الهجویری وجهه عن طريق قراءته لكتبه التي أشار الى عدد منها في كشف المحجوب ، لا سيما كتابه « ختم الولاية » الذي اعتمد عليه الهجویری في مناقشته لموضوع الولاية . كما نسب اليه فرقة الحكيمية (٢) من المتصوفة ، وذكر أن أساس مذهبها يقوم على الولاية .

ويعد الترمذى رائد « ابن عربى » الذي جاء بعده بثلاثة قرون ، فقد درسه وأعجب به ، ولا سيما بكتابه المفقود « ختم الولاية » .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٧٨ .
(٢) « السابق » ص ٢٦٥ وما بعدها .

الفصل الخامس رحلات الهجویری

بعد أن أتم الهجویری دراسته الأولى فی موطنه غزنه ، وحصل قدرا كافیا من العلوم المعروفة علی عهده ، سلك مسلك علماء عصره فی السفر والتجول طلبا للعلم والمعرفة ، فرحل الی بلاد متعددة ، وطوف طویلا فی العالم الإسلامی ، من سوريا الی التركستان ، ومن بحر قزوين الی الهند ، فزار العراق وخوزستان وفارس والشام وأذربيجان وجرجان وخراسان وما وراء النهر والتركستان والهند . وقد أفادته هذه الرحلات فأمده بحصيلة وفيرة من المعلومات والمعارف ، ومكنه من لقاء كثير من رجال العلم والأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين فی عصره ، والمثليين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة . وحادث بعض هؤلاء ، وجادل بعضهم ، واستمع الی آراء كثير من الشيوخ وجمع أقوالهم ، وبهذا حصل علی مادة متنوعة وحیة استخدمها فی حکایاته عن الشيوخ الذين ترجم لهم ، وفی القائه الأضواء علی مختلف الأمور التي عالجه فی كتابه .

ويبدو أن الهجویری مر بفترة عاصفة من حياته قبل أن يتصوف ، وأنه بدأ رحلاته فی خلال تلك الفترة وهو لا يزال فی سن الشباب ، وكانت أولى رحلاته .

رحلته الی العراق : وقد صور لنا حياته فیها ، وكيف أنه انشغل بجمع الثروة وبعثرتها ، والتف حوله بعض الفضوليين وأخوان السوء الذين أرهقوه بمطالبهم حتی عجز عن تحقيق رغباتهم ، وغرق فی الديون .

ويبدو أن الهجویری كان علی صلة ببعض رجال الدين والأئمة المعروفين فی ذلك العصر ، وربما كانوا من طبقة والده أو من أساتذته الذين تتلمذ علیهم ، وكان من بین هؤلاء شخص يتابع أخباره ، وعرف نوع الحياة التي انغمس فیها ، فأشفق علیه منها ، وبعث الیه برسالة ينصحه فیها ويحذره من أن يشغل قلبه عن الله بالاهتمام بتحقيق رغبات أولئك الذين ملأ الهوى قلوبهم ، وطلب منه أن يكف عن ذلك (١) .

(١) كشف المحجوب ص ٤٤٩ .

وأحدثت رسالة ذلك السيد أثرها في نفس الهجویری في الحال ، وأحس بالراحة ، ويبدو أنه اتجه بعدها الى النوبة .

وفي العراق زار الهجویری « بغداد » ونواحيها ، ورأى هناك جماعة من الصوفية المزيين ، سماهم « الملاحدة » ، وكانوا يدعون كذبا أنهم ينتسبون الى الحلاج ، واتخذوا من بعض اقواله حجة لزندقتهم ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الحلاجيين » (١) . وكان الشيخ الكبير أبو جعفر محمد ابن المصباح الصيدلانی ومعه أربعة آلاف من أتباع الحلاج الحقيقيين المنتشرين في العراق يصبون اللعنة على هؤلاء الحلوليين الذين ينسبون أنفسهم زورا الى الحلاج (٢) .

رحلته الى فرغانه : من المرجح أن تكون هذه الرحلة هي الرحلة الثانية من رحلات الهجویری ، وأنه قام بها بعد أن أطلع عن حياة اللهو والعبث واتجه الى التوبة ، وأخذ يتقرب الى شيوخ الصوفية بزيارة بعض الأحياء منهم ، وزيارة قبور من ودعوا الحياة . ونجد في مقدمة الأحياء الذين زارهم : « الباب الفرغانی » (٣) .

والباب هذا كان شيخا من الأوتاد يدعى « عمر » ، ويقیم في قرية من قرى فرغانه اسمها « شلاتك » ، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم جريا على عادة أهل تلك الديار الذين كانوا يطلقون اسم « الباب » على الشيوخ الكبار (٤) .

ولما مثل الهجویری بين يدي « الباب » سأله : لم جئت ؟ قال : لأرى الشيخ ، وليشملني بعين رعايته . فقال له الباب : يا بني ؟ اننى أرمك منذ اليوم (الفلانی) ، فلما أحصى الهجویری السنين والأيام وجد أن اليوم المشار اليه هو اليوم الذى بدأ فيه توبته . ونصحه الباب أن يقلع عن السفر والتجول ، فالأمر ليس موقوفا على زيارة المشايخ ، وإنما عليه بالهمة .

وفي هذه الزيارة رأى الهجویری كرامة من كرامات الباب (٥) .

(١) كشف المحجوب ص ١٩٢ .

(٢) السابق ص ٣٣٤ .

(٣) ترجم له جامی في نفحات الانس وقال أن شيخ الاسلام عبد الله الاتصاری ذكر أن الشيخ « هو » رآه (انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٢) ، والشيخ « عمر » : كنيته أبو اسماعيل ، واسمه أحمد بن محمد بن حمزة الصوفي ، توفي سنة ٤٤٢ هـ وقبره في هراة (انظر : « سفينة الاولياء » ص ١٦٣) .

(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

رحلته الى الشام :

يبدو أن نصيحة الباب للهجویری بالكف عن زيارة المشايخ قد لاقت منه اقتناعاً وقبولاً . وكان عليه بعد ذلك أن يختار لنفسه موجهاً روحياً ومرشداً يسلم اليه أمره ، ويسلك الطريق بارشاده .

ورحل الهجویری الى بلاد الشام ، وهناك التقى بأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى فاتخذ منه مرشداً وقدوة (١) .

وكان الختلى يسكن « بيت الجن » وهى قرية تقع بين « بانيسار » و « دمشق » . ولأزم الهجویری شيخه الختلى مدة طويلة ، وظل يصحبه الى أن توفى ، وكان يتردد على دمشق فى رفقته (٢) .

وفى بلاد الشام زار الهجویری قبر « بلال » مؤذن الرسول عليه السلام ، وبات ليلة على القبر ، ورأى الرسول فى نومه (٣) .

كذلك ذهب الى الرملة لزيارة « ابن المعلا » وكان شيخاً من كبار شيوخ الصوفية وسادة أهل زمانه . وقد وجده الهجویری من المهتمين بالحسين ابن منصور الحلّاج (٤) .

رحلته الى آذربيجان :

فى اثناء الفترة التى لازم فيها الهجویری شيخه الختلى كان يتردد فى رفقته على ديار آذربيجان ، فرأى بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرقعاتهم ليضع فلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (٥) فسأل شيخه : بأى خزى ابتلى هؤلاء ونضحوا على هذا النحو ؟ فأجابه الشيخ بأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدین وهم يحرصون على جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص (٦) .

وفى جبال آذربيجان رأى الهجویری درويشاً كان يسير وهو يردد أبياتاً من الشعر ، وبدا عليه الشحوب ، وجلس مسنداً ظهره الى حجر ثم فارق الحياة (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٣٠٠ .

(٣) « السابق » ص ١١٦ .

(٤) « السابق » ص ٤٤٧ .

(٥) « سورة البقرة » آية ١٦ .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٦٤ .

(٧) « السابق » ص ٥٣٥ .

رحلته الى خوزستان وفارس :

من بين الأقاليم التي أشعار الهجویری الى أنه قام بزيارتها اقليما خوزستان وفارس . وقد رأى فيها وفي بغداد وخراسان خمسين مؤلفا من مؤلفات الحلاج (١) .

رحلته الى جرجان :

كذلك زار الهجویری اقليم جرجان ، وتردد كثيرا على « بسطام » حيث يوجد قبر أبى يزيد البسطامي ، فقد اعتاد كلما اعترضته مشكلة في الطريق أن يذهب الى بسطام ويقيم فيها مجاورا على قبر أبى يزيد حتى تحل مشكلته . وفي إحدى المرات امتدت اقامته على القبر لمدة ثلاثة أشهر (٢) .

رحلته الى خراسان :

وذهب الهجویری الى اقليم خراسان ، ويبدو أنه أقام فيه طويلا ، وزار عددا من ولاياته ومدنه وقراه .

وقد وصف الهجویری خراسان في عصره بأنها موضع اقبال الحق ، وذكر أنه رأى فيها وحدها ثلاثمائة من الصوفية لكل منهم مشرب خاص ، ويكنى أن يكون في العالم واحد منهم ، ذلك أن شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان (٣) .

ومن بين المناطق التي زارها الهجویری في خراسان ولاية « قومس » ، وكان في ذلك الوقت يعاني مشكلة اعترضته في الطريق ، وهناك نزل في خانقاه للدراويش ، وأساء هؤلاء معاملته ، ولكن هذه المعاملة الخسنة أفادته من ناحية أخرى ، فقد أحس بعدها بالراحة ، وحلت واقعته (٤) .

وكان الهجویری يتردد على « نيسابور » لزيارة (خواجه) المظفر ابن حمدان وهناك سمع منه رأيه في الفناء والبقاء (٥) .

كذلك التقى الهجویری في « نيسابور » بأبى القاسم القشيري ، وحدثه القشيري بقصة ذهابه الى خرقان لزيارة أبى الحسن الخرقاني (٦) ، وسمع

(١) « كشف المحجوب » ص ١٠١ .

(٢) « السابق » ص ٧٧ .

(٣) « السابق » ص ٢١٦ .

(٤) « السابق » ص ٧٧ .

(٥) « السابق » ص ٢١٣ .

(٦) « السابق » ص ٢٠٥ .

الهجویری فی نيسابور ایضا رأى القشیری فی مسألة الفقر والغنى (١) .
أما مدينة « طوس » فیبیدو أن الهجویری أقام فیها فترة ، كان یتردد خلالها
على شیخه أبی القاسم الجرجانی ویتلقی منه تعالیمه الروحية (٢) .

وقد التقی الهجویری فی مدينة « سرخس » بالسید الامام الحزامی الذی
حدثه بقصة کرامة من کرامات الشیخ أبی الفضل حسن السرخسی (٣) .
وفی مدينة « مرو » رأى الهجویری الرسائل المتبادلة بین أهل « مرو »
وأهل « نسا » من السیارية أتباع أبی العباس السیاری (٤) .

وفی مرو ایضا قال له واحد من أئمة الحدیث المعروفین انه ألف کتابا فی
اباحة السماع ، فقال له الهجویری : انها لمصیبة کبری حلت بالذین أن
أهل السید الامام لهوا هو اصل جمیع الفساد (٥) .

کذلك زار الهجویری مدينة « میهنه » موطن أبی سعید بن أبی الخیر
وأقام على قبره ثلاثة أيام ، ورأى کرامة من کراماته (٦) ، والتقی أثناء هذه
الزيارة بلأظفر (٧) ابن الشیخ أبی سعید . ورأى ایضا خادم أبی سعید
الخاص ومريده « حسن بن المؤدب » ، وقص علیه هذا الآخر قصة زیارة
أبى سعید لأبى الحسن الخرقانی فی خرقان (٨) .

رحلته الى ما وراء النهر :

ذكر الهجویری أنه کان لفترة طويلة ، فی ما وراء النهر ، صديقا لأحمد
ابن حماد السرخسی (٩) ، ورأى منه عجائب كثيرة (١٠) . ومن الأشياء التى
استمتع لیها منه قصة توبته (١١) ، ورأیه فی الزواج (١٢) .

وفی ما وراء النهر ایضا رأى الهجویری رجلا من أهل الملامة كان لا یأكل
الا ما یعافه الناس ، كالکرات الذابل والقرع المر والجزر التالف . وكان

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٨ .

(٢) « السابق » ص ٥٥ ، ٣٠١ .

(٣) « السابق » ص ٢٨٧ .

(٤) « السابق » ص ٣٢٢ .

(٥) « السابق » ص ٤٦٧ .

(٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٧) « السابق » ص ٢١٦ .

(٨) « السابق » ص ٢٠٥ .

(٩) « السابق » ص ٤٧٦ .

(١٠) « السابق » ص ٢١٦ .

(١١) « السابق » ص ٢٤٢ .

(١٢) « السابق » ص ٤٧٧ .

يصنع ملابسه من الخرق البالية التى يلقيها الناس فى الطريق ، فيجمعها
ويغسلها ويصنع منها مرقعة (١) .

كذلك رأى فى مدينة بخارى الشيخ أحمد السمرقندى ، ولم يكن قد نام
الليل لمدة اربعين عاما ، وكان ينام قليلا اثناء النهار (٢) .

رحلته الى التركستان :

وذهب الهجويرى الى التركستان ، وصور لنا مشاهداته فى هذه الرحلة
فقال انه رأى النار فى احدى المدن التى تقع على حدود البلاد الاسلامية ،
وقد اندلعت فى جبل ، وكان النواشادر يفور من أحجاره ، وفى وسط تلك
النار كان يوجد فأر حى فلما خرج من النار هلك (٣) .

رحلته الى الهند :

وفى نهاية المطاف رحل الهجويرى الى بلاد الهند حيث أمضى الفترة
الآخيرة من حياته فى مدينة « لاهور » ، وظل بهذه المدينة الى أن توفى ،
ولا يزال قبره بها .

(١) « كشف المحجوب » ص ٥٦ .
(٢) « السابق » ص ٤٦٠ .
(٣) « السابق » ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

الفصل السادس

المرحلة الأخيرة من حياة الهجویری

استقرار الهجویری فی لاهور وفاته فیها وقبره

ذكرنا من قبل أن الهجویری أمضى الفترة الأخير من حياته فی بلاد الهند حيث استقر به المقام فی مدينة لاهور . وظل بها الى أن توفي ، ولا يزال قبره هناك .

وقد أشارت بعض المصادر الى أن الهجویری ذهب الى الهند بناء على أمر صدر اليه من شيخه أبی الفضل الختلی (١) . ورأينا فیما ورد فی كشف المحجوب عن الختلی أن الهجویری لازمه الى أن توفي فی قرية « بيت الجن » (٢) بسوريا . فاذا صح التاريخ الذى أورده صاحب خزينة الاصفیاء لوفاة الختلی ، وهو سنة ٤٥٣ هـ (٣) ، فان الهجویری يكون قد ذهب الى الهند بعد هذا التاريخ ، أى بعد سنة ٤٥٣ هـ .

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ المذكور يبعد عن الصواب ، ذلك أن الهجویری كان أسیراً فی لاهور أثناء الفتنة التى وقعت بها سنة ٤٣٥ هـ ، وقد أشار هو بنفسه الى أنه كان يؤلف أجزاء من كشف المحجوب خلال فترة الأسر (٤) ، وفى هذا ما يؤيد أنه رحل الى لاهور قبل سنة ٤٣٥ هـ ، ويرجح فی نفس الوقت ما ذكرته بعض المصادر من أن الهجویری ذهب الى الهند سنة ٤٣١ هـ ، أثناء الاضطرابات التى وقعت فی غزنه فی أواخر عصر السلطان مسعود الغزنوی (٥) .

غير أن هناك اشارتين وردتا فی كشف المحجوب ، لهما دلالات معينة :
الأولى : أن الهجویری أشار فی موضع من الكتاب الى أنه اطلع على الرسالة القشيرية واقتدى بنظامها فیما يتعلق بترتيب بعض الأشخاص

(١) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ من ٢٢٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٣) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ من ٢٣١ .

(٤) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٥) « تذكرة حضرت علی هجویری » ص ٢٠ ، ٢٣ ، « The Life and Teachings »

في القسم الخاص بالتراجم (١) . ومن المعروف أن الرسالة ألقت سنة ٤٣٧ هـ .
فلا بد أنه اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

والثانية : صرح الهجویری بأنه قام بزيارة قبر أبي سعيد بن أبي الخير في
« ميهنه » ، وأقام على القبر ثلاثة أيام (٢) . ومن البديهي أن هذه الزيارة
تمت بعد وفاة أبي سعيد سنة ٤٤٠ هـ .

واستنادا الى ما تقدم نرى أنه من المحتمل أن يكون الهجویری قد ذهب
الى بلاد الهند مرتين :

المرّة الأولى : ضمن جولاته في العالم الاسلامی ، فذهب الى بلاد الهند
أيضا . وكان ذهابه اليها قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وليس هناك ما يمنع من أنه
ذهب في عام ٤٣١ هـ ، وكان لا يزال في الهند عندما وقعت فتنة لاهور
سنة ٤٣٥ هـ ، واسر بين الأسرى .

والمرّة الثانية : ذهب فيها الهجویری الى بلاد الهند بعد وفاة أبي سعيد
ابن أبي الخير سنة ٤٤٠ هـ . وفي هذه المرّة استقر نهائيا في مدينة لاهور
حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته .

ومن المحتمل أن يكون قد أمضى الفترة ما بين الرحلتين ، أو جزءا منها ،
في غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ، واطلع على الرسالة القشيرية ،
وقام بزيارة قبر أبي سعيد بعد وفاته سنة ٤٤٠ هـ . ثم رحل الى الهند
واستقر بها .

أما عن حياة الهجویری في الهند ، وعلى وجه التحديد في مدينة لاهور ،
فيبدو أنها كانت حياة حافلة في النواحي الدينية عامة والصوفية خاصة ،
فقد أم الهجویری لاهور بعد أن طوف طويلا في العالم الاسلامی ، والنقى
بكثير من رجال الدين والأئمة المعروفين على عهده ، وتتلذذ على عدد من
شيوخ الصوفية المشهورين في النصف الأول من القرن الخامس الهجري .
واطلع في الوقت نفسه على كثير من المؤلفات الدينية والصوفية ، واستطاع
عن طريق هذا وذاك أن يبلغ درجة تؤهله لالقاء الدروس الدينية ، وهداية
الناس وارشادهم . فلما آتس من نفسه القدرة على الاسهام في الدعوة
الى الاسلام ، اتجه الى ذلك المجتمع الذي كان قد انضم حديثا الى العالم
الاسلامی ، ليمارس نشاطه في نشر تعاليم الدين ، والدعوة الى الحياة
الروحية الخالصة ، داخل حدود الدين الاسلامی .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٢) « السابق » ص ٣٠١ .

وسواء كان انتقال الهجویری الى الهند تلبية لأمر شيخه « الختلی » ،
أو استجابة لرغبته الشخصية في نشر الدين الاسلامی في تلك البقاع ، فإنه
استطاع أن ينال ثقة الأهالی في لاهور فتعلقوا به واحاطوه بهالة من الاجلال
والتعظيم .

وعندما بلغ الهجویری لاهور : اختار لاقامته الجهة الغربية من المدينة ،
قرب معبد للهندوس على نهر راوی (۱) ، حيث يوجد مزاره الآن ، وبنى
في تلك البقعة مسجداً ، وجمع حوله عدداً من الطلاب ، وأخذ يقوم بالتدريس
لهم . ثم تخلى عن التعليم لأنه في نظره يبرز نوعاً من السمو والتعالی
على الآخرين (۲) .

وقد أسهم الهجویری في تحول عدد كبير من سكان تلك المنطقة الى
الاسلام ، وكان أولهم « رای راجو » (۳) نائب لاهور في عهد السلطان مودود ،
فأسلم على يديه واتخذ لنفسه اسم « الشيخ الهندي » (۴) .

واقام الهجویری في مسجده خاتقاها (۵) ، والنف حوله فيها المريدون من
لاهور وجميع أنحاء البنجاب . ولم يكن تأثيره مقصوراً على المسلمين ، بل
كان يحضر مجلسه عدد كبير من غير المسلمين ، وأسلموا على يديه (۶) .

ويقال انه عندما بنى الهجویری المسجد ، كان محرابه يميل قليلاً الى
الجنوب عن محاريب المساجد الأخرى ، فاعترض عليه العلماء والأئمة في
ذلك الوقت ، وصمت الهجویری ، وذات يوم جمعهم وأهمهم للصلاة في
المسجد ، ولما قضيت الصلاة قال للحاضرين : انظروا في أي اتجاه توجد
الكعبة ؟ فارتفعت عنهم الحجب ، وظهرت لهم الكعبة محاذية للمسجد (۷) .
وقد روت بعض المصادر هذه القصة على أنها كرامة من كرامات الهجویری .

ويبدو أن الهجویری لم ينقطع عن التأليف والتصنيف خلال الفترة التي
قضاها في لاهور ، وإذا صحت نسبة كتابي : « ثواقب الأخبار » و « كشف
الأسرار » اليه ، فإنه يكون قد ألفهما في هذه الفترة .

(۱) « تذكرة حضرت علی هجویری » ص ۸۷ .

(۲) « The Life and Teachings » p. 24.

(۳) « تذكرة حضرت علی هجویری » ص ۸۸ .

(۴) « The Life and Teachings » p. 24.

(۵) « خزينة الاصفیاء » ج ۲ ص ۲۲۳ .

(۶) « تذكرة حضرت علی هجویری » ص ۸۷ .

(۷) « سفينة الاولیاء » ص ۱۶۴ ، « خزينة الاصفیاء » ج ۲ ص ۲۲۳ .

وتد ظل الهجویری یمارس نشاطه الروحي والديني في مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها ، وقام مريدوه والمعتقدون فيه بدفنه بالقرب من مسجده (١) .

وكان يرافق الهجویری في رحلته الى لاهور اثنان من رفاقه وهما « أحمد ابن حماد السرخسی » (٢) الذي رافقه لمدة طويلة في ما وراء النهر ، و « أبو سعيد الهجویری » (٣) الذي كتب كشف المحجوب ردا على سؤاله . وقد بقى هذان الصديقان في صحبة الهجویری طيلة اقامته في مدينة لاهور ، وظلا بها بعد وفاته حتى وانماهما أجلهما في هذه المدينة ، ودفنا الى جواره . ولا يزال قبراهما داخل ضريح الهجویری (٤) .

تاريخ وفاته :

تاريخ وفاة الهجویری مختلف فيه (٥) . وهناك تواريخ ثلاثة لوفاته ، يرد ذكرها أكثر من غيرها في معظم الكتب التي تحدثت عن الهجویری وعن كتابه كشف المحجوب ، وهذه التواريخ هي :

سنة ٥٦ هـ ، سنة ٦٥ هـ ، الفترة ما بين سنتي ٦٥ ، ٦٩ هـ .

ومما يؤسف له أن « جامی » ، على الرغم من اعتماده الكبير في « نفحات الانس » على كتاب كشف المحجوب ، وما يكنه لمؤلفه من الاعزاز والتقدير ، فانه عندما ترجم له أغفل تاريخ وفاته ، واكتفى بذكر مقتطفات قليلة من كشف المحجوب .

ولم يقطع « دارا شكوه » برأى في هذا الموضوع ، وانما أورد تاريخين لوفاة الهجویری فهو يقول : « وكانت وفاته في سنة ٥٦ هـ في قول ، وفي سنة ٦٤ هـ في قول آخر » (٦) .

أما صاحب « خزينة الأصفیاء » فقد زاد على هذين التاريخين تاريخا

(١) « جلال » جلد پنجم - شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ٤٧٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ٧ .

(٤) « The Life and Teachings » p. 26.

(٥) « لم يحاول » زوكوفسکی في المقدمة القيمة التي كتبها لكشف المحجوب عندما طبعه لأول مرة أن يبحث هذه المسألة واكتفى بأن قال : « من سوء الحظ أننا لا نملك مصدرا واحدا يقدم لنا معلومات عن حياة الهجویری بطريقة مفصلة ودقيقة ، بل أننا لا نعرف حتى تاريخ مولده ووفاته » انظر :

Zhukovsky's Introduction : Bulletin of Oriental Studies.

(٦) « سفينة الاولیاء » ص ١٦٥ .

آخر هو : سنة ٦٥ هـ (١) ، وذكر أنه استقى هذا التاريخ من الأقوال الموثوقة لصاحبى « نفحات الانس » (٢) ، و « أخبار الأصفياء » . وأضاف أنه توجد قطعة من الشعر على بوابة ضريح الهجویری تحمل تاريخ وفاته ومجموع هذه القطعة يساوى ، فى حساب الجمل : ٦٥ (٣) . وورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى كل من : « كشف الظنون » (٤) ، و « هدية العارفين » (٥) .

وقد تابع كتاب الفهارس الغربيون : « ايتة » و « ريو » و « بلوشيه » ، دارا شكوه فى ذكر التاريخين اللذين وردا فى « سفينة الاولياء » وهما : ٥٦ ، ٦٤ هـ ، ونقلوا هذين التاريخين ، أما عن « رياض الاولياء » (٦) ، وأما عن سفينة الاولياء ، وزاد عليهما « ايتة » التاريخ : ٦٥ هـ ، نقلا عن « مآثر الكرام » (٧) .

غير أن « ريو » يستبعد صحة التاريخين : ٥٦ ، ٦٤ هـ ، ويستند فى ذلك الى أن الهجویری كان معاصرا لأبى القاسم القشیرى المتوفى سنة ٦٥ هـ ، وأن اسم القشیرى يرد فى بعض مواضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمة الله) ، أو (رحمة الله عليه) (٨) ، وبناء على هذه الملاحظة يقول « ريو » أن أيا من هذين التاريخين لا يتفق مع هذه الحقيقة ، ولذا فهو يرجح أن تكون وفاة الهجویری بعد سنة ٦٥ هـ (٩) ، أى بعد وفاة القشیرى .

وفى رأينا أن ملاحظة « ريو » هذه ليست على جانب كبير من الصواب ، ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

أولا : ليس من المستبعد أن تكون هذه الإضافات من فعل الناسخ ، ومما يؤيد هذا أن اسم الهجویری نفسه ورد فى موضع من كشف المحجوب وقد أضيف اليه عبارة (رحمة الله) (١٠) .

(١) « ورد هذا التاريخ فى كتابى » : سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « تاريخ ادبيات ايران » صفا ج ٢ ص ٨٩٢ .

(٢) « لم يرد فى ترجمة الهجویری فى كتاب نفحات الانس ذكر تاريخ وفاته (انظر : ص ٣١٦ - ٣١٧) . وإذا صح ما ذكره صاحب خزينة الأصفياء فربما كان هذا التاريخ فى حاشية من حواشى النفحات وليس فى النص .

(٣) « خزينة الأصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ .

(٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٦١ .

(٦) Rieu : Catalogue of the Persian Manuscripts : Vol. I ,

(٧) Ethé : Catalogue of Persian Library : Vol. I .

(٨) « كشف المحجوب » انظر ٤٠١ ، ٤٣٩ .

(٩) «Rieu : Cat» Vol. I

(١٠) « كشف المحجوب » ص ٣٠٠ حاشية ٤٤ ، ص ٣١٦ .

ثانياً : اذا كانت عبارة (رحمه الله) أضيفت الى اسم القشيري بواسطة الهجویری ، فمعنى هذا أن كتاب « كشف المحجوب » قد تم تأليفه بعد وفاة القشيري سنة ٤٦٥ هـ ، وهذا مخالف للحقيقة ، فمما لا شك فيه أن كشف المحجوب ألف قبل هذا التاريخ بفترة طويلة (١) .

ثالثاً : ان القشيري كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، والدليل الماسد على هذه الحقيقة موجود في الكتاب نفسه ، فبالرجوع الى الباب الثاني عشر (باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين) نجد أن الهجویری ترجم للقشيري ضمن عشرة من شيوخ الصوفية ، ومن بين هؤلاء يوجد اثنان فقط من الواضح أنهما كانا على قيد الحياة أثناء تأليف الكتاب ، وهما « أبو القاسم الجرجاني » و « القشيري » وتتضح هذه الحقيقة من العبارة التي ترجم بها الهجویری لهما ، فهو يستعمل في ترجمتهما الرابطة (است) (٢) وذلك على خلاف الفعل الماضي (بود) (٣) الذي يستعمله في التراجم الثماني الأخرى مما يدل على أن أصحابها لم يكونوا على قيد الحياة ، وتواريخ وفاة هؤلاء معروفة ، وترجع كلها الى ما قبل تأليف كشف المحجوب . كما وردت بالكتاب عبارة صريحة تشير الى أن الجرجاني كان حيا عند تأليفه ، وترجمتها : « والشيخ أبو القاسم الجرجاني رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ، أبقاه الله » (٤) .

أما « نيكولسون » فيبدو أن ملاحظة « ريو » قد أثارت انتباهه ، فتقبل — في مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب — فكرة وفاة الهجویری بعد سنة ٤٦٥ هـ ، وان كان قد استند الى دليل آخر غير الذى استند اليه ريو وهو : أنه من الواضح من كتاب كشف المحجوب أن أبا القاسم الجرجاني كان حيا عند تأليفه . ومن المعروف أن الجرجاني توفي سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن نيكولسون وجد تاريخا آخر لوفاة الجرجاني في كتاب « شذرات الذهب » وهو سنة ٤٩٦ هـ (٥) وبناء عليه رجح أن الهجویری توفي بعد عام ٤٦٩ هـ أو على الأقل فيما بين ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ (٦) .

واذا كنا نتفق مع نيكولسون في أن الجرجاني كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، الا أننا نختلف معه في أنه توفي سنة ٤٦٩ هـ ، حقيقة أن هذا

(١) (ارجع الى تاريخ تأليف الكتاب في الباب الثانى : الفصل الاول) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢١١ ، ٢٠٩ « است » = يكون ، كائن .

(٣) « السابق » ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ « بود » = كان .

(٤) « السابق » ص ٢٥٩ .

(٥) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٧٠ .

(٦) « نيكولسون » (انظر : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

التاريخ ورد في شذرات الذهب ، ولكن من الواضح أن هناك خطأ ما ، فمن الثابت أن الجرجاني توفي سنة ٤٥٠ هـ (١) .

وترد في بعض الكتب والمقالات اشارات تشير الى تواريخ متأخرة لوفاة الهجویری ، منها ما يشير الى سنة ٤٧٠ هـ (٢) ، ومنها ما يشير الى ابعد من ذلك فيجعل وفاته فيما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ (٣) .

على أنه يبدو أن أصبح هذه التواريخ وأقربها الى الصواب : التاريخ الذى ذكره صاحب خزينة الأصفياء وهو سنة ٤٦٥ هـ ، ذلك أن « مفتى غلام سرور » مؤلف الخزينة ، مواطن لاهورى نشأ وتربى في البيئة التى توفي بها الهجویری ، وقام بزيارة قبره عدة مرات ، وهو يصرح بأنه استقى هذا التاريخ من نفحات الأنس وأخبار الأصفياء ، وأن هناك قطعة من الشعر مكتوبة على البوابة الداخلية لضريح الهجویری تشتمل على هذا التاريخ (٤) .

وقد توالى ذكر هذا التاريخ في ثلاثة من الكتب والمقالات الحديثة ، مضافا اليه الشهر واليوم الذى توفي فيه الهجویری ، فجاء تاريخ وفاته على هذا النحو :

التاسع من محرم سنة ٤٦٥ هـ (٥) .

التاسع عشر من صفر سنة ٤٦٥ هـ (٦) .

الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ (٧) .

واذا كنا نلاحظ اختلافا بين هذه التواريخ في الشهر واليوم ، الا أنها جميعا تتفق على سنة ٤٦٥ هـ .

وهناك ثلاث قطع من الشعر الفارسی تنسب الى : (خواجہ) معين الدين جشتى (٦٣٣ هـ) ، ومولانا جامى (٨٩٨ هـ) ، والشاعر الباكستانى محمد اقبال (١٩٣٨) ، وهذه القطع الثلاث مكتوبة على جدران مزار الهجویری ، وتتضمن كل قطعة منها كلمة أو عبارة تشير الى تاريخ وفاة الهجویری ومجموعها بحساب الجمل يساوى ٤٦٥ .

(١) « سنيّة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) « شد الزار » : انظر : ص ١٨٠ حاشية ٣ .

(٣) The Life and Teachings : p. 24. نقل من :

«Oriental College Magazin, Lahore (Volume 36. p. 27-43)

(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٤٩ .

(٦) مجلة « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٢٢ هـ ث .

(٧) The Life and Teachings : p. 24.

أما القطعة الأولى ، فهي مكتوبة على حائط الباب الى اليسار ، وتحمل اسم خواجه معين الدين ، وهي :

این روضه که بانیش شده فیض الست (۱)
مخدوم علی راست که باحق بیوست
در هستی نیست شد هستی یافت
زان سال وصالش افضل آمداز (هست) (۲)
سنة ۶۵ هـ خواجه معين الدين جشتی

وترجمتها :

۱ - هذه هي الروضة التي بنيت لفيض « الأزل » ، المخدوم « على »
الذي اتصل بالحق .

۲ - فني عن الوجود فأدرك البقاء ، ولذا فالأفضل ان جاءت سنة
وصاله من كلمة (هست) .

والقطعة الثانية للجامي (۳) : موجودة على بوابة داخلية في الطريق الى
الضريح ، وهي :

خانقاه علی هجویری است
خاک جاربوب از درش بردار
طوطیاکن به دیده حق بین
تاشووی واقف بر اسرار
جونکه سردار ملک معنی بود
سال وصلش برآید ز (سردار) (۴)
سنة ۶۵ هـ مولانا جامی

وترجمتها :

- انها خانقاه علی الهجویری ، فارفع عن بابها مكنسة الغبار .

(۱) كلمة « الست » تأتي كثيرا في الفارسية بمعنى : الأزل ، وهي اشارة الى الآية
الكرية : « واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست
بربكم » سورة الاعراف الآية ۱۷۲ .

(۲) « هست » بمعنى : موجود ، كائن ، و « هست » بحساب الجمل = ه (۵)
+ مس (۶۰) + ت (۴۰۰) = ۴۶۵ .

(۳) من المرجح أن هذه القطعة المنسوبة الى الجامي هي التي اشار اليها مؤلف خزينة
الاصفياء . (انظر ج ۲ ص ۲۳۴) .

(۴) الكلمة « سردار » بمعنى « قائد » كانت مستعملة في العربية ، ومجموعها بحساب الجمل :
مس (۶۰) + ر (۲۰۰) + د (۴) + ا (۱) + ر (۲۰۰) = ۴۶۵

— أيها الببغاء ؟ انظر بعين مبصرة للحق ، لتقف على الأسرار .
— ولما كان سردار ملك المعنى ، فإن سنة وصله تستخرج من كلمة
(سردار) .

والقطعة الثالثة : لحمد اقبال ، وتوجد على حائط البوابة الشرقية ،
وهي :

سأل بنائي حرم مومنان
خواه زجيريل ز هاتف مجو
جشم (به مسجد اقصى فكن) (١)
« الذي باركه » هم بكو
سنة ١٦٥ هـ علامه اقبال (٢)

وترجمتها :

— سل جبريل عن تاريخ بناء حرم المؤمنين ، ولا تسئل الهاتف عنه .
— والى ببصرك الى المسجد الاقصى ، وقل ايضا : « الذي باركه » (٣) .
وعلى الرغم من أن ضريح الهجویری ومسجده قد أعيد بناء بعض اجزائهما ،
وادخلت عليهما تعديلات كثيرة ، وزيد في مساحتهما مما يحتمل معه أن تكون
بعض هذه الاشعار قد أعيد كتابتها في وقت متأخر ، الا أنها تتفق فيما بينها
على تاريخ واحد لوفاة الهجویری وهو سنة ١٦٥ هـ . وفي هذا ما يجعلنا نرجح
هذا التاريخ على غيره من التواريخ الأخرى .

«قبر الهجویری»

لا يزال قبر الهجویری قائما في مدينة لاهور ، داخل ضريحه ، في المزار
المعروف بمزار « داتا کنج بخش » ، ويوجد حاليا في المنطقة القديمة من
لاهور ، خارج بوابة « بهاتی » ، ويقع غربي القلعة (٤) .

(١) العبارة : « به مسجد اقصى فكن » بحساب الجمل :

$$\begin{array}{rcl} \text{به : ب (٢) + هـ (٥)} & & \\ \text{مسجد : م (٤٠) + س (٦٠) + ج (٣) + د (٤)} & & \\ \text{اقصى : أ (١) + ق (١٠٠) + ص (٦٠٠) + ی (١٠)} & & \\ \text{فكن : ف (٨٠) + ك (٢٠) + ن (٥٠)} & & \\ \hline \text{المجموع} & = & ١٥٠ \\ & & ١٠٧ \\ & & ٢٠١ \\ & & ١٥٠ \end{array}$$

(٢) « تذكرة حضرت علي هجویری » انظر ص ٥٠ — ٥١
(٣) اشارة الى الآية الكريمة : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله » سورة « الاسراء » آية ١
(٤) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٨٧ .

وصف المزار من الخارج :

يتكون المزار من الضريح والمسجد . ويقع المسجد في الجهة الغربية ، وبوازيه الضريح في الجهة الشرقية . وجددت أبنيتهما وزيد في مساحتهما عدة مرات . وقد وصفه صاحب تذكرة « حضرت علي هجویری » بقوله : « ان أول ما تقع عليه عين الناظر : مبنى عال يقع في الجهة الغربية منه مسجد فخم » (١) .

والضريح ، كما هو واضح في الصورة ، يتكون من سياج خارجي يتوسطه المقام حيث يوجد القبر ، وتعلوه قبة كبيرة . وتبدو داخل السياج بعض الحجرات ، كما يفتح على بعض الأبنية الداخلية الصغيرة . أما الفناء الخارجي ، فمتسع وتظهر فيه قبور بعض المريدين والمعتقدين في الهجویری (٢)

وقد دفن الهجویری عند وفاته بالقرب من المسجد الذي بناه في حياته . وكان القبر يتألف أول الأمر من الصفة وبعض المباني المحيطة بها ، والتي قام بينائها السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) . وفي عهد السلطان أكبر أضيف اليه بعض الأبنية التي أصلحت أو أعاد بناءها المهرابا « رنجيت سنغ » (٣) . ولم تكن هناك قبة فوق قبر الهجویری في البداية وفي سنة ١٢٧٨ هـ بنى « حاجی نور محمد سادو » سياجا حول الضريح تنوسطه قبة تعلو القبر (٤) وقام بإصلاحها من بعده مولوی « فیروز الدین » وزین الجدران بالرخام وطلی القبة باللون الأخضر (٥) .

وكان « ميان غلام جيلانی » حفيد « مهرجهندو » قد شيد مسجدا الحقه بالضريح ، غير أن هذا المسجد هدم عند بناء المسجد الجديد المقام على أرض المسجد الذي كان قد شيده الهجویری في حياته ، بعد أن زيد في مساحته . وقد جدد بناء هذا المسجد مرتين (٦) . ويوجد في صحن المسجد الجديد لوح من الرخام طوله ثلاثة أقدام وعرضه تسع بوصات علامة على الموضع الذي كان يوجد فيه ضريح « مؤمن خان » نائب والي البنجاب في عهد محمد شاه امبراطور الهند . ولوح آخر يشير الى محراب مسجد الهجویری القديم (٧) .

(١) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٠ .

(٢) « السابق » ص ٥٢ .

(٣) «The Life and Teachings» p. 26.

(٤) «The Life and Teachings», p. 27.

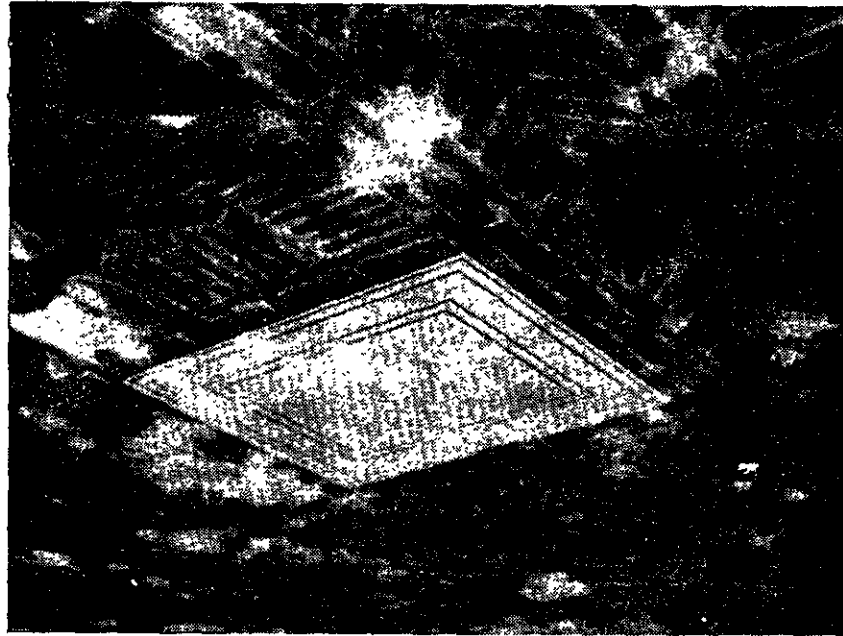
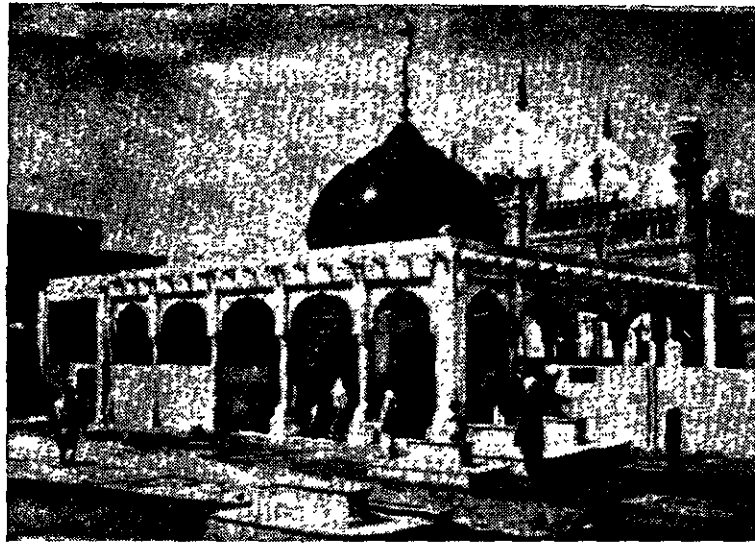
(٥) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٢ .

(٦) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٢ .

(٧) « خزينة الاصفاء » ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٨) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥١ .

مزار الهجویری



اللوحة الرخامية في المسجد الجديد : الذي يشير الى
محراب المسجد القديم الذي بناه الهجویری في حياته .

وصف الضريح من الداخل :

يقع قبر الهجویری داخل المقام الذى يتوسط الضريح . وقد بنى القبر على صفة من الرخام الابيض ، بنى « ایواز خان » سیاجها — وایواز خان هو حارس أفيال المہراجا رنجیت سنگھ — ويقع قبر الهجویری فى الوسط ويحيط به قبراً : الشيخ « أحمد السرخسی » والشيخ « أبو سعید الهجویری » (١) .

وتوجد عند رأس القبر — كما يبدو فى الصورة — لوحة رخامية كبيرة تسد أحد أبواب المقام نقش عليها آيات من القرآن الكريم ، واسم الهجویری والقبه وتاريخ وفاته وبيت من الشعر — (خواجہ) معین الدین الـ (جشتی) يشير فيه الى لقب داتا کنج بخش . ويبدو فى أسفل اللوحة اسم الشخص الذى أقامها على نفقته ، واسم الخطاط الذى نقشها .

وتفتح البوابة المواجهة للقبر على حجرة صغيرة ، وهى الحجرة التى اعتكف فيها خواجہ معین الدین وأمضى بها فترة الجله (٢) ، وعندما هم بالعودة ، وقف أمام القبر ، وقال البيت المنقوش على اللوحة . وهناك حجرة أخرى خارج حرم الضريح كان يقضى فيها الشيخ « فريد الدين كنج شكر » (٣) مدة الجله (٤) .

كما توجد داخل الضريح حجرة تسمى حجرة القرآن بها نسخ عديدة من القرآن الكريم من بينها نسخة بخط السعدى الشيرازى ، ونسخة تحمل اسم سلطان الاسلام عالمكير المغولى (٥) . ومن أبرز النسخ المهداه : مصحف أهدته « موران » خليفة المہراجان « رنجیت سنگھ » ، ونسخة أهداها الى الضريح « محمد خان » ونسخة ثالثة « لنواب ناصر » كما أهدى رنجیت سنگھ نسخة نفيسة الى الضريح عقب حملته المظفرة على الأفغان . وتوجد نسخة مكتوبة بالمسك أهداها متعبد غير معروف (٦) .

«The Life and Teachings» p. 26.

(١)

(٢) « خزينة الاصفیاء » انظر ج ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) « مسعود بن عز الدين محمود » ويعرف بفريد الدين كنج شكر . كان مريداً وخليفة لقطب الدين بختيار ، وأدرك صحبة خواجہ معین الدین الجشتی . توفى سنة ٦٦٤ هـ وقبره بين مولتان ولاعر (انظر : سفينة الاولیاء ص ٩٦) .

« خزينة الاصفیاء » ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) « تذكره على هجویری » ص ٥٢ .

«The Life and Teachings», p. 27.

(٦)

« قبر الهجویری »
وتبدو اللوحة الرخامية الى اليمين



« العبارات المكتوبة على اللوحة »

بسم الله الرحمن الرحيم

« الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مركز تجليات

قدوة السالكين ، زبدة العارفين ، حجة الكاملين ،
سند الواصلين ، مظهر العلوم الخفية والجلي المشهور
مخدوم على الهجویری المعروف بحضرت داتا گنج بخش
لاهوری قدس الله روحه ولا زالت تجلياته وبركاته دائما
ابدا .

گنج بخش فیض عالم مظهر نور خدا

ناقصان را ببر کامل کاملان را رهنما

سال وصال ٨٦٥ هـ

ما شاء الله

بنافنده (البانی)

کتبه عبد الحمید

جویدری دین محمد بن جویدری دین

غلام رسول

ومزار الهجویری من الأماكن المقدسة التي يعتز بها المسلمون في شبه القارة الهندية ، ويؤمه جمهور كبير من أبناء الهند وباكستان للزيارة والتبرك . وقد لا يعرف عامة الناس في تلك البلاد اسم « على بن عثمان الجلابي الهجویری » ، ولكن لا يوجد في شبه القارة من لا يعرف الاسم المحبوب « دانا كنج بخش » ، وعلى الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على وفاة صاحبه ، إلا أن هذه القرون والأعوام لم تقلل من تعلق الناس به وحبهم له ، واعتقادهم في ذلك الرجل العظيم الذي كان بسلوكه وأخلاقه وحبه لنشر الإسلام نموذجاً للمسلم الحقيقي ، فقد أضاع منذ ذهابه إلى الهند مشعل الإسلام ، وروج شرع الرسول في تلك البقاع المترامية الأرجاء ، وأحكم غرس بذور الدين الإسلامي في قلوب أهل تلك البلاد (١) .

وقد أثر مريدو الهجویری في لاهور في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لشبه القارة تأثيراً عميقاً ، فلم يكن من نتيجة حركة العلماء المسلمين الذين وفدوا على شبه القارة ، أن حملت معها ديناً يدعو إلى التوحيد فحسب ، بل حملت معها أيضاً الأفكار الديمقراطية التي تنظم المجتمع الإسلامي ، إلى الهنود الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة ويخضعون لنظام الطبقات المهيمن .

وإذا كان مرور الأيام والأحداث ، والانقلابات السياسية والجغرافية قد استطاعت أن ينال من بناء الدولة التي أقامها السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند على الغزو والفتوحات ، فإن بناء العشق والمحبة الذي شيده على الهجویری الغزنوي على أساس من الإيمان العميق والحياة الروحية الخالصة قد ظل صامداً مع الأيام ، بل إن اسم الهجویری ليطنى على اسم ذلك السلطان الذي طامس حطم معابد الأصنام ومعاقل الشرك والضلال .

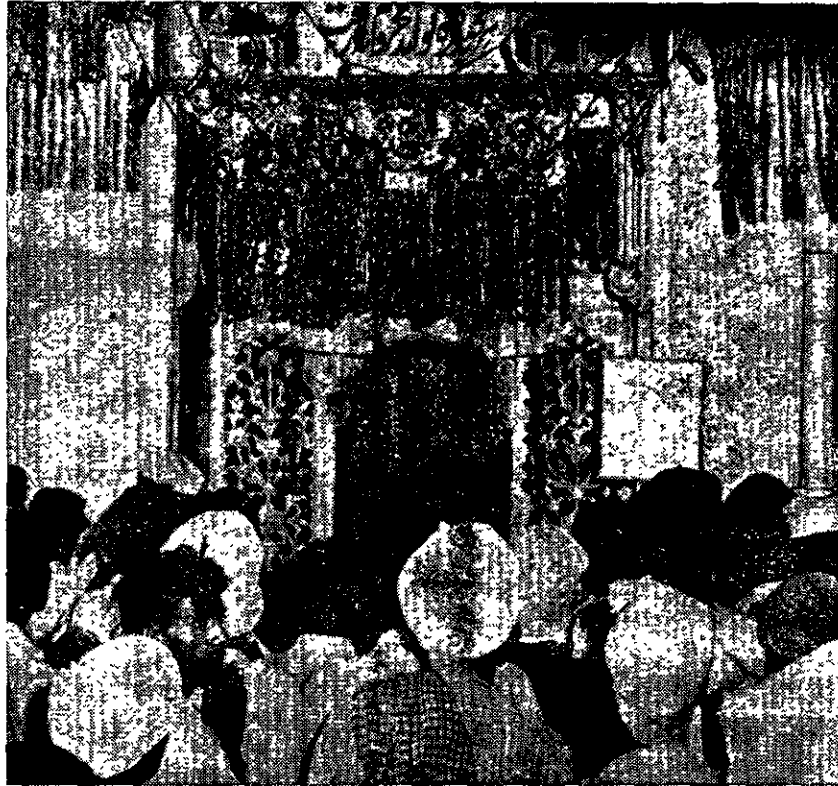
يقول الشاعر محمد اقبال :

سید « هجویر » مخدوم امم مرقد اوبر « سنجر » را حرم
بندہای کوهسار آسان کسیخت در زمین هند تخم سجده ریخت
عهد فاروق از جمالش تازہ شد حق زحرف، او بلند آوازہ شد
باسبان عزت ام کتاب از نکاهش خانہ باطل خراب
خاک بنجاب ازدم او زندہ کشت صبح ما از مہراو تابندہ کشت
عاشق وہم قاصد طیار عشق از جبینش آشکار اسرار عشق (٢)

(١) « ملال » جلد پنجم شماره ١ خرداد ماہ ١٣٣٦ .

(٢) «The Life and Teachings» : p. 3.

« البوابة الرئيسية للمقام »



كتب في أعلى البوابة العبارة :
هر که یدروازه او آمد محروم نه رفت
وترجمتها : من جاء الى بابه لم يذهب محروما

وترجمته :

- سيد « هجویر » مخدوم الأمم ، برقده للشيخ « سنجر » حرم .
- حطم سلاسل الجبال في يسر ، وبذر في أرض الهند بذور الصلاة .
- تجدد عهد الفاروق بجماله ، وعسلا صوت الحق وذاع بكلامه .
- انه الحارس لعزة أم الكتاب ، وينظرته دار الباطل خراب .
- حيث أرض البنجاب بأنفاسه ، واضاء صبحنا بشمسـه .
- هو العاشق ورسول العشق الطيار ، واسرار العشق تلوح من جبينه .

ولا يزال قبر الهجویری مطافا لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وموضعا لعبادة الأولياء ، وخلوة ورع للنساک ، يتجهون اليه ليعتکفوا فيه فترة الأربعينية ، ولا تزال به الأماكن التي اختلى فيها قطب الهند « معين الدين حسن السنجرى الجشتى » والشيخ « فريد الدين كنج شكر » .

وقد اشتهر عن قبر الهجویری تحقيق حاجة كل ذى حاجة ان هو طاف بروضته المنورة أربعين ليلة جمعة ، أو أربعين يوما على التوالي (١) .

ويحتفل أهل الباكستان حكومة وشعبا بمولد داتا كنج بخش هجویری كل عام ، ويمتد الاحتفال بالعرس سبع ليال .

(١) « سفينة الأولياء » ص ١٦٥ ، « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .



صورة لحشد كبير من السيدات المعتقدات في داتكنج بخش
وقد تعودن زيارة ضريحه في أيام الجمعة واصطحبن أولادهن
لينالوا بركة صاحب المزار ..

تفضل السيد الدكتور حسين مجيب المصرى باهدائي هذه المجموعة من الصور التي حصل
عليها بمساعدة صديقة الباكستاني السيد محمد حسن الاعظمي ، ظلها جزيل الشكر .

الفصل السابع

مؤلفاته

عرف الهجویری كرائد من الرواد الأوائل الذين ألفوا في التصوف ، عن طريق كتابه « كشف المحجوب » ، الذي يعد بأكورة المؤلفات الصوفية في اللغة الفارسية ، واحدا من أمهات الكتب الشرقية المؤلفة في التصوف الاسلامی .

والدارس للتصوف الاسلامی يستطيع في يسر ان يلمس المكانة الكبيرة التي يحتلها « كشف المحجوب » ككتاب قيم يقوم على أساس علمی ومنطقی ، ومنهج سليم ، فهو مرجع له أهميته ، وقلما توجد دراسة في التصوف الاسلامی قام بها المستشرقون ، تخلو من الافادة من هذا الكتاب ، والاشادة به ، فهو لا يقل أهمية وشهرة عن أمهات الكتب الصوفية العربية المعروفة ، ونعني بها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة القشيرية » .

ومن المؤسف حقا أن تكون الافادة من هذا الكتاب ، في أغلب الأحيان ، عن طريق الترجمة الانجليزية ، التي قام بها المستشرق الانجليزي « نيكولسون » لهذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن شهرة الهجویری ترجع الى كتاب كشف المحجوب ، الذي يتصل اسمه دائما باسم مؤلفه ، الا أن الهجویری كان مؤلفا كثيرا ، طرق موضوع التصوف في عدد من الكتب قبل كشف المحجوب ، وهو في هذا الأخير يشير الى هذه الكتب ، ويحيل القارئ اليها عندما يتعرض لسألة سبق ان تناولها بالتفصيل في واحد من هذه الكتب .

ومن خلال هذه الاشارات نتعرف على مؤلفات الهجویری السابقة على كشف المحجوب ، والتي لم يقدر لها أن تبقى وتصل الى أيدينا .

والهجویری كان شاعرا ونائرا ، بدأ نشاطه الأدبی في فترة مبكرة من حياته ، بل انه ذكر في كتابه « كشف الأسرار » انه بدأ التأليف وهو

لا يزال في الثانية عشر من عمره (١) !!! وقد اجتمع له انتاج وفير ، فالكتب التي ورد ذكرها في كشف المحجوب تبلغ ثمانية ، واذا أضفنا اليها كشف المحجوب يكون انتاجه من النثر تسعة كتب ، علاوة على ديوان من الشعر .

وليس هذا فحسب ، فهناك كتابان آخران ينسبهما البعض الى الهجویری ، وان لم يرد ذكرهما في كشف المحجوب ..

وفيما يلي قائمة بأسماء مؤلفات الهجویری :

- ١ — الديوان .
- ٢ — منهاج الدين .
- ٣ — كتاب الفناء والبقاء .
- ٤ — كتاب في شرح كلام الحلاج .
- ٥ — البيان لأهل العيان .
- ٦ — بحر القلوب .
- ٧ — أسرار الخرق والملونات .
- ٨ — كتاب الايمان .
- ٩ — الرعاية بحقوق الله تعالى .
- ١٠ — كشف المحجوب .
- ١١ — ثواقب الاخبار .
- ١٢ — كشف الاسرار .

ولا نعرف بأي لغة كتبت هذه المؤلفات ، باستثناء كشف المحجوب ، وكشف الاسرار ، ذلك ان هذه المؤلفات فقد بعضها أثناء حياة الهجویری ، والبعض الآخر بعد وفاته . ولم يصل اليها من هذه المجموعة سوى كشف المحجوب الذي يعد آخر مؤلفات الهجویری ..

يقول زوكوفسكى : « من العسير على المرء ان لا يشعر بالأسى لفقد أوليات كتابات الهجویری وبخاصة انه ، على الرغم من ذلك ، يحيل القارئ اليها دائماً (٢) .

ونعرف بهذه المؤلفات ، ونبدأ بالجزء الذي فقد في حياة المؤلف .

(١) نقلا عن : « تذكرة حضرت علي هجویری » من ٩١ .

(٢) «Bulletin of Oriental Studies» : Zhukovsky's Introduction, p. 487.

أشار الهجویری فی مقدمة كشف المحجوب الى أن اثنين من مؤلفاته
فقدوا وشوها أثناء حياته ، وهما : « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » .

أما الديوان : فقد روى الهجویری عن فقدة قصة بسيطة مؤداها أن
شخصاً طلبه منه ، ولم يكن لديه سوى النسخة الأصل لذلك الديوان ،
فأعطاه له . وغير ذلك الرجل فيها وأسقط اسم الهجویری من أولها ،
وعرض الديوان على الناس على أنه من نظمه (١) .

وهذه القصة على بساطتها تثير تساؤلات عديدة تدور حول الأمور
التالية :

١ — متى نظم الهجویری ذلك الديوان ، وبأى لغة نظمه ؟

٢ — إذا كانت للهجویری المقدرة على النظم ، فلم لم يطرق هذا
السبيل مرة أخرى ؟

٣ — لماذا لم يستشهد الهجویری فی كشف المحجوب بشواهد من شعره
مع أنه استشهد فی مواضع كثيرة من الكتاب بأشعار غيره ؟

بالنسبة للتساؤل الأول : يبدو أن الهجویری نظم الديوان فی بداية
شبابه ، وكانت انطباعاته فيه انطباعات شخصية لشاب حديث السن ،
ولم يكن قد اتجه بعد الى التصوف . ومما يرجح هذا أن الشخص الذى
استولى على الديوان استغل حداثة سن الهجویری فسلبه الجهد الذى
يذله فی نظم الديوان ونسبه الى نفسه فی اطمئنان ، لأن الهجویری لم
يكن قد عرف كشاعر أو كاتب . أما اللغة التى نظم بها الديوان ، فمن
المرجح أنها كانت اللغة الفارسية ، إذ أن الهجویری على الرغم من ثقافته
العربية وإجادته للغة العربية ، كتب باللغة الفارسية ، وإن كانت اللغة
العربية تمثل عنصراً هاماً فی كتاباته ..

وبالنسبة للتساؤلين الثانى والثالث ، فمن المحتمل جداً أن الهجویری
كان ينظم الشعر ، وربما باللغتين الفارسية والعربية . وهناك مثل واحد
ورد فی كشف المحجوب لشعره العربى ، فقد استشهد ببيت واحد ونص
على أنه قائله (٢) . أما شعره الفارسى فهناك أمثلة منه وردت فی كتاب

(١) « كشف المحجوب » ص ٢ .

(٢) « السابق » ص ٣١٣ .

« كشف الأسرار » ، وربما كان السبب في احجام الهجویری عن الاستشهاد بأمثلة من شعره يرجع الى أن الأشعار التي كانت متداولة في ذلك الوقت ، كانت في معظمها اشعارا غزلية يؤولونها تأويلا صوفيا ، والهجویری وان أباح سماع الشعر الا انه كان من المعارضين للتأويل ، وقد عاب على الذين يقضون أوقاتهم في سماع اوصاف المحبوب ومحاسنه، كالعين والطرة والخال وما شابه ذلك ، وتأويلها على أنها للحق جل جلاله (١) .

وأما كتاب « منهاج الدين » : فهو المؤلف الثاني الذي فقد في حياة الهجویری . وقد وردت في كشف المحجوب اشارات تدل على أنه كان من أوائل الكتب التي ألفها ، وان موضوعه كان يرتبط بالتصوف . ويبدو ان منهاج الدين كان على هيئة تذكرة ، فقد ذكر الهجویری انه تحدث فيه ، في شيء من التفصيل ، عن مناقب أهل الصفة وشرح احوالهم كل على حدة (٢) ، ولذلك فانه عندما تعرض لذكر هؤلاء في الجزء الخاص بتراجم الحياة من كشف المحجوب اكتفى بذكر اسمائهم ..

وبالإضافة الى أهل الصفة ، فقد تحدث الهجویری في الكتاب عن بعض الصوفية ، من بينهم الحلاج ، ذلك أنه في الترجمة التي كتبها للحلاج في كشف المحجوب ، أشار الى أنه تعرض في منهاج الدين لبداية الحلاج ونهايته (٣) .

وقد حدث للهجویری مع منهاج الدين ما حدث له مع الديوان ، اذ أن مدع ركيك استولى على الكتاب ، ومحا اسم الهجویری من عنوانه ، وعرضه على الجمهور على أنه من تأليفه ، وأظهر للعوام أنه مؤلفه ، بينما كان الخواص يضحكون منه على هذا القول .

ويبدو أن ظاهرة الانتحال كانت متفشية في ذلك الوقت ، وعلى وجوه عدة ، فقد أشار « فرانتز روزنتال » الى ثلاثة أنواع من الانتحال :

النوع الأول : وكان يمارسه جماعة من المؤلفين الذين يسمعون وراء الشهرة ، فيغفلون ذكر اسمائهم وينتحلون أسماء أدباء مشهورين يوقعون بها مؤلفاتهم (٤) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٥١٩ .

(٢) « السابق » انظر : ص ٩٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ١٩٢ .

(٤) « منهاج العلماء المسلمين » ص ١٢٦ .

والنوع الثانى : وهو أن كتباً بجملتها كانت تنتحل ، وذلك بوضع اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقى . وضرب لهذا النوع مثلاً بالهجويرى (١) .

والنوع الثالث من السرقات الأدبية : ما كان شائعاً عند المسلمين ، ويكاد ينحصر فى السرقات الشعرية ، بعكس كتب الاغريق التى كانت تتناول الأدب جملة (٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين أثرهما على الهجويرى ، وحاول أن يتلافى حدوث ذلك مستقبلاً فعمد الى اخبال اسمه فى مؤلفاته حتى أن اسمه يتردد فى كشف المحجوب ثمان وعشرين مرة .

أما المجموعة الثانية من مؤلفات الهجويرى ، والتى يبدو أنها فقدت بعد وفاته فتشتمل على الكتب التالية :

١ — كتاب الفناء والبقاء :

ناقش الهجويرى ، فى الباب الخامس من كشف المحجوب ، اختلاف الصوفية فى الفقر والصفوة ، وتطرق من ذلك الى مناقشة الفناء والبقاء من حيث المعنى والعبارة ، وأشار الى ترهات أرباب اللسان الذين يعبدون العبارة ، وأوماً الى أنه فى مرحلة طيش الشباب ألف كتاباً فى « الفناء والبقاء » وكانت له فيه أقوال من هذا النوع (٣) .

٢ — كتاب « فى شرح كلام الحلاج » :

هذا الكتاب أيضاً من الكتب التى ألفها الهجويرى فى صدر شبابه ، فقد صرح بأنه كان فى شبابه مفتوناً بالحلاج ، وقرأ كثيراً من كتبه . وقد دفعه إعجابه بالحلاج الى تأليف ذلك الكتاب فى شرح كلامه ، وأيد فيه بالدلائل والحجج علو أقوال الحلاج ، وصحة حاله (٤) .

٣ — كتاب « البيان لأهل العيان » :

ذكر الهجويرى أنه ألف هذا الكتاب فى بداية تصوفه ، ويبدو أنه تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية :

(١) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) « السابق » ص ١٢٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٦٧ .

(٤) « السابق » ص ١٩٢ .

٤ - كتاب « بحر القلوب » (١) :

يبدو أن الهجویری الف هذا الكتاب بعد كتاب البیان لأهل العیان وطرق
فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفية ، وإن كان قد سلك
في ذلك مسلكا أكثر تفصيلا وأشباعا من كتاب البیان . .

٥ - « أسرار الخرق والملونات » :

أشار الهجویری فی الباب الرابع من كشف المحجوب ، وهو الباب الخاص
بلبس الرقعة ، الى أنه الف في هذا الموضوع كتابا مستقلا أسماه « أسرار
الخرق والملونات » وذكر أنه يلزم لكل مريد نسخة منه (٢) .

٦ - كتاب « الايمان » :

من المسائل التي تناولها الهجویری في كشف المحجوب ، موضوع
« الايمان » ، وقد أفرد له قسما مستقلا أطلق عليه : « كشف الحجاب
الثالث في الايمان » . وفي هذا القسم أشار الهجویری إشارة مقتضبة الى
مدلول « الايمان » في الشريعة ، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم ، ثم
أحال القارئ الى كتاب مستقل ألفه في هذا الموضوع (٣) واعتذر بأنه سيقصر
حديثه في هذا الموضوع على اثبات رأى الصوفية في الايمان (٤) .

٧ - « الرعاية بحقوق الله تعالى » :

خص الهجویری « التوحيد » بباب في كشف المحجوب أطلق عليه « كشف
الحجاب الثانی فی التوحيد » ، وشرح للقراء عامة مبدأ التوحيد عند الموحدين ،
وأشار الى آراء المخالفين من الثنوية والوثنيين وغيرهم ، ثم أحال القارئ
المتخصص في هذا العلم ، الذي يهتم بدراسة هذه المسألة دراسة وافية ،
الى كتاب من تأليفه أكثر تفصيلا ، أسماه : الرعاية بحقوق الله تعالى (٥) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٢٢ .

(٢) « السابق » ص ٦٢ .

(٣) « السابق » ص ٢٦٨ .

(٤) « السابق » ص ٢٧٤ .

(٥) « السابق » ص ٣٦٠ .

وغنى عن التعريف أن هناك كتابين يحملان هذا الاسم ، وهما :

كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (٢)
وكتاب « الرعاية لحقوق الله » للحارث بن أسد المحاسبى (٣) المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٤) .

وأما « كشف المحجوب » : فهو الكتاب الوحيد الذى بقى من مؤلفات
الهجویری ، وقدر له أن يصل الى أيدينا . ولما كان كشف المحجوب يمثل
الشق الثانى من هذه الدراسة فقد افردنا للتعريف به بابا مستقلا ، وهو
الباب الثانى .

وبالإضافة الى الكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجویری يوجد كتابان
لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب :

أولهما « ثواقب الأخبار » : وقد أشار اليه البغدادى إشارة عابرة عند
تأريخه لكشف المحجوب فذكر أن الهجویری الف « ثواقب الأخبار » وكشف
حجب المحجوب لأرباب القلوب (٥) . ولا ندرى من أين استقى البغدادى
اسم هذا الكتاب ، إذ لم يرد ذكره فى أى من المراجع التى رجعنا إليها .

والثانى « كشف الأسرار » : وهو كتيب صغير يحمل اسم الهجویری ،
طبع فى السنوات الأخيرة فى مدينة لاهور .

وقد تيسر لنا الاطلاع على بعض الاشارات التى تشير الى هذا الكتاب .
وأولى هذه الاشارات وردت فى كتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن
الرابع الهجرى » ، فقد نقل مؤلفه « آدم ميتز » رأيا للهجویری فى طبقة
الوعاظ ، وذكر اسم المرجع على أنه « كشف الأسرار » مخطوط بمكتبة
فيينا تحت رقم ١٥٤ (٦) . وهذا يدل على أن الكتاب كان لا يزال مخطوطا
عندما اطلع عليه « ميتز »

ووردت الإشارة الثانية فى مقال فى مجلة « هلال » التى تصدر بالفارسية
فى « كراتشى » وقد نقل « غلام سرور » كاتب المقال نصا عن كشف الأسرار

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٢٩ .

(٢) « طبقات الصوفية » ص ١٠٣ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٣٤ .

(٤) « طبقات الصوفية » ص ٥٦ .

(٥) « هدية المارمين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٦) « الحضارة الإسلامية » سينر : ج ٢ ص ٨٢ .

يتعلق بلقب « كنج بخش » الذى يطلق على الهجویری ، وذكر أن هذا النص ورد على لسان الهجویری فى الكتاب (١) . ويبدو من هذه الإشارة أن كتاب كشف الأسرار يضم بعض المعلومات التى تشير الى حياة الهجویری الخاصة ، وهو العنصر الذى نفتقده تماما فى كشف المحجوب ..

أما الإشارة الثالثة ، فقد وردت فى كتيب عن الهجویری كتب باللغة « الاردوية » ، وأطلق عليه مؤلفه اسم « تذكرة حضرت على هجویری » . وقد نقل المؤلف عن كشف الأسرار نموذجين لشعر الهجویری (٢) .

على أن هناك صورة أوضح لكشف الأسرار نستطيع أن نتبين ملامحها من خلال كتيب كتبه بالانجليزية أحد الأساتذة السابقين فى جامعة عليكرة الإسلامية ، وأطلق عليه اسم :

The Life and Teachings of Hazrat Data Ganjbakhsh.

ونذكر فيه أن كشف الأسرار طبع أخيرا فى لاهور ، ويبدو من حديثه عن الكتاب أنه أطلع عليه ..

وقد أشار المؤلف الى أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، فذكر أن الأسس والتعاليم التى يتضمنها هذا الكتيب تسير فى خط واحد مع التعاليم الواردة فى كشف المحجوب ، كما أن الطريقة التى تنتقل بها هذه التعاليم مشابهة لتلك التى جاءت فى كشف المحجوب . ويتشابه الكتابان أيضا فى أن اسم المؤلف استخدم مرات عديدة خلال الكتاب (٣) .

ويضم كشف الأسرار الى جوار الأسس والتعاليم الصوفية بعض المعلومات الإضافية التى تتعلق بتاريخ الحياة . ويبدو أن بالكتاب قسما على هيئة تذكرة ، تحدث فيه الهجویری عن بعض الأشخاص الذين قابلهم أثناء إقامته بالهند . وتأثر بهم (٤) .

وعلى الرغم من القرائن التى أوزدها المؤلف وأيد بها أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، إلا أنه يلقى ظلالة من الشك على نسبة كشف الأسرار الى الهجویری ، فهو يقول انه من المحتمل أن يكون هذا

(١) « هلال » ارديهشت ١٣٣٢ .

(٢) « تذكرة حضرت على هجویری » انظر ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) The Life and Teachings : p.29.

(٤) The Life and Teachings : p.25.

الكتاب منتحلا ، كتبه بعض تلاميذ الهجویری الذين كانوا متعطشين لنشر تعاليم أستاذهم . غير أنه يعود فيقول : وحتى لو صح أن الكتاب ليس من تأليف الهجویری فإنه يعتبر ملخصا جيدا لتعاليمه (١) . وهكذا يتأرجح رأيه بين القبول والرفض .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقطع أو نرجح ما إذا كان كشف الأسرار من تأليف الهجویری أم من تأليف تلاميذه ، إذ لم يتيسر لنا الاطلاع عليه حتى يمكننا أن نصدر حكما سليما مستمدا من دراسة الكتاب . ونرجو أن تتاح لنا هذه الفرصة يوما ما .

والحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نستخلصها مما سبق : أنه إذا صحت نسبة كشف الأسرار إلى الهجویری فإنه يكون قد ألفه بعد كتاب كشف المحجوب ، وخلال الفترة الأخيرة من حياته التي قضاها في مدينة لاهور . وهو ما ينطبق أيضا على « ثواقب الأخبار » إذا ثبت أن هناك كتابا بهذا الاسم ينسب إلى الهجویری ..

وبعد هذا العرض الموجز للكتب والمؤلفات التي تنسب إلى الهجویری — بالإضافة إلى كشف المحجوب — والتي ورد ذكر الجزء الأكبر منها في هذا الأخير بما يدل على أن الهجویری ألفها قبله ، هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو :

هل ألف الهجویری هذه الكتب فعلا ؟ وإذا كان قد ألفها ، فأين هي ؟ ولماذا لم تصل إلينا ؟ ..

حقيقة أن هناك اثنين من بينها ذكر الهجویری أنهما فقدتا أثناء حياته ، وهما « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » ، ولكن كيف اختفت الكتب الأخرى التي أشار إليها الهجویری بما يدل على أنها كانت موجودة في حياته ، ومتداولة في الوقت نفسه ، فهو عند الإشارة إلى بعضها يحيل القارئ إليها ، ويطلب منه أن يرجع إليها (٢) ، أو يصرح بأنه لابد له من الحصول على نسخة منها (٣) ، كيف اختفت هذه الكتب جميعها بعد وفاته ، ولم يبق منها

(١) The Life and Teachings : p.29.

(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٦٠ .

(٣) « السابق » ص ٦٣ .

الا كشف المحجوب فكان الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا ؟ ولماذا تخلو كتب
الفهارس من ذكر أى منها ؟ .

والواقع أننا للأسف لا نجد اجابة لهذا السؤال ، وكل ما نستطيع أن
نقوله فى هذا الصدد انه اذا كان الهجويرى قد الف هذه الكتب فعلا ، فهذا
لا يخرج عن أمرين : إما أن هذه الكتب قد ضاعت ضمن ما ضاع من التراث
الاسلامى ، وإما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ، ولم يتدر لها بعد من
يعثر عليها ، ويعنى بنشرها أو دراستها .

الباب الثامن
التعريف بكتاب كشف المحجوب



.

.

الفصل الأول تعريف بالكتاب اسمه - موضوعه - تاريخ تأليفه

كتاب كشف المحجوب أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الأصول النظرية والعملية للتصوف (١) . ويعد من المؤلفات القليلة في التصوف الاسلامي ، الأمر الذي جعل الجميع يتحدثون عنه وعن مؤلفه بكثير من التقدير ..

يقول الجامي في نفحات الأنس :

« على بن عثمان بن أبي علي الجلابي الغزنوي ، صاحب كتاب كشف المحجوب ، الذي يعتبر من الكتب القيمة المشهورة في هذا الفن » (٢) ..

ويقول دارا شكوه في سفينة الأولياء :

« كشف المحجوب ، كتاب مشهور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولم يؤلف كتاب في التصوف باللغة الفارسية كتابا قويا مثله » (٣) .

ويقول بهار في سبك شناسي :

« كشف المحجوب : تأليف العالم العارف أبي الحسن علي بن عثمان الغزنوي ، من الكتب القديمة القيمة » (٤) ..

وقد نوه بقيمة هذا الكتاب أيضا المستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامي ، سواء منهم من بحث في هذا الموضوع ، أو من قصر جهوده على نشر كتب التصوف وترجمتها .

(١) «Ethé : Cat», Vol. I

(٢) « نفحات الأنس » ص ٣١٦ .

(٣) « سفينة الأولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « سبك شناسي » ج ٢ ص ١٨٧ .

« وكشف المحجوب » في الفارسية بمكانة « اللمع » من العربية ، فكلاهما يعد أقيم المؤلفات الصوفية في لغته ، وأكثرها قيمة وأوفرها مادة في التصوف .

وقد اعتد صاحب كشف المحجوب على الكتب العربية في التصوف ، السابقة عليه مثل : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة القشيرية . وأفاد منه من جاء بعده من المؤلفين الفرس ، وكل من له دراية بالتصوف الاسلامي ، وصلة بالمراجع الفارسية مثل : تذكرة الأولياء ونفحات الانس وسفينة الأولياء وتاريخ تصوف در اسلام ، يستطيع ان يدرك الى اى مدى أفاد مؤلفو هذه الكتب من كشف المحجوب ، وإلى اى حد كان اعتمادهم عليه سواء صرحوا بذلك أو لم يصرحوا .

اسم الكتاب :

أطلق الهجویری على كتابه اسم « كشف المحجوب (١) » ، وشرح الهدف من هذه التسمية فقال :

« این کتاب را کشف المحجوب نام کردم مراد آن بود که تا نام کتاب باشد بر آنچه اندر کتابست مر کوهی را که بصیرت بود چون نام کتاب بشنوند دانند که مراد از آن چه بوده است » .

وترجمته :

« اسمیت هذا الكتاب كشف المحجوب ، والغرض من ذلك أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان الغرض منه » .

ويرى الهجویری ان اسم كشف المحجوب انسب الاسماء لكتابه ، لأنه يعبر تعبيرا صادقا عما يحتويه الكتاب .

يقول :

« وجون این کتاب اندر بیان راه حق بود ، وكشف حجب بشریت جزاین نام ویرا اندر خور نبود » (٢) .

(١) « ما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا يحمل اسم « كشف المحجوب » في المذهب الاسماعيلي ، كتبه بالفارسية : « أبو يعقوب السجزي » ، وكان معاصرا للهجویری (انظر : « سبك شناسی » ج ٢ ص ٥٢) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤ .

وترجمته :

« ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وهناك خلاف حول اسم « كشف المحجوب » . وقد ذكر زوكوفسكى أن اسم الكتاب في النسخة الخطية الخاصة بمكتبة « فينا » ، وهى النسخة التى جعلها متنا لطبعته لكشف المحجوب ، وفى النسخ الأخرى التى اعتمد عليها فى تصحيح المتن ، هو : « كشف المحجوب » (١) .

وكذلك أثبت كتاب الفهارس : « ريو » (٢) و « ايتة » (٣) و « بلوشيه » اسم الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » ، ولكن وردت فى كتاب كشف الظنون زيادة فى الاسم هى عبارة (لأرباب القلوب) ، فصار الاسم الكامل لكتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » (٤) .

ويعتقد زوكوفسكى أن حاجى خليفة مؤلف كشف الظنون ربما التبس عليه الأمر ، بل أنه يظن أن حاجى خليفة لم ير متن كتاب كشف المحجوب أصلا ، لأن من عادته عندما يؤرخ للكتب التى يثبتها فى كتابه ، والتى رآها رأى العين ، أن ينقل بداية النسخة ونهايتها ، ولكنه لم يفعل هذا مع كشف المحجوب ، ويبدو أنه نقل العنوان المذكور عن كتب أخرى (٥) .

وقد ذكر « محمد بارسا » فى كتابه « فصل الخطاب لوصول الأجباب » أن كشف المحجوب عنوان مختصر لكتاب الهجويرى ، وأن الاسم الكامل له هو : « كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب » (٦) .

وكذلك أضاف يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى فى رسالته المسماة « رسالة إبدالية » عبارة (لأرباب القلوب) الى عنوان الكتاب . ويقول زوكوفسكى أنه من المحتمل أن يكون مرجع حاجى خليفة أحد هذين الكتابين (٧) .

(١) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

«Rieu» : Cat, Vol. I. (٢)

«Ethé» : Cat, Vol. I. (٣)

(٤) « كشف الظنون » ج ٢ مود ١٤٩٤ ، « نقل البغدادى الاسم على هذا النحو فى هدية العارفين » انظر ج ١ مود ٦٩١ .

(٥) « كشف المحجوب » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٦) « السابق » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ ، (ذكر محمد عباسى أن كلية (سر) أضيفت الى عنوان كشف المحجوب فى فهرست المئتب فى أول كتاب « فصل الخطاب » فأصبح عنوان الكتاب : « كشف سر المحجوب لأرباب القلوب » : انظر حاشية ٣ ص ٥٢ من مقدمة زوكوفسكى) .

(٧) « كشف المحجوب » انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٣ .

والواقع أننا نرجح مع زوكوفسكى أن الاسم الأصلي للكتاب هو « كشف المحجوب » فقط ، وذلك للأسباب الآتية :
أولا : أن هذا الاسم هو الذى ورد على لسان المؤلف فى النسخ التى أمكننا الاطلاع عليها .

ثانيا : أثبت كتاب الفهارس الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » وهو الاسم الذى ورد فى متون جميع المخطوطات التى اطلعوا عليها وأثبتوها فى فهارسهم .

ثالثا : اعتمد زوكوفسكى فى طبعته لكتاب كشف المحجوب على خمس مخطوطات جعل احداها متنا ، ورجع الى الأربع الأخرى لتصحيح المتن ، وهو يؤكد أن هذا الاسم هو الذى ورد فى جميع النسخ التى اعتمد عليها ، ومن غير المحتمل أن تكون بقية الاسم — اذا صح أن هناك بقية — قد سقطت من هذه النسخ جميعها .

رابعا : جاء هذا الاسم دون زيادة فى « نفحات الانس » ، وقد اعتمد الجامى على كشف المحجوب اعتمادا كبيرا ، ونقل عنه نص عبارته فى كثير من الموضوعات والتراجم ، ومن المستبعد أن يكون مخطئا فى اسم الكتاب .

خامسا : أكبر الظن أن بعض الذين أضافوا الى اسم كشف المحجوب عبارة (لأرباب القلوب) قد تواردت فى أذهانهم بعض المعانى التى ردها الهجويرى فى مقدمة الكتاب ، فهو يقول ان كتابه كشف للحجاب ، ويعرف الحجاب بأن هناك نوعين من الحجاب : أحدهما الحجاب « الرينى » الذى أشار اليه الله تعالى فى قوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(١) » وهذا الحجاب لا يرتفع أبدا ، والثانى : الحجاب « الغينى » ويجوز أن يرتفع فى بعض الأحيان . ثم يذكر أنه وضع كتابه ليصقل القلوب الأسيرة فى الحجاب الغينى والتى يكمن فيها نور الحق حتى أنها ببركة قراءته يرتفع عنها الحجاب ، وتجد الطريق الى الحقيقة(٢) ، ومن هنا أضافوا عبارة (لأرباب القلوب) الى اسم الكتاب ، ثم نقلها عنهم غيرهم .

موضوع الكتاب :

موضوع كتاب « كشف المحجوب » جاء اجابة على السؤال الذى وجهه الى الهجويرى أحد مواطنيه ، ويدعى « أبو سعيد الهجويرى » ، وسأله فيه أن يبين له أصول الطريقة ومقامات الصوفية وأقوالهم ومعاملاتهم :

(١) سورة « المطففين » آية ١٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٥ - ٦ .

يقول الهجویری :

« قال السائل وهو أبو سعيد الهجویری : بیان کن مرا اندر تحقیق طریقت تصوف وکیفیت مقامات ایشان ، و بیان مذاهب ومقالات ایشان . و اظهار کن مرا رموز و اشارات ایشان و چگونه محبت خداوند عز وجل ، و کیفیت اظهار آن برد لها ، و سبب حجاب عقول ازکنه و ماهیت آن ، و نفرت نفس از حقیقت آن ، و آرام روح باصفوت آن و آنچه بدین تعلق دارد از معاملات آن » (۱) .

وترجمته :

قال المسائل وهو أبو سعيد الهجویری : بین لی علی النحقیق طریقة التصوف ، وکیفیه مقامات الصوفیه و مذاهبهم و اقوالهم ، و اظهر لی رموزهم و اشاراتهم ، و کیف تكون محبتهم لله عز وجل ، وکیفیه اظهارها علی القلوب و ما السبب فی حجاب العقول عن کنهها و ماهیتها ، و نفرة النفس من حقیقتها ، و سکینه الروح الی صفوتها ، و ما یعلق بهذا من المعاملات .

و قبل الاجابة علی هذا السؤال ، ی رسم الهجویری صورة قاتمة لعلم النصف فی آیامه فیقول ما معناه :

« أعلم أن هذا العلم قد اندرس فی الحقیقة فی زماننا هذا ، و بخاصة فی هذه الدیار حیث انشغل الخلق جمیعا بأهوائهم ، و اعرضوا عن طریق الرضا . و قد بدت لعلماء هذا العصر و ادعیاء هذا الوقت صورة لهذه الطریقة علی خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه یدی أهل هذا الزمان و أسرارهم باستثناء خواص حضره الحق ، و انقطع عنه مراد أهل الإرادة ، و انعزلت عن وجوه معرفة أهل المعرفة غیر خواص حضرة الحق » (۲) . و یمضی الهجویری فی هذا الی أن ینتقل الی موضوع الکتاب ، و یبدأ بشرح المنهج الذی سیمسیر علیه ، فیقول ما ترجمته :

« و الآن : فلأبدأ بالکتاب ، و أوضح مقصودک فی المقامات و الحجب ، و أبسطها ببیان لطیف ؛ و اشرح عبارات أهل الصنائع ، و الحق بذلك قدرا من اقوال الشیوخ ، و امد بهر الحکایات حتی یتحقق مرادک ، و یعلم من ینظر فی هذا العلم من علماء الظاهر و غیرهم أن لطریق التصوف أصلا قویا ، و فرعا مثمرا » (۳) .

(۱) « کشف المحجوب » ص ۷ .

(۲) « السابق » ص ۷ .

(۳) « السابق » ص ۱۰ .

ويتضح من العبارة السابقة أن الهجویری أخذ على نفسه أن يقدم للمسائل منهجا كاملا لعلم التصوف : اصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف اصولا ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة ، الى جانب استنادها الى الناحية الروحية .

وقد بدأ الهجویری كتابه باثبات فضيلة العلم ، ثم تكلم في الفقر والتصوف ولبس المرقعة ، والملازمة ، وتراجم الشيوخ ، والفرق الصوفية ، والعقائد والعبادات ، والآداب والرموز والمعاملات .

وموضوع الكتاب على هذه الصورة متكامل وواف بالغرض الذي ألف من أجله . .

ويمكن أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى الأقسام الآتية :
أولا : أبواب تتناول الأصول الصوفية ، وهي :

باب الفقر .

باب التصوف .

باب اختلافهم في الفقر والصفوة .

ثانيا : أبواب تعالج المسائل الفرعية ، وهي :

باب لبس المرقعة .

باب بيان الملازمة .

ثالثا : قسم خاص بتراجم الشيوخ .

رابعا : قسم خاص بالفرق الصوفية .

خامسا : قسم خاص بالعقائد الدينية ، ويتحدث في :

معرفة الله تعالى — التوحيد — الإيمان .

سادسا : قسم خاص بالعبادات ويتكلم في :

الطهارة — الصلاة — الزكاة — الصوم — الحج .

سابعا : أقسام تتحدث في : آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم .

ولنا ملاحظة صغيرة فيما يختص بالتسلسل المنطقي لأبواب الكتاب وتربطها من الناحية الموضوعية ، فالدارس للكتاب يفتقد عنصر الترابط بين بعض الأبواب من الناحية الموضوعية .

مثال ذلك : الأبواب من الثانى الى السادس ، والتي جاءت على هذا النحو :

- ٢ - باب الفقر ، ٣ - باب التصوف ، ٤ - باب لبس المرتعة
٥ - باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ، ٦ - باب بيان الملامة .

فلو أن الوضع تغير بالنسبة للبابين الرابع والخامس وتقدم باب الاختلاف فى الفقر والصفوة لكان هناك ترابط تام بينه وبين البابين الثانى والثالث من الناحية الموضوعية .

وكذلك الحال بالنسبة للقسم الرابع والعشرين الخاص بالرموز والمصطلحات الصوفية ، فلو أنه جاء بعد الباب الرابع عشر الخاص بالفرق الصوفية لكان بينهما تناسق كبير من ناحية الموضوع ، إذ أن جزءا كبيرا من الرموز شرح خلال الحديث عن الفرق .

* * *

تاريخ تأليفه :

تاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، فالهجویری لم يذكر فى الكتاب التاريخ الذى بدأ تأليفه فيه ، أو التاريخ الذى أنهى فيه هذا العمل . ومن الملاحظ أنه ابتعد دائما عن ذكر أى تاريخ مهما كانت أهميته ، وذلك على العكس مما فعله معاصره القشیری ، فقد ذكر القشیری اسمه فى مقدمة الرسالة ، ونص على التاريخ الذى ألفها فيه (١) .

وعلى الرغم من أن الهجویری اطلع على الرسالة ، واقتفى أثر القشیری فى بعض الأمور ونقل عنه كثيرا ، كما هو واضح من كشف المحجوب ، وما نلاحظه أيضا من التشابه الكبير بين مقدمتى الرسالة وكشف المحجوب ، فإنه يبدو أن هذه المسألة لم تستلفت نظره ، ولم يرها جديرة ببعض الاهتمام الذى أولاه لذكر اسمه ، فقد كان حريصا على اثباته فى مقدمة كشف المحجوب وكرر ذلك كثيرا فى ثنياه ، ولم يهتم بالإشارة الى تاريخ تأليفه .

والرأى السائد الذى تردد بالنسبة لكتاب كشف المحجوب والفترة التى ألف فيها ، يتلخص فى ثلاث نقاط :

الأولى : أن الكتاب آخر مؤلفات الهجویری .

(١) « الرسالة » أبو القاسم عبد الكريم بن «وازن القشیری : تحقيق عبد الحلیم محبود : القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م (انظر مقدمة المؤلف ص ١٨) .

الثانية : أن الهجویری الفه فی الفترة الأخيرة من حياته وخلال اقامته فی مدينة لاهور ..

الثالثة : أن الكتاب مؤلف حوالی منتصف القرن الخامس الهجرى ، أو الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى ، وربما فی الربع الأخير من القرن الخامس ..

وبالنسبة للنقطة الأولى ، وهى أن كشف المحجوب آخر مؤلفات الهجویری (١) ، فقد أصبحت هذه المسألة موضع شك بعد أن عرف أن هناك مؤلفات تنسب اليه ، لم يرد ذكرها فی كشف المحجوب ضمن مؤلفات الهجویری السابقة على كشف المحجوب ، مما يرجح أنها ألفت بعده (٢) .

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فهناك امران :

الأول : أن الكتاب ألف فی الهند خلال الفترة التى قضاها الهجویری أسيراً فی مدينة لاهور . وقد أشار الهجویری نفسه الى هذا فی موضع من الكتاب ، واعتذر بأنه ليس لديه معلومات أكثر لأنه كان قد ترك كتبه فی غزنه (٣) ..

والثانى : ويدور حول الاجابة على هذا السؤال :

هل كتب الهجویری كتابه كله فی الهند خلال الفترة المشار اليها ، أم أنه كتب جزءاً منه فقط ؟

وفى الاجابة على هذا السؤال يوجد رايان :

أولهما : رأى من اعتمدوا فقط على اشارة الهجویری ، السابقة ، فأخذوها قضية مسلمة ، وقطعوا بأن الكتاب كله قد ألف فی الهند (٤) ..

وثانيهما : رأى من ترددوا فی قبول هذا الأمر ، ورجحوا أن مفصولاً من الكتاب فقط هى التى كتبت فی لاهور (٥) . وفسر بعضهم اشارته الى الكتب والمواد التى لم تكن فی متناول يده بأنها مجموعة الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخه الختلى (٦) ..

(١) « Zhukovsky's Introduction » ، « تصوف » ص ٣٢ ، « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .

(٢) (انظر : مؤلفات الهجویری) ص ٧٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) ، « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

(٥) « بزم شوق » نونبر ١٩٦٣ ص ١٣ (مقال بقلم مطيع الامام) .

(٦) « Zhukovsky's Introduction »

والواقع أننا نميل الى الاتفاق مع أصحاب الرأى الثانى وذلك للأسباب
الآتية :

١ - فيما يتعلق بتصريح الهجويرى أنه كان يؤلف كتابه فى الهند فى الوقت
الذى كانت فيه كتبه فى غزنه ، فمن الواضح أنه كان يشير الى مجموعة
الروايات التى جمعها شيخه الخطفى - والتى نص عليها فى هذا الموضع -
اذ مما لا يرقى اليه شك أنه كان فى متناول يده وهو يكتب أجزاء كثيرة من
كتابه مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسميها ، وكثيرا ما ينقل
أمثالا وقصصا بحرفيتها ، ويورد استشهدات مقتطفة يصعب على الانسان
أن يحفظها عن ظهر قلب . ونظرة فى الفصل الخامس (١) من هذا الباب
كافية لاثبات ذلك .

٢ - يتضح من المادة التى وردت فى كشف المحجوب أنه بالرغم من أن
كثيرا من المعلومات التى ضمنها المؤلف كتابه قد أمكن له جمعها خلال فترة
تجوله التى سبقت وقوعه فى الأسر ، الا أنه توجد معلومات أخرى ترجع
الى ما بعد هذه الفترة ، مما يوضح أن بعض أجزاء من الكتاب كتبت بعدها ،
مثال ذلك قصة زيارة الهجويرى لقبر أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة
٤٤٠ هـ (٢) .

٣ - هناك دليل آخر ملموس مرتبط بالدليل السابق ، وهو أنه اذا صح
أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فترة الراجات التى وقعت فى لاهور
عام ٤٣٥ هـ ، وأن الهجويرى كان يمارس فى هذه الفترة كتابة مؤلفه ، على
نحو ما صرح به فى ترجمته لحبيب الراعى (٣) ، فقد ذكر فى ترجمته لمعروف
الكرخى أنه اقتفى أثر « السلى » و « القشبرى » فى اختيار الموضع الذى
ترجم له فيه (٤) ، وفى هذا إشارة الى أنه اطلع على رسالة القشبرى قبل
أن يكتب هذا الجزء . ومن المعروف أن الرسالة الفت عام ٤٣٧ هـ ، فلا بد
اذن أن الهجويرى اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

وخلاصة رأينا ، بالنسبة لهذه النقطة ، أنه يبدو أن الهجويرى بدأ كتابة
أجزاء من كتابه خلال فترة الأسر ، أى حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن تهيأت
له مادة مناسبة لأن يبدأ الكتابة . وبعد اطلاق سراحه رجع الى غزنة
وخراسان ، حيث استعاد كتبه ومراجعته ، وجمع كمية أخرى من المعلومات

(١) انظر : مظاهر التأثير والتأثر .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

(٣) « السابق » ص ١١٠ .

(٤) « السابق » ص ١٤١ .

ضمها الى ما لديه ، وبذلك أتحت له الفرصة أن يكمل الكتاب . وربما أتم هذا العمل في غزنة أو خراسان ، وليس هناك ما يمنع أيضا من أن يكون قد أتمه في الهند عندما رجع إليها في المرة الثانية ليقوم نهائيا بمدينة لاهور . .

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، التي تتعلق بتاريخ تأليف الكتاب ، فهناك فترات ثلاث يشار إليها على أن الكتاب قد ألف في أحدها :

الأولى : حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (١) .

والثانية : النصف الثانى من القرن الخامس ، أو بعبارة أخرى : الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى (٢) .

والثالثة : ما بين سنة ٨١٠ وسنة ٥٠٠ هـ (٣) .

وقد اعتمد من رجحوا الفترة الأولى على ما هو واضح في ترجمة الهجویری لشيخه أبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، من أنه كان حيا عند تأليف كشف المحجوب . .

واستند من رجحوا الفترة الثانية الى أنه في الجزء الأخير من كشف المحجوب ، يضاف الى اسم أبى القاسم القشیری المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، عبارة (رحمه الله) مما يدل على أن هذا الجزء كتب بعد وفاة القشیری (٤) .

أما الفترة الأخيرة فقد أشير إليها في مقال كتبه « يحيى حبيبى » وقویل بكثير من المعارضة ، وان وجد من يميل الى تصديقه (٥) .

ونناقش الآن احتمالات هذه الفترات أو التواريخ الثلاثة :

أولا : فيما يتعلق بالتاريخ الأول فان الفترة المذكورة ، اذا أخذت بمعناها الواسع ، لا تبعد عن الحقيقة . والدليل الذى نستند اليه هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه من رجحوا هذه الفترة — من أن الكتاب ألف في حياة أبى القاسم الجرجانى — وقد تحدثنا سن ذلك بالتفصيل عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجویری (٦) .

(١) «Zhukovsky's Introduction»

(٢) «بزم شوق» نوفمبر ١٩٦٢ ص ١٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) Oriental College Magazine (Volume 36 pp. 27-43) by:

Mr. Yahya Hobibi.

Rieu Cat: Vol. I, Ethé Cat: Vol. I. (٤)

«THE LIFE AND TEACHINGS», p. 25. (٥)

(٦) انظر : ص ٨٤

ثانيا : بالنسبة للتاريخ الثانى ، ففى رأينا أن الفترة المحددة تبعد عن الصواب . والدليل الذى نستند اليه فى رفض تلك الفترة هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه البعض فى ترجيحها — وهو أن اسم القشبرى يعقبه أحيانا عبارة رحمه الله — وقد فسر ذلك أيضا عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجوبرى (١) .

ثالثا : فيما يتعلق بالتاريخ الآخر — وهو الفترة ما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ — فربما كانت الفترة المحددة أبعد التواريخ الثلاثة عن الصواب بعد أن عرفنا أن الهجوبرى نفسه قد توفى حوالى سنة ٤٦٥ هـ .

أما عن الفترة التى نرجحها لتأليف الكتاب وتاريخ الانتهاء منه ، فقد بات واضحا أن الهجوبرى بدأ تأليف كتابه حوالى سنة ٤٣٥ هـ وهى السنة التى وقع فيها أسيرا فى مدينة لاهور ، على نحو ما صرح به الهجوبرى نفسه فى الكتاب (٢) ، وما اثبتناه من أن فترة الأسر المشار إليها كانت أثناء فترة الراجات التى وقعت فى لاهور سنة ٤٣٥ هـ (٣) .

أما عن تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب ، فيبدو أن الهجوبرى أنهى فيما بين سنتى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ . ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

١ — من المستبعد أن يكون الهجوبرى قد أنهى كتابه قبل سنة ٤٤٠ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو سعيد بن أبى الخير ، لأنه ذكر فى الكتاب أنه زار قبر أبى سعيد (٤) .

٢ — وردت فى كشف المحجوب اشارتان فى الباب الثالث عشر — وهو الباب الذى ذكر فيه الهجوبرى رجال الصوفية المتأخرين مرتبة على حسب بلدانهم وقال فى مقدمته انه سيذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا أحياء على عهده — وأولى هاتين الاشارتين اشير بها الى « خواجه على بن الحسين السيركانى » ، ونصها :

« أما ازاهل كرمان خواجه على بن الحسين السيركانى ، سياح وقت بود ، وأسفار نيكوداشت ، ويسرش حكيم مردى عزيز است » (٥) .

(١) انظر : ص ٨٣

(٢) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٣) انظر : ص ١٩

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠١

(٥) « السابق » ص ٢١٥ .

وترجمتها :

« أما من أهل كرمان : السيد على بن الحسين السيركاني ، وكان سباح الوقت ، وذا أسفار طيبة . وابنه حكيم رجل عزيز » .

وواضح من هذه الإشارة أن خواجه على لم يكن على قيد الحياة عند كتابتها ، فقد استعمل الهجویری في الحديث عنه الفعل الماضي (بود«ا») ، بينما استعمل في الحديث عن ابنه الرابطة (است) (ب) ، وهذا يبين أن خواجه على وإن كان حيا على عهد الهجویری ، إلا أنه كان قد توفي عند كتابة هذه النبذة ، بينما كان ابنه لا يزال على قيد الحياة . وتاريخ وفاة الأب محدد بعام ٤٤١ هـ (١) ، وتوفي الابن عام ٧٠ هـ (٢) . .

والإشارة الثانية أشير بها الى أبي جعفر « محمد بن الحسين الحرمی » ، ونصها :

« أما ازاهل ما وراء النهر : خواجه امام مقبول خاص وعالم أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمی ، مردی مستمع وكرفتارست ، وهمتی عالی دارد وروزکاری صافی ، وشفقتی تمام بر طالبان درگاه حق » (٣) .

وترجمتها :

« أما من أهل ما وراء النهر : « خواجه » الإمام ، مقبول الخاص والعام ، أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمی ، وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همّة عالية ووقت صافي ، وشفقة كاملة على جميع طلاب، حضرة الحق » .

ويتضح من هذه الإشارة أن محمد بن الحسين الحرمی كان على قيد الحياة عند كتابتها ، فالهجویری يستعمل في هذه النبذة الرابطة (است) والفعل المضارع (دارد) (ج) . وقد توفي محمد بن الحسين الحرمی عام ٤٤٢ هـ (٤) . .

(١) ذكر « نفیسی » أن خواجه على بن حسن (حسين) الكرمانی السيركاني كان من شيوخ الصوفية في كرمان ، ومن مریدی الشيخ « هو » وتوفي سنة ٤٤١ هـ (انظر : شد الآثار من ١٨١ حاشية ١) .

(٢) « هدية المارفين » ج ١ ص ٦٩٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٤) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، « صفوة الصفوة » ج ٢ ص ٢٧٥ .

(أ) « بود » = كان . (ب) « است » = يكون ، كائن . (ج) « دارد » = يملك .

ويمكن أن نستخلص من هاتين الاشارتين انه من المرجح أن يكون
الهجویری قد أنهى كتابه فيما بین عامی ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ ، أى بعد وفاة
خواجه على بن الحسین السیرکانی عام ٤٤١ هـ ، وقبیل وفاة محمد بن
الحسین الحرمی عام ٤٤٢ هـ .

وبناء على ما تقدم يكون الهجویری قد بدأ تأليف كتاب كشف المحجوب
حوالی عام ٤٣٥ هـ . وأتمه حوالی عام ٤٤٢ هـ . وهذه الفترة التي نرجحها
لا تتعارض مع ما ذكر من أن الهجویری كتب مؤلفه حوالی منتصف القرن
الخامس الهجری ، وأثناء حياة أبی القاسم الجرجانی المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

* * *

الفصل الثاني أقسام الكتاب

(تقسيم آيته ، تقسيم من وجهة نظرنا ، التعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها)

١ - أقسام الكتاب من الناحية الشكلية :

تقسيم آيته : تعرض « آيته » في فهرسه لذكر خمس نسخ من كشف المحجوب ، أثبتها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، وذكر أن الكتاب ينقسم طبقا لجميع النسخ الى أربعين بابا (١) بينما نسختنا « فينا » ، و « بودلين » تتكون كل منهما من أربعة وستين بابا (٢) تتضمن عدة فصول . وفيما يلي قائمة بأقسام الكتاب كما أثبتها « آيته » طبقا للنسخة تحت رقم ١٧٧٣ :

- ١ - باب اثبات العلم .
- ٢ - باب الفقر .
- ٣ - باب التصوف .
- ٤ - باب لبس المرقعة .
- ٥ - باب اختلافهم في الفقر والتصوف .
- ٦ - باب في الملامة .
- ٧ - باب في ذكر أئمتهم من الصحابة .
- ٨ - باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت .
- ٩ - باب في ذكر أئمتهم من أهل (أصحاب) الصفة .
- ١٠ - باب في ذكر أئمتهم من التابعين .

(١) ورد هذا أيضا في : « تاريخ أدبيات فارسي » هرمان آيته : ترجمة رضا زاده شفق ، طهران ١٣٢٧ - ١٩٥٨ م (انظر ص ٢٩٤) .

(٢) «Ethé» Cat. Vol. I.

- ١١ - باب في ذكر ائمتهم من اتباع التابعين .
- ١٢ - باب في ذكر ائمتهم من المتأخرين .
- ١٣ - باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
- ١٤ - باب في فرق فرقهم ومذاهبهم .
- (ويقول ايته : وفي نهاية هذه القائمة توجد أربعة كشوف) :
- كشف الحجاب الاول في معرفة الله .
- كشف الحجاب الثاني في التوحيد .
- كشف الحجاب الثالث في الايمان .
- كشف الحجاب الرابع في الطهارة .
- ١٥ - باب التوبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب الخامس في الصلاة .
- ١٦ - باب المحبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب السادس في الزكاة .
- ١٧ - باب الجود والسخاء .
- كشف الحجاب السابع في الصيام .
- ١٨ - باب الجوع وما يتعلق به .
- كشف الحجاب الثامن في الحج .
- ١٩ - باب المجاهدة .
- كشف الحجاب التاسع في الصحبة وآدابها .
- ٢٠ - باب الصحبة وما يتعلق بها .
- ٢١ - باب آدابهم في الصحبة .
- ٢٢ - باب في آداب الصحبة في الاقامة .
- ٢٣ - باب في آدابهم في السفر .
- ٢٤ - باب في آدابهم في الاكل .
- ٢٥ - باب في آدابهم في المشي .
- ٢٦ - باب في نومهم في السفر والحضر .
- ٢٧ - باب في آدابهم في الكلام والسكوت .
- ٢٨ - باب في آدابهم في السؤال وتركه .

- ٢٩ - باب في آدابهم في التزويج والتجريد .
- ٣٠ - كشف الحجاب العاشر في بيان الفاظهم وحقائق معانيها .
- كشف الحجاب الحادى عشر في السماع .
- ٣١ - باب في السماع وما يتعلق به .
- ٣٢ - باب في سماع الشعر .
- ٣٣ - باب في سماع الأصوات والالحن .
- ٣٤ - باب في كلام السماع .
- ٣٥ - باب في اختلافهم في السماع .
- ٣٦ - باب في مراتبهم في حقيقة السماع .
- ٣٧ - باب في الوجد والوجود والتواجد ومراتبه .
- ٣٨ - باب في الرقص وما يتعلق به .
- ٣٩ - باب في الخرق .
- ٤٠ - باب في آداب السماع .

ونلاحظ على هذا التقسيم الذى أورده « ايته » امرين :

الاول : يبدو أن الرقم (٤٠) الذى اُشار به الى عدد أبواب الكتاب قد حصل عليه بعد أن أحصى كلمة (باب) التى عنون بها المؤلف لمجموعة من الأمور والمسائل التى ذكرها أو ناقشها فى كتابه ، كأن يقول مثلا : باب اثبات العلم ، باب الفقر ، باب الجوع وهكذا .

وهنا نلاحظ أن الرقم الصحيح هو (٣٩) لا (٤٠) .

والثانى : لم يعط « ايته » رقما لأقسام الكتاب التى عنون لها المؤلف بكلمة (كشف الحجاب) باستثناء الحجاب العاشر الذى أعطاه رقم (٣٠) كما لو كان بابا من الأبواب التى ذكرها المؤلف ، وبذلك حصل على الرقم (٤٠) الذى ذكر أنه مجموع عدد الأبواب التى ينقسم اليها الكتاب طبقا لهذه النسخة .

تقسيم من وجهة نظرنا :

الواقع أننا اذا أردنا أن نحدد أقسام الكتاب تحديدا أكثر دقة وتناسقا نجد أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما يمكن تقسيمها الى مجموعتين :

المجموعة الاولى : وتشمل أربعة عشر قسما اطلق على كل منها اسم (باب) ، وبعض هذه الأبواب يشتمل على فصول .

المجموعة الثانية : وتشمل أحد عشر قسما اطلق على كل منها اسم (كشف الحجاب) ، وبعض هذه الأقسام يشتمل على أبواب وفصول .

وفيما يلي قائمة بأقسام الكتاب كما نراها من وجهة نظرنا :

مقدمة المؤلف : وتشتمل على ثمانية فصول قصيرة .

أقسام الكتاب :

المجموعة الاولى :

- ١ - باب اثبات العلم : ويشتمل على أربعة فصول .
- ٢ - باب الفقر : ويشتمل على فصلين .
- ٣ - باب التصوف : ويشتمل على فصلين .
- ٤ - باب لبس المرقعة : ويشتمل على فصلين .
- ٥ - باب اختلافهم في الفقر والصفوة .
- ٦ - باب بيان الملامة : ويشتمل على فصلين .
- ٧ - باب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين .
- ٨ - باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت .
- ٩ - باب في ذكر أهل الصفة .
- ١٠ - باب في ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار .
- ١١ - باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا . (أى الى عهد المؤلف) .
- ١٢ - باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين .
- ١٣ - باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
- ١٤ - باب في فرق فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم .

المجموعة الثانية :

- ١٥ - كشف الحجاب الأول في معرفة الله تعالى : ويشتمل على فصلين .
- ١٦ - كشف الحجاب الثانى في التوحيد : ويشتمل على فصل .

- ١٧ - كشف الحجاب الثالث في الايمان : ويشتمل على فصل .
- ١٨ - كشف الحجاب الرابع في الطهارة : ويشتمل على باب وفصلين .
- ١٩ - كشف الحجاب الخامس في الصلاة : ويشتمل على باب وأربعة فصول .
- ٢٠ - كشف الحجاب السادس في الزكاة : ويشتمل على فصل وباب .
- ٢١ - كشف الحجاب السابع في الصوم : ويشتمل على باب .
- ٢٢ - كشف الحجاب الثامن في الحج : ويشتمل على باب .
- ٢٣ - كشف الحجاب التاسع في الصحبة مع آدابها واحكامها : ويشتمل على عشرة أبواب .
- ٢٤ - كشف الحجاب العاشر في بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم .
- ٢٥ - كشف الحجاب الحادى عشر في السماع : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢ - تعريف باقسام الكتاب وموضوعاتها :

ذكرنا أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما ونعرف في اختصار بهذه الاقسام ونبين الموضوعات التى يشتمل عليها كل قسم منها :

مقدمة الكتاب (١)

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة طويلة نوعا استغرقت حوالى عشر صفحات . استهلها باسم الله والحمد له ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأثبت فيها اسمه واسم الكتاب ، ثم عقد ثمانية فصول قصيرة :

الفصل الأول : تحدث فيه عن السبب الذى من أجله أثبت اسمه فى بداية الكتاب .

الفصل الثانى : ذكر فيه أنه سلك طريق الاستخارة ، وبين فضائل ذلك .

الفصل الثالث : فى أنه محا عن قلبه الأغراض النفسية قبل أن يبدأ العمل .

(١) « كشف المحجوب » من ١ - ١١ . (ملاحظة : هذا التقسيم وأرقام الصفحات وفقا للطبعة الحديثة لكشف المحجوب طهران ١٣٣٦ هـ . ش ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

الفصل الرابع : فى « النية » عملا بقول الرسول عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » .

الفصل الخامس : شرح فيه الغرض من تسمية الكتاب باسم « كشف المحجوب » .

الفصل السادس : صرح فيه بأنه عرف مقصود السائل وأنه يجد فى نفسه القدرة على اجابته على سؤاله اجابة مفصلة .

الفصل السابع : فى طلب التوفيق والعون من الله على اتمام مهمته .

الفصل الثامن : تحدث فيه عن أن هذا العالم موضع لأسرار الله وأن الجواهر والأعراض والطبائع إنما هى حجاب لتلك الأسرار ، وأن الإنسان محجوب بوجوده عن الأسرار الربانية ، وقد أصبح هذا الحجاب مزاجا له ، فلا جرم أن اكتفى بالجهل واشترى بالروح حجابيه عن الحق لأنه يجهل جمال الكشف .

واستطرد من هذا الى أن جميع المشايخ حثوا المريدين على تعلم العلم والمداومة عليه فمهّد بذلك للباب الأول من الكتاب .

أقسام الكتاب

القسم الأول :

« باب اثبات العلم » (ص ١١ — ٢١) .

ويقع فى حوالى احدى عشرة صفحة ، ويشتمل على أربعة فصول .

موضوعه :

(١) تحدث المؤلف فى هذا الباب عن ضرورة العلم ، وذكر أن تعلم جميع العلوم ليس فريضة على كل الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشريعة ، وأنه ينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل .

ثم قسم العلم الى علمين :

علم الله تعالى ، وعلم الخلق .

(ب) الفصل الاول : علم الله .

(ج) الفصل الثانى : علم الخلق .

(د) الفصل الثالث : عن السفسطائيين الذين ينكرون العلم ، والملاحدة من الصوفية الذين يقولون بترك العلم .

(هـ) الفصل الرابع : ذكر فيه طائفة من أقوال المشايخ فى العلم .

القسم الثانى :

باب الفقر (ص ٢١ - ٣٤) .

ويقع فى حوالى اثنتى عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين .

موضوعه :

(ا) الفقر من الناحية الروحية ، ويتحدث فيه عن درجة الفقر فى الطريق ، وحقيقته ورسبه .

(ب) الفصل الأول : فى اختلاف المشايخ فى الفقر والغنى وإيهما أفضل .

(ج) الفصل الثانى : فى أقوال شيوخ الصوفية فى الفقر وشرح رموزهم .

القسم الثالث :

باب التصوف (من ٣٤ - ٤٩) .

ويقع فى حوالى خمس عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) يتحدث فى هذا الباب عن لفظ (الصوفى) وهل هو مشتق من الصوف أم الصف أم الصفاء ؟ .. ويرفض هذه الاشتقاقات جميعها ويرجح أنه اسم من أسماء الأعلام لهذه الطائفة . ويقسم أهل التصوف الى : « صوفى » و « متصوف » و « مستصوف » .

(ب) الفصل الأول : فى أقوال المشايخ فى تعريف الصوفى والتصوف .

(ج) الفصل الثانى : فيما قيل فى المعاملات .

القسم الرابع :

باب لبس المرقعة (ص ٤٩ - ٦٥) .

ويقع فى حوالى ست عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) المرقعة شعار للمتصوف ولكن بعض الادعياء يرتدونها طلبا للجاه ، وهم بذلك يسيئون الى الصوفية الحقيقيين لان الناس ينسبونهم اليهم ويظنونهم على شاكلتهم .

(ب) الفصل الأول : فى شرط المرقعات ، وحياسة الرقعة ، والشروط التى ينبغى توفرها فىمن يلبس المريد المرقعة .

(ج) الفصل الثانى : فى ترك عادة لبس المرقعة ، والأصل فى تخريق الثياب .

القسم الخامس :

باب اختلافهم في الفقر والصفوة (٦٥ — ٦٨) .
ويقع في ثلاث صفحات .

موضوعه :

اختلاف علماء الصوفية في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، والصفوة عند جماعة أتم من الفقر . وهذا الخلاف خلاف في العبارات لأن الأولياء وصلوا الى حيث فنيت الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع من هذا المعنى .

القسم السادس :

باب بيان الملامة (ص ٦٨ — ٧٨) .
ويقع في عشر صفحات ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) الملامة وأثرها في خلوص المحبة . وقد خص الحق أعباءه بالملامة غيرة عليهم حتى لا تقع عين الغير على جمال حالهم ، وحتى لا يعجبوا هم بأنفسهم فيقعوا في آفة العجب والتكبر .

(ب) الفصل الأول : الملامة على ثلاثة أوجه :

ملامة استقامة السير .

ملامة القصد .

ملامة الترك .

(ج) الفصل الثاني : في تعريف أبي حمدة القصار للملامة .

القسم السابع :

بياب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين (ص ٧٨ — ٨٥) .
ويضم هذا الباب تراجم للخلفاء الأربعة :

١ — أبو بكر الصديق .

٢ — عمر بن الخطاب .

٣ — عثمان بن عفان .

٤ — علي بن أبي طالب .

القسم الثامن :

- باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت (ص ٨٥ - ٩٧) .
- ويشتمل على خمس تراجم :
- ١ - الحسن بن علي .
 - ٢ - الحسين بن علي .
 - ٣ - علي بن الحسين بن علي زين العابدين .
 - ٤ - أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (الباقر) .
 - ٥ - أبو محمد جعفر بن علي بن الحسين (الصادق) .

القسم التاسع :

- باب في ذكر أهل الصفة (ص ٩٧ - ٩٩) .
- عرف المؤلف في هذا الباب بأهل الصفة وذكر مجموعة من أسمائهم .

القسم العاشر :

- باب في ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار (ص ٩٩ - ١٠٧) .
- ترجم في هذا الباب لأربعة أشخاص هم :
- ١ - أويس القرني .
 - ٢ - هرم بن حيان .
 - ٣ - الحسن البصري .
 - ٤ - سعيد بن المسيب .

القسم الحادي عشر :

- باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين (ص ١٠٧ - ٢٠٢) .
- ويشتمل على أربع وستين ترجمة للأشخاص التالية أسماؤهم :
- ١ - حبيب العجمي .
 - ٢ - مالك بن دينار .
 - ٣ - أبو حليم حبيب بن سليم الراعي .
 - ٤ - أبو حازم المدني .
 - ٥ - محمد بن واسع .
 - ٦ - أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخراز .
 - ٧ - عبد الله بن المبارك المروزي .

- ٨ — أبو على الفضيل بن عياض .
- ٩ — أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى .
- ١٠ — أبو اسحاق ابراهيم بن ادهم بن منصور .
- ١١ — بشر بن الحارث الحافى .
- ١٢ — أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى .
- ١٣ — أبو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبى .
- ١٤ — أبو سليمان داود بن نصير الطائى .
- ١٥ — أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى .
- ١٦ — أبو على شقيق بن ابراهيم الأزدي .
- ١٧ — أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني .
- ١٨ — أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى .
- ١٩ — أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الاصم .
- ٢٠ — أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى .
- ٢١ — الامام أحمد بن حنبل .
- ٢٢ — أبو الحسن أحمد بن أبى الحواري .
- ٢٣ — أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى .
- ٢٤ — أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى .
- ٢٥ — أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى .
- ٢٦ — أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى الحداد .
- ٢٧ — أبو صالح حمدون بن احمد بن عمار القصار .
- ٢٨ — أبو سرى منصور بن عمار .
- ٢٩ — أبو عبد الله أحمد بن عاصم الانطاكى .
- ٣٠ — أبو محمد عبد الله أحمد بن خبيق الانطاكى .
- ٣١ — أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي .
- ٣٢ — أبو الحسن أحمد بن محمد النورى .
- ٣٣ — أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى .
- ٣٤ — أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء .
- ٣٥ — أبو محمد رويم بن أحمد .
- ٣٦ — أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى .

- ٣٧ — أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص .
- ٣٨ — أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى .
- ٣٩ — عمرو بن عثمان المكى .
- ٤٠ — أبو محمد سهل بن عبد الله التستري .
- ٤١ — أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى .
- ٤٢ — أبو عبد الله محمد بن على الترمذى .
- ٤٣ — أبو بكر محمد بن عمر الوراق (الترمذى) .
- ٤٤ — أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .
- ٤٥ — أبو الحسن على بن محمد الاصفهاني .
- ٤٦ — أبو الحسن محمد بن اسماعيل (خير النساچ) .
- ٤٧ — أبو حمزة الخراساني .
- ٤٨ — أبو العباس أحمد بن مسروق .
- ٤٩ — أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربي .
- ٥٠ — أبو على الحسن بن على الجوزجاني .
- ٥١ — أبو محمد أحمد بن الحسين الجريرى .
- ٥٢ — أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الادمى .
- ٥٣ — أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج .
- ٥٤ — أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الخواص .
- ٥٥ — أبو حمزة البغدادى البزاز .
- ٥٦ — أبو بكر محمد بن موسى الواسطى .
- ٥٧ — أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى .
- ٥٨ — أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدى .
- ٥٩ — أبو على محمد بن القاسم الرودبارى .
- ٦٠ — أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدى السيارى .
- ٦١ — أبو عبد الله محمد بن خفيف .
- ٦٢ — أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى .
- ٦٣ — أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محمودية النصر ابادى .
- ٦٤ — أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى .

القسم الثاني عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين (ص ٢٠٢ - ٢١٤) .
« يقول في مقدمة هذا الباب : بعض الذين سألهم في هذا الباب
توفوا وبعضهم أحياء » .

ثم يورد تراجم لعشرة من شيوخ الصوفية هم :

- ١ - أبو العباس أحمد بن محمد القصاب .
- ٢ - أبو علي الحسن بن محمد الدقاق .
- ٣ - أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني .
- ٤ - أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني .
- ٥ - أبو سعيد فضل الله بن محمد الميمني .
- ٦ - أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي .
- ٧ - أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري .
- ٨ - أبو العباس أحمد بن محمد انشتاني .
- ٩ - أبو القاسم علي الجرجاني الطوسي .
- ١٠ - أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان النوقاني .

القسم الثالث عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين من أهل البلدان (ص ٢١٤ - ٢١٨) :
يذكر في هذا الباب أسماء الذين كانوا لا يزالون أحياء على عهده من زهاد
الصوفية ومشايخهم من أرباب المعاني ، ويورد أسماءهم مرتبة على حسب
البلدان :

- ١ - أهل الشام والعراق .
- ٢ - أهل فارس .
- ٣ - أهل قهستان وأذربايجان وطبرستان وقومس .
- ٤ - أهل كرمان .
- ٥ - أهل خراسان .
- ٦ - أهل ما وراء النهر .
- ٧ - أهل غزنين وسكانها .

القسم الرابع عشر :

باب في الفرق بين فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم

(ص ٢١٨ - ٣٤١)

تناول المؤلف في هذا الباب الفرق الصوفية ، وقسمها الى اثنتى عشرة فرقة ، وتحدث عن كل فرقة منها ونسبها الى مؤسسها ، وذكر الاسس الرئيسية في مذهبها ، وبين أن هذه الفرق تتفق فيما بينها في أصول الشرع وفروعه والتوحيد ، ولكنها تختلف في بعض الجزئيات : كالعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، وفي تفسير بعض المصطلحات حيث يبدو هذا الاختلاف واضحا .

وهذه الفرق هي :

١ - المحاسبية :

وتنسب الى ابي عبد الله الحارث بن اسد المحاسبى ، واساس مذهبهم يقوم على الرضا .

وقد تكلم المؤلف في الامور الآتية :

(١) الرضا وهل هو من المقامات أم الأحوال .

(ب) فصل : فيما قيل بشأن ذلك .

(ج) الفرق بين المقام والحال .

٢ - القصارية :

وتنسب الى ابي صانح حمدون بن أحمد بن عماره القصار ، واساس مذهبهم على الملامة .

تحدث المؤلف في ايجاز عن الملامة وأحوال القسارىء الى الباب السادس من الكتاب حيث تناول هذه المسألة بالتفصيل .

٣ - الطيفورية :

وتنسب الى ابي يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، واساس مذهبهم يقوم على السكر .

وقد تكلم المؤلف عن السكر والصحو .

٤ - الجنيدية :

وتنسب الى ابي القاسم الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقوم على الصحو على عكس الطيفية .

٥ - النورية :

وتنسب الى ابي الحسن أحمد بن محمد النورى ، وأساس مذهبه يقوم على الايثار .

٦ - السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله التستري ، وأساس مذهبه يقوم على الرياضة والمجاهدة . وقد تناول المؤلف المسائل التالية :

- (أ) الكلام فى حقيقة النفس .
- (ب) فصل : فى اقوال المشايخ فى النفس .
- (ج) الكلام فى مجاهدة النفس .
- (د) الكلام فى حقيقة الهوى .

٧ - الحكيمية :

وتنسب الى ابي عبد الله بن على الحكيم الترمذى ، وأساس مذهبه يقوم على الولاية . وتحدث المؤلف فى :

- (أ) اثبات الولاية .
- (ب) فصل : فى الرد على المعتزلة والحشوية ممن ينكرون تخصيص الأولياء .
- (ج) فصل : فى رموز المشايخ عن الولاية .
- (د) الكلام فى اثبات الكرامات .
- (هـ) الفرق بين المعجزات والكرامات .
- (و) اظهار جنس المعجزة على يد من يدعى الألوهية .
- (ز) تفضيل الانبياء على الأولياء .
- (ح) تفضيل الانبياء والأولياء على الملائكة .

٨ - الخرازية :

وتنسب الى أبى سعيد الخراز ، وأساس مذهبه يقوم على الفناء والبقاء .

(١) الكلام فى الفناء والبقاء .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ ورموزهم فيما يتعلق بالفناء والبقاء .

٩ - الخيفية :

وتنسب الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وأساس مذهبه يقوم على الغيبة والحضور

١٠ - السيارية :

وتنسب الى أبى العباس السيارى ، وأساس مذهبه يقوم على الجمع والفرقة .

١١ - الحلولية :

وهم طائفتان :

الاولى : تنسب الى أبى حلمان الدمشقى .

والثانية : تنسب الى فارس .

(١) الكلام فى الروح .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى الروح .

القسم الخامس عشر :

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى (ص ٣٤١ - ٣٥٦) . .
ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(١) المعرفة نوعان : معرفة علمية ، ومعرفة حالية . وقد سمي العلماء والفقهاء صحة العلم بالله معرفة ، بينما سمي شيوخ الصوفية صحة الحال مع الله معرفة .

- (ب) الفصل الاول : المعتزلة يعتقدون انه يمكن معرفة الحق عن طريق العقل . ويعتقد آخرون أن الاستدلال وسيلة صحيحة لكسب المعرفة .
(ج) الفصل الثاني : في اقوال المشايخ في المعرفة .

القسم السادس عشر :

كشف الحجاب الثاني في التوحيد (ص ٣٥٦ — ٣٦٨)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(١) حقيقة التوحيد الحكم على وحدانية شيء بصحة العلم بواحدانيته .
ولما كان الله تعالى واحدا لا يقاسمه أحد في ذاته وصفاته ، ولا قسيم ولا شريك له في أفعاله ولما كان الموجودون يعرفونه على هذه الصفة ، فانهم يسمون هذا العلم توحيدا .

والتوحيد على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق للحق

توحيد الحق للخلق

توحيد الخلق للحق

(ب) فصل في اقوال المشايخ في التوحيد .

القسم السابع عشر :

كشف الحجاب الثالث في الايمان (ص ٣٦٨ — ٣٧٤)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(١) الايمان من ناحية اللغة هو التصديق . وقد اختلف الناس في اثبات حكمه ، فالمعتزلة يقولون ان جميع الطاعات العلمية والعملية ايمان ، والايمان عند غيرهم : المعرفة ، وعند المتكلمين من أهل السنة : التصديق المطلق . أما الصوفية فينقسمون فيه الى قسمين :

فريق يقول ان الايمان قول وتصديق وعمل ،

وفريق يقول انه قول وتصديق .

(ب) فصل : في حقيقة الايمان .

القسم الثامن عشر :

كشف الحجاب الرابع في الطهارة (ص ٣٧٤ - ٣٨٦)
يشتمل على باب وفصلين .

موضوعه :

- (أ) الطهارة على نوعين : طهارة الظاهر ، وطهارة القلب .
وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة .
- (ب) باب التوبة وما يتعلق بها : يشترط للتوبة ثلاثة أمور :
الأسف على المخالفة ، ترك الزلة في الحال ، العزم على عدم
الم العودة الى المعصية . والتائبون على ثلاث درجات : التائب ،
والمتيب ، والأواب .
- (ج) فصل : في الرجوع عن التوبة .
- (د) فصل : في اقوال المشايخ في التوبة .

القسم التاسع عشر :

كشف الحجاب الخامس في الصلاة (ص ٣٨٦ - ٤٠٤)
ويشتمل على باب وخمسة فصول .

موضوعه :

- (أ) الصلاة في عرف الفقهاء مجموعة من الأحكام الظاهرية ، ولكن
الصوفية يربطون بين هذه الأحكام الظاهرية ومعانيها الباطنية .
- (ب) فصل في رأى الصوفية في الصلاة : فريق يعدون الصلاة وسيلة
للحضور ، وفريق يعدونها وسيلة للغيبة . وطائفة من أرباب الأحوال يقولون
انها تتم في مقام الجمع ، وفريق يقول انها تتم في مقام انتفرقة .
- ومما يتعلق بالصلاة : المحبة .
- (ج) باب المحبة :

الفصل الأول : في انواع المحبة .

الفصل الثانى : المحبة أساس التصوف .

- الفصل الثالث : رأى المشايخ فى العشق .
الفصل الرابع : فى أقوال المشايخ فى حقيقة المحبة .

القسم العشرون :

كشف الحجاب السادس فى الزكاة (ص ٤٠٤ - ٤١٣) .

ويشتمل على فصل وباب :

موضوعه :

- (١) الزكاة فريضة واجبة على تمام النعمة ، ولكل شىء زكاة من جنسه :
فالمال نعمة وله زكاة من جنسه ، والأشياء العينية نعمة ولها زكاة من
جنسها ، والصحة نعمة كبيرة ، ولكل عضو من أعضاء البدن زكاة .
(ب) فصل : فى رأى شيوخ الصوفية فيما يعطى الزكاة ومن يأخذها .
(ج) باب الجود والسخاء .

القسم الحادى والعشرون :

كشف الحجاب السابع فى الصوم (ص ٤١٣ - ٤٢٢) .

ويشتمل على باب :

- (١) الصوم عبادة سرية بين المخلوق والخالق وجزاؤها لا نهاية له .
وأقل درجة فى الصوم هى الجوع .
(ب) باب الجوع .

القسم الثانى والعشرون :

كشف الحجاب الثامن فى الحج (ص ٤٢٢ - ٤٣٢)

ويشتمل على باب :

موضوعه :

- (١) الحج فريضة على العبد فى حال الصحة والعقل والبلوغ والإسلام
وحصول الاستطاعة .

وليس الغرض من الحج مشاهدة الكعبة ، وإنما كشف المشاهدة ،
وعندما يكون العبد مكاشفاً فإن العالم كله يصبح حرماً له ، وعندما يكون
محجوباً يصبح الحرم بالنسبة له أظلم من أى مكان .

(ب) باب المشاهدة .

القسم الثالث والعشرون :

كشف الحجاب التاسع فى الصبغة وأدابها وأحكامها (ص ٤٢٢ — ٤٧٩)
ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ — باب الصبغة وما يتعلق بها .
- ٢ — باب آدابهم فى الصبغة ، ويشتمل على فصل .
- ٣ — باب آداب الإقامة فى الصبغة .
- ٤ — باب الصبغة فى السفر .
- ٥ — باب آدابهم فى الأكل .
- ٦ — باب آدابهم فى المشى .
- ٧ — باب آدابهم فى السفر والحضر .
- ٨ — باب آدابهم فى الكلام والسكوت .
- ٩ — باب آدابهم فى السؤال وتركه .
- ١٠ — باب آدابهم فى التزويج والتجريد .

القسم الرابع والعشرون :

كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم
(ص ٤٧٩ — ٥٠٨)
موضوعه :

لاهل كل فن ، ولأرباب كل معاملة عبارات يستعملونها بعضهم مع البعض
ولا يعرف معناها سواهم ، وللصوفية أيضاً الفاظ خاصة ، منها :

الحال والوقت ، والمقام والتمكين ، والمحاضرة والمكاشفة ، والقبض
والبسط ، والأنس والهبة ، واقهر واللفى ، والنفى والإثبات ،

والمسامرة والمحادثة ، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والعلم
والمعرفة ، والشريعة والحقيقة ، وغير ذلك .

القسم الخامس والعشرون :

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع (ص ٥٠٨ — ٥٤٦)

ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ — باب سماع القرآن .
- ٢ — باب سماع الشعر .
- ٣ — باب سماع الأصوات والالحان .
- ٤ — باب احكام السماع .
- ٥ — باب اختلافهم فى السماع .
- ٦ — باب مراتبهم فى حقيقة السماع ، ويشتمل على فصل .
- ٧ — باب الوجد والتواجد .
- ٨ — باب الرقص .
- ٩ — باب الخرق .
- ١٠ — باب آداب السماع .

الفصل الثالث مصادر الكتاب

الروايات الشفوية ، الكتب والرسائل المدونة

اعتمد الهجویری فی کتابه علی مصادر متعددة ، واستقى مادته من منابع مختلفة ، منها الروايات الشفوية ، ومنها الكتب والرسائل المدونة . وقد بدأ من خلال كشف المحجوب أن الهجویری كان علی علم تام بأعمال أسلافه ، وهو یعدد مصادره ویذكرها بالاسم تارة ، ویكتفی بأن یشیر الی أسماء مؤلفیها تارة أخرى .

ویمكن أن نقسم مصادر كشف المحجوب الی قسمین :

أولاً : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات الشفوية كانت المصدر الأول الذى استمد منه الهجویری مادة كتابه ، وقد لاحظنا أنه كثيراً ما یردد فی الكتاب عبارات :

- سمعت فلانا یقول كذا ... (١)
- سألت فلانا عن كذا ، فقال (٢)
- كنت عند فلان ، فقال واحد كذا ... (٣)
- جرت لی مناظرة مع واحد ، فقال كذا ... (٤)
- اتفق لی صحبة أحد الادعیاء ، فقال كذا ... (٥)
- روى لی فلان عن فلان كذا ... (٦)

(١) « كشف المحجوب » انظر ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) السابق « انظر ص ٥٥ .
(٣) السابق « انظر ص ٢١٢ .
(٤) « السابق » انظر ص ٨ ، ١١٥ .
(٥) « السابق » انظر ص ٧٥ .
(٦) « السابق » انظر ص ٢٠٥ .

وقد تكونت حصيلة الهجویری من هذه الروایات بالرحلات التي قام بها (١) ، فقد رحل كثيرا ، وزار أماكن متعددة من العالم الاسلامی ، وأمكنه عن طريق هذه الرحلات الاتصال بكثير من كبار رجال الدين والأئمة والصوفية في عصره ، والمثليين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة ، وتجادل معهم في المسائل التي كان يهتم بها . وجاهد في الوقت نفسه لكي يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم ، ويقدر مدى قربهم أو بعدهم عن أهل السنة ، ومدى تمسكهم بأحكام الشريعة أو مجافاتهم لها ، وبذلك حصل على معلومات قيمة ومتنوعة استخدمها في حكاياته عن التقى بهم ، وفي أحكامه الصادقة على آرائهم ومذاهبهم ومختلف المسائل التي أوردتها في كتابه أو تعرض لمناقشتها .

ثانيا : الكتب والرسائل المدونة :

رجع الهجویری الى كثير من الكتب والرسائل التي كانت معروفة على عهده . ويمكن أن نقسم مصادره من هذا النوع الى ثلاث مجموعات .

المجموعة الأولى : الكتب التي رجع اليها وذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ونقل عنها في كتابه ونص على ذلك صراحة ، وهي :

أولا : كتاب « اللمع » لابن نصر السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ .
أشار الهجویری الى هذا الكتاب في باب آدابهم في الصلوة ، وذكر أنه ينقل عنه ، وأورد النص الذي نقله باللغة العربية (٢) .

غير أن اعتماد الهجویری على اللمع لم يكن مقصورا على هذا ، فقد اعتمد عليه كثيرا ونقل عنه في مواضع أخرى ، وإن لم يصرح بهذا . والدارس لكتابي كشف المحجوب واللمع يمكنه في سهولة ويسر أن يضع يده على المواضع التي ينقل فيها الهجویری عن اللمع ، وقد أوردنا مثلا واحدا يبين هذه الحقيقة (٣) ، وإن كان يوجد على غرارها الكثير .

ثانيا : كتاب المحبة : لعمر بن عثمان المكي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

(١) أرجع الى تفصيل رحلات الهجویری من

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٤٤

(٣) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : (مظاهر التأثير والتأثر : بين اللمع وكشف المحجوب) .

وذكر الهجویری هذا الكتاب فی باب المحبة ، ونقل عنه نصا ترجمه الى الفارسیة وصرح بأنه ینقل عنه (۱) .

ثالثا : كتب أبی عبد الرحمن السلمی المتوفی سنة ۴۱۲ هـ

اعتمد الهجویری على كتب ثلاثة من مؤلفات أبی عبد الرحمن السلمی ، وهی :

كتاب تاریخ اهل الصفة ، كتاب طبقات الصوفیة ، كتاب السماع .

أما « **تاریخ اهل الصفة** » فقد أشار الیه فی قوله ما ترجمته :

« وقد ألف الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی رضی الله عنه — وكان نقال انطریقة وراوی اقوال المشایخ — کتابا منفردا فی تاریخ اهل الصفة ، وأورد فیہ مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنیاتهم » (۲) .

وأما « **طبقات الصوفیة** » فقد ذكر الهجویری انه هذا حذوه فی ترتیبه لتراجم الشیوخ (۳) .

وأما « **كتاب السماع** » فقد ورد ذكره فی باب السماع حیث یقول الهجویری ما ترجمته :

« وقد روى الصحابة رضوان الله علیهم مثل هذا ، وجبعه الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی فی كتاب السماع ، وقطع باباحته » (۴) .

رابعا : كتاب « تاریخ المشایخ » ل محمد بن علی الترمذی المتوفی سنة ۲۸۵ هـ

أشار الهجویری الى هذا الكتاب فی باب لبس المرقعة ، وأورد منه خبرا عن الإمام أبی حنیفة النعمان (۵) . ویبدو أن الهجویری اعتمد على هذا الكتاب فی ترجمته للأئمة والشیوخ الاوائل .

خامسا : « الرسالة » لأبى القاسم عبد الکریم بن هوازن القشیری المتوفی سنة ۴۶۵ هـ .

(۱) « كشف المحجوب » ص ۳۹۹ — ۴۰۰

(۲) « السابق » ص ۹۸ — ۹۹

(۳) « السابق » ص ۱۴۱

(۴) « السابق » ص ۵۲۳ — ۵۲۴

(۵) « السابق » ص ۵۰

أشار الهجویری الى الرسالة القشيرية اشارة غير مباشرة عند ترجمته
لمعروف الكرخى ، حيث يقول ما ترجمته :

« وكان من الواجب ذكره قبل هذا ، ولكنى ذكرته فى هذا الموضع موافقة
لاثنين من الشيوخ : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : والاول
هو الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله الذى كتابه على هذا
الترتيب ، والثانى الأستاذ أبو القاسم القشيري الذى ذكره فى كتابه على
هذه الجيلة » (١) .

وبالرغم من أن الهجویری لم يذكر اسم الكتابين ، الا أنه من الواضح
من عباراته أنه يعنى طبقات الصوفية والرسالة القشيرية .

غير أن افادة الهجویری من الرسالة القشيرية لم تكن مقصورة على
هذا ، فمن الثابت أنه ينقل عنها فى أماكن كثيرة من كتابه . ومعظم
استشاداته من الأقوال والحكايات مأخوذة عن الرسالة دون زيادة ،
وان كان فى بعض الأحيان يضيف عبارة من عنده لتوضيح المعنى .

كما يتضمن كتاب كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من
الرسالة القشيرية (٢) .

سادسا : « حكايات عراقيان » (حكايات العراقيين) :

وهى مجموعة من الحكايات عن شيوخ الصوفية من تصنيف بعض
شيوخ العراق .

والهجویری ينقل عن هذه المجموعة ويذكرها مرة باسم « حكايات
عراقيان » (٣) ويكتفى مرة أخرى بأن يشير اليها باسم « حكايات » (٤) .

المجموعة الثانية :

وهى الكتب والرسائل التى ذكر الهجویری أسماءها وأسماء مؤلفيها ،
وصرح بأنه اطلع عليها وقراها ، ولا شك أنه أئاد منها ، وان لم يشر الى
أنه ينقل عنها ، مثل :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١
(٢) « انظر على سبيل المثال : باب المحبة فى الرسالة : ج ٢ ص ٦١٠ وما بعدها ،
وطابق بينه وبين كشف المحجوب ص ٣٩٢ وما بعدها » .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٥٦ وغيرها .
(٤) « السابق » ص ٧١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ وغيرها .

١ — تصانيف الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ :
وقد أشار الهجویری الى هذه التصانيف في ترجمته للاحزاج حيث يقول :
« وله تصانيف زاهرة ، ورموز وكلام مهذب في الأصول والفروع . وأنا
على بن عثمان الجلابی رأیت له خمسين تصنيفا في بغداد ونواحيها ،
وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان » (١) .

٢ — مؤلفات ابی جعفر بن المصباح الصيدلانی :
يقول الهجویری عنه ما ترجمته :
« وكان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان طيب في التحقيق وميل عظيم
الى الحسين بن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه » (٢) .

٣ — رسائل السيارية :
وهي الرسائل المتبادلة بين أهل « نسا » وأهل « مرو » من السيارية
اتباع أبی العباس السياری ، وقد اطلع الهجویری على بعض منها
في مدينة مرو (٣) .

المجموعة الثالثة :

كتب اشار اليها الهجویری ، وهي نوعان :
(١) الكتب التي ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ، مثل :
١ — مؤلفات الحكيم الترمذی ، وهي :
آداب المريدين ، ختم الولاية ، كتاب النهج ، كتاب نوادر
الأصول (٤) .

٢ — كتاب « مرآة الحكماء » لشاه بن شجاع الكرمانی (٥) .

٣ — كتاب « غلط الواجدین » لأبى محمد رويم (٦) .

٤ — كتاب « تصحيح الارادة » للجنييد البغدادي (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) « السابق » ص ٢١٤ — ٢١٥

(٣) « السابق » ص ٣٢٣

(٤) « السابق » ص ٤٩٣ ، ١٧٨

(٥) « السابق » ص ١٧٤

(٦) « السابق » ص ١٧٠

(٧) « السابق » ص ٤٣٩

- ٥ - كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) .
- ٦ - كتاب « المرتعة » لأبى معمر الأصمهانى (٢) .
- ٧ - كتاب « الرعاية » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى (٣) .
- ٨ - كتاب فى « اباحة السماع » لمؤلف مجهول (٤) .
- (ب) التصانيف والتآليف التى اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها ومصنفيها ،
وهى :

- ١ - تصانيف يحيى بن معاذ الرازى (٥) .
- ٢ - تآليف أبى بكر الوراق (٦) .
- ٣ - آثار سهل بن عبد الله (٧) .
- ٤ - تصانيف أحمد بن خضرويه (٨) .
- ٥ - تصانيف أبى سعيد الخراز (٩) .

وبالإضافة الى هذه المصادر ، فقد استند الهجويرى الى كثير من الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار الصحاح والأقوال المأثورة عن شيوخ
الصوفية الأوائل .

وعلى الرغم من تعدد المصادر التى اعتمد عليها الهجويرى ، رأيناه
يشكو فى موضع من كشف المحجوب ، من الظروف غير المواتية التى كان
عليه أن يعكف فيها على تأليف الكتاب ، فقد كان أسيراً فى بلاد الهند ،
بينما كانت كتبه فى موطنه غزنة .

ويقول زوكوفسكى انه فيما يختص بالكتب والمواد التى لم تكن فى متناول
يد الهجويرى ربما كان يعنى بذلك بعض المجموعات من الأحاديث المنقولة
التي جمعها شيخه الختلى فى « الروايات » (١٠) ، اذ مما لا يرقى اليه أدنى

- (١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩
- (٢) « السابق » ص ٦٢
- (٣) « السابق » ص ١٤٤
- (٤) « السابق » ص ٥٢٤
- (٥) « السابق » ص ١٥٣
- (٦) « السابق » ص ٤٣٩ ، ١٧٩
- (٧) « السابق » ص ٤٣٩
- (٨) « السابق » ص ١٥١
- (٩) « السابق » ص ٢١١
- (١٠) « السابق » ص ١١٠

شك أنه كان في متناول يده مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسمياها ، وكثيرا ما ينقل قصصا بنصها ، ويورد استشهادات يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب (١) .

على أننا نرى انهجويرى في بعض الأحيان يبدأ قولاً منقولاً بالعربية ويكمّله بالفارسية (٢) أو يورد تفسيراً أو شرحاً ما بالفارسية في ثانياً تعبيرات عربية مبعثرة . وكذلك يسرد بعض أقوال الشيوخ بالفارسية (٣) على نحو يوحى بغياب أصولها العربية ، تلك الأصول التي كان يمكن أن يورد منها استشهادات مضبوطة .

* * *

-
- (١) انظر « اللع » ص ١٩٥ وقابل بينه وبين كشف المحجوب ص ٤٤٤) .
(٢) انظر : معراج بايزيد في اللع ص ٤٦٤ وفي كشف المحجوب ص ٣٠٦) .
(٣) انظر : الترجمة الفارسية لقول الحسين البصري في كشف المحجوب ص ٥٠ والاصل العربي في « التعرف » ص ٢٣ ، حكاية الرسالة المتبادلة بين يحيى بن معاذ وأبي يزيد في كشف المحجوب ص ٢٢٣ والاصل العربي في الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

الفصل الرابع مكانة الكتاب بين كتب التصوف

(كتب التصوف قبل كشف المحجوب ، والكتب المؤلفة بعده)

يحثل كتاب كشف المحجوب مكانة مرموقة في تاريخ التصوف الاسلامي ، فهو يمثل واسطة العقد بالنسبة لأمهات الكتب العربية في التصوف ، والكتب الفارسية في هذا الموضوع ..

وكشف المحجوب يعتبر باكورة المؤلفات الفارسية في التصوف ، ولم تسبقه كتب في موضوعه ، باستثناء الترجمة الفارسية لكتاب : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، وهي الترجمة التي قام بها « المستمل البخاري (٤٣٤ هـ) للأصل العربي لكتاب التعرف للكلاباذي « ٣٨٠ هـ » (١) ، وكل ما سبقه كان من الكتب العربية التي كانت ولا تزال تعتبر من أهم المراجع في التصوف الاسلامي ، مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وواضح من كتاب كشف المحجوب أن مؤلفه اعتمد على عدد غير قليل من الكتب العربية : ومن أهمها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ، فقد رجع الى هذه الكتب واهتدى بمنهجها ، ونقل عنها كثيرا من مواد كتابه ، وصار هو أيضا مرجعا لمن جاء بعده ، ذلك أن مؤلفو الصوفية من الفرس الذين جاءوا بعد الهجویری أفادوا من كشف المحجوب واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا في مؤلفاتهم ، مثل : « تذكرة لاولياء » و « نفحات الأنس » و « سفينة الأولياء » و « طرائق الحقائق » و « تاريخ تصوف در اسلام » وغيرها .

ويجدر بنا قبل أن نقيم كتاب كشف المحجوب ، أن نعرف بالكتب التي سبقته وأفاد منها ، والكتب التي الفت بعده وأفادت بدورها منه ..

(١) « كشف المحجوب » انظر مقدمة المصحح ص ١٩

كتب التصوف قبل كشف المحجوب :

ذكرنا ان الكتب الصوفية التى سبقت كشف المحجوب كانت كلها باللغة العربية ، مثل : اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة . وليس معنى هذا انه لم تكن هناك كتب اخرى ، فمن الواضح انه كانت هناك محاولات كثيرة سابقة على هذه الكتب ولكنها لم تصل الينا ، وهى اما ان تكون فى عداد ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما ان تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ولم يقدر لها بعد من ينشرها أو يتوفر على دراستها .

ويؤيد هذا القول ما نقراه فى الكتب التى تحت أيدينا من أسماء لكتب ورسائل ليس لنا من العلم بها الا معرفة أسمائها أو أسماء مؤلفيها . وان نظرة واحدة فى أبواب ثلاثة من كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى ، وهى الأبواب : الثانى والثالث والرابع (١) ، لدليل مادي على صحة هذا القول ، قد ذكر المؤلف فى هذه الأبواب أسماء من تعرضوا للتصوف وعلومه ، سواء عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة . ويؤكد ذلك أيضا ما ورد فى كشف المحجوب من اشارات الى الكتب التى رجع اليها الهجویری أو قراها ، والتى رآها رأى العين (٢) .

وقد كانت هناك مدرستان صوفيتان عبرتا عن التصوف ، وبيئتا أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته :

أما المدرسة الأولى : فهى مدرسة أبى القاسم الجنيد (٢٠٧ هـ) ببغداد : وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة واتخذت من المساجد منابر لدعوتها . .

وأما المدرسة الثانية : فهى مدرسة أبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) فى نيسابور : واعتمدت على الكلمة المكتوبة ، واتخذت من الكتب ميدانا لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأوقاتها . كما حفظت لنا أيضا تراث المدرسة الأولى .

ونعرف الآن ببعض الكتب العربية التى لها ارتباط وثيق بكشف المحجوب والتى تعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها مؤلفه .

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » أبو بكر محمد الكلاباذى : القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠

(انظر : ص : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢) .

(٢) انظر : الفصل الثالث من هذا الباب .

أولاً : « اللع » (١) :

مؤلف اللع هو : « أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي » المتوفى في رجب عام ٣٧٨هـ (٢) ، والملقب بطاويس الفقراء (٣) ، كان مريداً لأبي محمد المرتعش ، ورأى : « سري السقطي » و « سهل التسنري » (٤) .

والسراج تجول في أنحاء العالم الاسلامي ، واجتمع بأعلام التصوف في عصره . ويروى عنه الهجويري أنه لما بلغ بعدد ، كان ذلك في شهر رمضان ، فأفردوا له خلوة في مسجد « الثونيزيه » ، وأعطى رئاسة الدراويش ، فأهمهم حتى يوم العيد ، وكان يختم القرآن في صلاة التراوح خمس مرات . وكان الخادم يضع في غرفته رغيفا كل ليلة ، وفي يوم العيد — وكان رضى الله عنه قد رحل — نظر الخادم فوجد الثلاثين رغيفاً في مكانها (٥) .

و « اللع » يعد من أكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة في التصوف ، وهو بمثابة الكتاب الأم في اللغة العربية ، منه اقتبس جميع من أنفوا في التصوف ، واهتدوا بأبوابه ومنهجه ..

ومن أفادوا من هذا الكتاب الهجويري ، فكتابه كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللع ، سواء في المنهج العام ، أو المواد التي تناولها ، مما يوضح أن بعض تفاصيل كشف المحجوب مستمدة من اللع ..

وقد استهدف السراج في كتابه غاية قصد اليها ، وهي رسم المبادئ الصوفية التي تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة ، وبيان الأخطار التي وقع فيها السالكون للطريق اما عن سوء نية أو عن حسن قصد ..

يقول : « قد استخرت الله تعالى ، وجمعت أبوابا في معنى ما ذهب اليه أهل التصوف وتكلم مشايخهم المتقدمون ، في معاني علومهم وعمدة أصولهم وأساس مذهبهم ، وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم ، وما انفردوا به من الاشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشككة الصحيحة على أصولهم ، وحقائق مواجدهم وغصولهم » (٦)

-
- (١) يسمى الجاني هذا الكتاب : « لعة » انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٢) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٩١ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ ، « أسرار التوحيد » ص ٢٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٨٢ .
(٤) « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .
(٥) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ .
(٦) « اللع » ص ١٨ .

وقد قسم السراج كتابه الى قسمين :

القسم الاول : عدد من الأبواب القصيرة تحدث فيها عن علم التصوف ومذهب الصوفية ومنزلتهم ، وطبقات أهل الحديث والفقهاء وما ترسموا به من انواع العلوم ، والكشف عن اسم الصوفية وصفتهم ، والتوحيد والموحد والعارف ، والفرق بين المؤمن والعارف ..

والقسم الثانى : مجموعة من الأقسام اطلق على كل قسم اسم « كتاب » ويشتمل كل كتاب منها على عدد من الأبواب القصيرة . وهذه الكتب هى :

- كتاب الاحوال والمقامات .
- كتاب أهل الصفوة فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل .
- كتاب الأسوة والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .
- كتاب المستنبطات .
- كتاب الصحابة .
- كتاب آداب المتصوفة .
- كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل .
- كتاب السماع .
- كتاب الوجد .
- كتاب اثبات الكرامات .
- كتاب البيان عن المشكلات .
- كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستبشع وباطنها صحيح مستقيم .

ومما لا شك فيه أن كتاب اللمع كتاب قيم ، واف ، متكامل الموضوع ، سليم المنهج الا أن شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتمد ، فى معالجته للمواد التى يقدمها ، على أقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الأوائل للصوفية . وقلما يدلى برأيه الخاص فى الموضوع الذى يتناوله ..

وبلاحظ على الكتاب أيضا أنه تعبير عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة ، فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التى يتعرض لها فى كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والأحاديث ، ولذلك فإن تحليله لمادة الموضوع يفتقر الى العنصر الفكرى ، والنظرة الفلسفية ..

ثانيا : « طبقات الصوفية » :

كتاب طبقات الصوفية يذكر على انه من مؤلفات أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولكن يبدو انه مؤلف في أواخر القرن الرابع الهجرى (١) . .

ومؤلف طبقات الصوفية هو : « محمد بن الحسين بن موسى بن خالد ابن سالم بن راوية بن سعد بن قبيصة بن سراقه » (٢) العربى الأصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى ، والمتوفى سنة ٤١٢ هـ (٣) .

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بتسببه الى السلميين ، وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد لأبى عمرو بن نجيد السلمى (٣٦٦ هـ) .

وأبو عبد الرحمن تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى ، وأبو نصر السراج الطوسى (٤) . وكان السلمى مريدا لأبى القاسم النصارى وتسلم منه الخرقة (٥) . .

وعلى السلمى تتلمذ عدد كبير من الصوفية المعروفين ، من بينهم الصوفى الفارسى المعروف « أبو سعيد بن أبى الخير » الذى نال على يديه الخرقة الأولى (٦) . ومنهم أيضا أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة .

وللسلمى مؤلفات كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، ولكن الذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف ، وهو الكتاب الذى نتحدث عنه . .

والسلمى لم يكن أول من ألف فى الطبقات ، فقد سبقه الى ذلك غيره واعتمد هو على تأليفهم ، وان كانت الأصول التى اعتمد عليها قد ضاعت كلها ، ولم يصل الى أيدينا سوى كتابه (٧) : طبقات الصوفية .

(١) « جاء فى ترجمة أبى العباس القصاب فى نفحات الانس أنهم قالوا لأبى العباس ان السلمى ألف كتابا فى الطبقات . فسألهم : هل ذكر فيه اسمى ؟ فقالوا : لا فقال : لم يفعل شيئا (انظر : نفحات من ٢٦٦) وطبقا لاسرار التوحيد فان أبا العباس القصاب توفى حوالى سنة ٣٩٧ هـ (انظر : اسرار التوحيد من ٣٦) وعلى هذا يكون الطبقات قد ألف فى أواخر القرن الرابع . »

(٢) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة من ١٦ .

(٣) « المنتظم » ج ٨ ص ٦ .

(٤) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة من ١٩ .

(٥) « نفحات الانس » ص ٣١١ .

(٦) « اسرار التوحيد » الترجمة العربية من ٥٠ .

(٧) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة من ٥٠ .

وكما أناد السلمي من كتب السابقين عليه ، فقد أناد من كتابه من الفوا
بعده في الطبقات سواء منهم من كتب بالعربية (١) أو بالفارسية . ومن
هؤلاء المهجوري ، فقد صرح في كشف المحجوب بأنه هذا حذو السلمي
في ترتيبه للشيوخ الذين ترجم لهم (٢) .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب « نفحات الأنس » للجامي ،
فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي (٤٨١ هـ) طبقات الصوفية
الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أسلاه في مجالس
الصحبة ومجامع الموعظ والتذكير ، وأقوالا أخرى لبعض الشيوخ الذين
لم يرد ذكرهم في الكتاب ، وبعض أذواقه ومواجبه التي جمعها وكتبها واحد
من مريديه (٣) . ثم جاء « جامي » فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية
بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره ، وأضاف الى ذلك ذكر
عبد الله الأنصاري ومعاصريه والمتأخرين عنه (٤) . وأطلق على هذه
المجموعة اسم : « نفحات الأنس » .

ويشتمل كتاب طبقات الصوفية على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ ،
كل طبقة تتكون من عشرين فردا .

و « طبقات الصوفية » ليس أول كتاب للسامي في التراجم فقد ذكر أنه
ترجم قبله للصحابة والتابعين واتباع التابعين ، في كتاب له اسمه كتاب :
« الزهد » (٥) .

وكتاب طبقات الصوفية مطبوع في القاهرة ، فقد حققه ونشره « نور الدين
شريبه » سنة ١٩٥٣ م ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها . .

ثالثا : « الرسالة » :

« الرسالة من مؤلفات القرن الخامس الهجري . ومؤلفها : « أبو القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري » (٦) ، ولد في بلدة « استو » ، وكان

(١) أناد من الطبقات : « القشيري » في الرسالة ، « الاصلهاني » في الطبقة ،
« البغدادي » في تاريخ بغداد ، « الشعرائي » في لوائح الانوار (انظر : مقدمة
الطبقات ص ٥١) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٣) « نفحات الأنس » ص ١ .

(٤) « السابق » ص ٢ .

(٥) « طبقات الصوفية » ص ٣ .

(٦) « في كشف المحجوب » عبد الكريم أبو القاسم انظر : ص ٢٠٩ .

سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، فهو عربى من قبيلة قشير بن كعب (١) ..

وكان القشيري تلميذا لأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ) فى نيسابور . وزوجا لابنته (٢) . وتلميذ أيضا على أبى عبد الرحمن السلمى «١٢هـ» ، وعاصر تلميذا من تلاميذ السلمى المشهورين هو « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد التقى كل منهما بالآخر فى نيسابور ، وتلازما فترة طويلة ، وكان أبو سعيد يعقد مجلسا فى زاوية القشيري مرة كل أسبوع (٣) .

وقد عاصر الهجويزى القشيري وترجم له فى كشف المحجوب ووصفه بأنه كان رفيع القدر فى زمانه ، عظيم المنزلة ، وله تصانيف نفيسة محققة (٤) .

والقشيري كان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، فكان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى ، والفروع على مذهب الشافعى ، وانتهى به الأمر الى أن صار إمام نيسابور الشهيرة (٥) .

وتوفى القشيري فى نيسابور سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بها الى جوار شيخه أبى على الدقاق .

وللقشيري مؤلفات كثيرة الا أن أشهرها رسالته هذه المعروفة بالرسالة القشيرية ، والتي كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (٦) ، وبين فيها جانبين :

الاول : سيرة رجال الصوفية وبعض أقوالهم .

والثانى : مبادئ السلوك ومناهجه .

يقول :

« وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم

-
- (١) « الرسالة » (انظر مقدمة الناشر ص ١٣) .
 - (٢) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .
 - (٣) « السابق » ص ١٠٦ .
 - (٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
 - (٥) « السابق » (انظر : مقدمة زوكوفسكى) .
 - (٦) « الرسالة » ج ١ ص ١٨ .

ومعاملاتهم . وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية
ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم » (١) .

وقد أضاف القشيري من كتابي « اللمع » و « طبقات الصوفية » وجمع
في رسالته بين موضوعيهما ، وتعد الرسالة من المراجع العربية المهمة
في التصوف . وهي تعتبر قيمة جدا كمجموعة من الأمثلة والحكايات
والتعريفات ، ولكنها تتبع طريقة شكلية (٢) ، فالمؤلف لا يكاد يظهر رأيه
فيها الا في القليل النادر ، وتلك ظاهرة تنسجم بها مدرسة نيسابور التي
تنتمي اليها الكتب الثلاثة : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة .

والرسالة ترجمت الى الفارسية مرتين :

المرّة الاولى : ترجمها في زمن قريب من وفاة مؤلفها ، واحد من تلاميذه
يدعى : « خواجه امام ابو على بن أحمد العثماني » ، وهي ترجمة سقيمة
اذا قورنت بالأصل ، وفيها كثير من الأخطاء ، كما أن المترجم حذف منها
أشياء كثيرة ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة في مكتبة : « أيا صوفية » تحت رقم
٢٠٧٧ ، ونسخة أخرى في المتحف البريطاني (٣) ..

والمرّة الثانية : نظرا للأخطاء المشار اليها في الترجمة الاولى ، فقد كانت
الحاجة تستدعي اصلاح هذه الترجمة ، وتم هذا العمل على يد « أبى الفتوح
عبد الرحمن بن محمد النيسابوري » بمدينة كرمان بعد عام ٥٥٠ هـ ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة المصححة في مكتبة : « لالا اسماعيل »
تحت رقم ١٢٠ (٤) ..

وقد طبعت الرسالة في القاهرة عدة مرات ، كان آخرها الطبعة المحققة
والمفهرسة التي قام بها « عبد الحليم محمود » و « محمود بن الشريف »

(١) « الرسالة » ص ٢٢ .

(٢) « نيكولسون » (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٣) « تاريخ ادبيات » ص ٢ ص ٨٨٩ .

(٤) « جاء في مقدمة هذه النسخة أن القشيري كان يريد أن يعيد كتابة الرسالة بالفارسية
ولكنه لم يفعل ، وقام بهذا العمل تلميذه أبو على العثماني ، ولكن هذه الترجمة
سقيمة ولذا قام باصلاحها أبو الفتوح النيسابوري طلبية لطلب شيخ الشيوخ أحمد
ابن إبراهيم بارما » .

(انظر : ص ٢ ص ٨٨٩) .

ونشرت في القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م وتقع في جزئين . وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

كتب التصوف بعد كشف المحجوب :

بالنسبة للكتب الصوفية المؤلفة بعد كشف المحجوب ، سنقصر حديثنا على الكتب الفارسية القريبة الى عهده ، والكتب التي تأثرت به ونقلت عنه ، مثل أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء ونفحات الانس .

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نشير الى أنه توجد عشرات المؤلفات الصوفية المنظومة بعد كشف المحجوب ، مثل منظومات : « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » وغيرهم ، الا أنه من العسير أن نقارن بين هذه المنظومات وبين كشف المحجوب لاختلاف وسيلتي التعبير ، من ناحية ، ولأن للشعراء منهجهم الخاص في تناول المسائل الصوفية .

ونعرف الآن بهذه الكتب .

أولاً : كتاب « أسرار التوحيد » .

أسرار التوحيد هو اقرب الكتب الصوفية عهدا الى كشف المحجوب ، فهو من مؤلفات القرن السادس الهجري . ومؤلفه واحد من أحفاد الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير يدعى : محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر ابن أبي سعيد بن أبي الخير (١) .

وتاريخ تأليف أسرار التوحيد مختلف فيه ، الا أنه من المرجح أنه مؤلف حوالي سنة ٥٧٤ هـ (٢) .

وأسرار التوحيد مقسم الى ثلاثة أبواب :

الباب الاول: في بداية حياة الشيخ أبي سعيد ، ويشتمل على ذكر احواله في طفولته وشبابه ، والعلوم التي حصلها ، والرياضات التي قام بها ، وتفاصيل حياته حتى بلوغه سن الأربعين .

(١) « أسرار التوحيد » (انظر مقدمة ذبيح الله صفا) .

« ديوان أبو سعيد أبو الخير » .

(٢) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » ص ١ ، « أسرار التوحيد » الترجمة العربية :

انظر : مقدمة المترجم ص ٥ - ٦ .

الباب الثاني : في أواسط حياة الشيخ أبى سعيد ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ .

الفصل الثاني : في الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال .

الفصل الثالث : في بعض فوائد أنفاس الشيخ ، وبعض الرسائل والأشعار التي جرت على لسانه .

الباب الثالث : في انتهاء حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في وصاياه عند وفاته .

الفصل الثاني : في وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : في كراماته التي جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .

و « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف في شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية مؤلف قائم بذاته، موضوعه حياة واحد من الصوفية . وقد أعطيت في الكتاب صورة لأبى سعيد وسط دائرة الصوفية والدرأويش الذين عاش معهم في تفاصيل واسعة ، ولذا يعد أسرار التوحيد من أوضح الكتب التي صورت لنا حياة الدراويش في القرن الخامس الهجري .

ويشتمل أسرار التوحيد على معلومات قيمة عن الرسوم والعادات والتقاليد الصوفية ، إلى جانب كثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات تلك الفئة ، كما أنه يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته ، والشروط التي ينبغي توفرها في الشيخ والمريد (١) . وطريقة تأديب الشيخ لمريديه ، ونوع العلاقة بينهما ، ونظام الحياة في الخانقاهات (٢) .

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) « السابق » انظر ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

وكتاب أسرار التوحيد طبع أكثر من مرة ، ومن بين طبعاته الطبعة التي
نشرها ذبيح الله صفا في طهران عام ١٣٣٢ هـ . ش . ، وهى الطبعة التى
اعتمدنا عليها .

وقد ترجمت أسرار التوحيد الى العربية ونشرت الترجمة فى القاهرة
عام ١٩٦٦ م .

ثانيا : « تذكرة الاولياء » :

مؤلف هذا الكتاب هو « أبو طالب » محمد بن أبى بكر ابراهيم الملقب
بفريد الدين ، والمعروف بالعطار : من رجال القرن السادس الهجرى
وأوائل القرن السابع ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

والعطار واحد من ثلاثة من كبار الشعراء الصوفية فى ايران وهم :
السنائى والعطار وجلال الدين الرومى .

وكان العطار يشتغل بالطب ويملك صيدلية يطب فيها الناس ، ويعمل
فى الوقت نفسه فى تأليف الكتب ونظم الأشعار . وله مؤلفات كثيرة ، فذكر
بعضهم أن عددها مساو لعدد سور القرآن (١) ، وأن كان المعروف منها
يقرب من ثلاثين مؤلفا ، كلها منظومة باستثناء تذكرة الاولياء .

وتذكرة الاولياء ، كما يدل عليه اسمه : كتاب فى تراجم الاولياء والصوفية
وشيوخ الطريقة . ومعظم نسخه تشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة (٢) ،
وأن كان هناك من يرفع هذا الرقم الى سبع وتسعين (٣) .

ويعتبر كتاب تذكرة الاولياء أقدم مؤلف فى التراجم باللغة الفارسية ،
فبالرغم من وجود عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة فى هذا الموضوع ،
مثل : طبقات الصوفية ، وحلية الاولياء ، ومناقب الأبرار ، وصفوة
الصفوة ، إلا أنه لم تكن هناك مؤلفات من هذا النوع قبل تذكرة الاولياء ،
باستثناء الجزء الخاص بالتراجم فى كشف المحجوب ، والترجمة الفارسية
لطبقات الصوفية .

(١) « تذكرة الاولياء » ج ١ (انظر مقدمة القزوينى ص ١) .

(٢) « السابق » (انظر مقدمة نيكولسون ص ٧) .

(٣) « فريد الدين وكتابه منطق الفير » أحمد ناجى القيسى ص ٢٨٥ .

وقد اعتمد العطار في تذكرة الأولياء على كثير من الأصول العربية السابقة عليه ، وصرح هو نفسه بأنها تمثل الجزء الأكبر من المؤلف الذي عمله ، وإن كان لا يذكر أسماء هذه الكتب في المواضع التي ينقل فيها عنها . وإفاد العطار أيضا من كتابي كشف المحجوب وأسرار التوحيد ، فهو ينقل عنهما كثيرا دون أن يشير إليهما (١) .

وتذكرة الأولياء طبع في الهند ، وطبعه المستشرق الانجليزى نيكولسون في لندن سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م ، في مجلدين ، وهى الطبعة التي اعتمدنا عليها .

ثالثا : نفحات الأنس :

كتاب نفحات الأنس مؤلف في القرن التاسع الهجرى ، فقد ذكر مؤلفه انه أتمه سنة ٨٨٣ هـ (٢) . ومؤلف هذا الكتاب هو : « نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد بن محمد الجشتي » : كان من الأدباء والشعراء والعلماء والصوفية ، وزعيما لطائفة النقشبندية ، فهو مريد الشيخ سعد الدين الكاشغرى تلميذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى (٣) . وتنتهى سلسلة شيوخ الجامى الى «خواجه» عبيدالله أحرار من كبار شيوخ النقشبندية .

وللجامى انتاج ضخم من الشعر والنثر ، ومؤلفاته تبلغ أربعة وأربعين مؤلفا ، بعدد لفظ « جنام » (٤) . وقد ألف جامى باللغتين العربية والفارسية (٥) .

ويذكر نفحات الأنس أهم مؤلفات الجامى ، بل أن دارا شكوه يعده بمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات (٦) .

ونفحات الأنس : كما يبدو من مقدمة مؤلفه ، يعتمد أساسا على طبقات الصوفية للسلمى المؤلف باللغة العربية ، والذي نقله شيخ الاسلام عبدالله

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها . (انظر المقارنة التى عقدها « بهار » بين تذكرة الأولياء وكل من أسرار التوحيد وكشف المحجوب) .

(٢) « نفحات الأنس » ص ٦٣٦ .

(٣) « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) « سفينة الأولياء » ص ٨٢ .

(٥) بلغ عدد مؤلفات الجامى الموجودة بدار الكتب المصرية ٤٥ كتابا ورسالة فارسية ، وسبع كتب عربية (انظر فهرست مؤلفات نور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله الطرازى) .

(٦) « سفينة الأولياء » ص ٨٣ .

الانصارى الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة . وقد راودت الجامى فكرة نقل هذا الكتاب ، من اللهجة الهروية الى الفارسية البسيطة المتعارف عليها في عصره ، عدة مرات ، الا ان بعض الموانع كانت تعوقه عن اتمام هذه الرغبة . وفي سنة ٨٨١ هـ طلب منه الأمير « عlishير » القيام بهذا العمل (١) ، فشرع فيه وأتمه سنة ٨٨٣ هـ (٢) .

ويشتمل نفحات الانس على مقدمة قصيرة للمؤلف ، وتسع مقولات في الأصول الصوفية ، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستمئة ترجمة..

ومع ما يحتله كتاب نفحات الانس من مكانة كبيرة بين كتب التصوف الفارسية ، الا ان مؤلفه اعتمد على مجهودات غيره . فبالاضافة الى ترجمة الانصارى لطبقات الصوفية ، نقل الجامى عن كشف المحجوب واسرار التوحيد جزءا كبيرا من مادته، ويبدو ذلك جليا في تراجم معاصري الهجوبرى وأبى سعيد بن أبى الخير . وقد صرح الجامى نفسه في مقدمة النفحات انه أحيا في كتابه معلومات السابقين ..

فهو يقول ماترجمته : « وانى آمل من مكارم اخلاق القراء عندما تطيب أوقاتهم بين الانفاس الطيبة لأولياء الله ، وفيض أرواحهم المقدسة ، ان لا ينسوا باعث هذه المجموعة ومؤلفها ، وان يدعوا له بالخير (٣) .

وكتاب « نفحات الانس » طبع في الهند على الحجر عدة مرات ، وتم طبعه حديثا لأول مرة في طهران عام ١٣٣٦ هـ ش . وهى الطبعة التى قام بها « مهدي توحيدى بور » وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

(١) « نفحات الانس » ص ٤ .

(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .

(٣) « السابق » ص ٥ .

الفصل الخامس

مظاهر التأثير والتأثر

اولا : بين اللمع وكشف المحجوب :

ذكرنا من قبل أن كشف المحجوب واللمع متشابهان في الخطة العامة ،
ما يدل على أن بعض تفاصيل الكتاب الاول مستمدة من الثاني .

ومن الغريب أنه على الرغم من تضريح الهجويزى في موضع من كتابه
أنه ينقل عن السراج ، وذكره لاسمه واسم كتابه ، واستشهاده برأيه ،
ينقله لنص عبارته (١) ، وأيراده أيضا حكاية عن السراج في كشف المحجوب (٢)
الا أنه أغفله تماما في الجزء الخاص بالتراجم ، فلا توجد للسراج ترجمة
ضمن تراجم الشيوخ التي أوردها الهجويزى في كتابه ، في الوقت الذى
أفرد فيه كل من « المعطار » (٣) و « الجامى » (٤) مكانا للسراج في كتابيهما ،
وإن كان ما ذكره عنه لا يتعدى تلك الاشارات الواردة في كشف المحجوب .

ويبدو من الدراسة الواسعة لكتايب اللمع وكشف المحجوب أن الهجويزى
اعتمد على اللمع اعتمادا واضحا ، ونقل عن السراج كثيرا من مواده ،
وإن كان لا يصرح بأنه ينقل عنه .

ونضرب لذلك مثلا موضوع السماع ، فقد أفرد له كل منهما جزءا كبيرا من
كتابه ، وأطلق السراج على هذا الجزء اسم : « كتاب السماع » (٥) ،
وسماه الهجويزى : « كشف الحجاب الحادى عشر في السماع » (٦) .

ويبدو من الجدول التالى التشابه الكبير في المادة التى وردت في الكتابين ،
مما يوضح أن الهجويزى نقل عن السراج .

(١) كشف المحجوب : أنظر من ٤٤٤ .

(٢) « السابق » أنظر من ٤١٧ .

(٣) « تذكرة الاولياء » ج ٢ من ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) « نفحات الانس » أنظر من ٢٨٣ .

(٥) « اللمع » أنظر من ٣٣٨ وما بعدها .

(٦) « كشف المحجوب » أنظر من ٥٠٨ وما بعدها .

أولا — من حيث التقسيم :

قسم السراج « كتاب السماع » الى الأبواب التالية :	وقسم الهجويرى « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع » الى الأبواب التالية :
١ — باب فى حسن الصوت والسماع وتفاوت المستمعين	١ — باب سماع القرآن .
٢ — باب فى السماع واختلاف أقوالهم فى معناه .	٢ — باب سماع الشعر .
٣ — باب فى وصف سماع العامة	٣ — باب سماع الأصوات والألحان .
٤ — باب فى وصف سماع الخاصة	٤ — باب أحكام السماع .
٥ — باب فى ذكر طبقات المستمعين	٥ — باب اختلافهم فى السماع .
٦ — باب فى ذكر من اختار سماع القصائد والأبيات من الشعر	٦ — باب مراتبهم فى حقيقة السماع
٧ — باب فى وصف سماع المريدين والمبتدئين .	٧ — باب الوجد والتواجد .
٨ — باب فى وصف المشايخ فى السماع	٨ — باب الرقص .
٩ — باب فى وصف خواص الخواص فى السماع .	٩ — باب الخرق .
١٠ — باب فى سماع الذكر والمواعظ والحكمة .	١٠ — باب آداب السماع .
١١ — باب فى من كره السماع والذى كره الحضور فى المواضع التى يقرعون فيها القرآن بالألحان ويقولون القصائد ويتواجدون وبرقصون .	

ثانيا : من حيث الآراء والعبارات وأقوال المشايخ والتقصص والاستشهادات :

١ - يبدو تأثر الهجویری بالسراج ونقله عنه فيها يلي :

«اللمع»

ص ٣٥٢ : واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه : اقرا ، فقال : أنا اقرا وعليك أنزل ؟ قال : أنا أحب أن أسمع من غیری .
وقوله عليه السلام : شيبتنی سورة هود وأخواتها .

ص ٣٥٣ : وأن النبي صلى الله عليه وسلم مر على عصابة من أهل الصفة يستر بعضهم بعضا من العری وقاریء یقرأ لهم .

ص ٣٤٢ :

قال الشيخ رحمه الله : بلغنی انه سئل ذو النون ، رحمه الله ، عن السماع ، فقال : وارد حق يزعم القلوب الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق .

«كشف المحجوب»

ص ٥٢٠ : قوله عليه السلام : « زينوا أصواتكم بالقرآن .

ص ٥١٥ : وروی عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لابن مسعود اقرا : فقال أنا اقرا وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحب أن أسمع من غیری . . ونبز كفت بیغمبر عم شيبتنی سورة هود . روى أبو سعيد الخدری رضي الله عنه : كنت في عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستر بعضا من العری وقاریء یقرأ علينا ونحن نستمتع لقراءته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا فلما رآه القاریء سكت .
قال : نسلم : وقال : ماذا كنتم تصنعون . الخ .

ص ٥٢٧ :

ذو النون كويد رح: السماع وارد الحق ، مزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزندق . سماع وارد حقست کی دلها بدو بر انکیزد وبر طلب وی حریص کند . هرکه آنرا بحق شنود بحق راه یابد ، وهرکه بنفس شنود اندر زندقته افتد .

«اللمع»

وسئل الشبلي رحمه الله ، كما بلغني ، عن السماع فقال : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

ص ٣٤٣ :

وسمعت الحصري ، رحمه الله ، يقول في بعض كلامه : ايش اعمل بالسماع ؟ ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ، ينبغي ان يكون سماعك متصلا غير منقطع .

ص ٣٤٠ :

ومن اللطيفة التي جعل الله في الأصوات الطيبة أن الطفل في المهد يبكي لوجود ألم ، فيسمع الصوت الطيب فيسكت وينام .

ص ٣٥٨ :

سمعت الدقي يقول : سمعت الدراج يقول : كنت أنا وابن الفوطي مارين على الدجلة بين البصرة والأبله وإذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول :

«كشف المحجوب»

ص ٥٢٨ :

وشبلي كويد رض : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، ظاهر سماع فتنه است وباطنش عبرتست أنكه أهل اشارتست مراورا سماع عبرت حلال باشد والا آن ديكر طلب فتنه است وتعلق ببلا .

ص ٥٢٩ :

وحصري كويد رح : ايش اعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من نسمع منه . ينبغي ان يكون سماعك متصلا غير منقطع . چکنم سماع راکی جون قاری خاموش شود آن منقطع شود . باید که سماع بسماع متصل باشد بیوسته که هرگز بریده نکرد .

ص ٥٢٣ :

واندر کودکان خرد این حکم ظاهرست کی چون بکریند اندر کاهواره کسی نوائی بزند خاموش شوند و مر آنرا بشنوند .

ص ٥٣٣ :

دقی روایت کند ازدراج که او گفت : من با ابن الفوطی بر لب دجله میرفتیم ، میان بصره و ابله بکوشکی غرا رسیدیم ، نیک مردی بر آن در نشسته بود و کینزکی بدان در نشسته که ویرامی غنسا کرد و میگفت :

«اللمع»

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل
في سبيل الله ود
كان منى لك يبذل

قال : وإذا شاب تحت المنظر
بيده ركة وعليه مرقعة يتسمع ،
فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك
الا أعدت على هذا البيت . قال :
فأقبلت الجارية عليه وهى تقول :

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وكان الشاب يقول : هذا والله
تلونى مع الحق فى حالى ، قال فشقق
شهقة وحمد ، فتألمناه فاذا هو ميت ،
قال : فقلنا : قد استقبلنا فرض ،
نوقننا ، فقال صاحب القصر
للجارية : أبت حرة لوجه الله تعالى ،
قال ثم خرج أهل البصرة وصلوا
عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام
صاحب القصر وقال : اليس تعرفونى ؟
انا فلان ابن فلان أشهدكم ان كل
شئ لى فى سبيل الله تعالى ، وكل
جواري أحرار ، وهذا القصر للسبيل ،
قال : ثم رمى بثيابه وأتزر بازار ،
وارتدى بالآخر ، ومر على وجهه
والناس ينظرون اليه حتى غاب عن
أعينهم وهم يبكون ، فما رآه احد بعد
ذلك ولا سمع له خبر .

ص ٣٥٨ :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أبا
عمرو وعبد الواحد بن علوان
بالرحبة ، رحبة مالك بن طوق ، قال :
كان شاب يصحب الجنيد رحمه الله
فكان اذا سمع شيئا من الذكر
يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان
فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى ،

«كشف المحجوب»

فى سبيل الله ود
كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وجوانى را ديدم اندر زير ديوار
كوشك ايستاده بامر قعه وركوه ،
كفت : اى كنيزك بخداى تو برنوكه
اين بيت بازكوى كى از زندكانى من
يك نفس بيش نمانده است تا بارى
جان باسستماع اين بيت برآيد .
كنيزك ديكر باره بازكفت ، آن
جوان نعره بزد ، جان ازوى
جدا شد ، خداوند كوشك مر
كنيزك را كفت كى تو آزادى وخود
فرود آمد وبجهاز وى مشغول شد ،
وهمه اهل بصره بروى نماز كردند .
بس آن مرد بر باى خاست
وكفت : يا اهل بصره من كه فلان
بن فلانم همه املاك خود سبيل كردم
وممالك آزاد كردم . هم از آنجا
برفت وكسى خبر آن مرد نيافت .

ص ٥٣٢ :

معروفست كه جنيد را مريدى
بوده است كى اندر سماع اضطراب
بسيار كردى ، ودرويشان بدان
مشغول شدندى ، بيش شيخ رض
شكايت كردند ، ويرا كفت : بعد ازين
اكر اندر سماع اضطراب كنى نيز من
باتو صحبت نكنم . ابو محمد جريرى

«اللمع»

قال : فربما كان الجنيد يتكلم رحمه الله في شيء من العلم ، فينغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه .

باب فيمن كره السماع ص ٣٧٢ :

فقد كره ذلك من جهات شتى .
* فتقوم كرهوا ذلك لأخبار رويت عن بعض الأئمة المتقدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، فكره من كره ذلك اقتداء بهم ومتابعة لهم ، إذ كانوا هم الأئمة في أحكام الدين والمقدمين في عصرهم على جماعة المسلمين .

* وقوم كرهوا ذلك للمبردين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر أن استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزماتهم ويركئوا إلى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا في البلية .

* وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذي يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين : إما هم قوم مثلهون من أهل

«كشف المحجوب»

كويد : در سماعی من اندروی نگاه میکردم لب برهم نهاده بود وخاموش می بود تا ازهر موئی از اندام می چشمه بکشد تاهوش از وی بشد وبك روز بیهوش بود . بس من ندانم تا وی اندر سماع درستتر بود یا حرمت بیر بر دلش قویتر .

«باب في مراتبهم في حقيقة السماع»

ص ٥٣٥ :

كروهي از مشايخ خواندن قرآن بالحن وشنيیدن قصايد واشعار را چنانك حروف از حد آن تجاوز کرده است كراهيت داشته اند . وخود برهيز کرده واندر آن غلو نمود ، وايشان جند كروهند ، وهريكي را اندر آن علتی ديكرست .

* كروهي از آن آنند كه اندر تحريم آن روايات يافته اند واندر آن متابع سلف صالح شده ، وبدان تقليد کرده .

* ص ٥٣٧ :

وكروهي ديكرند كه از خوف وخطر مريدان كه اندر بلا وبطالت نيفتند ، وبديشان تقليد نكنند ، واز سر توبه باسر معصيت بازنيايند ، وهوا اندرايشان قوت نكرد، وهوس مر عزيمت صلاح ايشان را فسخ نكند كه معرض بلا ومايه فتنة است سماع بردو فرقت اند يكي لاهي وديكر نه نشستند .

* كروهي ديكر گفتند كه اهل سماع بردو فرقت انديكي لاهي وديكر الهی، لاهي درعين فتنة باشد وازان نترسد ، والهی برياضات ومجاهدات

«اللمع»

الدعابة والفتنة أو هم قوم وصلوا الى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا الى الله عز وجل في جميع معانيهم ، قالوا : ولسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك وترك ذلك أولى بنا .

ص ٣٧٣ :

* وكوهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف مقاصد القوم فيما يسمعون فربما غلطوا في مقاصدهم وزلقوا ، فكبرهوا ذلك شفقة على العامة وصيانة للخاصة وغيره على الوقت الذي اذا فات لا يدرك .

ص ٣٧٣ :

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقتول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه انه قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعني » فقالوا : هذا مالا يعني ، لانا ما أمرنا بذلك ، وليس هو من زاد القبر ، ولا مما يطلب به النجاة في الآخرة .

«كشف المحجوب»

وبانقطاع دل از مخلوقات واعراض سر از مكنونات فتنة از خود دور کرده باشد ، واز ان امين شده . چون ما نه ازین گروه باشیم نه ازان ترك آن مارا بهتر ومشغول شدن بجیزی كه موافق ماست اولیتر .

ص ٥٣٨ :

وكروهي دیگر گفتند : چون عوام اندر سماع فتنة است واز شنیدن ما اعتقاد مردمان مشوش میشود واز درجت ما اندر ان محجوبند وبما می بزه کار شوند بس برعامة شفقت کنیم ، وممر خاص را نصیحت کنیم ، وبر وقت غیرت دست ازان بداریم .

ص ٥٣٨ :

وكروهي گفته اند كه بیغیر عم گفتم : « من حسن اسلام المرء تركه مالا یعنی » . دست از جیزی بداریم كه ازان کریز از انج بما لا یعنی مشغول شدن تضييع وقت باشد ، ووقت دوستان بادوستان عزیز باشد ، ضایع نباید کرد .

* * *

ثانياً - بين الرسالة وكشف المحجوب :

صرح الهجویری فی ترجمته لمعروف الکرخی بأنه اقتفى أثر السلمي والتشیری فی اثباته لترجمة معروف فی مكانها (١) . ولا شك أن هذه الإشارة تبين لنا أن الهجویری اطلع على الرسالة القشيرية ، واهتدى بترتيبها فی هذا الموضع .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فی كتابه ضمن عشرة من شيوخ الصوفية المتأخرين المعروفين على عهده من بينهم أساتذته وشيوخه . ويبدو من هذه الترجمة مدى التقدير والاحترام الذى كان يكتنه الهجویری للقشیری (٢) .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم يصرح بأنه نقل بعض مواده عن الرسالة، إلا أن المتخصص لكتابى كشف المحجوب والرسالة يلمس مدى ما أفاده الهجویری من رسالة القشیری ، فهو فی بعض المواضع ينقل عنه عين عباراته ، وهو فی مواضع أخرى يهتدى بأمثله وينقل عنه قصصاً بعينها استشهد القشیری بها فی موضعها . كما ينقل عنه أيضاً كثيراً من أقوال الشيوخ ورموزهم بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، وإن كان يزيد على هذه الأقوال ، فی كثير من الأحيان ، شرحاً من عنده ، أو يبدى رأيه فيها .

كذلك بدا تأثر الهجویری بالرسالة واضحاً من المنهج العام للكتاب ، فقد ضمت الرسالة ، الى جانب الأصول الصوفية ، مجموعة كبيرة من تراجم شيوخ الصوفية جاءت على هيئة تذكرة داخل الكتاب ، وقد حذا الهجویری حذو القشیری فضمن كشف المحجوب سبعة أبواب فی تراجم الأئمة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين وشيوخ الصوفية السابقين لعصره والمعاصرين له . ونورد هنا مثلاً من أمثلة كثيرة يبين مدى إفادة الهجویری من الرسالة :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

الرسالة (ج ٢)

ص ٥٨١ :

« باب التوحيد »

قال الله عز وجل : « والهكم اله واحد » .

أخبرنا الإمام أبو بكر بن الحسن ابن مورك ، قال : حدثنا أحمد بن محمود . . . الخ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لاهله : اذا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروا نصفي في البر ونصفي في البحر في يوم ريح . ففعلوا . . فقال الله عز وجل للريح ادي ما اخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال :

استحياء منك . فغفر له » .

التوحيد : هو الحكم بأن الله واحد ، والعلم بأن الشيء واحد أيضا توحيد .

ص ٥٨٢ : والتوحيد ثلاثة :

توحيد الحق للحق : وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد .

والثاني : توحيد الحق ، سبحانه ، للخلق : وهو حكمه ، سبحانه ، بأن المعبود موحد ، وخلق توحيد المعبود .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم المعبود بأن الله عز وجل ، واحد وحكمه واخباره عنه بأنه واحد .

« كشف المحجوب »

ص ٣٥٦ :

« كشف الحجاب الثاني في التوحيد »
قوله تعالى : « والهكم اله واحد »
وقوله تعالى : « قل هو الله أحد »
الخ . .

قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« بينا رجل فيمن قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد فقال لاهله اذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني نصفي في البر ونصفي في البحر في يوم رايح ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح اجمعي ما اخذت فاذا هو بين يديه فقال له ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له » .

ص ٣٥٧ :

وحقيقت توحيد حكم كردن بود
بريكانكي جيزي بصحت علم بيكانكي
آن ، وجون حق تعالى يكيست بي
قسيم اندر ذات وصفات خود ،
وبى دليل وشريك اندر افعال خود ،
وموحدان ويرا بدين صفت دانند ،
دانش ايشانرا بيكانكي توحيد
خوانند . وتوحيد سه است يكي :
توحيد حق مر حق را وآن علم او بود
بيكانكي خود . وديكر : توحيد حق
مر خلق را وآن حكم وى بود بتوحيد
بنده وآفرينش توحيد اندر دل وى .
وسديكر : توحيد خلق باشد مر حق
را وآن علم ايشان بوحداية خداى
عز وجل .

وقد أورد القشيري مجموعة من أقوال الشيوخ في معنى التوحيد (١) فنقل
الهجویری معظمها في فصل خصصه لرموز المشايخ في التوحيد ، واتبع
كل قول بشرح من عنده .

ثالثا : بين طبقات الصوفية وكشف المحجوب :

اعتمد الهجویری في القسم الحادی عشر من كشف المحجوب على كتاب
طبقات الصوفية وصرح هو نفسه بذلك عند ترجمته لمعروف الكرخي ، فذكر
انه ترجم له في الموضع الذي أورد ذكره فيه ، موافقة لما فعله أبو عبد
الرحمن السلمي في كتابه (٢) .

والهجویری أورد في القسم الحادی عشر أربعاً وستين ترجمة (٣) ، منها :
ثلاث تراجم للأئمة : « أبو حنيفة النعمان » و « محمد بن أدريس
الشافعي » و « أحمد بن حنبل » .

وسبع تراجم لشيوخ من الصوفية هم : حبيب العجبي ، مالك بن دينار ،
حبيب بن سليم الراعي ، أبو حازم المدني ، محمد بن واسع ، عبد الله
ابن المبارك المروزي ، داود بن نصير الطائي . وهؤلاء لم يترجم لهم السلمي
في طبقات الصوفية .

أما التراجم الأربع والخمسون فهي لشيوخ وردت لهم تراجم في كتاب
طبقات الصوفية ، منهم :

- عشرون : من شيوخ الطبقة الأولى .
- ثمانية عشر : من شيوخ الطبقة الثانية .
- ثمانية : من شيوخ الطبقة الثالثة .
- شيخان : من شيوخ الطبقة الرابعة .
- ستة : من شيوخ الطبقة الخامسة (٤) .

وقد اعتمد الهجویری في تعريفه بهذه المجموعة من الشيوخ على بعض
ما ورد عنهم في كتاب طبقات الصوفية ، فهو يضبط أسماءهم وكنياتهم كما

(١) قابل بين « الرسالة » ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٨ وكشف المحجوب ص ٣٦٠ - ٣٦٧ .

(٢) كشف المحجوب ص ١٤١ : الاصل الفارسي ، ص ١١٧ من الدراسة .

(٣) أنظر : ص ١٣١

(٤) طابق بين فهرس أسماء شيوخ الطبقات الخمس في طبقات الصوفية وأسماء الشيوخ
في الباب الحادی عشر من كشف المحجوب ص

جاءت في هذا الكتاب ، ويذكر في التعريف بهم نبذا مما ورد عنهم فيه .
ويضيف في تراجم بعض الشيوخ رواية أو حكاية تواترت عنهم ، وهو غالبا
ما ينقلها عن مجموعة الروايات التي جمعها شيخه أبو الفضل الخنلي ،
أو مجموعة الحكايات التي يشير اليها باسم : الحكايات أو حكايات
العراقيين . ثم يذكر قولا باللغة العربية من الأقوال التي وردت عن صاحب
الترجمة في كتاب طبقات الصوفية ، ويتبعه بترجمة فارسية ، وشرح
للمعنى الصوفي الذي ينطوى عليه .

كذلك يستخدم الهجویری كثيرا من الأقوال التي وردت عن الشيوخ
في طبقات الصوفية عند مناقشته للموضوعات التي يتعرض لها في كتابه ،
فهو يلحق بكل باب فصلا في أقوال الشيوخ ورموزهم في الموضوع الذي يتحدث
عنه . ومعظم هذه الأقوال مما أثر عن هؤلاء الشيوخ وورد ذكره في كتاب
طبقات الصوفية .

وفيما يلي مثل للتطابق بين كشف المحجوب وطبقات الصوفية (١) ،
اخترته عفوا .

(١) أثبت في حواشي الترجمة الأقوال التي ورد ذكرها في طبقات الصوفية .

طبقات الصوفية

ص ٩١ :

ومنهم حاتم الأصم ، وهو حاتم
ابن عنوان ويقال : حاتم بن يوسف .
كنيته أبو عبد الرحمن .

وهو من قدماء مشايخ خراسان ،
ومن أهل بلخ .

صاحب شقيق بن إبراهيم . وكان
استاذ أحمد بن خضرويه .

ص ٩٦ :

قال حاتم : الشهوة ثلاثة :

شهوة في الأكل ، وشهوة في الكلام
وشهوة في النظر . فاحفظ الأكل
بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر
بالعبرة .

ص ١٩٢ :

شاه الكرمانى : ومنهم شاه
الكرمانى ، وهو شاه بن شجاع ،
أبو الفوارس . كان من أولاد الملوك

صاحب أبا تراب النخشبى . وكان
من أجلة الفتيان وعلماء هذه الطريقة
وله رسائل مشهورة والمثناة التى
نسبها امرأة الحكماء .

سمعت أبا الحسن الفارسي يقول
... سمعت ... يقول : سمعت
شاه بن شجاع يقول : « لأهل الفضل
فضل ما لم يروه ، فاذا راوه فلا
فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية ما لم
يروها ، فاذا راوها فلا ولاية لهم .

كشف المحجوب

ص ١٤٢ :

ومنهم زين عباد وجمال أوتاد أبو
عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم
رض .

از محتشمان بلخ بود ، واز قدماء
مشايخ خراسان .

مريد شقيق بود ، واستاد أحمد
خضرويه .

از وی می آید که گفت :
الشهوات ثلاث شهوة في الأكل
وشهوة في الكلام وشهوة في النظر
فاحفظ الأكل بالثقة واللسان
بالصدق والنظر بالعبرة .

ص ١٧٤ :

ومنهم شاه شيوخ ، وتغير از
روزگار او منسوخ أبو الفوارس شاه
ابن شجاع الكرمانى از ابناء ملوك
بود .

صحبت أبو تراب نخشبى يافته
بود . ويرا رسالات مشهور اندر
تصوف وكتابى كردست كه انرا مرآة
الحكما خوانند .

اورا كلام عاليست . از وی می
آید که گفت : « لأهل الفضل فضل
ما لم يروه فاذا راوه فلا فضل لهم .
ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا
راوها فلا ولاية لهم » .

رابعاً : بين كشف المحجوب وتفكرة الأولياء :

اقاد العطار على نطاق واسع من كتاب كشف المحجوب ، وهو كثيرا ما ينقل عنه عين عباراته ، أو يذكرها مع قليل من التصرف ينحصر في استبدال بعض الكلمات والأفعال القديمة بأخرى حديثة ، وإن كان لا يشير الى الكتاب أو مؤلفه في المواضع التي ينقل فيها عن كشف المحجوب ، باستثناء موضعين ذكر فيهما اسم الهجویری (١) .

ومما لاشك فيه أن العطار في تراجمه لشيوخ الصوفية يسلك مسلك التفصيل ، حتى أن كثيرا من تراجمه تستغرق الواحدة منها عددا غير قليل من الصفحات ، وهو يعتمد في هذا على ما ورد في كتب التراجم العربية ، إلا أنه يعتمد أيضا على كتابي كشف المحجوب وأسرار التوحيد .

وبالرجوع الى الموازنة التي عقدها بهار (٢) بين تفكرة الأولياء وكشف المحجوب ، وما أورده أيضا « محمد عباسي » في مقدمته لكتاب كشف المحجوب (٣) . يمكن الاطلاع على نموذجين لاعتماد العطار على كشف المحجوب ، وإن كان يوجد على غرارهما نماذج كثيرة ، يستطيع الدارس للكتابين أن يلمسهما في يسر .

خامساً : بين كشف المحجوب ونفحات الانس :

ذكرنا من قبل أن نفحات الانس يقوم أساسا على الترجمة الفارسية لكتاب طبقات الصوفية التي قام بها الشيخ عبد الله الانصاري . وأن الجامي قدم لكتابه بمقدمة تشتمل على تسع مقولات في الأصول الصوفية .

وقد اعتمد الجامي في هذه المقولات على مجموعة من كتب التصوف المعروفة العربية والفارسية ، مثل الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، وكشف المحجوب ، والتفسير الكبير ، ودلائل النبوة ، وصرح بأنه ينقل عن هذه الكتب ، وأشار الى كل منها في الموضع الذي ينقل فيه .

وقد نقل الجامي عن كشف المحجوب مرتين :

الأولى : في القول في أصناف الولاية (٤) .

(١) « تفكرة الأولياء » انظر : ج ١ ص ٢٠٨ ، ج ٢ ص ٦٨

(٢) « سبك شناس » انظر : ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٩

(٣) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة محمد عباسي : ص بيست ودو .

(٤) « نفحات الانس » انظر : ص ١٩

والثانية : في القول في اثبات كرامات الأولياء (١) .

كما اعتمد الجامي على كشف المحجوب في تراجم شيوخ الهجویری ومعاصریه وبعض السابقین علیه ، مثل أبی القاسم الجرجانی (٢) ، وأبى العباس الشقانی (٣) ، وأبى الفضل الختلی (٤) ، و « خواجه » مظفر الكرمانی (٥) ، وأبى القاسم القشیری (٦) ، وأحمد بن حماد السرخسی (٧) ، وغيرهم ، بل ان ما ورد في نفحات الأنس عن بعض هؤلاء لا يتعدى نبذا مما ورد عنهم في كشف المحجوب ، ويمكن التحقق من هذا بالرجوع الى تراجمهم في کتابی كشف المحجوب ونفحات الأنس ، في الصفحات المشار إليها في الحاشية .

غير أن الجامي سلك مسلك العالم الأمين ، فهو يصرح في كل مرة ينقل فيها عن كشف المحجوب بأنه ينقل عنه ، فيقول :

« صاحب كشف المحجوب كويد » .

أى : يقول صاحب كشف المحجوب :

وقد افاد أيضا من كشف المحجوب اثنان ممن كتبوا في التصوف في العصر الحديث ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسی لكشف المحجوب ، والثاني كتب باللغة العربية واعتمد على الترجمة الانجليزية للكتاب .

أما الأول فهو : « قاسم غنى » الذى اعتمد اعتمادا كبيرا في كتابه « تاريخ تصوف در اسلام » على كشف المحجوب ، فهو ينقل عنه بمعدل صفحة من كل عشر صفحات من كتابه ، بل انه فيما يختص بفرق الصوفية ، قدم ملخصا لما ذكره الهجویری في كشف المحجوب بخصوص هذه الفرق ، وصرح بأنه ينقل عنه .

-
- (١) « نفحات الأنس » انظر : من ٢٢
 - (٢) انظر « كشف المحجوب » من ٢١١ ونفحات الأنس من ٣٠٧
 - (٣) « كشف المحجوب » من ٢١٠ ونفحات الأنس من ٣١٤
 - (٤) « كشف المحجوب » من ٢٠٨ ونفحات الأنس من ٣١٥
 - (٥) « كشف المحجوب » من ٢١٢ ونفحات الأنس من ٣٠٨
 - (٦) « كشف المحجوب » من ٢٠٩ ونفحات الأنس من ٣١٣
 - (٧) « كشف المحجوب » من ٢١٦ ونفحات الأنس من ٣١٧

يقول :

« هجویری کہ در اواسط قرن بنجم کتاب معروف کشف المحجوب را تألیف کرده باب مخصوص راجع بفرق صوفیة نوشتہ ، کہ ذیلا خلاصہ آن برای مزید فایده نقل میشود(۱) . »

وترجمته :

« وقد كتب الهجویری الذي الف كتابه المعروف كشف المحجوب في اواسط القرن الخامس ، بابا خاصا بالفرق الصوفية ننقل فيما يلي خلاصة له من اجل مزيد الفائدة . »

كما افاد قاسم غنی من كشف المحجوب في الجزء الاخير من كتابه ، والذي جعله على هيئة قاموس المصطلحات الصوفية(۱) ، فهو في هذا الجزء يعتمد على تعريف الهجویری لهذه المصطلحات .

واما الثاني فهو : « أبو العلا عفيفی » الذي اعتمد في كتابه : « التصوف الثورة الروحية في الاسلام » على ترجمة نيكولسون الانجليزية لكشف المحجوب ، ونقل عنها كثيرا .

(۱) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ۲۸
(۲) « تاريخ تصوف در اسلام » أنظر : ص ۲۸ - ۵۹

الفصل السادس القيمة العلمية للكتاب

تعرضنا في الفصل الرابع للتعريف بمجموعة من كتب التصوف التي سبقت كشف المحجوب والكتب التي جاءت بعده . وبيننا في الفصل الخامس مظاهر التأثير والتأثر بينه وبين هذه الكتب . وسنحاول في هذا الفصل أن نقيم الكتاب في ضوء ما توفر لنا من المعلومات نتيجة لتلك الدراسة المقارنة التي عقدناها في الفصلين السابقين ..

بالتسبة للكتب السابقة على كشف المحجوب :

رأينا أن الكتاب لم يسبق بكتب مؤلفه في موضوعه باللغة الفارسية ، وكل ما تقدم عليه من مؤلفات صوفية كان مكتوبا باللغة العربية . ووجدنا على رأس هذه المؤلفات ثلاثة كتب كانت ولا تزال تعتبر من أهم الكتب المؤلفة في التصوف وهي : « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وإذا أردنا أن نتعرف على قيمة كتاب كشف المحجوب ومنزلته بين هذه الكتب نراه يتميز عليها بمميزات نلخصها فيما يلي :

* أولا : من حيث المنهج العام والطريقة التي عالج بها المؤلف مواده :

(أ) اقتصر الكتاب الأول ، أي اللمع ، على التعرض لبحث الأصول والعقائد الصوفية . ولكن المؤلف اعتمد في معالجته لهذه الأمور على إيراد أقوال الشيوخ المتقدمين في الموضوع الذي يبحثه ، ولم يضيف إلى ذلك خبراته الشخصية ودراساته ، ولم يكن يدل على بآرائه الشخصية إلا في القليل النادر ..

(ب) اختص الكتاب الثاني ، أي طبقات الصوفية ، بتراجم شيوخ الصوفية السابقين فذكر المؤلف فيه تواريخ حياة هؤلاء الشيوخ وما ورد عنهم من حكايات ، وما أثر عنهم من أقوال وأفعال ،

وما سمعه بنفسه ممن عاصروه . ودوره في هذا كله مقصور على جمع هذه المعلومات وعرضها ..

(ج) جمع الكتاب الثالث ، أى « الرسالة » بين منهجى الكتابين السابقين ، فعالج الأصول المتعلقة بالتصوف في قسم منه ، وتعرض في القسم الثانى لتراجم الشيوخ ، ولكن المؤلف سلك في معظم الأحيان مسلك الإيجاز ، وكان يكتفى بذكر الحكايات والأقوال والتعريفات ، ولم يكن يشارك برأيه في كثير من الموضوعات أو يناقش الآراء التى ينقلها عن غيره ..

ومن ناحية أخرى فإن المادة التى وردت في الرسالة تعتمد الى حد كبير على ما ورد في كتابى اللمع وطبقات الصوفية مما يوضح لنا مدى افادة مؤلفها من سابقه ..

واذا أتينا بعد ذلك الى كشف المحجوب ، نجد انه من حيث المنهج العام ، يجمع بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ ، فقد هذا فيه الهجويرى حذو معاصره القشيرى ، الا انه زاد على ذلك بأنه سلك مسلك المعلم فتناول كل شئ بالايضاح والتفسير ، فحتى الجزء الخاص بالتراجم يشارك فيه الهجويرى برأيه في المسائل التى تعرض عندما يترجم لأولئك الشيوخ .

وعلى الرغم من ان الهجويرى استقى مادة كتابه من الكتب السابقة عليه ، ونقل كثيرا من الموضوعات التى ناقشها عن اللمع والرسالة ، الا انه لم يقف قط موقف الرواية ، فقد بدت شخصيته واضحة في كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه ، والذى التزمه في الكتاب من اوله الى آخره ، فهو عندما يتعرض لمادة من المواد يدرس عموما الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، ويفند هذه الآراء اذا اقتضى الأمر ، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل اليه من خلال خبرته العلمية وتجاربه الشخصية ، فهو في هذا معلم أكثر منه مؤرخ أو راوية . وكان من نتيجة هذا المسلك أن رأينا كثيرا من المشكل الصوفية والموضوعات الجدلية قد أضحت اقرب فهما نتيجة للايضاحات التى أضفاها الهجويرى عليها ، وأتى توصل اليها عن طريق تجربته الخاصة ..

ومن هنا نرى أن كشف المحجوب يعد أكثر أهمية من رسالة القشيرى التى نرجع أهميتها الى أنها مجموعة قيمة من الأمثلة والحكايات والأقوال والتعريفات ، كما انه يتفوق على اللمع والطبقات للسبب الذى أشرنا اليه ..

❖ **ثانياً :** من حيث المميزات التى انفرد بها كشف المحجوب :

انفرد كشف المحجوب بميزة ضخمة لم يسبقه اليها كتاب آخر ، وهذه الميزة تتمثل فى القسم الرابع عشر منه ، وهو الباب الخاص بفرق الصوفية ، التى قسمها مؤلفه الى اثنتى عشرة فرقة ، نسب كلا منها الى مؤسسها ، وشرح المذهب الخاص بها .

يقول نيكولسون :

« ان ابرز باب فى كشف المحجوب ، هو الباب الرابع عشر الذى يتعلق بالمذاهب التى تتبعها مختلف الفرق الصوفية ، والتى عددها المؤلف باثنتى عشرة مدرسة صوفية . وبقدر ما أعلم ، فانه أول كاتب فعل ذلك (١) » .

والواقع أن الهجویری أول من قسم الصوفية الى هذه الفرق أو المدارس ، فلم يرد فى أى من كتب التصوف السابقة على كشف المحجوب مثل اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة ، اشارة الى هذا التقسيم ، والفرقة الوحيدة التى ذكرت كفرقة متميزة لها تعاليم خاصة تزيد على ما للصوفية عامة هى فرقة « الملامتية » التى ألف عنها أبو عبد الرحمن السلمی رسالته المسماة بهذا الاسم (٢) . وقد أطلق الهجویری على هذه الفرقة اسم : « القصارية » نسبة الى أبى حمدون القصار الزعيم الأول للملامتية .

والهجویری فى الباب الذى خصصه فى كتابه للفرق الصوفية ، ينظر الى المجال الصوفى العام ويحاول أن يتبين المعالم البارزة فيه ، ويركز هذه المعالم حول كبار الشيوخ الذين كان لهم أتباع وتعاليم روحية اصطبغ بها تصوفهم ، وخلفت أثرها فى مجرى التصوف العام ، لذلك أفرد كل واحد من هؤلاء الشيوخ بكلمة خاصة عالج فيها أخص ما يمتاز به تصوفه وتصوف فرقته ، تاركاً مختلف التفاصيل التى يشترك فيها مع غيره .

كما أنه يعرج أحيانا على المسائل التى هى موضع خلاف بين صوفى وآخر ليعرضها عرضاً موضوعياً مفصلاً ، ويورد أقوال الصوفية الآخرين فيها ، ويسجل رأيه الخاص فى أغلب الأحيان .

(١) انظر « مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب » .

(٢) حقق أبو العلا عفيفى هذه الرسالة ونشرها فى كتابه : « الملامتية والصوفية وأهل

الفتوة » القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

وقد وضع الهجویری بهذا الباب تاریخ المذاهب الصوفية واتجاهاتها منذ ظهور التصوف حتى عصره . وأخذ عنه كل من جاء بعده وكتب عن الفرق والمدارس الصوفية .

وبالنسبة لكتب التصوف الفارسية التي جاءت بعد كشف المحجوب :

فقد تعرضنا في هذا البحث لثلاثة من هذه الكتب ، تأثرت أكثر من غيرها بكشف المحجوب ، وهي : « أسرار التوحيد » و « تذكرة الأولياء » و « نفحات الانس » .

أما الكتاب الأول ، أي أسرار التوحيد ، فقد اختص بشرح حال شيخ من شيوخ الصوفية ولا شك أنه من هذه الناحية يعد نموذجا رائعا من حيث تصويره لحياة ذلك الشيخ . وهو وإن مرس في سياقه كثيرا من الأصول الصوفية ، والمسائل التي تتعلق بالتصوف ، إلا أن هدفه الأساسي هو تسجيل حياة الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، وليس وضع نظام كامل للصوفية يقوم على أساس علمي وترتيب منطقي على نحو ما ورد في كشف المحجوب .

وأما الكتابان الآخران ، أي « تذكرة الأولياء » و « نفحات الانس » ، فهما لا يخرجان عن كونهما كتابين من كتب التذاکر التي تهتم في الدرجة الأولى بسير الشخصيات التي تتحدث عنها ، وإن كان هذا لا يمنع من أنها مفيدة من حيث المعلومات التي تمدنا من خلال تصويرها للحياة الروحية لشخصياتها ، والطريقة التي كانوا يسلكونها في سيرهم وسلوكهم ، وتنقل لنا ما أثر عنهم من أقوال وتعريفات صوفية مهمة .

وإذا كان الجامي قد تعرض في مقدمة « نفحات الانس » لبعض الأصول الصوفية ، إلا أنه نقل كل أصل منها عن كتاب بعينه ، وذكر اسم كل كتاب في الموضع الذي ينقل عنه فيه ، فدوره في هذا مقصور على النقل . ومن بين الكتب التي نقل عنها نجد اسم كتاب كشف المحجوب (١) .

ونستخلص من ذلك كله أن كشف المحجوب يتميز على الكتب التي سبقته ، والتي جاءت بعده بأن مؤلفه صاحب منهج خاص في دراسة التصوف ، فهو لا يكتفى كغيره برواية أقوال المتصوفة ، أو الترجمة لحياتهم ، أو إيراد الأصول الصوفية دون نقاش فيما يدور حولها من آراء ، وإنما يتناول هذه المسائل بالجدل والنقاش حيناً ، وبالإيضاح والتفسير أحياناً ، وتبدو شخصيته واضحة في كل ما يتعرض له .

(١) « نفحات الانس » انظر ص ١٩ - ٢٠ .

الفصل السابع مخطوطات الكتاب، طبعاته الترجمة الانجليزية

مخطوطات « كشف المحجوب » :

توجد مخطوطات كشف المحجوب في مكتبات متفرقة في جميع أنحاء العالم ومن بينها عدة مكتبات أوربية . وان من يرجع الى فهارس «أيته» (١) و « ريو » (٢) و « بلوشيه » (٣) يجد وصفا لبعض هذه المخطوطات التي تنتمي من حيث كتابتها الى تواريخ مختلفة .

وقد اعتمد « زوكوفسكى » عند طبعه كتاب كشف المحجوب ، لأول مرة ، على خمس نسخ خطية اشار اليها في مقدمة هذه الطبعة ، وهي :

١ - مخطوطة « فينا » التابعة للمكتبة الملكية في فينا ، والمحفوطة تحت رقم ٣٣٤ من مجموعة هامر ، وترجع هذه النسخة الى القرن التاسع الهجرى .

٢ - مخطوطة « طشقند » المحفوظة في المكتبة العمومية في طشقند ويرجع تاريخ كتابتها الى سنة ١٠٤٦ هـ .

٣ - مخطوطة « سمرقند » ويبدو انها لا تحمل تاريخا .

٤ - مخطوطة « بطرسبرج » التابعة لجامعة سن ، وتحمل تاريخ ١٠١١ هـ .

٥ - مخطوطة « مؤسسة اللغات الشرقية » بوزارة الخارجية (٤) .

كما اشار « آيته » في فهرسه للمخطوطات الفارسية الذي اعدده للمكتبة

«Ethé» : Gat Vol. I.

(١)

«Rieu» : Gat Vol. I.

(٢)

«Blechet» : Catalogue des Manuscrits Persians, Vol. 2.

(٣)

(٤) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٦٢ .

الهندية الى خمس مخطوطات قدم وصفا شاملا لها وقيدتها تحت أرقام :
١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ . .

وتوجد نسخة خطية لكشف المحجوب محفوظة في دار الكتب المصرية
ورد ذكرها في فهرس المخطوطات الفارسية تحت رقم ١٧٩٣ (٤) تصوف
فارسي طلعت (وهى نسخة بدون تاريخ وتقع في ٣٨٥ ورقة مكتوبة بقلم
فارسي عادى ، وضم اليها فهرس بخط مخالف (١) .

طبعت كشف المحجوب :

طبع كتاب « كشف المحجوب » عدة مرات نذكر منها :

(١) الطبعة الأولى : طبعة « زوكوفسكى » :

وهى الطبعة التى قام بها المستشرق الروسى « زوكوفسكى »
محقق وصحح النص الفارسى لكشف المحجوب ، وكتب له مقدمة
قيمة ، وضم اليه فهرس وافية ، غير أن الأجل لم يمهلها ، فطبع
الكتاب بعد وفاته ونشر في «ليننجراد» عام ١٩٢٦م — ١٣٤٤هـ (٢)
فى مائتى وخمسين نسخة فقط (٣) .

(ب) طبعت لاهور :

طبع كشف المحجوب ثلاث مرات على الحجر فى « لاهور »

الأولى : الطبعة التى اعتمد عليها « نيكولسون » فى ترجمته
للكتاب وطبعت فى لاهور عام ١٩٠٣ م (٤)

الثانية : طبعة « أحمد عليشاه » بروفسر اسلامية كالج ،
لاهور ، ١٩٣٣ م — ١٣٤٢ هـ ، وتقع فى ٣٢٩ صفحة .

(١) خلط المفهرس فى النسخة رقم ١٧٩٢ بين كتابى « كشف المحجوب » للهجویری
التصوف و « كشف المحجوب » لابی یعقوب السجزی فی المذهب الاسماعیلى فاضاف
الكتابین الى الهجویری . وقد بدا الخطأ واضحا عندما نقل العبارة الاولى من
الكتاب فهو يقول : وأوله « اكاه باش كه عقاید علم در حجاب است » فهذه العبارة
بداية كتاب السجزی لا الهجویری . انظر : فهرس المخطوطات الفارسية .
دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) فهرست كتابهای جایی فارسی ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٣) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة محمد عباسى ص ٣١ .

(٤) Bulletin of the School of Oriental Studies : London, 1929, p. 475.

الثالثة : طبعة بتصحيح « محمد حسين فاضل ديوبندى » لاهور ١٩٣١ م وتقع في ٣٢٨ صفحة .

(ج) طبعة « سمرقند » عام ١٣٣٠ هـ .

(د) طبعات ايران :

الاولى : في طهران ١٣٢٧ هـ ش (١) .

الثانية : طبعة « مؤسسة مطبوعات امير كبير » المأخوذة عن طبعة زوكوفسكى . تهران ١٣٣٦ هـ ش .

الثالثة : طبعة به تصحيح على قويم ، تهران ١٣٣٧ هـ ش (٢) .

الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب :

في الوقت الذي كان فيه « زوكوفسكى » يعمل في اعداد نص دقيق لكشف المحجوب تمهيدا لطبعه كان المستشرق الانجليزى « نيكولسون » يعمل في ترجمة الكتاب نفسه .

وقد اعتمد نيكولسون في ترجمته على طبعة لاهور ١٩٠٣ م (٣) ، وذكر ان هذه الطبعة غير دقيقة ، وخاصة في هجاء الاسماء ، ولكن النص فيها يتفق الى حد كبير مع مخطوطتين في المكتبة الهندية . كما رجع ايضا الى المخطوط الموجود في المتحف البريطانى .

ويقول نيكولسون ان النسخة الاوربية تعتبر كاملة تقريبا ، ولم يحذف منها شئ هام ، وان كان لم يتردد في الاختصار كلما سنحت له الفرصة لذلك (٤) .

وقد قدم نيكولسون لترجمته بمقدمة طيبة في ثمان صفحات ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م ضمن سلسلة جب التذكارية .

(١) فهرست كتابهاى جابى فارسى « ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٢) فهرست كتابهاى جابى فارسى « خانباباشار تهران ١٣٤٢ ش ، ج ٢ عمود ٢٦٢٣ Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475.

(٣) «E.I.W. GIBB MEMORIAL» A Translation of : «The Hashaf Al-Mah-jub» : Reynold A. Nicholson, London 1911, (Preface p. XXIV).

كذلك قام نيكولسون بنشر ترجمة انجليزية للمقدمة الروسية التى كتبها
زوكوفسكى لطبعته لكشف المحجوب ، وقام بترجمتها عن الروسية ،
« سيدنى جيروld » ، ونشرت هذه الترجمة فى دوريات معهد اللغات
الشرقية فى لندن عام ١٩٢٩ م تحت عنوان : « الصوفية الفارسية » (١) .

* * *

القسم الثاني
ترجمة كتاب كشف المحجوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وتهم

« الحمد لله الذى كشف لأولياته بواطن ملكوته ، وقشع لأصفيائه سراير جبروته ، وأراق دم المحبين به سيف جلاله ، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله ، هو المحيى لموات القلوب بأنوار ادراكه ، والمنفس لها براحة روح المعرفة ينشر أسمائه . والصلاة على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه من بعده (١) » .

قال الشيخ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى ثم الهجویری رضی الله عنه :

سلكت طريق الاستخارة ، ومحوت من قلبى الأغراض التى كانت ترجع الى النفس ، وقمت بحكم ما دعوتنى اليه — أسعدك الله — وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، وأسويت هذا الكتاب « كشف المحجوب » . وقد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب وانى أطلب من الله تعالى العون والتوفيق فى اتمام هذا الكتاب ، وأبرا من حولى وقوتى فى القول والعمل ، وبالله التوفيق .

فصل : قد كان مرادى من اثبات اسمى فى بداية الكتاب شيئين : أولهما نصيب الخاصة ، والثانى نصيب العامة .

أما ما هو نصيب العامة : فهو أن جهلة هذا العلم عندما يرون كتابا جديدا لا يكون اسم مصنفه مثبتا فى أماكن عدة منه ، فانهم ينسبونهم الى أنفسهم ، وبذلك لا يتحقق مقصود المصنف ، لأن المراد من الجمع والتأليف والتصنيف ليس الا احياء اسم المصنف بذلك الكتاب ، فيدعو له القراء والمتعلمون بالخير .

وقد وقعت لى هذه الحادثة مرتين :

الأولى : أن رجلا طلب ديوان شعري وأخذه ، ولم يكن يوجد منه سوى

(١) هذا الجزء من مقدمة المؤلف باللغة العربية . ويلاحظ أن ما يرد بعد هذا بين علامات التضمين أنها هو فى الأصل الفارسي باللغة العربية .

النسخة الأصل . فغيرها جملة ، واسقط اسمى من أولها ، واضاع —
تاب الله عليه — تعبى .

والثانية : انى عملت كاتباً في طريقة التصوف اسمه « منهاج الدين » ،
فمحا اسمى من عنوانه مدع ركيك لا يزن قوله ، وأظهر للعوام أنه عمله ،
ولو أن الخواص كانوا يضحكون منه على هذا القول . ولم يبارك الله له
في ذلك ، ومحا اسمه من ديوان طلاب حضرته .

وأما ما هو نصيب الخاصبة : فهو أنهم عندما يرون كتاباً ، ويعرفون أن
مؤلفه كان عالماً بذلك العلم أو الفن ، ومحققاً ، فأنهم يرفعون حقه على نحو
أفضل ، ويكونون أكثر جداً في قراءته ودراسته ، فيتأثرون بذلك مراد القارئ
وصاحب الكتاب بصورة أفضل ، والله أعلم بالصواب .

فصل : وأما ما قلته من أنى سلكت طريق الاستخارة ، فالمراد منه حفظ
آداب الله عز وجل ، فقد أمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
والتابعين بهذا ، وقال : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان
الرجيم (١) » . والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب ،
وتسليم الأمور لله سبحانه وتعالى ، والنجاة من الآفات المختلفة . وقد روى
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم ، أن النبي كان
يعلمهم الاستخارة كما كان يعلمهم القرآن . فحينما يعلم العبد أن خيرية
الأمور ليست منوطة بكسبة وتدبيره ، لأن الله تعالى أعلم بصلاح العباد ،
وما يصيب العبد من خير أو شر مقدر ، فأى وجه غير التسليم للقضاء وطلب
العون منه ، يدفع عن العبد تأثير النفس وتأمرها في كل أحواله ، ويمن
عليه بخيره وصلاحه .

وعلى هذا : ينبغى على العبد أن يستخير في بداية جميع الأعمال ، عسى
الله تعالى أن يحفظه من الخطر والخلل والامة ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى محوت من قلبى الأهواء التى ترجع إلى
النفس ، فالمراد منه أن كل عمل يدخل فيه الغرض النفسانى تزول منه
البركة ، وينحرف القلب عن الطريق المستقيم إلى محل الأعوجاج والانشغال
وهذا لا يخرج عن أمرين : إما أن يتحقق غرضه ، وإما لا يتحقق ، فإذا
تحقق غرضه يكون في ذلك هلاكه ، وليس لباب الجحيم مفتاح غير حصول
هوى النفس . وإذا لم يتحقق غرضه ، فالأغلب أن يكون قد محاه من قلبه
لأن في ذلك نجاته ، ومفتاح باب الجنة ليس سوى منع النفس عن أغراضها ،

(١) سورة « النحل » آية ٩٨

كما قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى (١) » .
والأغراض النفسية في الأمور هي أن العبد في العمل الذي يعمله يكون
على غير رضا الله تعالى ، ولا يطلب نجاة النفس من العقوبة .

وفي الجملة : أن رعونات النفس لا حد لها ، ومراميتها في ذلك خفية .
وسوف يرد في الكتاب باب في هذا المعنى في موضعه ان شاء الله تعالى .

فصل : وأما ما قلته من أنني قمت بحق ما دعوتني اليه ، وعزمت تمام
العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، فقد كان المراد من هذا القول
أنك رأيتني أهلا للسؤال وسألتني وأتعتك ، وطلبت هذا الكتاب ، وكان
مرادك منه الفائدة ، فوجب على لا محالة أداء حق سؤالك . ولما لم
أصل الى اتمام حق سؤالك في حينه ، وكان يلزم لى تمام العزم والنية ،
لاكون في حال ابتداء الكتاب وعقد النية على اتمامه قد أدبت حكم السؤال
وجوابه . وحين يكون قصد العبد في ابتداء عمله مقرونا بالنية ، فانه ان
يظهر منه خلل في ذلك العمل يكن معذورا فيه . ومن ذلك أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : « نية المؤمن خير من عمله » (٢) . والنية في ابتداء
العمل خير من ابتداء العمل بلانية .

وللنية في الأمور سلطان عظيم وبرهان صادق ، لأن العبد بالنية يتحول
من حكم الى آخر بدون أن يبدو على ظاهره اثر لهذا التحول ، كما لو أن
شخصا جاع مدة دون أن ينوى الصيام فهو لا يثاب على ذلك ، وحين ينوى
بقلبه الصيام يصير من المقربين ، بدون أن يبدو على ظاهره اثر . ومثل
المسافر الذي يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لا يصير مقيما مالم ينو الإقامة ،
واذا نوى صار مقيما . وأمثال هذا كثير ، فالنية عند بدء العمل تكون قياما
بحقه والله أعلم .

فصل : وأما ما قلته من أنني أسميت هذا الكتاب « كشف المحجوب » ،
فان الغرض منه أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل
البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه .

وأعلم أن أهل العالم كلهم محجوبون عن لطيفة التحقيق الإلهية باستثناء
أولياء الله تعالى وجل ، وأعزاء حضرته . ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق
الخلق ، وشرح الأقوال ، وكشف حجب البشرية ، فانه لا يناسبه غير هذا
الاسم .

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ ، ٤١

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس (مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي :
طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ، ج ٢ ص ٢٢١) .

والكشف في الحقيقة هو هلاك للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكاشف،
لأنه لا طاقة للقريب بالبعد ، ولا للبعيد بالقرب ، كالحیوان الذي يتولد من
الخل فهو يموت في كل ما عداه ، وما يتولد من سواه يهلك في الخل .

وسلوك طريق المعاني صعب جدا الا لمن خلق من أجله . والنبي صلى
الله عليه وسلم قال : « كل ميسر لما خلق له (١) » . وقد خلق الله عز وجل
كلا لعمل ، وجعل طريقه سهلا عليه .

أما الحجاب فحجابان : حجاب رينى — نعوذ بالله منه — وهو لا ينكشف
أبدا . وحجاب غينى ، وهذا سرعان ما ينكشف .

ولتوضيح ذلك : أن عبدا قد تكون ذاته حجابا للحق فيستوى لديه الحق
والباطل ، وعبدا تكون صفته حجابا للحق ، وطبعه وسره يطلبان الحق
دائما ، ويفران من الباطل .

فالحجاب الذاتى ، وهو الرينى ، لا ينكشف أبدا . ومعنى الرين والختم
والطبع واحد ، كما قال الله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون (٢) . وقد أظهر حكم ذلك فقال : « ان الذين كفروا سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٣) » ، ثم بين علته — فقال — « ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم (٤) » . وقال أيضا : « طبع الله على قلوبهم (٥) » .

وحجاب الصفة ، وهو الغينى ، يجوز أن ينكشف وقتا دون وقت ، فتبدل
الذات غريب وعجيب في الحكم ، وغير ممكن في الغين . أما تبديل الصفة
فجائز .

ولشيرخ هذه الطريقة في معنى الرين والغين اشارات لطيفة ، كقول
الجنيد (٦) رحمه الله : « الرين من جملة الوطنيات ، والغين من جملة
الخطرات » . والوطن باق ، والخطر طارئ .

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى في السنن عن أبى حنيد الساعدي : « أجبلوا
في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧)
ورواه أحمد في مسنده والطبرانى في الكبير عن أبى الدرداء : « كل امرئ مهيا له
خلق له » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥٣) .

(٢) سورة « المطففين » آية ١٤

(٣) سورة « البقرة » آية ٦

(٤) سورة « البقرة » آية ٧

(٥) سورة « النحل » آية ١٠٨

(٦) أبو القاسم الخزاز : أصله من نهاوند ، ومولده وبنشأ بالعراق . كان فقيها تفقه
على أبى ثور ، وكان يفتى في حلقته . صاحب السرى السقطى والهارث المحاسبى
 وغيرهم . وهو من أئمة التصوفة وساداتهم ، ومن العلماء ، وكانوا على عهد يلقبونه =

مثال ذلك : أنه لا يمكن عمل مرآة من أى حجر ، ولو اجتمع كثير من الصقالين . وعندما تصدأ المرآة فإنها تصفو بالمصقلة ، لأن الظلام أصلى فى الحجر ، والضياء أصلى فى المرآة . والأصل باق ، ولا بقاء لتلك الصفة العارية .

وقد عملت هذا الكتاب ليكون صقلا للقلوب الأسيرة فى حجاب الغين ويمكن فيها جوهر ونور الحق ، فيكشف عنها الحجاب ببركة قراءة هذا الكتاب ، وتجد الطريق الى حقيقة المعنى . أما أولئك الذين عجن وجودهم من انكار الحق وارتكاب الباطل ، فانهم لا يجدون الطريق قط الى شواهد الحق ، ولا يكون لهم من هذا الكتاب فائدة .

فصل : وأما ما قلته من أنه قد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب ، فإن المراد من هذا القول أنه مالم يعلم مقصود السائل للمسئول فإنه لا يتحقق مراد السائل ، لأن السؤال يكون عن اشكال ، وإذا لم يحل الاشكال بالجواب ، فإنه لا يفيد . ولا يمكن حل الاشكال الا بالعلم بالاشكال .

وأما قولى ان الكلام استقام فى غرضك ، فيعنى أن للسؤال على الجملة جواب على الجملة ، حين يكون السائل عليما بجملة وأخوات سؤاله . ثم ان للمبتدئ حاجة الى التفصيل ، وتحديد الأقسام وبيانها ، وبخاصة ان غرضك — أسعدك الله — كان أن اضع كتابا مفصلا فى الإجابة عن سؤالك ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى أطلب التوفيق والعون من الله تعالى : فإن الغرض منه أنه ليس للعبد ناصر غير الله ، لأنه هو الذى ينصره على الخيرات ، ويزيده توفيقا .

وحقيقة التوفيق هى موافقة تأييد الله لفعل العبد فى أعمال الصواب . والكتاب والسنة ناطقان على وجود صحة التوفيق ، والامة مجتمعة على

= « طاووس العباء » . توفى سنة سبع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٠٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٧ ، فتكرة الاولياء ج ٢ ص ٥ ، نفحات الانس ص ٨٠ ، خزينة الاضياء ج ١ ص ٨١) .

ذلك ، باستثناء طائفة من المعتزلة (١) والقدرية (٢) الذين يقولون ان لفظ التوفيق خال من كل المعاني .

وقد قال فريق من مشايخ الصوفية ان التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال . فحين يكون العبد مطيعا لله ، يكون له من الله المزيد أيضا ، وتكون قوته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وفي جملة الحالات من بعد — ذلك ان ما يكون من سكون العبد وحركته جملة هو فعل الله تعالى وخلقه — فيسمون تلك القوة التي يطيع بها العبد بالتوفيق . وليس هذا الكتاب موضعاً لشرح هذه المسألة ، لأن المراد منه شيء آخر .

(١) « المعتزلة » يسمون : أهل العدل والتوحيد (الملل والنحل على هامش الفصل : ج ١ ص ٥٤) . ويذهب كثيرون الى أن اسم المعتزلة يرجع تاريخه الى انفصال واصل بن عطاء (م : ١٨١ هـ) عن حلقة الحسن البصري (م : ١١٠ هـ) بعد اختلافهما في مرتكب الكبيرة : هل يبقى مؤمناً أم يصير كافراً ؟ وذهب واصل الى أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، منزلته بين المنزلتين . فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد (م : ١٤٤ هـ) فقبل لهما ولاتباعهما معتزلون (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ٢ ص ١٧٠) كان أكثر كلام المعتزلة في القدر ولذلك كانوا يسمون في بادئ الامر بالقدرية . والمعتزلة كانوا فرقا مختلفة : عاش بعضهم في البصرة وبعضهم في بغداد . وكان الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف ، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم حتى لنجد بين المتأخرين منهم الشيخ أبا هاشم الجبائي (م : ٣٢١ هـ) يعارض أباه الشيخ أبا علي الجبائي (م : ٣٠٣ هـ) ويختلف معه في مسائل كثيرة . غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معتزليا ، وهي : القول بالتوحيد ، والعدل ، والوعيد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١) .

على أن أسوا ما تورط فيه المعتزلة : القول بخلق القرآن ، في أيام الخليفة المعتصم (م : ٢٢٧ هـ) والخليفة الواثق (م : ٢٣٢ هـ) وتكليفهم بخصومهم ، فاذاتوا الناس العذاب اذا هم لم يقولوا بذلك ، وأقالوا المحاكم يعرض فيها على العلماء والقضاة القول بخلق القرآن فمن لم يقل عذب وأهين ، حتى ان المؤرخين يسمون هذه الفترة بحنة خلق القرآن . ثم جاء الخليفة المتوكل (م : ٢٤٧ هـ) فأبطل هذا القول (تاريخ البعتوب ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨) . وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة ينظرون الى المعتزلة نظرة كراهية واحتقار . وفي أواخر هذا القرن خرج عليهم الاشعري (م : ٣٢٤ هـ) بعد أن كان منهم ، وحاول التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل ، وانتشر مذهبه في العراق في أواخر القرن الرابع الهجري (وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٧) . والهجويزي كصوفي من أهل السنة وقف موقفاً مشدداً من المعتزلة وتصدى لاتبائهم وعارض آراءهم ووصفهم في كتابه بالخروج على الدين ، بل ان الامر بلغ به الى درجة أن كثرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين .

(٢) « القدرية » : هم الذين يبحثون في مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية . وقد اختلفوا فيهم ، فالشهرستاني لقب المعتزلة بالقدرية وقال ان هذا اللفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى . (الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ٥٤) . وقال آخرون انهم كانوا يقولون بأن الله يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة : مختلف الحديث . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥) . وقد حاول القاضي عبد الجبار (م : ٤١٥ هـ) أكبر شيوخ المعتزلة في « الرى » في عصره أن يثبت ان اسم القدرية لا ينبغي أن يطلق على المعتزلة ، بل على الفائلين بالقدر خيره وشره من الله (ظهر الاسلام ج ٤ ص ٤٣ ، ٤٤) .

والآن : اعود بمشيئة الله عز وجل الى مقصودك . وقبل ان ابدأ الكلام
أذكر اولاً أصل سؤالك ، ومن هنا بدأ الكتاب ، وبالله التوفيق .

صورة السؤال :

قال السائل ، وهو أبو سعيد الهجویری (١) : بين لى على التحقيق
طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، واطهر
لى رموزهم وإشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها
على القلوب ، وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وما هيتها ، ونفرة
النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها . وما يتعلق بهذا من
المعاملات .

قال المسئول وهو على بن عثمان الجلابى ، رحمه الله (٢) :

أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى
هذه الديار ، حيث انشغل الخلق بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا .
وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على
خلاف أصلها . فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدي أهل هذا الزمان
وأسرارهم ، باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد كل أهل
الإرادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق ،
واكتفى خاصة الخلق وعامتهم منه بالعبرة ، واشتروا حجابهم بأرواحهم
وقلوبهم ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد ، واخفى التحقيق وجهه
عن أحوالهم ، ورضى العوام بذلك قائلين اننا نعرف الحق ، وفرح الخواص
بأن يحسوا التمنى فى قلوبهم ، والهواجس فى نفوسهم ، والميل الى الدار
الآخرة فى صدورهم . وهم ، لانشغالهم ، يقولون ان هذا شوق الرؤية ،
وحرقة المحبة . وعجز الأدعياء بدعواهم عن كل المعانى ، وكف المريدون
عن المجاهدة ، وسموا ظنهم المعلول مشاهدة . وقد عملت قبل هذا كتباً
فى هذا المعنى ضاعت كلها . وقد اقتبس الأدعياء الكاذبون بعض أقوال منها
لصيد الخلق ، وغسلوا البعض الآخر ولم يبتقوا عليه ، لأن لصاحب الطبع
رأس مال من الحسد وانكار نعمة الله . وفريق آخر لم يغسلوها ولكن لم
يقرأوها . وفريق قرأوها ولم يدركوا معناها ، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها
ويحفظوها ويقولوا اننا نتكلم فى علم التصوف والمعرفة ، وهم له منكرون .
والسبب فى هذا كله ان هذه المعانى كبريت أحمر ، وهو شئ عزيز ، وحين

(١) سبق الإشارة اليه . فى القسم الاول .

(٢) عبارة « رحمه الله » إضافة من الناسخ .

يوجد يكون كيمياء (١) . ووزن دائق منه يحيل كثيرا من النحاس والقصدير
ذهبا أحمر .

وفي الجمل : كل يطلب الدواء الذي يوافق علته ، ولا يلزمه غيره . كما
يقول واحد من الكبار :

(شعر عربى)

فكل من فى فؤاده وجع يطلب شيئا يوافق الوجعا

فمن يكون دواء علته أحقر الأشياء لا يلزمه الدر والمرجان ليخطوهما
بالبلسان (٢) ودواء المسك . وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل نصيب منه .

وقد فعل جهال هذا العلم عين هذا من قبل بكتب المشايخ ، حين وقعت
تلك الخزائن المملأ بالأسرار الالهية فى أيديهم ، فلم يعرفوا معناها ، وألقوا
بها الى أيدي صناع القلائس الجهلة ، وأعطوها للمجلدين الأدناس ،
فصيروها بطانة للقلائس ، وجلدا لدواوين شعر أبى نواس (٣) ، وهزل
الجاحظ (٤) . وحين يحط بازى الملك على جدار بيت عجوز غانمهم يقصون
ريشه وجناحه لا محالة .

(١) « كيمياء » : الكيمياء فى اصطلاح القدماء المسادة التى تضاف الى المعادن الخسيسة
كالنحاس والرصاص فتحيلها ذهباً ، وتسمى أحيانا « الاكبر » ، وتطلق أيضا على
علم تحويل هذه المعادن الى ذهب .

(٢) نوع من الزيت يستخرج من نبات يعرف بالبلسم ، ورد ذكره فى كتاب « الابنية عن
حقائق الادوية » لموفق بن على الهروى . وهو كتاب فارسى من مؤلفات القرن الرابع
الهجرى (انظر : سبك شناسى ج ٢ ص ٢٤) .

(٣) أبو على الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس الحكى . الشاعر المعروف .
كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكى والى خرسان ، ونسبته اليه . قيل
أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سألته من نسبه ، فقال : أغنانى أدبى عن
نسبى فأمسك عنه . من الطبقة الاولى من المولدين ، وشعره عشرة انواع ، وهو
مجيد فى العشرة . كان المأبون يقول : لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل
قول أبى نواس :

ألا كل حى هالك وابن هالك وثو نسب فى الهالكين صديق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له من عسود فى ثياب صديق

توفى أبو نواس سنة خمس وقيل ست وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد ، ودفن فى
مقابر الشونيزى . قيل له أبو نواس لذواتين كانتا تنومان على عاتقيه (وفيات
الاعيان ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦) .

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى اللبى المعروف بالجاحظ البصرى :
العالم المشهور صاحب التصانيف فى كل فن ، له مقالة فى أصول الدين ، واليه
تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة . كان تلميذا لآبى اسحاق بن سيار البلخى
المعروف « بالنظام » المتكلم المشهور . من أحسن تصانيفه وأتممها : كتاب
« الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة
(وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٨٨) .

وقد أوجدنا الله عز وجل في زمان أسمى أهله الهوى شريعة ، وطلب الجاه والرياسة والتكبر عزا وعلما ، ورياء الخلق خشية ، واخفاء الحفيظة في القلوب حلما ، والمجادلة مناظرة ، والمحاربة والسفاهة عظمة ، والنفاق زهدا ، والتمنى ارادة ، وهذيان الطبع معرزة ، وحركات القلب وحديث النفس محبة ، والاحاد فقرا ، والجحود صفوة ، والزندقة غناء ، وترك شريعة النبي صلى الله عليه وسلم طريقة ، واسموا آفة أهل الزمان معاملة ، حتى احتجب أرباب المعاني بينهم ، على حين صارت الغلبة لهم ، كما حدث في الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع آل مروان . وما أجمع ما قاله سلطان أهل الحقائق وبرهان التحقيق والدقائق أبو بكر الواسطي (١) رحمه الله : « ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الاسلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحكام ذوى المروءة (٢) » .

ويقول الشبلى (٣) وفقا لهذا :

(شاعر عربى)

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

فصل : اعلم — قواك الله — انى وجدت هذا العالم محلا لبعض الأسرار الالهية ، والمكونات موضعا لودائعها ، والمثبتات مكانا للطائفة في حق احبائه .

= وكان الجاحظ لسان المعتزلة في عصره ، رد على المشبهة وتكلم في اعجاز القرآن والفتن في الاحتجاج للنسبة ونصرة الرسالة ، وفي الطبائع . وتكلم في الخلود في الآخرة .

من أقواله أن أعمال العباد تنسب الى المباد مجازا وانما هي أعمال الطبيعة تظهر فيهم ، الا الإرادة فانها فعل الإنسان (ظهر الاسلام ج ٤ ص ١١) . وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » (الفهرست ص ٥٧) .

(١) اسمه : محمد بن موسى . من قدماء اصحاب الجنيد وأبى الحسين النورى . أصله من فرغانة ؟ ويعرف بابن الفرغانى . كان عالما بالاصول وعلوم الظاهر . خرج من العراق وهو شاب ومشايخه في الاحياء ، فتكلم بخراسان بأبيورد ومرو ، وأكثر كلامه بهرو ، ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٩ ، تفكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٦٥ ، نفحات الانس ص ١٧٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) ورد هذا القول بنفسه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٠٣) .

(٣) أبو بكر الشبلى : اسمه « دلف » ويقال : ابن جحدر . خراسانى الاصل ، بغدادى المولد والمنشأ . تاب في مجلس خير النجاج ، وصاحب الجنيد ، وصار أواحد عصره حالا وعلميا . كان عالما فقيها على مذهب مالك . مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٢ ، تفكرة الاولياء ج ٢ ص ١٦٠ ، نفحات الانس ص ١٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨٦) .

والجواهر والأعراض والعناصر والأجرام والأشباح كلها حجاب تلك الأسرار واثبات كل من هذه في محل التوحيد شرك ، فالله تعالى قد جعل هذا العالم في محل الحجاب ، حتى اطمأنت الطبايع كل منها في عالمه بأمره ، واحتجبت بوجودها عن توحيد الحق، وانشغلت الأرواح في العالم بمزاحها ، وابتعدت بالمقارنة عن محل الخلاص ، حتى صعب على العقول فهم الأسرار الربانية . واحتجبت لطائف القرب عن الأرواح ، حتى احتجب الإنسان بوجوده في مظلة الغفلة ، وصار معيوباً بحجابه في محل الخصوصية ، كقول الله تعالى : « والعصر ان الإنسان لفي خسر (١) » وقال أيضاً « انه كان ظلوماً جهولاً (٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الخلق في ظلمة ثم ألقى عليه نورا (٣) » .

وقد وقع هذا الحجاب مزاجاً له (للإنسان) في العالم ، لتعلق الطبايع به ، ولتصرف العقل فيه ، حتى صار مكتفياً بجهله ، واشتري بروحه حجاباً عن الحق ، لأنه غافل عن جمال الكشف . وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية ، واستقر في محل الدواب ، وجفل من محل نجاته . ولم يشم رائحة النوحيد ، ولم ير جمال الأحدية ، ولم يذوق ذوق التوحيد ، وعجز بالتقليد عن تحقيق المشاهدة ، ورجع بحرص الدنيا عن إرادة الله ، وقهر النفس الناطقة (٤) بالنفس الحيوانية (٥) المجردة من الحياة الربانية . وأقر حركاته وطباعه جملة في نصيب الحيوانية ، ولا يعرف غير الأكل والنوم ومتابعة الشهوات . وقد أمر الله عز وجل أحياءه بالأعراض عن هذا كله ، وقال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٦) » . لأن سلطان طبعهم أخفى عليهم سر الحق ، وحل بهم الخذلان والحرمان مكان العناية والتوفيق ، وأصبحوا جميعاً متابعين للنفس الأمارة — وهى الحجاب الأعظم ومنبع السوء والنشر — كما قال الله تعالى : « ان النفس لامارة بالسوء (٧) » .

والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضح مقصودك في المقامات والحجب ،

(١) سورة « العصر » آية ١ ، ٢

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢

(٣) لم أجد له سنداً .

(٤) النفس الناطقة : هى الجوهر المجرد عن المسادة فى ذاتها ، مقارنة لها فى انفعالها .

(تعريفات الجرجاني ص ١٤٢) .

(٥) النفس الحيوانية : هو كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات

ويتحرك بالإرادة . (المصدر السابق) .

(٦) سورة « الحجر » آية ٣

(٧) سورة « يوسف » آية ٥٣

وأبسطها ببيان لطيف ، وأشرط عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدراً
من أقوال المشايخ ، وأمدّه بغير الحكايات ، ليتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر
في هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم : أن لطريق التصوف أصلاً قويا
وغيراً مثمراً .

وقد حث جميع المشايخ من أهل العلم كل المريدن على تعلم العلم ،
والمداومة عليه ، حتى صاروا حريصين عليه ، ولم يتابعوا اللهو والهزل
أبداً ، ولم يسلكوا طريق اللغو ، بعد أن صنف كثير من مشايخ الصوفية
وعلمائهم في هذه المعاني ، وأظهروا بالعبارات اللطيفة براهين من الخواطر
الربانية ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرقيق .

الباب الأول باب إثبات العلم

قوله تعالى في وصف العلماء : « انما يخشى الله من عباده العلماء (١) »
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل
مسلم (٢) » . وقال أيضا : « اطلبوا العلم ولو بالصين (٣) » .

واعلم ان العلم كثير ، والعمر قصير . وليس تعلم كل العلوم ، مثل
علم النجوم والطب وعلم الحساب والصناعات البديعية وما يشبه هذا ،
فريضة على الناس ، الا بالقدر الذي يتعلق بالشرعية من كل من هذه
العلوم ، فالنجوم لمعرفة الوقت في الليل ، والطب للاحتماء ، والحساب
للفرائض ومدة الحيض ، وما يشبه هذا ، ففرائض العلم بقدر ما يصح به
العمل .

وقد ذم الله عز وجل أولئك الذين يتعلمون العلوم غير النافعة في قوله
تعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم (٤) » . والرسول عليه السلام
استعاذ وقال : « أعوذ بك من علم لا ينفع (٥) » .

واعلم أنه يمكن عمل الكثير من علم قليل . وينبغي أن يكون العلم مقرونا
بالعمل كما قال عليه السلام : « المتعبد بلا فقه كالحمار في الطاحونة (٦) » .

-
- (١) سورة « فاطر » آية ٢٨
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في العلم عن أنس بن مالك : « اطلبوا
العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » (شرح المناوي للجامع
الصغير ج ١ ص ٧٢) .
(٣) سورة « البقرة » آية ١٠٢
(٤) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أنس : اللهم اني أعوذ بك من علم
لا ينفع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع (شرح المناوي للجامع الصغير ج ١ ص ٧٢) .
وقد عرف الغزالي العلم الذي لا ينفع بأنه العلم المذموم ، وان كان العلم لا يذم
لعبته وانما يذم في حق العباد لاحد هذه الاسباب الثلاثة :
١ - أن يكون العلم مؤذيا لضرر ما لصاحبه أو غيره .
٢ - أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الامر كعلم النجوم .
٣ - الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم - (احياء علوم الدين :
انظر ج ١ ص ٢٦) .
(٦) رواه أحمد في مسنده عن واثلة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٢٥) .

فتشبه المتعبدين بلا فقه بحمار الطاحونة ، لأنه مهما يدور يظل في مكانه ولا يقطع أى طريق .

ورأيت طائفة من العوام فضلت العلم على العمل ، وطائفة أخرى فضلت العمل على العلم ، وكلاهما باطل ، لأن العمل بلا علم لا يكون عملاً ، فالعمل يصير عملاً حين يكون موصولاً بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجهماً لثواب الحق (١) . مثال ذلك : الصلاة ، فإنه ما لم يكن العلم أولاً بأركان الطهارة ، ومعرفة الماء والتبلة وكيفية النية وأركان الصلاة ، فالصلاة لا تكون صلاة . ومادام العمل يصير عملاً بعين العلم ، فكيف يقول جاهل بفضلته عنه ؟

وأولئك الذين فضلوا العلم على العمل ، على باطل أيضاً ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علماً ، فالتعلم والحفظ والاستيعاب كلها عمل ، لأن العبد مثاب بذلك . ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه ، لما كان له بذلك أى ثواب .

وهذا كلام طائفتين (٢) ، أحدهما : أولئك الذين ينسبون جاه الخلق إلى العلم ولا طاقة لهم بمعاملته ، ولم يصلوا إلى تحقيق العلم ، فيفضلون العمل عن العلم لأنهم لا يعرفون علماً ولا عملاً ، حتى ليقول جاهل : لا يلزم القال ويلزم الحال (٣) ، ويقول آخر : يزعم العلم ولا يلزم العمل .

(١) يتفق رأى الهجویری فی ضرورة ارتباط العلم بالعمل وإثابة العبد بهما مع رأى أبی طالب المکی حیث یقول : أعلم ان من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران : أجر التوفیق ، وأجر العمل . وهذا مقام العارفين . (قوت القلوب : انظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) أورد المؤلف قول الطائفة الأولى فقط .

(٣) يقسم الصوفية العلوم تقسيمات مختلفة ، منها تقسيمهم العلم إلى ظاهر وباطن ، وتقسيمهم العلوم إلى علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وتقسيمهم العلم إلى علم القال وعلم الحال .

أما علم القال فيطلقونه على بعض العلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام والجدل ، وأما علم الحال فهو علم التصوف الذي يتعلق بالمقالات والأحوال : كالمحبة ، واليقين ، والمعرفة وغيرها . وهم ينظرون إلى العلوم من النوع الأول على أنها من الأمور الكسبية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم . أما العلوم من النوع الثاني فهي من الأمور الذوقية والمواهب الإلهية التي يمنحها الله للمقربين من الصوفية ويختصهم بها . يقول الجنيد :

علم التصوف ليس يعرفه إلا أخو نطنز بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكشوف
(قوت القلوب : انظر ج ١ ص ٣٢٤) .

ويرد عن إبراهيم بن أدهم^(١) رحمه الله أنه قال : رأيت حجرا ملقى في الطريق ، وقد كتب عليه : أدرنى واقرا . قال : فأدرته ، ورأيت أنه قد كتب عليه : « انت لا تعمل بما تعلم ، فكيف تطلب ما لاتعلم ؟ » .

أى : اعمل بما تعلم حتى تعلم أيضا ببركات ذلك ما لم تعلم .

ويقول أنس بن مالك^(٢) رضى الله عنه : « همّة العلماء الدراية ، وهمّة السفهاء الرواية » ، لأن أخوات الجهل منتقية عن العلماء ، فمن يطلب بالعلم جاه الدنيا وعزها لا يكون عالما ، لأن طلب الجاه والعز من أخوات الجهل . ولا درجة قط في المرتبة مثل العلم ، لأنه حين لا يكون لا يعلم — العبد — أى لطيفة لله تعالى ، وحين يوجد يكون لا نقا لجميع المقامات والشواهد والمراتب .

فصل : اعلم أن العلم علمان : أحدهما علم الله تعالى ، والآخر علم الخلق . وعلم العبد يتلشى في جنب علم الله تعالى ، لأن علمه صفته وقائم به^(٣) ، ولا نهاية لأوصافه . وعلمنا صفتنا وقائم بنا ، وأوصافنا منتهية ، لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا^(٤) » .

وفي الجملة : العلم من صفات المدح ، وحده الاحاطة بالمعلوم وتبين المعلوم ، وأفضل حدوده هو أن « العلم صفة يصير الحى بها عالما » . والله عز وجل قال : « والله محيط بالكافرين^(٥) » . وقال أيضا : « والله بكل شىء عليم^(٦) » .

وعلم الله : هو علم يعلم به جملة الموجودات والمعدومات ، ولا مشاركة للخلق معه ، وهو غير متجزىء وغير منفصل عنه . والدليل على علمه

(١) أبو اسحاق إبراهيم بن أدهم : من أهل بلخ . كان من أبناء الملوك نهتف به حاتف أيقظه من غفلة . صاحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض بكه . ودخل الشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده . مات بالشام سنة احدى أو اثنتين وميتين ومائه (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ٥١ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٥٥ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٤١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٣٦) .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن شمس بن زيد بن حرام ، الانصارى البخارى . ختم النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وشهد بدرا . مات سنة تسعين أو بعدها . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥) .

(٣) يعارض الهجویری هنا رأى المعتزلة الذى يقول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته . ونفوا الصفات القدیة أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا يعلم وقدره وحیة هى صفات قدیة ومعان قائمة به (الملل والنحل على هامش الفصل : أنظر ج ١ ص ٥٥) .

(٤) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .

(٥) سورة « البقرة » آية ١٦ .

(٦) سورة « البقرة » آية ٢٨٢ .

ترتيب فعله ، لأن الفعل المحكم يقتضى علم الفاعل ، فعله لاحق بالاسرار ومحيط بالظواهر .

وينبغى للطالب أن يعمل الاعمال فى مشاهدته ، بحيث يعلم أن — الله — بصير به وبأفعاله .

ترد حكاية ، أنه كان بالبصرة (١) رئيس ذهب الى حديقة له ، فوتمعت عينه على جمال امرأة فلاح ، فأرسل الرجل لشغل ، وقال للمرأة : غلقت الأبواب . قالت : غلقت كل الأبواب الا بابا لا أستطيع اعسلقه ! قال : أى باب ذاك ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين الله جل جلاله ! فندم الرجل واستغفر .

حكاية : قال حاتم الأصم (٢) رضى الله عنه : اخترت أربعة من العلوم فنجوت من كل العالم . قيل : ما هى ؟ قال :

أولها : أنى عرفت أن لله تعالى حقا لا يستطيع غيرى أن يؤديه ، فأنشغلت بأدائه .

وثانيهما : أنى عرفت أن لى رزقا مقسوما لا يزيد بحرصى ، فاسترحت من طلب الزيادة .

وثالثها : أنى عرفت أن لى طالبا — أى الموت — لا أستطيع الفرار منه فتهيأت له .

ورابعها : أنى عرفت أن لى الها جل جلاله مطلع على فحجلت منه ، وامتنعت عما لا يليق عمله ، لأنه حين يكون العبد عالما بأن الله تعالى ناظر اليه ، لا يعمل عملا يخجل منه يوم القيامة .

فصل : أما علم العبد ، فينبى أن يكون فى أمور الله تعالى ومعرفته .
وعلم الوقت وما يفيد بموجبه ظاهرا وباطنا فريضة على العبد ، وهو على قسمين :

(١) « البصرة » : اختطها عتبة بن غزوان المازنى عامل عمر بن الخطاب . وكانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها فى وقت افتتاحها فى ولاية عمر بن الخطاب فى سنة سبع عشرة (البلدان ص ٨٥) .

(٢) حاتم بن عنوان الأصم : ويقال حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن . من قدماء مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . صاحب شقيق بن ابراهيم ، وكان أستاذ أحمد بن خضروية . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة ج ١ ص ٨٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٣٩) .

أحدهما : الأصول ، والآخر : الفروع . وكل واحد منهما له ظاهر وباطن
 فظاهر الأصول : قول الشهادة ، وباطن الأصول : تحقيق المعرفة .
 وظاهر الفروع : ممارسة المعاملة ، وباطن الفروع : تصحيح النية .
 وتقيام كل هذين بدون الآخر محال ، فظاهر الحقيقة بلا باطن :
 نفاق ، وباطن الحقيقة بلا ظاهر : زندقة . وظاهر الشريعة بلا باطن :
 نفس ، وباطن الشريعة بلا ظاهر : هوس .

ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات الله عز وجل ووحدانيته ، ونفى التشبيه عن ذاته
 المنزهة جل جلاله .

والثاني : العلم بصفات الله وأحكامها .

والثالث : العلم بأفعال (الله) وحكمته .

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

والثاني : السنة .

والثالث إجماع الأمة .

والدليل على العلم يكون باثبات ذات الله تعالى وصفاته المنزهة وأفعاله،
 لقوله تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله (١) » . وقال أيضا : « فاعلموا
 أن الله مولاكم (٢) » . وقال أيضا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل (٣) » .
 وقال أيضا : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت (٤) » . ومثل هذه
 الآيات كثيرة ، وهي كلها دلائل على النظر في أفعال الله تعالى وتقدس ،
 ليعرف بتلك الأفعال الفاعل بصفاته .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من علم أن الله تعالى ربه وإنى
 نبيه حرم الله تعالى لحبه ودمه على النار (٥) » .

أما العلم بذات الله تعالى فهو : أن يعلم العاقل والبالغ أن الله تعالى

(١) سورة « محمد » آية ١٩

(٢) سورة « الأنفال » آية ٤٠

(٣) سورة « الفرقان » آية ٥٥

(٤) سورة « النازية » آية ١٧

(٥) رواه البيهقي عن عمران : « من علم أن الله ربه وإنى نبيه موقنا من قلبه حرمة الله
 على النار » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠٦) .

موجود في قدم ذاته ، ولا حد ولا حدود له . وأنه ليس في مكان أو جهة ،
وليست ذاته موجب آفة ، ولا شبيه له من خلقه ، ولا صاحبة له ولا ولد .
وكل ما يتصور في الوهم ويقاس في العقل فهو جل جلاله خالقه ، وما لكه ،
وربه ، لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١) » .

وأما العلم بصفات الله فهو : أن تعلم بأن صفاته تعالى موجودة به ،
فهى ليست هو ، ولا جزءا منه ، هى قائمة به ، وهو قائم بذاته ، ودائم :
مثل العلم والقدره والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ،
لقوله تعالى : « انه عليم بذات الصدور (٢) » . وقال أيضا : « والله على
كل شيء قدير » (٣) . وقال أيضا : « هو الحى لا اله الا هو » (٤) . وقال
أيضا : « وهو السميع البصير » (٥) . وقال أيضا : « فعال لما يريد » (٦) .
وقال أيضا : « قوله الحق » (٧) .

وأما العلم بأفعال الله فهو : أن تعلم انه تعالى وتقدس خالق الخلق
وخالق أمعالمهم ، وأن العالم لم يكن موجودا وصار موجودا بفعله ، وهو
مقدر الخير والشر ، وخالق النفع والضر ، لقوله تعالى : « خالق كل
شيء » (٨) .

والدليل على اثبات احكام الشريعة هو : أن تعلم انه قد جاءنا رسل
من الله تعالى بمعجزات ناقضة للعادة ، وإن رسولنا محمدا المصطفى صلى
الله عليه وسلم حق ، وله معجزات كثيرة . وأن ما أخبرنا به من غيب
وعيان كله حق .

والركن الأول من الشريعة : الكتاب ، لقوله تعالى : « منه آيات
محكمات » (٩) .

والثانى : السنة ، لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا » (١٠) .

-
- (١) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٢) سورة « الشورى » آية ٢٤ .
 - (٣) سورة « البقرة » آية ٢٨٤ .
 - (٤) سورة « غافر » آية ٦٥ .
 - (٥) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٦) سورة « هود » آية ١٠٧ .
 - (٧) سورة « الانعام » آية ٧٣ .
 - (٨) سورة « الرعد » آية ١٦ .
 - (٩) سورة « آل عمران » آية ٧ .
 - (١٠) سورة « الحشر » آية ٧ .

والثالث : اجماع الامة ، لقوله عليه السلام : « لا تجتمع اُمتى على الضلالة ، عليكم بالسواد الاعظم » (١) .

وفي الجملة : ان احكام الحقيقة كثيرة ، واذا اراد أحد ان يجمعها كلها لا يستطيع ، لانه لا نهاية للطائف الحق تعالى .

فصل : اعلم انه توجد جماعة من الملحدة — لعنهم الله — يسمونهم السوفسطائية (٢) ، يذهبون الى انه لا يصح العلم بأى شيء ، وأن العلم ذاته غير موجود .

ونقول لهم : هذا العلم الذى تعرفون انه لا يصح به العلم بأى شيء : صحيح أم لا ؟ فاذا قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، واذا قالوا : لا ، فالشيء الذى لا يصح ، تكون معارضته محالا . والكلام مع قائل ذلك لا يكون من العقل .

وهناك فريق من الملحدة (٣) الذين ينتمون الى هذه الطريقة يقولون أن علمنا لا يصح بشيء ، فترك العلم أتم لنسا من اثباته . وهذا من حقيقتهم وضلالتهم وجهلهم ، لأن ترك العلم لا يخرج عن اثنتين : إما أن يكون بعلم ، أو بجهل . والعلم لا ينفى العلم ، ولا يكون ضده . وترك العلم بالعلم محال . ويبقى هنا الجهل ، فاذا صح أن نفى العلم يكون جهلا ، وأن تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكفر ، فان — قولهم هذا — يكون باطلا ، اذ لا تعلق للحق بالجهل . وهذا مخالف لجميع المشايخ .

ولما سمع الناس هذا القول وعملوا به ، قالوا : ان مذهب جملة أهل التصوف هو هذا ، ومسلكتهم هكذا ، حتى تشوش اعتقادهم ، وعجزوا عن تميز الحق من الباطل . وقد سلمنا الأمور كلها لله تعالى ليظنوا في ضلالهم ،

(١) رواه ابن ماجه عن أنس : « ان اُمتى لن تجتمع على ضلالة فاذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٥١) .

(٢) « السوفسطائية » : ذكرهم ابن حزم على أنهم مبطلو الحقائق . انظر « الفصل » ج ١ ص ٨ . وفي « التعريفات » و « أقرب الموارد » : السفسطة والسفسطة — بفتح وكسر السين — (يونانية) قياس مركب من الوهيمات ، والغرض من افحام الخصم واسكاته ج سفسطات . السفسطى من يأتى بالسفسطة . السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبيدييات وغيرها . (انظر تعريفات الجرجاني ص ٦٨) .

(٣) « الملحدة » : حيثما ذكر الهجویری اسم الملحدة فإنه يقصد به الصوفية الادعياء الذين أحدثوا في التصوف أمورا تتناقى مع ما يراه المحققون من الصوفية : من ذلك توليهم بالتدخل في الشرائع وسقوط التكاليف من عبادات وطاعات عن بلغوا مرتبة الولاية ، وغير ذلك مما يتناقى مع الدين والشرع ، ويشير اليه الهجویری في موضعه .

فان يتمكن الدين منهم ، فانهم يتصوفون تصوفا خيرا من هذا ، ولا يتجنبون حكم الرعاية ، ولا ينظرون الى اعباء الله عز وجل بهذه النظرة ، ويحتاطون في احوالهم افضل من هذا .

واذا تعلق قوم من الملاحدة بهؤلاء الأحرار ليخلصوا انفسهم من الآفات بجمالهم ، وليعيشوا في ظل عزهم ، فلماذا يقيسون الكل عليهم ، ويختارون في معاملتهم المكابرة العيانية ، ويدوسون قدرهم — في هذا الباب — بأقدامهم ؟

وقد جرت لى مناظرة مع دعى منتسب الى العلم ، أسمى تاج الرعونة عز العلم ، ومتابعة الهوى سنة الرسول عليه السلام ، وموافقة الشيطان سيرة الأئمة ، وقال في مناظرته : ان الملاحدة اثنتا عشر طائفة ، واحدة منها بين المتصوفة . فقلت له : اذا كان بين المتصوفة طائفة واحدة من هؤلاء ، فان الاحدى عشرة الاخرى بينكم ! وهم يستطيعون أن يحموا انفسهم من طائفة ، افضل مما تستطيعون أنتم حماية انفسكم من الاحدى عشرة .

وكان هذا كله نتيجة لفتور الزمن ، والآفات التى ظهرت . وقد حفظ الله تعالى أولياءه دائما بين قوم ، وجعل أولئك القوم مهجورين بين الخلق من أجلهم . وما أجمل ما قال شيخ المشايخ وشمس المريدين « على بن بندار الصيرفى » (١) رحمة الله عليه : « فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله » (٢) .

والآن : أورد فصلا فى أقوالهم ليكون تنبيها لمن للحق فى أمره عناية صادقة من منكرى هذه الطائفة ، وبالله التوفيق .

فصل : يقول محمد بن الفضل البلخى (٣) رحمه الله : « العلوم ثلاثة : علم من الله ، وعلم مع الله ، وعلم بالله » (٤) .

(١) أبو الحسن على بن بندار الصيرفى : كان من أجله شيوخ نيسابور . صاحب كثيرا من الشيوخ ، وكتب الحديث الكثير ورواه . مات سنة تسع وخمسين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٥٠١ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٩ ، تفحات الانس ص ١١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٠٣) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس . مريد أحمد بن خضروية . كان من أجله مشايخ خراسان . أصله من بلخ وأخرج منها بسبب المذهب فنزل مسرقند ومات بها سنة تسع عشرة وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٢ ، الرسالة ج ١ ص ١١٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٠ ، تسذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٧ ، تفحات الانس ص ١١٦) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية مع شرح آخر (انظر : ص ٢١٥) .

فالعلم بالله : هو علم المعرفة الذى عرفه به جميع أوليائه . ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه ، لأن كل أسباب الاكتساب المطلق منقطعة عن الحق تعالى . ولا يصير علم العبد علة لمعرفة الحق ، لأن علة معرفته تعالى وتقدس إنما هى أيضا هدايته وأعلامه .

والعلم من الله : هو علم الشريعة ، وهو أمر وتكليف منه لنا .

والعلم مع الله : هو علم مقامات طريق الحق ، وبيان درجات الأولياء . فالمعرفة إذن لا تصح بدون قبول الشريعة ، وممارسة الشريعة لا تستقيم بغير اظهار المقامات .

ويقول أبو على الثقفى (١) رحمه الله : « العلم حياة القلب من الجهل ، ونور العين من الظلمة » (٢) .

أى إن العلم حياة القلب من موت الجهل ، ونور لعين اليقين من ظلمة الكفر . وكل من يجهل علم المعرفة قلبه ميت بالجهل ، وكل من يجهل علم الشريعة قلبه مريض بالجهل ، فقلوب الكفار ميتة لأنها جاهلة بالله تعالى ، وقلوب اهل الغفلة عليلة لأنها جاهلة بأوامره .

ويقول أبو بكر الوراق الترمذى (٣) رحمه الله : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق ، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تنسق » (٤) .

والمراد بهذا القول أن تجريد التوحيد بلا معاملة ومجاهدة يكون جبرا ، والموحد يكون جبرى القول وقدرى الفعل ، ليصح مسلكه بين الجبر والتقدير .

(١) اسمه محمد عبد الوهاب . لقي أبا حفص الحداد وحيدونا القصار ، كان أباهما في أكثر علوم الشرع ، مقدما في كل فن منه . عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن الكلام . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٣٦١ ، الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨١ ، نفعات الانس ص ٢٠٣ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٩٢) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٦٤) .

(٣) هو محمد بن عبد الحكيم . أصله من ترمذ وأقام ببلخ . لقي أحمد بن خضرويه وصحبه . وصحب محمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خثعم البلخى ، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٢١ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٠٢ ، نفعات الانس ص ١٢٣) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبذع » ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تنسق ، ومن تغنى في هذه الامور كلها تخلص » . (انظر طبقات الصوفية ص ٢٢٤) .

وهذا حقيقة ما قاله ذلك الشيخ - رحمة الله عليه : « التوحيد دون الجبر وفوق القدر » ، فكل من يكتفى من التوحيد بالعبارة دون المعاملة يصير زنديقا . أما الفقه فيشترط له الاحتياط والتقوى ، وكل من ينشغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات ويحوم حول المجتهدين بلا مذهب ، للترخص ، سرعان ما يقع في الفسق . وهذا كله يتأتى من الغفلة .

وحسنا قال شيخ المشايخ بن معاذ الرازي (١) رحمه الله : « اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والفقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين » (٢) .

أما العلماء الغافلون ، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قبلة قلوبهم ، واختاروا السهولة من الشرع ، واتخذوا عبادة السلاطين وصيروا بلاطهم مطافهم ، وجعلوا جاه الخلق محرابهم ، وانخدعوا بغرور مهارتهم ، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم ، وأطلقوا لسان طعنهم في الأئمة والأساتذة ، وانشغلوا بقهر علماء الدين بكلام مزيد عليه ، وإذا وضعوا الكونين في كفة ميزانهم لا يظهران ، ومن ثم صيروا الحقد والحسد مذهباً . وجملة القول : أن هذا كله لا يكون علماً ، لأن العلم صفة تنتفى بها كل أنواع الجهل عن الموصوف .

وأما الفقراء المداهنون ، فهم أولئك الذين حين يكون فعل شخص موافقاً لهوهم ، وأن يكن باطلاً ، فانهم يمدحونه به ، وحين يعمل عملاً على خلاف هواهم ، وأن يكن حقاً ، فانهم يذمونه به . وهم بمعاملتهم يطمعون في الجاه من الخلق ، ويداهنونهم على الباطل .

وأما المتصوف الجاهل ، فهو الذي لم يصحب شيخاً ، ولم يتلق الأدب من كبير ، ولم يذق عرك الزمان له ، ويرتدى الأزرق بلا بصيرة ، ويلقى بنفسه بين (الصوفية) ، ويسلك في الخزي طريق الانبساط في صبتهم ، وقد حملته حمقه على أن يظن الجميع مثله ، ومن ثم يشكل عليه طريق الحق والباطل .

وكان المراد من هذه الطوائف الثلاث التي ذكرها ذلك الموفق ، وأمر المريد

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ . تكلم في علم الرجاء . وله كلام في المعرفة . خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . وروى الحديث (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٧ ، الرسالة ج ١ ص ٩١ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٩٨ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الأصفاء ج ١ ص ١١٠)
(٢) ورد في طبقات الصوفية مع تحريف في كلمة « الفقراء » حيث وردت « القراء » (انظر : ص ١١٣) .

بالاعراض عن صحبتهم هو أنهم كانوا كاذبين في دعواهم ، وناقضين في سلوكهم .

يقول أبو يزيد البسطامي (١) رحمه الله : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته » (٢) .

وفي الجملة : ان السير على النار أيسر على الطبع من السير على موافقة العلم ، وعبور الصراط ألف مرة يكون أسهل على قلب الجاهل من تعلم مسألة واحدة من العلم ، وضرب خيمة في الجحيم أحب الى الفاسق من العمل بمسألة من العلم ، فليكن لزاما عليك تعلم العلم ، وطلب الكمال فيه .

وكمال علم العبد يكون جهلا الى جنب علم الله عز اسمه . ويجب أن تعلم كثيرا حتى تعلم أنك لا تعلم (٣) . ومعنى هذا أن العبد لا يستطيع أن يعلم الا علم العبودية ، والعبودية حجاب أعظم عن الألوهية .

ويقول واحد في هذا المعنى :

(شعر عربى)

العجز عن درك الإدراك ادراك والوقوف في طرق الأخيار اشراك

فمن لا يتعلم ويصر على الجهل يكون مشركا ، ومن يتعلم ويظهر له معنى في كمال علمه ، ويزول غرور علمه ويعلم أنه لا عاقبة لعلمه سوى العجز في طلب العلم — لأنه لا تأثير للتسميات في حق المعانى — فعجزه هذا عن ادراك العلم ، ادراك للعلم ، والله أعلم .

(١) أبو يزيد طبريز بن عيسى بن مروشان . كان جده مروشان مجوسيا فأسلم . فارسي الأصل من أهل بسطام ، ومن أوائل القائلين بالفناء والمروجين لوحدة الوجود ، ومذهبه يقوم على السكر . مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وستين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٦٧ ، الرسالة ج ١ ص ٨٠ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦١ ، تذكر الأولياء ج ١ ص ١٢٤ ، نفحات الأنس ص ٥٦ ، خزينة الأصفاء ج ١ ص ٥١٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية ، وزيد عليه : « ولولا اختلاف العلماء

لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا في تجريد التوحيد » . (انظر : ص ٧٠) .

(٣) في هذا المعنى يقول الشاعر الفارسي أبو شكور البلخي من شعراء العصر الساماني مباهيا بسعة علمه ومزريا بقصور علم البشر :

تا بدانجا رسيد دانش من كه بدانم همي كه نادانم

والمعنى :

لقد بلغ علمي أن أعلم أني جاهل .

ويمزى مثل هذا القول الى حكماء اليونان ، وكان يردده سقراط .

الباب الثالث باب الفقر

اعلم أن للفقر ، في طريق الله عز وجل ، مرتبة عظمى . وللفقراء خطر كبير ، كما قال الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » (١) . وقال أيضا : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء » (٢) . وقال أيضا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » (٣) .

واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الفقر ، وقال : « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين » (٤) . وقال أيضا : يقول الله تعالى في يوم القيامة : « أدنوا مني أحبائي . فيقول الملائكة : من أحبائك ؟ فيقول فقراء المسلمين » .

ومثل هذه الآيات والروايات كثير ، إلى حد أنها لشهرتها لا يحتاج لإثباتها لصحة الدلائل .

وكان الفقراء والمهاجرون في وقت النبي عليه السلام هم أولئك الذين أقاموا في مسجده في حكم أداء العبودية ، وصحبة النبي عليه السلام ، وأعرضوا عن الأشغال كلية ، وقالوا بترك المعارضة ، واعتمدوا على الله تعالى في رزقهم ، وتوكلوا عليه ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبتهم والقيام بحقوقهم ، قال عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٥) . وقال أيضا : « ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » (٦) إلى حد أن

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .

(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .

(٣) سورة « السجدة » آية ١٦ .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک عن أبي سعيد (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣) .

(٥) سورة « الانعام » آية ٥٢ .

(٦) سورة « الكهف » آية ٢٨ .

كان الرسول عليه السلام حيثما يرى واحدا منهم يقول : بأبى وأمى أولئك الذين عاتبني الله تعالى من أجلهم .

فإن الله تعالى قد أعطى للفقر مرتبة ودرجة عظمى ، وخص الفقراء بها ، حتى قالوا بترك الأسباب الظاهرة والباطنة ، ورجعوا الى المسبب الكلية ، وصار فقرهم فخرا لهم ، الى حد أنهم بكوا لزواله ، وفرحوا لقدمه ، واعتنقوه ، واحتقروا كل شيء عدا أخواته (١) .

أما الفقر فله حقيقة ورسم (٢) : ورسمه الإفلاس الاضطراري ، وحقيقته الاتقبال الاختياري فمن رأى الرسم ركن الى الاسم ، فلما لم يدرك المراد جفل عن الحقيقة . ومن أدرك الحقيقة أعرض عن الموجودات ، وأسرع الى فناء الكل في رؤية الكل ببقاء الكل : « من لم يعرف سوى رسمه ، لم يسمع سوى اسمه » .

فالفقر هو الذى لا يملك شيئا قط ، وليس له خلل في شيء ، وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب ، ولا محتاجا الى سبب بعدهما ، فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء وأن يكن في العدم أكثر سعادة ، فجائز أيضا ، لأن المشايخ قالوا : كلما يكون الفقير اضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه . فوجود المعلوم شؤم للفقير ، الى حد أنه لا يجعل أى شيء في قيده الا ويكون هو أيضا في التقيد بذلك القدر . فحياة أحباب الحق مع الحق تكون بالالطاف الخفية ، والأسرار البهية ، لا بالآلات الدنيا الغدارة ، والدار الفجارة ، فالمتناع مناع عن طريق الرضا .

ويرد أنه اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لعبيدى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قل : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الفقر عز لأهله » ، فالشئ الذى يكون عزاً للأهل ، يكون ذلاً لغير الأهل . وعزه هو أن الفقير يكون محفوظ

(١) قيل أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه ، وقال له : تريد أن تحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل . (الرسالة ج ٢ ص ٥٢٨) .

(٢) يشير بالرسم الى الفقر المادى ، وبالحقيقة الى الفقر المعنوى . والفقر المادى هو التخلّى عن الأسباب ، والفقر المعنوى هو الافتقار الى الله . والفقر الحقيقى هو الذى يفتقر في وجوده الى الله ، وهو لا يصبح غنيا بوجود الأسباب ، ولا يصير محتاجا باتعدامها ، لأن من طبيعة المخلوق الافتقار الى الخالق سواء ملك شئنا أو لم يملك ، وكل من يدرك هذه الحقيقة يسرع بالتخلّى عن جميع الأسباب ، ويتجه الى مسبب الأسباب ، الفنى الحقيقى ، ليبقى له الفنى به .

الجوارح من الزلل ، ومحفوظ الحال من الخلل ، فلا المعصية والزلل تجري على جسده ، ولا الخلل والآفة على حاله ، لأن ظاهره مستغرق في النعم الظاهرة ، وباطنه منبع للنعم الباطنة . وطالما كانت نفسه روحانية وقلبه ريانيا فليس للخلق اليه حوالة ، ولا لآدم اليه نسبة ، حتى يكون فقيرا من حوالة الخلق ونسبة آدم . وهو لا يصير غنيا بملك هذا العالم في الدنيا ، أو بملك ذلك العالم في الأخرى . والكونان في كفة ميزان فقره لا يزان جناح بعوضة ، وكلا العالمين لا يتسعان لنفس واحد من أنفاسه .

فصل : وقد اختلف شيوخ الصوفية رحمهم الله في الفقر والغنى ، وإيهما أفضل في صفات الخلق ، لأن الله تعالى غنى على الحقيقة ، وله الكمال جل جلاله في جميع أوصافه .

ويحيى بن معاذ الرازي ، وأحمد بن أبي الحواري (١) ، والحرث المحاسبى (٢) ، وأبو العباس بن عطاء (٣) ، ورويم (٤) ، وأبو الحسن بن شمعون (٥) ، ومن المتأخرين شيخ المشايخ أبو سعيد فضل الله بن محمد

(١) أحمد بن أبي الحواري : من أهل دمشق . كان له أخ يقال له محمد بن أبي الحواري يجري مجراه في الزهد والورع ، وابنه عبد الله بن أحمد من الزهاد ، وأبوه أبو الحواري كان من العارفين الورعين ، فيبهم بيت الورع والزهد . توفي سنة ثلاثين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٩٨ ، الرسالة ج ١ ص ٩٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٨٦ ، نفحات الانس ص ٦٥) .

(٢) كنيته : أبو عبد الله ، كان من علماء مشايخ القوم ، عالما بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات ، عديم النظر في زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا . بصرى الأصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال عنه الغزالي : المحاسبى خير الأية في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وأفات الأعمال . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٥٦ ، الرسالة ج ١ ص ٧٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، نفحات الانس ص ٥١ ، خزانة الأصفياء ج ٢ ص ١٤٢) .

(٣) اسمه : سهل بن محمد . من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم . له لسان في فهم القرآن يختص به . كان من أقران الجنيد ، صاحب إبراهيم المارستاني . مات سنة تسع وثلاثمائة (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٦٥ ، الرسالة ص ١٣٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٧ ، نفحات الانس ص ١٤١ ، خزانة الأصفياء ج ٢ ص ١٨٥) .

(٤) روم بن أحمد بن يزيد . كنيته : أبو محمد . من أهل بغداد . كان مقربا وفقهيا على مذهب داود . مات سنة ثلاث وثلاثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٨٠ ، الرسالة ج ١ ص ١١٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٤ ، نفحات الانس ص ٩٤ ، خزانة الأصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

(٥) ورد اسمه في نفحات الانس : « أبو الحسين بن سمعون » . ترجم له الجامى فذكر أن اسمه محمد بن أحمد بن اسماعيل بن سمعون ، كان يلقب بالناطق بالحكمة . من مشايخ بغداد . توفي سنة ست أو سبع وثلاثين وثلاثمائة (انظر ترجمته في نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزانة الأصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

الميهنى(١) ، رحمة الله عليهم أجمعين ، على أن الغنى أفضل من الفقر ، ويستدلون بأن الغنى صفة للحق تعالى ولا يجوز عليه الفقر ، فالصفة التي تكون مشتركة — في المحبة — بين العبد والله تعالى ، أتم من الصفة التي لا تجوز عليه تعالى وتقدس .

ونقول : ان هذه المشاركة في الاسم لا في المعنى ، لأنه يلزم الماطلة للمشاركة في المعنى ، ولما كانت صفاته قديمة وصفات الخلق محدثة ، فهذا الدليل يكون باطلا .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقنى الله بالخير — أقول : ان الغنى اسم لائق بالحق ، ولا يستحق الخلق هذا الاسم . والفقر اسم لائق بالخلق ، ولا يجوز على الحق . ومن يسمونه غنيا على المجاز لا يكون كالغنى على الحقيقة .

والدليل الأوضح هو : أن غنانا يكون بوجود الأسباب ، ونكون نحن مسببين في حال قبول الأسباب ، وهو مسبب الأسباب ، وليس لغناه سبب ، فالمشاركة في هذه الصفة باطلة .

وأیضا : لما كانت المشاركة في العين لا تجوز لاند معه ، فهي أيضا لا تجوز في الصفة ، وبما أنها لا تجوز في الصفة ، فهي لا تجوز في الاسم . وتبقى بعد ذلك : التسمية ، والتسمية علامة بين الخلق ، ولها حد .

فالغنى لله تعالى هو أنه لا حاجة له بأى أحد أو شيء ، ويفعل ما يريد ، وليس لمراده دافع ، ولا لقدرته مانع ، وهو قادر على قلب الأعيان ، وخلق الضدين ، وكان ولا يزال دائما بهذه الصفة .

وغنى الخلق : منال معيشة ، أو وجود مسرة ، أو نجاة من آفة ، أو راحة بمشاهدة ، وهذا كله محدث ومتغير ، وأصل الطلب والحسرة ، وموضع العجز والتذلل .

اذن : فهذا الاسم للعبد مجاز(٢) ، وللحق تعالى حقيقة ، لقوله تعالى :

(١) سبق ذكره في القسم الاول ، ترجمته في الباب الثاني عشر ، تفكرة الاولياء ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٣٠٠ ، رياض العارفين ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) يتفق الامام الغزالي مع الهجویری في رفض اسم الفنى للإنسان ويسميه : المستغنى ، ليبقى الفنى اسما لمن له الفنى المطلق من كل شيء ، ويقول ان المستغنى ان سمي غنيا ، لم يكن هذا الفنى مطلقا عليه الا مجازا . (احياء علوم الدين ج ٤ : انظر ص ١٦٥) .

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله » (١) . وقال أيضا : « والله الغنى وأنتم الفقراء » (٢) .

وتقول طائفة من العوام أيضا : أننا نفضل الغنى على الفقر لأن الله تعالى خلقه سعيدا في الدارين ، ومن عليه بالغنى . وهذه الطائفة تريد هنا بالغنى كثرة المتاع ، وإدراك الغايات ، ومتابعة الشهوات . ويدللون على هذا بأن الله أمر بالشكر على الغنى ، والصبر في الفقر ، فالصبر يكون في البلاء ، والشكر يكون في النعماء ، والنعماء في الحقيقة أفضل من البلاء .

ونحن نقول : ان (الله) أمر بالشكر على النعمة ، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة . وأمر بالصبر على الفقر ، وصير الصبر علة لزيادة القرية ، لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » (٣) . وقال أيضا : « ان الله مع الصابرين » (٤) ، فكل من يشكر في نعمة أصلها الغفلة ، نزيده غفلة على غفلة ، وكل من يصبر في فقر أصله البلية ، نزيده قرية على قرية .

أما الغنى الذي يفضل المشايخ على الفقر ، فليس مرادهم ما يسميه العوام بالغنى ، لأن هذا الغنى إدراك للنعم ، وذاك إدراك للمنع ، فإدراك الوصل شيء ، وإدراك الغفلة شيء آخر .

ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمه الله : « الفقر هو الغنى بالله » ، والمراد بهذا : الكشف الأبدي بمشاهدة الحق (٥) .

ونقول : ان المكاشف ممكن الحجاب ، فإذا حجب (الله) صاحب المشاهدة عن المشاهدة ، فهو : أما أن يحتاج إليها ، أو لا يحتاج . فإذا قال : لا يحتاج ، يكون هذا محالا ، وإذا قال : يحتاج ، نقول : إذا جاء الاحتياج سقط الغنى .

وأيضا : الغنى بالله قائم الصفة وثابت المراد ، وباقامة المراد واثبات أوصاف الآدمية لا يصح الغنى ، لأن عين هذا نفسه غير قابل للغنى ، لأن وجود البشرية عين الحاجة ، وعلامة الحدث عين الاحتياج ، فالباقي الصفة

(١) سورة « فاطر » آية ١٥ .

(٢) سورة « محمد » آية ٢٨ .

(٣) سورة « إبراهيم » آية ٧ .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٣ .

(٥) في هذا إشارة الى ما حدث بين أبي سعيد بن أبي الخير وأبي مسلم الفارس عندما دخل على أبي سعيد فوجده جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية فاخرة ، فقال أبو مسلم في نفسه : هذا الرجل يدعى الفقر ؟ فأدرك أبو سعيد ما يجول بخاطره وقال له : « يا أبا مسلم ، في أي ديوان وجدت من كان قلبه قائما في مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ » انظر ترجمة أبي سعيد في الباب الثاني عشر .

هو الغنى ، والفانى الصفة لا يليق لآى اسم . فالغنى بالله : فاعل ، ومن اغناه الله ، مفعول ، والفاعل يقوم بنفسه ، والمفعول يقوم بالفاعل ، والقيام بالنفس صفة البشرية ، والقيام بالحق محو الصفة .

وانا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — هكذا أقول : لما صح أن الغنى على الحقيقة لا يصح على بقاء الصفة ، لأن بقاء الصفة — بالأدلة المذكورة — محل انعلة وموجب الآفة ، وبما أن فناء الصفة نفسه لا يكون غنى ، لأن كل ما لا يبقى بنفسه لا يسمى ، وبما أنه يلزم للغنى فناء الصفة ، فاذا فنيت الصفة سقط محل الاسم ، فانه لا يقع على هذا الشخص اسم الفقر ولا اسم الغنى .

وأىضا : يفضل كل المشايخ وكثير من العوام الفقر على الغنى ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بفضلها ، وكثرة من الأمة مجتمعة على ذلك .

وقد وجدت فى الحكايات (١) انه ذات يوم ، كان يجرى للجنيدي وابن عطاء — رحمة الله عليهما — حديث فى هذه المسألة ، فقدم ابن عطاء الدليل على أن الأغنياء أفضل ، لأنهم يحاسبون فى القيامة ، واسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب . فقال الجنيدي : اذا كانوا يحاسبون الأغنياء ، فانهم يعتذرون للفقراء ، والعذر أفضل من عتاب الحساب . وهنا لطيفة عجيبة !

ونقول انه فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والأحبة فى محل يبدو فيه هذان آفة فى أحوالهم ، لأن العذر يكون عن موجب تقصير مصدر من الحبيب فى حق الحبيب ، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر اليه . والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب فى أمر الحبيب ، وعندما يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير . وكلاهما محال .

وفى الجملة : الفقراء مطالبون بالصبر ، والأغنياء بالشكر . وفى تحقيق المحبة لا الحبيب يطلب شيئا من الحبيب ، ولا الحبيب يضيع أمر الحبيب .

اذن : « ظلم من سمي ابن آدم أميرا وقد سماه ربه فقيرا » ، فمن اسماه الحق فقيرا فهو فقير ، وان يكن أميرا ، وهلك من يخال أنه غير أسير ، وان يكن مكانه التخت والسرير ، لأن الأغنياء أصحاب صدقة ، والفقراء أصحاب صدق ، ولا يكون الصدق ابدا كالصدقة . ففقر سليمان

(١) مجموعة من الحكايات من تصنيف بعض شيوخ العراق . والهجويزى ينقل عنها ، ويذكرها مرة باسم : الحكايات ، ومرة باسم : حكايات المراقبين .

في الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن (الله) قال لايوب في شدة صبره :
« نعم العبد » (١) ، وقال لسليمان في استقامة ملكه : « نعم العبد » (٢) ،
فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري (٣) رضى الله عنه يقول : تكلم
كل من الناس في الفقر والغنى ، واختار لنفسه شيئا ، وأنا اختار ما يختاره
لى الحق ، ويجعلنى فيه ، فاذا جعلنى غنيا لا أكون غافلا ولا تاركا ، واذا
جعلنى فقيرا لا أكون حريصا ولا معرضا .

فالغنى نعمة ، والاعراض فيه آفة . والفقر نعمة ، والحرص فيه آفة .
والمعانى كلها طيبة ، والمذاهب فيها مختلفة .

والفقر فراغ القلب من الغير ، والغنى انشغال القلب بالغير ، وعندما
يتأتى الفراغ ، فلا الفقر أولى من الغنى ، ولا الغنى أولى من الفقر .

والغنى كثرة المتاع ، والفقر قلة المتاع ، والمتاع كله لله ، فاذا قال الطالب
بترك الملكية ، زالت المشاركة من البينية ، وفرغ من كلا الاسمين .

فصل : ولكل من مشايخ الطريقة رمز في هذا المعنى ، وأورد بقدر الامكان
أقوالهم في هذا الكتاب ، ان شاء الله عز وجل .

يقول واحد من المتأخرين : « ليس الفقير من خلا من ازيد ، إنما الفقير
من خلا من المراد » .

أى أن يعطيه الله تعالى مالا ، فاذا كان مراده حفظ المال ، يكون غنيا ،
واذا كان مراده ترك المال ، يكون غنيا أيضا ، لأن كلا الأمرين تصرف في ملك
الغير ، والفقر ترك التصرف .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « علامة الفقر خوف زوال
الفقر (٤) » .

أى أن علامة صحة الفقر ، أن العبد في كمال الولاية ، وقيام المشاهدة

(١) سورة « ص » آية ٤٤ .

(٢) سورة « ص » آية ٣٠ .

(٣) سبق ذكره في القسم الاول (انظر : ص ٦٤ ، انظر ترجمته في الباب الثانى
عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩٦ ، نفحات الانس ص ٢١٣ ، خزينة الاصفياء
ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٤) ورد في الرسالة : « قيل لحى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر » (انظر :

ج ٢ ص ٥٤٠) .

وفناء الصفة ، يخشى الزوال والقطيعة ، ثم يصل به كمال الحال الى حد أنه لا يخشى القطيعة .

ويقول رويم رحمه الله : « من : » ير حفظ سره ، وصيانة نفسه ، وأداء فرائضه (١) .

أى أن سره يكون محفوظا من الاغرض ، وجسده مصونا من الآفات ، وتكون أحكام الفرائض جارية عليه ، بحيث أن ما يجرى على الأسرار لا يشغل الأظهار ، وما يجرى على الأظهار لا يشغل الأسرار ، ولا تمنعه غلبة ذلك عليه من انفاذ الأمر .

وهذا علامة زوال البشرية ، لأن كل العبد يصير موافقا للحق ، وهذا أيضا يصير بالحق .

ويقول بشر الحافي (٢) رضى الله عنه : « أفضل المقامات : اعتقاد الصبر على الفقر (٣) » .

وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، وانفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف .

أما معنى ظاهر هذا القول ، فهو تفضيل الفقر على الغنى ، والاعتقاد بعدم الاعراض أبدا عن الفقر .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقير لا يستغنى بشيء دون الله (٤) » ، لأنه لا يكون له مراد غيره .

وظاهر اللفظ هو أنك لا تدرك الغنى الا به ، فاذا أدركته صرت غنيا ، ووجودك دونه ، ولن تدرك الغنى الا بترك دونه ، واذا وجدت أنت ، صرت حجابا للغنى ، واذا زلت من الطريق ، كيف تكون غنيا ؟ .

(١) ورد في الرسالة : « نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرائضه ، وصيانة فقره » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان . كنيته : أبو نصر . أصله من مرو وسكن بغداد . من الطبقة الاولى من الصوفية . مات سنة سبع وعشرين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٨ ، طبقات الصوفية ص ٣٩ ، الرسالة ج ١ ص ٦٨ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٩٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٠٦ ، نفحات الانس ص ٤٨ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٧) .

(٣) ورد بنصه في الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٤١) .

(٤) ورد في الرسالة : « سئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : الا يستغنى العبد بشيء دون الحق » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

وهذا المعنى — فى الحقيقة — غامض جدا ، ولطيف عند اهل المعنى .
وحقيقة معنى أن « الفقير لا يستغنى عنه » : أن الفقير هو من
لا يكون له غنى أبدا .

وهو نفس المعنى الذى ذكره ذلك الشيخ (١) حيث قال : همنا أبدي ،
فلا همتنا تدرك المقصود أبدا ، ولا كليتنا تصير عدما فى الدنيا والآخرة ،
لأنه يلزم لأدراك الشيء ، المجانسة ، ولا مجانس للحق . ويلزم للأعراض
عن حديثه الغفلة ، والفقير ليس غافلا .

أذن : قد وقع بلاء دائم ، وعرض طريق مشكل ، وذلك هو محبة من لا سبيل
لأحد الى رؤيته ، وبوصاله ليس من جنس مقدور الخلق .

والفناء لا يجرى عليه التبدل ، والبقاء لا يجوز عليه التغيير ، فلا الغنى
يصير باتيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقي يصير فانيا حتى يكون القرب .
وأمر أحبائه من أوله الى آخره هو أنهم صاغوا عبارات مزخرفة لتسلى
قلوبهم ، وبينوا المقامات والمنازل والطريق ، لراحة أرواحهم ، فعباراتهم
منهم واليهم ، ومقاماتهم من جنسهم لجنسهم ، والحق تعالى منزه عن
أوصاف الخلق وأحوالهم .

ويقول أبو الحسن النورى (٢) رحمه الله : « نعمت الفقير ، السكون عند
العدم ، والبذل عند الوجود (٣) » .

فمن مراده لقمة حين يعجز عن مراده يسكن قلبه ، وحين تظهر اللقمة
يعطيها لمن يراه أواى منه .

وفى هذا القول معنيان : فسكونه فى حال العدم : رضا ، وبذله فى حال
الوجود : محبة ، لأن الراضى يكون قابلا للخلعة ، وفى الخلعة علامة القرب .
والمحب تارك للخلعة ، لأن فى الخلعة علامة الفراق ، فسكونه فى العدم

(١) ورد فى الهامش أن المقصود بذلك الشيخ : « خواجه » غيب الله الانتصارى .
(٢) اسمه : أحمد بن محمد . خراسانى الأصل ، بغدادى المنشأ والمولد . يعرف بابن
البغوى . كان من أقران الجنيد . صاحب مريا السقطى ، ورأى أحمد بن أبى
الحوارى . توفى سنة خمس وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى
عشر ، طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، الرسالة ج ١ ص ١١٢ ، طبقات الشمرانى
ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٦ ، نفحات الانس ص ٧٨ ، خزينة
الاصفياء ج ٢ ص ١٦٩) .

(٣) ورد فى « التعرف » : نعمت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند
الوجود (أنظر : ص ٩٦) ، وورد فى « الرسالة » : نعمت الفقير : السكون عند
العدم ، والإيثار عند الوجود (أنظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

انتظار للوجود ، فاذا وجد كان غيره ، وهو لا يستريح مع الغير ، فيقول بتركه .

وهذا هو معنى قول شيخ المشايخ ابي القاسم الجنيد بن محمد : « الفقر : خلو القلب عن الأشكال » ، فحين يخلو القلب عن الانشغال بالشكل والشكل موجود ، فما الوجه سوى طرحه ؟ .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كل عز (١) » . والعز نصيب الغير ، والمبتلى في عين البلاء . وإى خبر للمبتلى عن العز الى أن ينظر من البلاء الى المبتلى ، وعندئذ يصير بلاؤه كله عزا ، وعزه كله وقتا ، ووقته كله محبة ، ومحبه كلها مشاهدة ، حتى أن دماغ الطالب يصبح — بسبب غلبة الخيال — محلا للرؤية ، فيصير مبصرا بلا عين ، وسامعا بلا أذن .

وما أعز العبد الذى يتحمل عبء بلاء الحبيب ، لأن البلاء عز على الحقيقة والنعماء ذل . والعز هو أن يكون — الفقير — حاضرا بالحق ، واذل أن يكون غائبا عنه .

وبلاء الفقر علامة الحضور ، وراحة الغنى علامة الغيبة ، فالحاضر بالحق عزيز ، والغائب عن الحق ذليل ، لأن الأمر الذى يكون بلاؤه المشاهدة ، ورؤيته الانس يكون التعلق به ، بأى صفة ، غنية .

ويقول الجنيد رحمه الله : « يا معشر الفقراء : انكم انما تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله اذا خلوتكم به » .

أى أنه حين يسميكم الخلق فقراء فانهم يوهونكم حقكم ، فكيف تؤدون أنتم حق طريقة الفقر ؟ واذا دعاكم الخلق باسم آخر على خلاف دعواكم ، فلا تروا ذلك منهم ، لأنكم أيضا لا تنصفون دعواكم ، لأنه لا أسوأ ممن يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، ولا أسعد ممن يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، والاعز (من ذلك) من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو له .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق ولا يكون له ، كمثله من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يلزمه طبيب آخر .

ومثل من يعرف الخلق أنه للحق وهو له ، كمثله من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يعرف دواء نفسه ويفعله .

(١) ورد في اللمع (انظر ص ٢٩٢) .

ومثل من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو للحق ، كمثل من يكون طبيبا ولا علم للخلق به ، وهو فارغ من الانشغال بالخلق ، ويحفظ نفسه جيدا بالاغذية الموافقة ، والاشربة الطيبة ، والمفرحات (١) الملائمة ، والاهوية المعتدلة حتى لا يمرض ، وتكون عين الخلق كلهم مغمضة عن احواله .

ويقول بعض المتأخرين : « الفقر عدم بلا وجود » . والعبرة منقطعة عن هذا القول ، لأن المعدوم لا يكون شيئا ، ولا يمكن التعبير الا عن شيء . والصورة هنا أن الفقر ليس بشيء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى واجماعهم على أصل يكون في عين ذاته فائيا ومعدوما .

ولا يرينون هنا ، من هذه العبارات عدم المعين ، بل عدم الآفة من المعين . وكل أوصاف الآدمي آفة ، وعندما تنتفى الآفة ، يكون ذلك فناء الصفة . وفناء الصفة يرفع من امامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم السلوك بالعين نفيا للمعين ، ويهلكون في ذلك .

ورأيت جماعة من المتكلمين لم يفقهوا صورة هذا المعنى ، وكانوا يضحكون منه ويقولون : ان هذا الكلام غير معقول . ورأيت جماعة من المدعين كانوا قد اعتقدوا شيئا غير معقول — ولم يكن أصل الطريقة معلوما لهم — وكانوا يقولون : الفقر عدم بلا وجود . وكان كلا الفريقين على خطأ : انكر أحدهما الحق جهلا ، وجعل الآخر الجهل حالا ، وظهر به .

والمراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة — أى الصوفية — فناء الآلة المذمومة والصفة المرذولة في طلب الصفة المحمودة ، لا عدم المعنى بوجود آلة الطلب .

وفي الجملة : الفقير في كل معانى الفقر عارية ، وفي كل الأسباب أصل غريب ، ولكنه طريق الأسرار الربانية ، لتكون أموره من كسبه ، ويكون للفعل نسبة له ، وللمعاني اضافة اليه . وإذا تخلصت أموره من قيد

(١) مفرحات ج مفرح : اسم دواء كان يطلق عليه (مفرح ياقوت) لعلاج القلب .

يقول الحافظ الشيرازي :

علاج ضعف دل ما يلب حوالت كن كه اين مفرح ياقوت در خزانه تست

والمعنى :

أحلى علاج ضعف قلوبنا على شفتيك ، لأن هذا (مفرح ياقوت) في خزانك . وفي هذا البيت إشارة لطيفة الى ما بين اسم الدواء (مفرح ياقوت) ولون الشفتين المشبهتين بالياقوت ، من المشاركة .

فزيات حافظ شيرازي : تحقيق القزويني وقاسم غنى ص ٢٥ .

كسبه ، تنقطع عنه نسبة الفعل ، وعندئذ يكون هو طريق الشيء الذى يمر عليه ، لا سالك ذلك الطريق ، فهو لا يجلب لنفسه شيئا ، ولا يدفع عن نفسه شيئا ، وما يدل عليه كله للغير .

ورأيت فريقا من المدعين أرباب اللسان ، كان يبدو نفى ظنهم عن ادراك تلك الطريقة نفيا للوجود ، وهذا نفسه عزيز جدا . ورأيت أن نفى مرادهم عن حقيقة الفقر كان يبدو نفيا للصفة في عين الفقر . ورأيت أنهم كانوا يسمون نفى الحق والحقيقة ، فقرا وصفوة . ورأيت أن اثبات هواهم كان يبدو نفيا للكل . وقد تخلف كل منهم في درجة من حجب الفقر ، لأنه ظن هذا الحديث علامة كمال الولاية للرجل ، ورائحة هذا الحديث غاية الغايات ، والتولى لعين هذا محل الكمال .

اذن : فلا مناص لطالب هذه الطريقة من سلوك طريقهم ، وطى مقاماتهم ، ومعرفة عباراتهم ، حتى لا يكون عاميا في محل الخصوصية ، لأن عوام الأصول عن الأصول معرضون ، وعوام الفروع عن الفروع عاجزون ، وكيف ينسب للأصول من قعد عن الفروع ؟ انه عندما يعجز عن الأصول لا تبقى له نسبة لاي مكان . وقد قلت هذا كله لتسلك طريق هذه المعانى ، وتنشغل برعاية حق هذا .

والآن أورد طرفا من أصول هذه الطائفة في باب التصوف ، ثم أجيء بأسماء الرجال ، ثم أبين أحكام الحقائق والمعارف والشرائع ، ثم آتى باختلاف المذاهب ومشايخ المتصوفة ، ثم أشرح بقدر الامكان آدابهم ورموزهم ومقاماتهم ، لينكشف لك وللقراء حقيقة هذا ، وبالله التوفيق .

الباب الثالث باب التصوف

قال الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين (٢) » .

وقد تكلم الناس في تحقيق هذا الاسم كثيرا ، والفوا كتباً في ذلك . وقالت جماعة ان الصوفي يسمى بالصوفي لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت جماعة انهم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول ، وقالت طائفة انهم سموا كذلك لأنهم يتولون أهل الصفة ، وقال آخرون ان هذا الاسم مشتق من الصفاء . ولكن هذا الاسم — على مقتضى اللغة — بعيد عن هذه المعانى (٣) .

والصفاء في الجملة محمود ، وضده الكدر . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها (٤) » .

واسم لطائف الأشياء : صفوها ، واسم أوضارها : كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فانهم سموا صوفية ، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ، لأن خطر أهله أجل من أن يمكن إخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق .

وقد حجب الله عز وجل — في عصرنا هذا — أكثر الخلق عن هذه الطريقة وأهلها ، وأخفى لطائفها عن قلوبهم ، حتى ليظن جماعة أن هذه الرياضة

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .

(٢) لم أجد له سنداً .

(٣) يقول الكلاباذي ان معانى هذه الاسماء كلها في أساسى القوم ، وان كانت اللفاظ متغيرة ، لأنها ان أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وان أضيفت الى الصف والصفة ، كانت صفية وصفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصفية والصفية من تناول الألسن ، وان جعل مأخذه من الصوف : استنساخ اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة (التعرف : أنظر ص ٢٤ ، ٢٥) .

(٤) ورد في الرسالة من أبى جحيفة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » (الرسالة : أنظر ج ٢ ص ٥٥٠) .

هى مجرد صلاح الظاهر دون مشاهدة الباطن ، وتظن جماعة أخرى أن هذا الأمر حيلة ورسم بلا حقيقة وأصل ، الى حد أنهم ارتكبوا المنكر أمام أهل الهزل وعلماء الظاهر ، وفرحوا باخفاء الأمر ، حتى قلدهم العوام ومحووا عن قلوبهم طلب صفاء الباطن ، ووضعوا مذهب السلف والصحابة على الرف .

(شعر عربى)

ان الصفاء صفة الصديق ان أردت صوفيا على التحقيق

لأن للصفاء أدبلا وفرعا ، وأصله : انقطاع القلب عن الأغيار ، وفرعه : خلو اليد من الدنيا الغادرة . وهاتان صفتا الصديق الأكبر أبى بكر عبد الله ابن أبى قحافة رضى الله عنه ، لأنه كان امام أهل هذه الطريقة ، فكان من انقطاع قلبه عن الأغيار ، أن كل الصحابة انكسرت قلوبهم برحلة انبى عليه السلام الى الحضرة الأعلى والمكان المصفى ، وسل عمر رضى الله عنه سيفه قائلا : كل من يقول ان محمدا قد مات اقتطع رأسه . فخرج الصديق الأكبر وصاح قائلا : الا من عبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن عبد رب محمد فانه حى لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

ذلك أن من يتعلق بفان يفنى ويصير كل تبعه هباء ، ومن يطلق روحه انى حضرة الباقي فانه حين تفنى النفس ، يبقى قائما بالبقاء .

فمن نظر الى محمد بعين الادمية ، فانه حين رحل محمد عن الدنيا ، ذهب من قلبه تعظيم العبودية ورحل معه ، ومن نظر اليه بعين الحقيقة استوى لديه ذهابه ووجوده ، لأنه فى حال البقاء رأى بقاءه بالحق ، وفى حال الفناء رأى فناءه بالحق — فأعرض عن المحول وأقبل على المحول — فعظمه بمقدار اكرام الحق له ، ولم يربط سويداء قلبه بأحد ، ولم يفتح سواد عينه على الخلق ، فقد قيل : « من نظر الى الخلق هلك ، ومن رجع الى الحق ملك » ، لان النظر الى الخلق علامة الهلك ، والرجوع الى الحق علامة الملك .

أما خلو يده من الدنيا الغدارة ، فهو أنه أعطى كل ما كان يملك من مال ومنال ومآل ، وارتدى الكليم ، وجاء الى النبى عليه السلام فقال له النبى

عليه السلام : « ما خلفت لعيالك ؟ فقال الله ورسوله (١) » فلما تحرر قلبه من التعلق بصفو الدنيا ، أخلى يده من كدرها .

وهذا كله صفة الصوفي الصادق ، وانكار هذا كله انكار للحق ، ومكابرة في العيان .

وقد قلت ان الصفاء ضد الكدر ، والكدر من صفات البشر . والصوفي حقا من اجتاز الكدر ، كما حدث في حال «الاستغراق في مشاهدة يوسف عليه السلام ولطف جماله ، فغلبت البشرية على نساء مصر ، وارتدت الغلبة الى العكس ، فلما وصلت غايتها بلغت نهايتها ، ولما بلغت نهايتها تجاوزتها ، ونظرن بفساد بشريتهن فقلن : « ما هذا بشر » (٢) فأشرن اليه ، وعبرن عن حالهن . وكان من ذلك أن قال مشايخ هذه الطريقة رحمهم الله : « ليس الصفاء من صفات البشر ، لأن البشر مدر لا يخلو من كدر » .

فمثال الصفاء لا يكون بالأفعال ، وزوال البشرية لا يكون عن طريق المجاهدة ، ولا نسبة لصفة الصفاء بالأفعال والأحوال ، ولا تعلق لاسمه بالأسماء والألقاب « فالصفاء صفة الأحباب ، وهم شموس بلا سحب » ، وكل من يقنى عن صفته ويبقى بصفة الحبيب ، فهو الحبيب . وأحوالهم لدى أرباب المعاني عيان كالشمس ، كما سئل حبيب الله محمد المصطفى صلوات الله عليه عن حال حارثة (٣) ، فقال : « عبد نور الله قلبه بالإيمان (٤) » .

كما قيل : « ضياء الشمس والقمر اذا اشتركا ، انموذج من صفاء الحب والتوحيد اذا اشتبكا » .

وأى شأن لنور القمر والشمس حيثما يكون نور محبة الجبار وتوحيده حتى يضاف هذا الى ذاك ... ؟ . أما في الدنيا ، فليس هنالك أظهر من هذين ، لأن العين ترى السماء بنور الشمس والقمر ، والقلب يرى العرش بنور التوحيد والمحبة ، ويطلع على العقبي في الدنيا .

وكل مشايخ الطريقة — رحمهم الله — مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف

(١) رواه الترمذى من عمر : « ما تركت لاهلك يا أبا بكر » وقال عنه : حسن وصحيح .

(٢) سورة « يوسف » آية ٣١ .

(٣) حارثة بن سرافقة : أحد شهداء بدر من الانتصار . (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٠) .

(٤) رواه الحارث بن مالك : « من أراد أن ينظر الى عبد نور الله تعالى الإيمان في قلبه فليُنظر الى حارثة » .

— أى أنه لا يتقيد بصفة من صفاته الحميدة ، ولا يراها ويعجب بها — يغيب حاله عن ادراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب ، « لأن الصفاء حضور بلا ذهاب ووجود بلا أسباب » ، ويكون حاضرا بلا غيبة ، وواجدا بلا سبب وعلة — لأن من تتأتى عليه الغيبة لا يكن حاضرا ، ومن يصير السبب علة وجده لا يكون واجدا — وحين يصل الى هذه الدرجة يصير فانيا في الدنيا والعقبى ، وربانيا في جوشن الانسانية ، ويستوى لديه الذهب والمدر ، ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ أحكام التكليف ، كحال حارثة عندما جاء الرسول عليه السلام فسأله : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ! فقال عليه السلام : انظر ما تقول يا حارثة ، ان لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وفضتها ومدرها ، فأسهرت ليلى ، وأظلمات نهارى ، حتى صرت كأنى أنظر الى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاوون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتصارعون فيها » (١) . وفى رواية : « يتغامزون فيها » . الحديث . فقال — الرسول — « عرفت فالزم . قالها ثلاثا » .

و « الصوفى » أسم يطلقونه على كاملى الولاية ومحققى الاولياء ، ويقول أحد المشايخ رحمهم الله : « من صافاه الحب فهو صاف ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفى » .

واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أى معنى ، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس أيشترك منه ، وهم يشتركون الشيء من شىء مجانيه له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشترك الشيء من ضده . وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله ، ولا يحتاج الى العبارة ، « لأن الصوفى ممنوع عن العبارة والاشارة » . وحين يكون الصوفى ممنوعا عن كل العبارات فان العالم كلهم معبرون عنه ، عرفوا أو لم يعرفوا ، وإى خطر يكون للاسم فى حال حصول المعنى ؟

(١) ورد فى اللبع قول السراج : أما ترى ان النبى صلى الله عليه وسلم حيث سأل حارثة فقال : « لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظلمات نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاوون ، وإلى أهل النار فى النار كيف يتعادون . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم » (اللبع : أنظر ص ٣٠) . وورد فى التعرف : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر الى عبد نور الله قلبه فليُنظر الى حارثة » (التعرف : أنظر ص ٢٣) .

وهم يسمون أهل الكمال منهم بالصوفي ، ويسمون المتعلقين بهم وطلابهم بالمتصوف . والتصوف تفعل وتكلف ، والصفاء هو الفرع الأصلي ، والفرق بينهما ظاهر من حكم اللغة والمعنى ، « فالصفاء ولاية لها آية ، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية » . والصفاء معنى متلألئ ، وظاهر التصوف حكاية عن ذلك المعنى . وأهله في هذه الدرجة على ثلاثة أقسام ، الأول : الصوفي ، والثاني : المتصوف ، والثالث : المستصوف .

فالصوفي : هو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق (١) .

والمتصوف ، هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويعوم نفسه في الطاب على معاملاتهم .

والمستصوف ، هو من تشبه بهم من أجل المال والجاه وحظ الدنيا ، وهو غافل عن هذين ، وعن كل معنى ، الى حد أن قيل : « المستصوف عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئب » .

فالصوفي هو صاحب الوصول ، والمتصوف هو صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول .

فمن كان نصيبه الوصل يكون بإدراكه المقصود ، وبلوغه المراد ، بلا مراد من المراد ، وبلا مقصود من المقصود .

ومن كان نصيبه الأصل صار على أحوال الطريقة متمكنا ، وفي لطائفها ساكنا ومستحكما .

ومن كان نصيبه الفضول تخلف عن الكل ، وتعد على عقبة الرسم ، وحجب بالرسم عن المعنى ، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل .

وللمشايع في هذا الأمر رموز كثيرة ، الى حد أنه لا يمكن احصاؤها كلها ، غير اني اذكر طرفا منها في هذا انكتاب ، لتتم الفائدة ان شاء الله عز وجل .

فصل : يقول ذو النون المصري (٢) رحمه الله : « الصوفي اذا نطق أبان

(١) أي ان الصوفي الحقيقي هو من تخلص من صفاته البشرية ، وتجرد من علاقته الدنيوية ، فلما فني عن ذلك : تهيأ له الاتصال بالحقيقة الالهية ، ووجد البقاء بالله .
(٢) أبو الفيض : ثوبان بن ابراهيم ، وذو النون : لقب . ثوبى الاصل ، من شيوخ الصوفية من الطبقة الاولى . كان أوحده وقتنه علما وحالا وورعا وأديبا ، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥ ، الرسالة ج ١ ص ٥٤ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٤٤ ، نفحات الانس ص ٣٢ ، خزينة الاسماء ج ٢ ص ١٤٣) .

نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق(١) .
 أى أن قوله كله يكون على أصل صحيح ، وفعله كله تجريدا صرفا .
 فحين يتكلم يكون قوله كله حقا ، وحين يصمت يكون فعله كله فقرا .
 ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف نعت أقيم العبد فيه . قيل : نعت
 للعبد ؟ أم نعت للحق ؟ فقال : نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما(٢) » .
 أى أن حقيقة (التصوف) تقتضى فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد
 يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضى دوام مجاهدة
 العبد ، والمجاهدة صفة العبد .

وإذا أجرىته على معنى آخر ، فهو : أنه لا يصح للعبد أى نعت فى حقيقة
 التوحيد ، لأن نعوت الخاق غير دائمة لهم ، وليس نعت العبد سوى
 الرسم ، لأن نعته غير باق ، وهو ملك وفعل الحق ، فهو فى الحقيقة للحق .
 ومعنى هذا هو أن الله عز وجل أمر العبد بالصيام ، وسمى العبد
 صائما بصيامه ، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم ، ولله من وجه
 الحقيقة ، كما قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجرى به(٣) » .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف ترك كل حظ
 النفس(٤) » .

وهذا يكون على نوعين : أحدهما رسم ، والآخر حقيقة . بمعنى أنه إذا
 كان تاركا للحظ ، فإن تركه الحظ يكون حظا أيضا ، وهذا هو الرسم .
 وإذا كان الحظ تاركا له ، فهذا هو فناء الحظ . وهذا يتعلق بحقيقة
 المشاهدة ، فنترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله . وفعل
 العبد رسم ومجاز ، وفعل الحق حقيقة .

وبهذا القول وضح قول الجنيد — رحمه الله — السابق لهذا القول .
 ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « الصوفية هم الذين صفت
 أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الحق » .

أى أن الصوفية هم أولئك الذين تحررت أرواحهم من كدورة البشرية ،
 وصفوا من الآفات النفسية ، وخلصوا من الهوى ، حتى استقروا فى الصف
 الأول والدرجة الأعلى مع الحق ، ونفروا من الغير .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٩) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٥٨) .

(٣) حديث قدسى رواه الشيخان والترمذى ومالك عن أبى هريرة (الموطأ ص ١٣٣) .

(٤) ورد بنصه فى التعرف (انظر ص ٢٥) ، طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

ويقول أيضا رحمه الله : « الصوفي : الذى لا يملك ولا يملك » . وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففانى الصفة لا يكون مالكا ولا مملوكا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات .

والمراد من هذا القول أن الصوفي لا يملك أى شئ من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان ارادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية . وهذا قول لطيف لمن يقولون بالفناء الكلى . وسنورد موضع الخطأ فى أقوالهم فى هذا الكتاب ، ليصير معلوما لك أن شاء الله عز وجل .

ويقول ابن الجلاء (١) رحمه الله : « التصوف حقيقة لا رسم له » .

وما هو رسم من المعاملات نصيب الخلق ، والحقيقة خاصة بالحق ، لأن التصوف هو الاعراض عن الخلق ، فلا يكون له رسم لا محالة .

ويقول أبو عمرو الدمشقى (٢) رحمه الله : التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن الكون (٣) .

يقول : التصوف هو أن لا تنظر الى الكون الا بعين النقص ، وهذا هو دليل بقاء الصفة . وأن تغض الطرف عن الكون ، وهذا هو دليل فناء الصفة ، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر أيضا . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الإلهية ، أى أن من لا يصير مبصرا بنفسه يصير مبصرا بالحق ، لأن كون الطالب يكون طالبا أيضا ، وأمره منه إليه ، ولا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها . ومن يراها ، وأن يراها ناقصة ، فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فانه لا يحجب بعدم الرؤية (٤) . وهذا أصل قوى فى طريق الصوفية وأرباب المعانى ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا .

(١) أبو عبد الله بن الجلاء : اسمه أحمد بن يحيى . أصله من بغداد وأقام بالريّة ودمشق . كان من أجلة مشايخ الشام . صاحب أبا تراب النخشبى وذا النون المصرى وأباه يحيى الجلاء . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٧٦ ، الرسالة ج ١ ص ١١٤ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٣ ، نفحات الانس ص ١١٠) .

(٢) من مشايخ الشام . كان عالما بعلوم الحقائق . صاحب أبا عبد الله بن الجلاء وأصحاب ذى النون المصرى . له كتاب فى الرد على من قال بقدوم الأرواح . مات سنة مشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٧٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٠ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية ونفحات الانس هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص » (أنظر طبقات الصوفية ص ٢٧٨ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٤) خلاصة هذا القول : أن يغض السالك طرفه من الكون حتى لا تكون رؤيته للكون حجابا له من الحق .

ويقول أبو بكر الشبلبي رحمه الله : « التصوف شرك لأنه صيانة القلب
عن رؤية الغير ، ولا غير » .

أى أن رؤية الغير شرك في إثبات التوحيد . وحين لا يكون للغير قيمة
في القلب ، تكون صيائته عن ذكر الغير محال .

ويقول الحصرى(١) رحمه الله : « التصوف صفاء السر من كدورة
المخالفة » .

ومعنى هذا أنه يحفظ السر عن مخالفة الحق ، لأن المحبة هي الموافقة ،
والموافقة ضد المخالفة . وليس للحبيب في العالم كله سوى الحفاظ على
أمر المحبوب . وحين يكون المراد واحدا ، فمن أين تكون المخالفة ؟

ويقول محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(٢) رضى الله عنه:
« التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف(٣) » .

وحسن الخلق نوعان : أحدهما مع الخلق ، والآخر مع الحق . وحسن
الخلق مع الحق هو الرضا بقضائه ، وحسن الخلق مع الخلق هو حمل
ثقل صحبتهم لأجل الحق . وكل من هذين يعود على الطالب ، وللحق صفة
الاستغناء عن رضاء الطالب وسخطه ، وهاتان الصفتان متعلقتان بنظر
وحدانيته .

ويقول المرتعش(٤) رحمه الله : « الصوفي لا يسبق همته خطوته البتة »

(١) أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى : بصرى الأصل . سكن بغداد . كان شيخ
المراق في وقته ، له لسان في التوحيد يختص به ، ومقام في التجريد مسلم له .
صحب أبا بكر الشبلبي وغيره . مات ببغداد سنة احدى وسبعين وثلثمائة (انظر
ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية من ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ،
طبقات الشمرانى ج ١ ص ٩٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس
ص ٢٣١) .

(٢) أبو جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .
قيل أنه سمي بالباقر لأنه بقر العلم ، أى شقته معروف أصله وعرف خفيه . الإمام
الخامس من الأئمة الاثنى عشر . كان عالما سيدا كبيرا ، يحب أبا بكر الصديق
رضى الله عنه ويقول : من لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا
والآخرة . توفي سنة ثلاث عشرة وقل سبع عشرة ومائة ، ودفن بالبقيع في القبر
الذى فيه أبوه وهم أبيه الحسن بن على رضى الله عنه . أوصى بأن يكتب في
قبره الذى كان يصلى فيه . (انظر ترجمته في الباب الثامن ، تاريخ اليعقوبى
ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٢٥ ،
تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٣٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٥) .

(٣) ورد هذا القول في الرسالة منسوباً الى الكنانى (انظر ج ٢ ص ٥٥٤) .

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابورى . صاحب أبا حفص الحداد ، ولحق
الجنيد وصحبه . أقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ المراق . كان يقيم في مسجد
الشونيزيه . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة (انظر ترجمته في طبقات الصوفية =

أى أن يكون كله حاضرا ، فيكون الجسد حيث يكون القلب ، ويكون القلب حيث يكون الجسد . ويكون القول حيث تكون القدم ، والقدم حيث يكون القول . هذه علامة الحضور بلا غيبة ، على خلاف ما يقال من أنه يكون غائبا عن نفسه وحاضرا بالحق ، فنقول : لا ، بل هو حاضر بالحق وحاضر بنفسه .

وهذه العبارة من جمع الجمع ، لأنه ما لم تكن الرؤية بالنفس لا تكون الغيبة عن النفس ، فإذا انعدمت الرؤية يكون الحضور بلا غيبة . وهذا عين قول الشبلى رحمه الله : « الصوفى لا يرى فى الدارين مع الله غير الله » . وفى الجملة : أن وجود العبد هو الغير ، وحين لا يرى الغير لا يرى نفسه ، ويفرغ من نفسه كلية فى حال نفيه وإثباته .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف مبنى على ثمان خصال : السخاء والرضا والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياسة والفقر » .

قال : بناء التصوف على ثمان خصال ، اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام ، فيقتدى فى السخاء بابراهيم ، لأنه باع به أن ضحى بولده . وفى الرضا بإسحاق لأنه رضى بأمر الله ، فقال بترك روحه العزيزة . وفى الصبر بأيوب لأنه صبر فى بلائه بالدود . وفى الإشارة بذكرى لأن الله تعالى قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا (١) » وفى الغربة بيحيى ، لأنه كان غريبا فى وطنه وغريبا عن أهله بين أهله . وفى السياسة بعيسى لأنه كان فى سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك الا وعاء ومشطا ، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيهلقى الوعاء ، وعندما رآه يخال شعره بأصابعه رمى المشط . وفى لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفاً . وفى الفقر بمحمد عليه السلام لأن الله عز وجل بعث اليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له : لا تشق على نفسك ، وهبىء لنفسك من هذه الكنوز متاعا وأسبابا ، فقال : لا أريد ، يا الهى : أشبعنى يوما واجعنى يومين (٢) .

= ص ٣٤٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٨٤ ،
تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٦ ، خزينة الاصفاء ج ٢
ص ١٩٣) .

(١) سورة « مريم » آية ٣ .

(٢) إشارة الى ما روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : « عرض على الدنيا فأبيتها » رواه ابن أبى الدنيا وأحمد والطبرانى عن أبى بويه .
وما ورد عنه عليه السلام أنه قال : « خیر بین أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا ، فأشار الى جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيا عبدا : أشبع يوما وأجوع يوما » رواه الطبرانى عن ابن عباس ، وابن جرير عن أبى هريرة .

وهذه الأصول في المعاملة : طيبة جدا .

ويقول الحصري رحمه الله : « الصوفي لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده (١) » .

أى أن ما يجده لا يفقده أبدا ، وما يفقده لا يجده أبدا . وبمعنى آخر : لا يكون لوجوده عدم ، ولا لعدمه وجود . فاما اثبات بلا نفي ، أو نفي بلا اثبات .

والمراد من كل هذه العبارات هو أنه : إما أن تسقط حال البشرية عن شخص وتفوته الشواهد الجسمانية وتنقطع نسبته عن الكل ، وإما أن تظهر البشرية في شخص وتجتمع تفاريقه في عين ذاته فيجد قيامه من نفسه بنفسه .

ولم يكن من الممكن ظهور هذا الا في نبيين عليهما السلام : أحدهما موسى — صلوات الله عليه — الذى لم يكن في وجوده عدم فقال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى (٢) » ، والآخر رسولنا — صلى الله عليه وسلم — الذى لم يكن في عدمه وجود حتى قيل : « ألم نشرح لك صدرك (٣) » ، فواحد أراد الحلية وطلب الزينة ، والثانى زين ولم تكن له رغبة .

ويقول على بن بندار الصيرفى النيسابورى رحمه الله : « التصوف اسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا » .

لأنك اذا نظرت الى الظاهر تجد علامة التوفيق على الظاهر ، فاذا أمعنت النظر فان معاملة الظاهر لاتزن جناح بعوضة في جنب توفيق الحق تعالى ، فتقول بترك رؤية الظاهر . واذا نظرت الى الباطن تجد علامة التأييد على الباطن ، فاذا دتمت النظر فان معاملة الباطن لا تزن ذرة في جنب تأييد الحق تعالى ، فتقول بترك الباطن ، وترى الكل للحق ، ولا ترى لنفسك شيئا .

ويقول محمد بن أحمد المقرئ (٤) رحمه الله : « التصوف استقامة

(١) ورد هذا القول في الرسالة وعقب عليه القشيري بقوله : وهذا فيه اشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه : أى اذا غنيت آفاته لا تعود تلك الآفات . وقوله : لا يعدم بعد وجوده ، يعنى : اذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥٦) .

(٢) سورة « طه » آية ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة « الشرح » آية ١

(٤) أبو عبد الله : محمد بن أحمد المقرئ . صاحب يوسف بن الحسين الرازى وعبد الله الخراز ومظفر القرمسيني وروينا والجريدي وابن عطاء . كان أغنى المشايخ وأسأخام خلقا وأعلام هبة وأتمهم ديناً وورعاً . مات سنة ست وستين وثلثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٥٠٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٦٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٣) .

الأحوال مع الحق (١) . « أى أن الأحوال لا تحول سر الصوفي عن الاستقامة في الحال ، ولا تلقى به في الإعوجاج ، لأن من يكون قلبه صيدا لحول الأحوال ، فإن الأحوال لا تنحرف به عن درجة الاستقامة ، ولا تمنعه عن الحق تعالى .

فصل فيما قيل في المعاملات :

يقول أبو حفص الحداد النيسابوري (٢) رحمه الله : « التصوف كله آداب : لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول (٣) » .

وقريب من هذا المعنى ما قاله أبو الحسن النوري رحمه الله : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق (٤) » .

أى أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علوما لتمكن الوصول إليه بالتعلم ، ولكنه أخلاق ، فما لم تطلب حكمه من نفسك ، وما لم تصحح معاملته مع نفسك ، وتنصفه من نفسك ، لا يحصل .

والفرق بين الرسوم والأخلاق هو أن الرسوم فعل يكون بالتكلف والأسباب ، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلا خاليا من المعنى . والأخلاق فعل محمود بلا تكلف وأسباب ، وظاهره موافق لباطنه ، وخالف من الدعوى .

ويقول المرتعش رحمه الله : « التصوف : حسن الخلق » . وهذا على ثلاثة أنواع :

أولها مع الحق : بأداء أوامره بلا رياء .

والثاني مع الخلق : بحفظ حرمة الكبار ، والشفقة على الصغار ، وإنصاف الأقران ، والإعراض عن الكل ، وعدم طلب الانتصاف .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر : ص ٥١١) .

(٢) اسمه عمرو بن مسلم . من أهل قرية يقال لها كوراباذ على باب نيسابور . صاحب عهد الله بن مهدي الأبيوردي وهلبا النمرابادي ، ورافق أحمد بن خضروية البلخي . توفي سنة ثيف وستين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة ج ١ ص ٩٦ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٢ ، نفحات الانس ص ٥٧ ، خزينة الأصفاء ج ١ ص ١٥٥) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (انظر : ص ١١٩) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية وهنا تحريف طفيف (انظر : ص ١٦٧) .

والثالث مع النفس : بعدم متابعة الهوى والشيطان .

وكل من يقوم نفسه في هذه المعاني الثلاثة يكون من ذوى الخلق الحسن . وهذا الذى ذكرته متفق مع قول عائشة الصديقة (١) رضى الله عنها ، حين قيل لها : أخبرينا عن خلق النبی علیه السلام ، فقالت : اقرأ من القرآن قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین (٢) » .

ويقول المرتضى رحمه الله أيضا : « هذا مذهب كله جد فلا تخطئوه بشيء من الهزل » .

أى أن مذهب التصوف كله جد فلا تخطئوه بالهزل ، ولا تتعلقوا بمعاملات المترسمين ، وفروا من المقلدين ، ذلك أن العوام لما نظروا الى أهل هذا الزمان ورأوا مترسمى الصوفية ، وشاهدوا رقصهم وغناءهم وذهابهم الى ابواب السلاطين ، واختصامهم من أجل اللقمة والخرقة ، أساءوا الاعتقاد فى الجميع ، وقالوا أن أصل الطريقة هو هذا ، وقد سار المتقدمون أيضا على هذا ، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء . وحين يحمل الحرص السلطان على الجور ، والطمع العالم على الفسق ، والرياء الزاهد على النفاق ، فإنه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفى على الرقص والغناء .

واعلم أن أهل الطرق يفسدون ، ولكن أصول الطرق لا تفسد . واعلم أنه إذا أخفى فريق من أهل الهزل هزله فى جد الأحرار ، فإن جدهم لا يصير هزلا .

ويقول أبو على القرمسينى (٣) رحمه الله : « التصوف : الأخلاق الرضية (٤) » .

والفعل المرضي هو أن يكون العبد راضيا عن الحق فى كل الأحوال ليكون راضيا بالرضا .

(١) عائشة ابنة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنها ، تزوجها النبی علیه السلام بكرة ولم يتزوج بكرة غيرها ، وكان تزويجه بها بكعة وهى بنت ست سنين ، ودخل بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين ، وقبض وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وتكنى أم عبد الله . توفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت بالبقيع . (المعارف ص ٥٩) .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩

(٣) مظفر القرمسينى : من أشياخ الجبل . صاحب عبد الله الخراز وغيره (انظر ترجمته فى الرسالة ص ١٥٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٩٠) .

(٤) ورد هذا القول فى حواشى الرسالة : « التصوف الأخلاق المرضية (انظر الرسالة ج ١ ص ١٥٩) .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف هو الحرية ،
والفتوة ، وترك التكلف ، والسخاء » .

فالحرية : أن يتحرر العبد من قيد الهوى ، والفتوة : أن يتجرد من رؤية
الفتوة ، وترك التكلف : أن لا يجتهد في المتعلقات والنصيب ، والسخاء :
أن يترك الدنيا لأهل الدنيا .

ويقول أبو الحسن البوشنجى (١) رحمه الله : « التصوف اليوم اسم
بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم (٢) » .

يعنى : أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان
المعنى موجودا في كل منهم . والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى .

أى أن المعاملة كانت معروفة ، والدعوى مجهولة ، والآن صارت الدعوى
معروفة ، والمعاملة مجهولة .

الآن : قد أوردت هذا القدر من تعريفات المشايخ وأقوالهم رحمهم الله
في هذا الكتاب في باب التصوف هذا ، لينفتح عليك — أسعدك الله —
طريقه ، وتقول للمنكرين : مامراكم من انكار التصوف ؟ فان كانوا ينكرون
الاسم المجرد فلا ضير ، لأن المعانى تكون في حق التسميات غريبة ، وان
كانوا ينكرون عين هذه المعانى ، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبى عليه
السلام وخصاله المحمودة .

وأنا أوصيك أن تراعى حق هذا وتنصفه لتكف الدعوى ، وأن تحسن
الاعتقاد بأهل هذه الطريقة .

وبالله التوفيق ، وعليه التوكل والتصديق .

(١) اسمه على بن أحمد بن سهل . كان من فتيان خراسان ، لقى أبا عثمان وابن عطاء
والجيرى وأبا عمرو الدمشقى . كان من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد ، وعلوم
المعاملات وأحسنهم طريقة في الفتوة والتجريد . مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة
(أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٥٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٢ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ٩٦ ، تنكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢٥) .
(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٤٥٩) .

الباب الرابع باب فى لبس المرقعة

أعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن هنا قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان فى قلوبكم (١) » .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار (٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا لعائشة رضى الله عنها : « لا تضعى الثوب حتى ترتعبيه (٣) » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الايمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة (٤) . ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة .

ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لا يصل كماه الى أصابعه ، وكان اذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كميته .

وأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بتقصير الثياب فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر (٥) » . أى : فقص .

ويقول الحسن البصرى (٦) رحمه الله : رأيت سبعين بدرية يلبسون

(١) رواه الحاكم فى المستدرک عن أبى أمامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٧) .

(٢) من قول أبى موسى الأشعري : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضعيف .

(٣) ورد فى تلبس إبليس : « لا تخلص الثوب حتى ترتعبيه » .

(٤) روى عن أبى عثمان النهدي أنه قال : رأيت على عمر قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة وهو يخطب (اللع ص ١٧٣) .

(٥) سورة « المدثر » آية ٤

(٦) أبو سعيد الحسن البصرى . كان والده من أهل ميلان فسبى . شيخ زهاد البصرة ، ويعدّه المتصوفة منهم . صبغ الحياة الروحية بصبغة الزهد والخوف ، وغلب عليه الخوف كأن النار لم تخلق إلاه وحده . توفى سنة عشر ومائة (انظر ترجمته فى الباب العاشر ، المعارف ص ١٦٤ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٢٢٣) .

جميعا ثيابا من الصوف (١) .

والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف في حال التجريد .

ويتول الحسن البصرى رحمه الله . رأيت سلمان (٢) وقد لبس كليما
ذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ،
وهزم بن حيان (٣) رضى الله عنه راوا أويسا القرنى (٤) وكان يلبس ثوبا من
الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار (٥) وسفيان الثورى (٦) ، رحمة
الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية .

(١) ورد في التعرف : قال الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم
إلا الصوف . (أنظر : ص ٢٣) .

(٢) سلمان الفارسي : كان يكفى أبا عبد الله ، ويقول قوم أنه من أهل أصبهان ويقول
قوم أنه من فارس . لم يشهد بدرا ولا أحدا لأنه كان في أوقاتها عبدا . وأول
غزاة غزاها ، الخندق سنة خمس من الهجرة . عمر عمرا طويلا ومات في أول
خلاله عثمان وفي بعض الروايات أنه مات في خلافة عمر رضى الله عنه بالمداخن .
وقيل مات سنة ست وثلثين . (أنظر ترجمته في المعارف ص ١١٧ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ١٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٥٥) .

(٣) « هرم بن حيان » : هو من عبد القيس وكان من خيار الناس ، وولى الولايات
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان على عبد القيس يتوج يوم قتل شهرك
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (المعارف ص ١٩٢) ، أنظر ترجمته في
الباب العاشر) .

(٤) « أويسا بن عامر » : ويقال ابن عمرو القرنى . من سادات التابعين ، ويعده
البخارى من الضعفاء . كان يلزم المسجد مع جماعة من أصحابه . قال بعضهم
أنه مات بالحيرة ، وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه
في صفين . كان يلتقط الكسر من المزابل فيغسلها ويأكل بعضها وينصدق ببعضها .
قال له هرم بن حيان أوصني فقال : توسد الموت إذا نبت ، واجعله نصب عينيك
إذا قمت . (أنظر ترجمته في الباب العاشر ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٢١ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٨) .

(٥) أبويحيى مالك بن دينار البصرى : من موالى بنى سامة بن لؤى القرشى . كان عالما
زاهدا كثير الورع لا يأكل إلا من كسبه . وكان يكتب المصاحف بالأجر . توفي
سنة احدى وثلاثين ومائة بالبصرة . كان يقول : لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت
أسى إذا مت أن أغل فأدفع الى ربى مغلولا كما يدفع العبد الأبق الى مولاه .
(أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢
ص ١٢٣) .

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثورى الكوفى . كان اماما في
علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على إمامته وورعه وزهده .
وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث . توفي بالبصرة سنة احدى وستين ومائة .
قوموا ثيابه التي عليه حتى التعل فبلغت درهما وأربعة دنانق (أنظر ترجمته في
المعارف ص ٢١٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٣٨ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٨٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٥) .

ويروى عن الامام الاعظم ابي حنيفة (١) — وهذا مكتوب في كتاب تاريخ المشايخ الذي ألفه محمد بن علي الترمذي (٢) — انه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة الى ان رأى الرسول عليه السلام في النوم يقول له : ينبغي لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب احياء سنتي . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائي (٣) رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء ابراهيم بن ادهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر اليه أصحاب — ابي حنيفة — بعين الاحتقار ، فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا ابراهيم بن ادهم ؟ فقال له أصحابه : لا يجري الهزل على لسان امام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

وإذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ، فمن الجائز أن يكون في الجيش مبارز واحد ، والمحققون في كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون اليهم حينما يشبهونهم في شيء من الأحكام ، لقوله

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه : الامام الفقيه الكوفي مولى تيم الله بن ثعلبة . كان جده زوطى من أهل كابل وكان رقيقا أمتق ، وان نفى ذلك أحد أحناد أبي حنيفة ، كان عالما زاهدا عابدا ورعا تقيا كثير الخشوع دائم النضج انى الله تعالى . وكان حجة في الفقه شهد له الشافعي فقال : من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة . دعى لتولى القضاء مرتين ولكنه رفض . توفي ببغداد سنة خمسين ومائة ودفن في مقبرة الخيزران . تنسب اليه عدة مؤلفات في الفقه أشهرها « الفقه الأكبر » (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢١٦ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٣ ، الفهرست ص ٢٨٤ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٤٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٠٢ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٤١ ، كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ : متكلم سني من أهل خراسان ، ومتحدث وفقه كوفي . لقي أبا تراب النخشبى وصحب يحيى الجلاء وأحمد بن خضرويه . له تصانيف كثيرة وكرامات مشهورة . كان أستاذا لأبى على الجوزجاني وأبى بكر الوراق (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٧ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ ، نفحات الانس ص ١١٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٥٠٣) .

(٣) داود بن نصير : أبو سليمان الطائي الكوفي الزاهد . يقال ورث عشرين دينارا فاكلها في عشرين سنة . قيل عن سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له يوما : يا أبا سليمان ، أبا الاداة فقد أحكمناها . فقال داود : أى شيء بقى ؟ قال : العمل بها . مات سنة خمس وستين ومائة (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٤ ، الرسالة ج ١ ص ٧٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٧ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٨) .

عليه السلام : « من تشبه يقوم فهو منهم (١) » أى : كل من يتولى قوماً يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقاً نظر الى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق الى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحة التصوفية لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال ، والتجرد عن الهوى ، والاعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم (٢) ، فيرون ممارستهم للشرعية وحفظهم لأداب الاسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة انسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق — رابع — يقوده الى أنفعلهم كسل طبعه ورعوته نفسه وطلبه الرئاسة بلا آلة ، وارانته التصدر بلا فضل ، وبحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم (٣) يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم (٤) شئ من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شئ من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرمى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله (٥) » .

(١) رواه ابن رسلان من ابن عمر ، والطبرانى فى الاوسط (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٨٩) .

(٢) أظهارهم = ظواهرهم : جمع « ظاهر » .

(٣) « هم » أى الصوفية المحققون .

(٤) قلوبهم : أى قلوب أفراد الفريق الرابع .

(٥) سورة « الجمعة » آية ٥ .

وهذا الفريق هم الأغلب في هذه الأيام . فليكن لزاما عليك أذن أن لا تقصد ما ليس لك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكون بالخرقة ، بل بالحرقة . وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الادبار ومنشور الشقاء يوم النشور ، كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس المرقعة ؟ قال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل في حمل أثقال الفتوة » . فإذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، وإذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فإن تكن كذلك فهو رياء ، وإن لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله انعام واکرام ، والصوف من لباس الانعام » ! فالحلية حيلة ، ومريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ما عليهم ، ويحلون ظاهريهم ، وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، وإذا أرادوا اتيان المعصية في تلك الثياب ، فأنهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وفي الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص . وعز العوام هو أنهم حين يرتدون بها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدون بها ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك ، فهي « لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص » ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، فيتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوظائف لآخر . وأرجو أن يفلحوا جميعا بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما فهو

معهم(١) « . ولكن ينبغي أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل الى التحقيق أبدا .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفنى الحجاب الا بدور الأحوال والتربية في المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن . وإذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أنسمى بالصوفي أو باسم آخر .

فصل : أما شرط المرقعات فهو أن يعملها — الصوفي — من أجل الخفة والفراغ ، وحيثما يتمزق شيء من الأصل يوضع فوقه رقعة .

وللمشايع ، رحمهم الله ورضى الله عنهم ، في هذا قولان : ففريق يقول أنه لا يشترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة ، فتسحب الابرة حيثما تخرج رأسها ، ولا يتكلف في هذا .

وفريق آخر يقولون أنه يشترط لحياكة الرقعة الترتيب والاستقامة ورعاية التضريب والتكلف في الاستقامة ، لأنها معاملة الفقراء ، وصحة المعاملة دليل صحة الأصل .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقنى الله — سألت شيخ المشايخ أبا القاسم الجرجاني(٢) في طوس(٣) : ما أقل ما ينبغي للفقير حتى يكون جديرا باسم الفقر ؟ قال : ينبغي له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخطط الرقعة خياطة مستقيمة .

ثانيا : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سمعا مستقيما .

ثالثا : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة .

وعندما رجعنا — أنا وفريق الدراويش الذين كانوا حاضرين معي حين قال هذا — الى الدويرة ، أخذ كل منهم يتصرف في هذا ، وظهر لفريق من

(١) رواه الطبراني في الكبير : « من أحب قوما حشره الله في زمريهم » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) من شيوخ الهجویری : انظر ترجمته في الباب الثاني عشر .

(٣) « طوس » من مدن خراسان . وهي من نيسابور على مرحلتين ، وبها قبر الرشيد أمير المؤمنين ، وبها توفي الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي من الحسين عليهم السلام (البلدان : ص ٤٤) ، وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفتوة مالا يحصى ، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد العزالي الطوسي وأبي الفتوح أخيه (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٤٠) .

الجهلة في هذا شره، وقالوا ان الفقر هو عين هذا ، وكان أكثرهم يتسابقون في تجويد حياكة الرقعة ، والدبيب على الأرض بأقدامهم ، ويظن كل منهم في نفسه انه يعرف سماع الكلام ، في الطريقة . ويحكم أن قلبى كان يميل الى هذا السيد ، لم أشأ أن يضيع كلامه هذا عبثا ، فقلت : تعالوا ليقول كل منا شيئا في هذا القول . فقال كل منهم ما تراءى له ، فلما وصلت النبوة الى قلت : الرقعة المستقيمة هي أن تخاط للفقر لا للزينة ، لأنها اذا خيطت بالفقر كانت مستقيمة ولو لم تكن كذلك . وسماع الكلام مستقيما هو أن يسمع بالحال لا بالمنية ، ويتصرف فيه بالجد لا بالهزل ، وأن يفهم بالروح لا بالعقل . والقدم المستقيمة هي التى توضع على الأرض بلوجود لا باللهو والرسم .

ونقل البعض هذا الكلام للشيخ فقال : أصاب على خير الله .

والمراد من لبس المرقعة لهذه الطائفة هو مؤنة الدنيا ، وصدق الفقر لله تعالى . وقد ورد في الآثار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس مرقعة حين رفع الى السماء . وقال أحد المشايخ : رأيته في النوم ، بتلك المرقعة من الصوف ، وكان يتلألا من كل رقعة نور ، فقلت : أيها المسيح ، ما تلك الأنوار على الثوب ؟ قال : انها أنوار اضطرارى ، فقد خطت كل رقعة منها لضرورة ، فصر الله عز وجل كل اذى اصابنى به نورا .

وأیضا : رأيته في ما وراء النهر ، شيئا من اهل الملامة لم يكن يأكل أو يلبس شيئا للآدمى فيه نصيب ، فكان يأكل الأشياء التى يرميها الناس كالكرات العفن والقرع المر والجزر الفاسد وأمثال ذلك ، ويتخذ ملابسه من الخرق التى يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها مرقعة (١) .

وسمعت أنه كان بمرور الروذ (٢) شيخ من المتأخرين من أرباب المعانى قوى الحال طيب السيرة ، كانت العقرب تلد دون كلفة في سجادته وقلنسوته ، لكثرة ما عليهما من الرقع غير المتكلفة .

وقد لبس شيخى (٣) رضى الله عنه ثوبا واحدا لمدة ستة وخمسين عاما ، كان يضع عليه رقعا بلا تكلف .

(١) ورد مثل هذا عن اويس القرنى أنه كان يلتقط الرقاع من المزابل فيفصلها في الفرات

ثم يخطها فيلبسها (تلبس ابلبس من ١٨٦) .

(٢) « مرو الروذ » : من مدن كورة مرو ، وبين مرو وبينها خمس مراحل : ومرو

الروذ انتنحها الاحنف بن قيس في خلافة عثمان سنة احدى وثلاثين (البلدان : ص ٥٦)

(٣) أبو الفضل محمد بن الحسن الخطفى : من شيوخ الهجويزى : أنظر ص ٥٨ ،

ترجمته في الباب الثانى مشر .

ووجدت في حكايات العراقيين أنه كان هنا لك اثنان من الدراويش :
أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة
حياته إلا الخرق التي يمزقها الدراويش في السماع ، ولم يلبس الآخر
إلا الخرق التي يمزقونها. في حال الاستغفار من ذنب ، حتى صارت زينة
ظاهرهما موافقة لسيرة باطنهما . وهذا من رعاية الحال .

وكان الشيخ محمد بن خفيف (١) رضى الله عنه يرتدى لمدة عشرين عاما
ثوبا من الصوف الغليظ ويعتكف كل عام أربع أربعينيات (٢) ، وكان يؤلف
في كل منها كتابا في غوامض علوم الحقائق . وكان يعاصره شيخ من المحققين
من علماء الطريقة ، يقيم بالقرب من فارس (٣) ، يدعى محمد بن زكريا ،
لم يرتد المرقعة قط ، فسئل الشيخ محمد بن خفيف : ما شرط المرقعة ؟
ولبسها مسلم لمن ؟ فأجاب : شرط المرقعة هو ما يفعله محمد بن زكريا في
قميصه الأبيض ، ولبسها مسلم له .

فصل : وأما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا في طريقهم . وقلة
ارتدائهم ثياب الصوف الآن ، له معنيان ، أحدهما : أن الأصواف تشعثت ،
والأنعام انتقلت في الغارات من مكان الى مكان ، والثاني : أن طائفة
من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ، ومخالفة شعار أهل البدع
سنة ، ولو كان مخالفة للسنة .

أما التكلف في حياكة الرقعة فيجيزونه ، لأن جاههم قد عظم بين الخلق
وكل من الخلق تشبه بهم ولبس المرقعة ، وبدت منهم أفعال ذميمة . ولما
تأذوا من صحبة الأضداد ، اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها ،
وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض ، واتخذوها شعارا ، حتى ليقال
أن درويشا دخل على أحد الشيوخ ، وكان قد جعل خطوط الرقعة التي
خاطها على ثوبه مستعرضة ، فهجره الشيخ . وكان معنى هذا أن أصل
الصفاء هو رقة الطبع ولطافة المزاج ، ولا يحسن الاعوجاج في الطبع
البتة . وكما أن الشعر غير المستقيم لا يحسن في الطبع ، فكذلك الفعل غير
المستقيم لا يقبله الطبع .

(١) أبو عبد الله محمد بن خفيف . كان شيخ المشايخ في وقته . صاحب رويبا والجري
وأبا العباس بن عطاء . كان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة إحدى
وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ،
الرسالة ج ١ ص ١٢٤ ، طبقات الشعرائين ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) أنظر الأبواب من السابغ والعشرين الى التاسع والعشرين من عوارف المعارف ،
« في خاصية الأربعينية وذكر الفتوح وكيفية الدخول فيها » .

(٣) فارس : ولاية واسعة وأقليم مسيحي ، وأول حدودها من جهة العراق أرجان .
وفارس اسم البلد وليس اسم الرجل ، وقصبتها شيراز . فتحت في عهد مير بن
الخطاب رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٣٥ - ٨٤٨) .

وطائفة أخرى لا يتكلفون في وجود اللباس وعدمه ، فإذا رزقهم الله عبادة لبسوها ، وإذا رزقهم قباء لبسوه ، وإذا تركهم عراة بقوا كذلك . وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — قد ارتضيت هذا الطريق ، وفعلت هكذا في أسفاري .

وورد في الحكايات أنه حين جاء أحمد بن خضرويه (١) لزيارة أبي يزيد كان يرتدى قباء ، وحين جاء شاه بن شجاع (٢) لزيارة أبي حفص (٣) كان يلبس القباء . ولم يكن هذا لباسهما المجهود ، فقد كانا في بعض الأوقات يرتديان المرقع ، ويلبسان ثوبا من الصوف في البعض الآخر ، أو البياض حسبما اتفق .

ونفس الأدمى معتادة ، ولها بالعادة ألفة . والنفس إذا اعتادت شيئا صار طبيعته ، وإذا ما صار طبيعته صار حجابا ، ولذا قال النبي عليه السلام : « خير الصيام صوم أخى داود (٤) » عليه السلام ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما حتى لا يصير الصوم عادة للنفس ، ويحجب بذلك .

وكان في هذا المعنى أحب الأحباء أبو حامد الدوستاتى (٥) المروزي رحمه الله ، فقد كان يريدوه يلبسونه ثوبا ، ثم تكون لشخص إليه حاجة ، ثم كان يأتي من كانت له به حاجة فيتلبس فراغه ، فإذا ما خلا ، نزع عنه ذلك الثوب . ولم يكن يقول لللبسه : لم تلبسنى ؟ ولا لنارعه : لم تخلعه عنى ؟ .

(١) كنيته : أبو حامد . من كبار مشايخ خراسان . صاحب أبا تراب النخشبى وحاشيا الأسم . كان كبيرا في الفتوة ، قال عنه أبو حفص الحداد : ما رأيت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه . توفي سنة أربعين ومائتين (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٣ ، الرسالة ج ١ ص ٩٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٨٨ ، نفحات الانس ص ٥٤) .

(٢) كنيته : أبو الفوارس . كان من أبناء الملوك . صاحب أبا تراب النخشبى وأبا عبد الله الزراع البصرى . له رسالات مشهورة ، والمثلثة التى سماها : مرآة الحكماء . مات قبل الثلثمائة (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣١٢ ، نفحات الانس ص ٨٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤٥٨) .

(٣) أبو حفص الحداد النيسابورى : سبق الإشارة إليه .

(٤) رواه الشيخان عن ابن عمر : « أحب الصيام الى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦) .

(٥) أشير إليه في أسرار التوحيد (انظر ص ٢٧٢) .

ويوجد الآن في غزنين(١) — حرسها الله — شيخ يلقب بالمريد ، رضى الله عنه ، لا اختيار له ولا تمييز في لباسه . والحديث في ذلك صحيح .

أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء ، فمنه : أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ، ولا يبقى الثوب الأبيض في السفر على حاله ، ويصعب غسله ، ويطعم فيه كل شخص .

ثم إن لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن . والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومغارة الغم ، وآفة المبطلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم في الدنيا ، لبسوا الأزرق ، وجلسوا في مأتم الوصال .

ومنهم طائفة أخرى لم يروا في المعاملات غير التقصير ، وفي القلب غير الخراب ، وفي الوقت غير الفوت ، فلبسوا الأزرق .

فواحد لبسه على موت عزيز ، والآخر على فوت مقصود ، لأن « الفوت أشد من الموت » .

سأل واحد من مدعى العلم درويشاً : لم لبست هذا الأزرق ؟ قال : لقد بقى عن النبي عليه السلام ثلاثة أشياء ، أولها : الفقر ، والثاني : العلم ، والثالث : السيف .

خلفر السلاطين بالسيف ولم يستعملوه في موضعه .

واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلم فقط .

واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للفنى . فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاثة .

ويرد عن المرتعش رحمه الله أنه كان يمر في محلة ببغداد(٢) وأحس بالظما ، فقصده بابا وطلب الماء . فخرجت إليه فتاة بجرة ماء ، فلما شرب صار قلبه صيدا للساقية . فظل في مكانه حتى جاء رب الدار فقال له : أيها السيد ، كان قلبي متعطشاً جداً لشربة ماء فسقونى شربة من دارك وسلبوا قلبي . قال الرجل : تلك ابنتي ، وقد زوجتك إياها . فدخل

(١) « غزنين » أو « غزنه » موطن الهجویری : ارجع الى ما ورد عنها في القسم الاول ص ٢٩ .

(٢) « بغداد » : وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء . انتقل اليها من جميع البلدان الدانية والغاصية وأكثرها جميع أهل الأماق على أوطانهم . يجري في حافتها النهران الاعظميان دجلة والفرات . بناها أبو جعفر المنصور فاختطها في ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة (البلدان ص ٢ — ٢٢) .

المرتضى البيت تحقيقا لمراده ، وعقد عليها . وكان صاحب البيت هذا من أثرياء بغداد ، فأرسله الى الحمام ، والبسه ثيابه ، وخلع عنه المرقعة . ولما أقبل الليل وقف المرتضى للصلاة ، وقرا الأوراد ، وأخذ الى الخلوة ، فصاح في أثناء ذلك : هاتوا مرقعتى . فسألوه : ماذا أصابك ؟ قال : نوديت في سرى : لقد خلعتنا عن ظاهرك ثوب الصلاح والمرتعة بنظرة نظرتها مخالفة لنا ، فإذا نظرت أخرى نزعنا عن باطنك لباس المعرفة .

فالثوب الذى يكون السبب في ارتدائه التقرب الى الله والموافقة لأوليائه تكون المداومة عليه مباركة ، فإذا كنت تستطيع أن تفى بحقه ، فبها ، والا فإنه ينبغى عليك أن تصون دينك . ولا تجوز الخيانة في ثياب الأولياء . ولأن تكون مسلما على التحقيق بلا دعوى ، خير من أن تكون وليا على التكذيب .

أما لبس المرقعة ، فيستقيم لطائفتين : أولاهما ، المنقطعون عن الدنيا ، والآخرى ، المشتاقون الى حضرة المولى .

وقد جرت السنة في عادات المشايخ رضى الله عنهم ، على أنه عندما يتصل بهم مريد بحكم القبرك ، فأنهم يؤدبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فإذا أدى حقها ، فبها والا قالوا ان الطريقة لا تقبله ، فسنه منها لخدمة الخلق ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه .

وهو يستطيع خدمة الخلق عندما يضع نفسه في درجة الخدم ، وكل الخلق في درجة المخدمين : أى يخدم الجميع بلا تمييز ، ويراهم خيرا منه ، ويعرف أن خدمتهم واجب عليه ، ولا يرى لنفسه بتلك الخدمة فضلا على الآخرين ، لأن ذلك خسران عظيم ، وعيب ظاهر ، وغبن فاحش ، وداء من الأدواء في هذا الزمان (١) لا دواء له .

وهو يستطيع أن يخدم الحق جل جلاله حين يقطع حظوظه من الدنيا والعقبى كلية ، ويعبد الحق سبحانه وتعالى عبادة مطلقة من أجله هو ، لأن العبد ما دام يعبد الحق من أجل كفارة الذنوب وإدراك الدرجات فإنه لا يعبد لذاته ، فما بالك بأسباب الدنيا .

وهو يستطيع مراعاة قلبه حين يجمع همته ويرفع عن قلبه الهموم المختلفة ، ويحفظه — في حضرة الانس — من مواطن الغفلة .

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة في المريد ، يسلم له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد .

(١) زمان المؤلف .

أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحوال ، وأدرك مشارب الأعمال ، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال . ويجب أيضا أن يكون مشرفا على حال مريده ، يعرف الام ينتهى : أهو من الراجعين ، أو الواقفين ، أو الواصلين ، فإذا عرف أنه سوف يرتد يوما عن الطريقة ، يقول له ذلك حتى لا يبدأ ، وإذا توقف ، يأمره بالمعاملة ، وإذا تحقق من أنه سيصل ، يتعهد بالرعاية .

ومشايع هذه الطريقة هم أطباء القلوب ، وحين يكون الطبيب جاهلا بعلّة مريضه فانه يهلكه بطبه ، لأنه لا يعرف تطبيبه ، ويجهل مواطن دائه ، فيجعل غذاءه وشرابه مخالفا لعلته ، لقوله عليه السلام : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته (١) » ، فالأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق على بصيرة ، وجعلوا كل فرد في درجته . ويجب للشيخ أيضا أن يدعو على بصيرة ، وأن يعطى لكل غذاءه ، حتى يتحقق المراد من الدعوة . فإذا لبس شيخ بلغ الكمال في ولايته لله ، مريدا المرقعة بعد هذه السنوات الثلاث من التربية في الرياضة ، فهذا جائز .

وشرط لبس المرقعة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويظهرون قلوبهم من راحتها ، ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ، ويبرأون تماما من الهوى ، ومن ثم يعز الشيخ المريد باللباس الخلعة ، وهو يقوم بحققها ويجتهد تماما في أداء هذا الحق ، ويحرم على نفسه رغباتها .

أما الاشارات في المرقعة ، فقد قيل فيها الكثير ، وقد عمل الشيخ أبو معمر الاصفهاني كتابا فيها . وعوام المتصوفة يغالون في هذا الأمر كثيرا ، وليس مرادنا من هذا الكتاب نقل أقوالهم ، بل كشف المغلق من مراد هذه الطريقة .

وخير الاشارات في المرقعة القول بأن يكون قلبها من الصبر ، وكماها من الخوف والرجاء ، وابطاها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس ، وجيبها من صحة اليقين ، وسجافها من الاخلاص .

وخير من هذا ، القول بأن يكون القلب من فناء المؤانسة ، والكميان من الحفظ والعصمة ، والابطان من الفقر والصفوة ، والوسط من الاتامة في

(١) رواه ابن النجار عن أبي رافع : « الشيخ في أهله كالنبي في أمته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .

المشاهدة والجيب من الأمن في الحضرة ، والسجاف من القرار في محل
الوصل . واذا هيأت لباطنك مرقة كهذه ، فيجب أن تعمل لظاهاك
واحدة أيضا .

ولى كتاب مستقل ، مؤلف في هذا الموضوع ، اسمه : « أسرار الخرق
والملونات » ويلزم للمريد نسخة منه .

أما اذا لبس (المريد) المرقة ، فانه اذا مزقها في غلبة الحال وقهر
سلطان الوقت فهذا مسلم له ، ويكون له العذر . واذا مزقها في حال الاختيار
والتمييز ، فالأكثر في شرط هذه الطريقة أن لا يسلم له بالاحتفاظ بها ،
أما اذا ما لبسها فانه يكون كأحد أصحاب المرقات في هذا الزمان ، قد
اكتفى بالظاهر دون الباطن .

والحقيقة في تخريق الثياب هي أنهم حين ينتقلون من مقام الى مقام آخر ،
يخلعون الثوب في الحل ، يشكروا على وجدان هذا المقام ، ويعدون ثوبا
آخر لباسا لمقام آخر .

والمرقة لباس جامع لكل مقامات الطريقة والفقر والصفوة . والخروج
من هذا الثوب والتبرؤ منه تبرؤ من الكل ، وان يكن هذا المكان ليس
موضعا لذكر هذه المسألة ، اذ انها تلزم لباب الخرق والملونات وكشف
حجاب السماع ، وقد اشرت اليها هنا بهذا المقدار حتى لا تخفى هذه
اللطيفة ، وسأفصل هذا الحكم في مكانه ان شاء الله عز وجل .

وقيل أيضا : أنه يجب لمن يقوم باللباس المرقة من السلطان في الطريقة
ما يجعله اذا نظر الى غريب بعين الشفقة يصير قريبا ، واذا ما لبس
عاصيا المرقة يصير من اولياء الله .

وفي وقت من الاوقات كنت أسير برفقة شيخى في آذربيجان (١) ، فرأيت
بضعة أفراد من أصحاب المرقات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيان
مرقاتهم ليضع الفلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرا : « أولئك
الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (٢) »
قلت : أيها الشيخ ، بأى خذى ابتلوا بهذا البلاء ، وفضحوا على الملأ ؟
قال : لأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين ، وهم يحرصون على

(١) « آذربيجان » : من ربيع المشرق : أول مدنها أربيل على أربع مراحل من زنجان .
وأهل مدن آذربيجان أخلاط من المعجم الآثرية والجاودائية القدم أصحاب مدينة
البذ التي كان فيها بابك ثم نزلتها العرب لما فتحت . وافتتحت آذربيجان سنة اثنتين
وعشرين افتتحها المغيرة بن شعبة في خلافة عثمان (البلدان ص ٢٨) .
(٢) سورة « البقرة » آية ١٦

جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص ، والدعوة بلا أمر
تربية للهوى .

ويرد عن الجنيد رحمه الله أنه رأى بباب الطاق (١) مسيحيا جميلا جدا ،
فقال : اللهم سخر لى هذا لأنه مخلوق طيب جدا ، فلما مرت برهة ، أقبل
المسيحي وقال له : أيها الشيخ ، أعرض على الشهادة ، فعرضها عليه ،
وأسلم ، وصار واحدا من أولياء الله .

وسئل الشيخ أبو على الأسود المروزي (٢) رحمه الله : لباس المرقعة
مسلم لمن ؟ قال : للمشرف على ملك الله تعالى فلا يجرى شيء يومئذ في
الدنيا من الأحكام والأحوال الا ويطلع الله عليه .

وبعد ، فالمرقعة سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء
والمتصوفين . وقد جرى الحديث قبل هذا عن حقيقة الفقر والصفوة .
وإذا جعل شخص لباس الأولياء أداة لجمع أسباب الدنيا ، وسترا لآفته ،
فانه لا يضر الأولياء كثيرا . وبالله التوفيق .

(١) « باب الطاق » : منة كبيرة ينداد بالجنة الشرقية . (مصنف البلدان : ١ ص ٤٤٥)
(٢) « أبو على سياه » (الأسود) : من كبار مشايخ مرو ، كان معاصرا لأبي العباس
القصاب وأبي الحسن الخرقاني وأبي سعيد بن أبي الخير . صحب أبا على الدقاق ،
وتوفى بهرو سنة أربع وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته في نفحات الانس
ص ٢٩٠) .

الباب الخامس باب الاختلاف في الفقر والصفوة

أما علماء هذه الطريقة فيختلفون في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، وعند جماعة الصفوة أتم من الفقر .

فمن يقدمون الفقر على الصفوة يقولون أن الفقر فناء الكل ، وانقطاع الأسرار ، والصفوة مقام من المقامات ، فإذا حصل الفناء ، تنعدم كل المقامات .

وهذه المسألة تعود إلى الفقر والغنى ، وقد جرى الحديث فيهما قبل هذا .

ومن يقدمون الصفوة على الفقر يقولون أن الفقر شيء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات ، والصفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسماء المقامات ، والصفوة من أسماء الكمال .

وقد طال الحديث في هذا الأمر في هذه الأيام ، وكل منهم يعبر بعبارة عجيبة ، ويتقول على الآخر أقوالاً غريبة ، والخلاف قائم في تفضيل وتقديم وتأخير الفقر والصفوة .

ومن المتفق عليه أن العبارة المجردة ليست الفقر أو الصفوة . وقد صاغوا من العبارة مذهباً ، وأخلوا الطبع من إدراك المعنى ، وتخلوا عن حديث الحق . وهم يسمون نفى الهوى نفياً للعين ، ويرون إثبات المراد إثباتاً للعين ، فالموجود والمقصود والمنفى والمثبت كله هم ، بقيام أنفسهم وهواهم ، والطريقة منزهة عن ترهات المدعين .

وفي الجملة : أن الأولياء يصلون إلى المحل الذي لا يبقى فيه محل ، وتغنى الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى ، فلا يبقى شرب ولا ذوق ، ولا قمع ولا قهر ، ولا صحو ولا محو ، ومن ثم يطلبون

اسما بالضرورة ليطلقوه على هذا المعنى الذى لا يدخل تحت اسم ولا صفة ، وعندئذ يطلق عليه كل شخص الاسم الذى يكون أكثر تعظيما في نظره . ولا يجوز التقديم والتأخير في ذلك الأصل فيقول واحد ان ذاك مقدم ، او هذا مقدم ، لان التقديم والتأخير يكون في الأسماء . وقد بدا لفريق ان اسم الفقر أكثر تقدما ، فصار في قلوبهم أعظم ، لأنه يتعلق بالترك والتواضع . وبدا لفريق ان اسم الصفوة مقدم ، فصار أكثر عظما في قلوبهم ، لأنه أقرب الى ارتفاع الكدر وفناء الآفات . وكان مرادهم من هاتين التسميتين الاعلام والدلالة على ذلك المعنى الذى تنقطع عنه العبارة ، وكانوا يتحدثون عنه فيما بينهم بالإشارة ، فكشفوا وجوده لأنفسهم باتهام الاعلام . ولا خلاف بينهم سواء عبروا عنه بالفقر أو بالصفوة .

ثم ان اهل العبارة وأرباب اللسان الذين كانوا يجهلون حقيقة هذا المعنى ، تكلموا في مجرد العبارة ، وتقدموا واحدا وأخروا الثانى ، وكلاهما عبارة ، وسارت تلك الجماعة لتحقيق المعانى ، وتخلق هؤلاء في ظلمة العبارة .

وفي الجملة ، ان هذا المعنى اذا حصل لفرد وجعل منه قبلة قلبه ، فسواء لديه ان سموه فقيرا أو صوفيا ، فكلاهما اسم اضطرارى لذلك المعنى الذى لا يدخل تحت اسم .

ويرجع هذا الخلاف الى زمن أبى الحسن بن شمعون رحمه الله ، فقد كان حينها يكون في كشف يتعلق بالبقاء يقدم الفقر على الصفوة ، وحينها يكون أيضا في كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفوة على الفقر ، فقال له أرباب المعانى في ذلك الوقت : لم تقول هذا ؟ قال للطبع مشرب تام في الفناء والانتقال ، ومثله أيضا في البقاء والعلو ، فحينها أكون في محل يتعلق بالفناء أقدم الصفوة على الفقر ، وحين أكون في محل يتعلق بالبقاء أقدم الفقر على الصفوة ، لأن الفقر اسم الفناء ، والصفوة اسم البقاء ، لأفنى عن نفسى رؤية البقاء في البقاء ، ورؤية الفناء في الفناء ، حتى يفنى طبعى عن الفناء والبقاء .

وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكون للفناء وليس للبقاء . وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق . والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص أن الفناء يفنى ، لأن المبالغة في نفى اثر وجود ذلك المعنى ، يمكن أن تكون في الفناء ، وطالما بقى اثر ، فانه لا يكون فناء بعد ، فاذا حصل الفناء ، فان فناء الفناء لا يكون شيئا سوى الاغراب في عبارة بلا معنى .

وهذه ترهات أرباب اللسان في وقت عبادة العبارة . ولنا من هذا النوع كلام في كتاب « الفناء والبقاء » ، وقد عملته في أيام هوس الصبا وحدة الأحوال ، ولكنني أورد أحكامه في هذا الكتاب على سبيل الحيلة ، أن شاء الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين الفقر والصفوة من حيث المعنى ، أما من حيث المعاملة فهي من قبيل التجرد عن الدنيا ، وإخلاء اليد منها . وترجع حقيقة هذا إلى الفقر والمسكنة .

وقد قالت جماعة من المشايخ رحمهم الله : أن الفقير أفضل من المسكين ، لأن الله عز وجل قال : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله (١) » . فالمسكين صاحب معلوم ، والفقير تارك للمعلوم ، والفقر عز ، والمسكنة ذل ، وصاحب المعلوم ذليل في الطريقة ، فقد قال النبي عليه السلام : « تعس عبد الدرهم وتعس عبد الدينار وتعس عبد الخميصة والقطيفة (٢) » . وتارك المعلوم عزيز ، لأن اعتماد صاحب المعلوم على المعلوم ، واعتماد تارك المعلوم على الله تعالى . وإذا اتفق لصاحب المعلوم شغل فانه يسير إلى المعلوم ، وإذا اتفق لتارك المعلوم شغل فانه يسير إلى الله تعالى .

وقالت جماعة أخرى : أن المسكين أفضل (من الفقير) لأن النبي عليه السلام قال : « اللهم أحيى مسكينا ، وأميتنى مسكينا ، واحشرنى في زمرة المساكين (٣) » . وحين ذكر عليه السلام الفقر قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا (٤) » . والفقير هو من يتعلق بسبب ، والمسكين هو المنقطع عن الأسباب .

وفي الشريعة — عند طائفة من الفقهاء — أن الفقير صاحب بلغة ، والمسكين مجرد ، وعند طائفة أخرى ، المسكين صاحب بلغة ، والفقير مجرد . ومن هنا يسمى أهل المقامات المسكين صوفيا .

وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فالذين يتولون منهم أن الفقير مجرد والمسكين صاحب بلغة ، الفقر عندهم أفضل من الصفوة ، والذين يقولون أن المسكين مجرد والفقير صاحب بلغة ، الصفوة عندهم أفضل من الفقر .

هذه هي أحكام اختلافهم في الفقر والصفوة على سبيل الاختصار ، والله أعلم بالصواب .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

(٣) مكرر : سبق الإشارة إليه .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٨) .

الباب السادس باب بيان الملامة

سلكت طائفة من مشايخ الطريقة طريق الملامة (١) ، وللملامة في خلوص المحبة تأثير عظيم ، ومشرب تام ، وقد اختص أهل الحق من بين المعالم جميعا بملامة الخلق ، وبخاصة علماء هذه الأمة ، زاد الله من أمثالهم .

والرسول عليه السلام الذي كان قدوة ، وإماما لأهل الحقائق ، وقدوة للمحبين ، كان — قبل أن يظهر عليه برهان الحق ويتصل به الوحي —

« أهل الملامة » أو « الملامية » : فرقة من فرق الصوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان . ويطلق الهجويري على هذه الفرقة اسم : « التصارية » أو « الحمدونية » نسبة إلى حمدون القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وقد وصفه السلمي بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (طبقات الصوفية ص ١٢٣) . وأساس مذهب الملامية يقوم على الملامة .

و « الملامة » هي : لوم الملامى نفسه ، ولوم الناس له . والمراد بلوم النفس : أن الملامى لا يرى لنفسه خطئا على الإطلاق ، ولا يطمئن إليها ، لأنه يعتقد أن النفس شر محض ، وأنها لا يصدر عنها إلا ما يوافق طبعها من رياء ورعونة . والمراد بلوم الناس : أن الملامى يرى أن معاليمه مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره ، فهو حريص على كتمان ذلك السر ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلتبه ، بل أن الملامية خوفا من أن تنكشف أحوالهم وأسرارهم التي يضمنونها على الخلق ، وخشية أن يتسرب الغرور إلى نفوسهم إذا ما ظهروا للناس بها يوجب مدحهم ، يعتمدون فعل ما يجلب عليهم سخط الخلق وازدراءهم ، ويجعلهم يطلقون عليهم السنتهم بالذم واللوم . يقول أبو حفص الحداد : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتبوا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولابوا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم (الملامية والصوفية ص ٨٩) . واللامية لم يؤلفوا كتباً ، وكل ما أثر عنهم إنما هو أقوال لها طابع خاص ، جميعها السلمي في رسالته التي سماها باسمهم . وتعتبر هذه الرسالة أول ما ألف عن الملامية ، وتلا ذلك ما ورد عنهم في كشف المحجوب وعوارف المعارف والفتوحات المسكية .

وقد تعرض الملامية لنقد ابن الجوزي فوصفهم بأنهم استقلوا جاههم عند الله (تطييس إبليس ص ٣٦٣) بينما أشاد بهم السلمي (أنظر الملامية ص ٨٧) ووضعهم ابن عري في أعلى درجات السالكين : (أنظر الفتوحات ج٣ ص ٤٦) . ووقف منهم السهروردي موقفا وسطا ، فهو يصف الملامى بالاخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفى في مرتبة أعلى ويصفه بأنه المخلص الخالص (انظر عوارف المعارف ص ٥٤) .

طيب الاسم وعظيما ، وعندما البس خلعة المحبة ، أطلق الخلق فيه لسان
الملامة ، فقالت طائفة انه كاهن ، وقالت أخرى انه شاعر ، وقال فريق
انه كاذب ، وقال آخر انه مجنون ، وأمثال هذا .

وقد ذكر الله عز وجل صفة المؤمن فقال : « ولا يخافون لومة لائم ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (١) » .

وقد جرت سنة اله العالم جل جلاله على أن كل من يكون له علاقة به ، يجعل
العالم كله يلومه ، ويحفظ سره عن الانشغال بلومهم . وهذه غيرة الحق
الذى يحفظ أحبائه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين ، ويحميهم
من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال أنفسهم ويعجبوا بها ، ويتعوا في
آفة العجب والكبرياء ، فسلط عليهم الخلق ليطيّلوا فيهم السنتهم ، ويمكن
منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون ، فإذا فعلوا الشر لامتهم به ، وإذا
فعلوا الخير رمتهم بالتقصير . وهذا أصل قوى في طريق الله عز وجل ،
لأنه لا يوجد في هذا الطريق آفة أو حجاب أصعب من أن يصير الانسان معجبا
بنفسه .

وينشأ أصل العجب من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدحهم ،
وذلك : أن فعل العبد يرتضيه الخلق ، فيمدح نفسه ، ويرى نفسه كفاء ،
فيعجب بذلك . والآخر ، أن ينال فعل شخص رضا شخص آخر فينتى
عليه ، ويعجب بذلك .

وقد سد الله تعالى بفضل هذا الطريق على أحبائه حتى أن معاملاتهم
وان تكن طيبة ، لا يرتضيها الخلق ، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية ،
ومجاهداتهم وان تكن كثيرة ، فانهم لا يرونها بحولهم وقوتهم ، ولا يعجبون
بأنفسهم ، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم . فمن يرضى عنه الحق لا
يرضى عنه الخلق ، ومن يصطفى نفسه لا يصطفيه الحق .

مثال ذلك ابليس ، فقد ارتضاه الخلق ، ولم ترض عنه الملائكة ، وأعجب
هو بنفسه . ولما لم يكن مرضيا عنه من الحق ، فقد جر عليه اعجاب
الخلق اللعنة .

وآدم صلوات الله عليه ، لم ترض عنه الملائكة وقالوا : « أتجعل فيها
من يفسد فيها ويسفك الدماء (٢) » . وهو لم يعجب بنفسه وقال :

(١) سورة « المائدة » آية ٥٤

(٢) سورة « البقرة » آية ٣٠

« ربنا ظلمنا أنفسنا (١) » . ولما كان مرضيا عنه من الحق قال فيه :
« فنى ولم نجد له عزما (٢) » ، فعدم رضاء الخلق عنه ، وعدم اعجابه
بنفسه ، جلبا له الرحمة ، ليعلم أهل العالم أن المقبول لدينا (٣) مهجور
من الخلق ، والمقبول لدى الخلق مهجور منا . فلا جرم أن تكون ملامة
الخلق غذاء لأحباب الحق ، لأن فيها آثار القبول ومشرب أوليائه ، لأنها
علامة القرب ، وكما يفرح كل الخلق بقبول الخلق ، يفرحون هم برد
الخلق لهم .

وجاء في أخبار السيد المختار عليه السلام ، وعن جبريل عليه السلام
عن الله عز وجل أنه قال : « أوليائي تحت قبائى لا يعرفهم غيرى الا
أوليائى » .

فصل : أما الملامة فعلى ثلاثة أوجه : الأول : استقامة السير ، والثانى :
القصد ، والثالث : الترك .

فملامة استقامة السير : هى أن يؤدى فرد عمله جيدا ، ويحافظ على
الدين ، ويرعى المعاملة ، فيلومه الخلق فى ذلك . ويكون هذا مذهب
الخلق فيه ، وهو فارغ منهم .

وملامة القصد : هى أن يحصل لفرد جاه كبير بين الخلق ، ويصير
مرموقا بينهم ، ويميل قلبه الى الجاه ، ويتعلق طبعه بهم ، ويريد أن يفرغ
قلبه منهم وينشغل بالحق ، فيتكلف طريق الملامة — حتى فى الشيء الذى
ليس فيه ضرر فى الشرع — لينفر الخلق منه ، ويكون هذا طريقه مع
الخلق ، وهم فارغون منه .

وملامة الترك : هى أن يكون الكفر والضلال الطبيعى متمكان من
شخص حتى يقول بترك الشريعة واتباعها ، ويقول أن ما يفعل ملامة .
ويكون هذا طريقه فيها .

أما من يكون طريقه الاستقامة ، وعدم مزاوله النفاق ، والكف عن
الرياء ، فلا خوف عليه من ملامة الخلق ، ويكون فى كل الأحوال على
مسلكه ، ويستوى لديه أى اسم يسمونه به .

(١) سورة « الاعراف » آية ٢٣

(٢) سورة « طه » آية ١١٥

(٣) أى لدى الحق .

وجدت في الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرمي ، كان يركب يوما حمارا ، وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمار ، وكان يسير في السوق ، فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق . فلما سمع المريد بذلك القول أراد — بدافع من غيرة ارادته لشيخه — أن يرمي الرجل ، وثار جميع أهل السوق أيضا . فقال الشيخ للمريد : إذا لزمتم الصمت علمتكم شيئا ، لتخلص من هذه المحن ، فصمت المريد . ولما رجعا إلى الخانقاه قال للمريد : أحضر ذلك الصندوق . فلما أحضره ، أخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها أمامه وقال له : انظر ، لقد أرسل كل شخص إلى رسالة وخطبني فيها كل بلقب ، فواحد لقبني بالشيخ الإمام ، وآخر لقبني بالشيخ الذكي ، وواحد لقبني بالشيخ الزاهد ، وآخر لقبني بشيخ الحرمين ، وأمثال هذا ، وهي كلها القاب وليست أسماء ، ولست شيئا من هذا كله . وقد قال كل منهم كلاما حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فان كان ذلك المسكين قد قال كلاما على حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فلماذا اثرت كل هذا العداة ؟ .

وأما من كان طريقته القصد في الملامة ، وترك الجاه والرياسة ، والكف عن الانشغال بالخلق ، فانه يكون كما روى عن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، من أنه كان قادما يوما من بستان نخل — في حال خلافته — وقد حمل على رأسه حزمة حطب ، وكان له أربعمئة غلام ، فقبل له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا ؟ قال : « أريد أن أجرب نفسي » ، هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أي عمل . وهذه الحكاية صريحة على اثبات الملامة ، وتوجد حكاية في هذا المعنى عن الإمام أبي حنيفة ، تجدها حيث يرد ذكره في هذا الكتاب .

ويروى أيضا عن أبي يزيد أنه كان قادما من الحجاز (١) ، فنودي في المدينة أن أبا يزيد قد جاء . فخرج الناس جميعا لاستقباله وادخلوه المدينة باكرام ، ولما انشغل بمجاملتهم ، تخلف عن الحق وتشتت ، فلما دخل السوق ، أخرج من كبه رغيفا وأخذ في أكله — وكان هذا في شهر رمضان — فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده . وكان بصحبته مريد ، فقال له : ألم تر كيف أتى تركت مسألة واحدة من الشريعة فردني الخلق جميعا ؟

(١) « الحجاز » : جبل ممتد حل بين الغور ، غور نهامه ونجد . وقيل سبى الحجاز حجازا لانه غسل بين الغور والشام وبين البادية . وقال الاصمعي في كتاب جزيرة العرب : الحجاز اثنتا عشرة دارا (وذكر على رأسها المدينة وخيبر) . (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — أقول : لقد كان يلزم للملامة في ذلك الزمان فعل مستنكر ، والظهور بشيء مخالف للعادة .
والآن إذا أراد رجل أن يلام ، قل له : أد ركعتين طويلتين ، أو : زاول دينك كاملا ، فإن الخلق جميعا يسهونه بالمرائي والكاذب .

وأما من كان طريقه الترك ، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول اننى اسلك طريق الملامة ، فتلك ضلالة واضحة ، وآفة ظاهرة ، وجنون صادق — على نحو ما يوجد عليه كثيرون في هذه الأيام ، ومقصودهم من رد الخلق لقبول الخلق — لأنه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ، ويظهر بفعل يردونه به ، إذ أن تكلف الرد لقبول لم يحصل ، يكون حيلة .

واتفق لى ذات مرة أن أصحاب أحد هؤلاء الادعياء المبطلين ، فظهر يوما بمعاملة باطلة ، وجعل الملامة عذرا لها ، فقال له رجل : هذا ليس بشيء ! فرأيتك يزمر ، فقلت : يا هذا ، إذا كنت تسلك طريق المعاملة وأنت صادق في هذا ، فانكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك ، وما دام هو يوافقك في طريقك ، فلم الخصومة والغضب ؟ وتصدت هذه اقرب الى الدعوى منها الى الملامة ، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق ، وبرهانه حفظ السنة . ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهرا وأنت تدعو الخلق ، فإن هذا الأمر يخرج عن دائرة الاسلام .

فصل : اعلم أن مذهب الملامة في هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار (١) ، وله في حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال : « الملامة ترك السلامة » . وإذا تعبد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرا من المألوفات والراحات جميعا — أملا في كشف الجلال وطلب المال — حتى ييأس من الخلق برد الخلق ، ويقطع طبع الفته منهم ، فإنه كلما كان أكثر انقطاعا عنهم ، كان أكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة — يعرض عنه أهل الملامة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة

(١) كنيته : أبو صالح . واسمه : حمدون بن أحمد بن عمار القصار . صاحب سلم ابن الحسين الباروسى ، وأبا تراب النخشبى ، وعليه النصراবাদى . كان عالما فقيها يذهب بمذهب الثورى . مات سنة احدى وسبعين ومائتين ودفن ببنسايور . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٣ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

للهم ، ويكونوا وجدانيين في أوصافهم ، كما روى أحمد بن فاثك (١) عن الحسين بن منصور (٢) أنه سئل : من الصوفي ؟ فقال : وجداني الذات (٣) .

ويرد عن أبي حمدة أنه سئل عن الملامة فقال : ان طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكني أقول عنها شيئا ، فهي «رجاء المرجئة» (٤) ، وخوف القدرية (٥) . وتحت هذا المعنى رمز .

اعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشيء الا بالقدر الذي يكون كافيا لجاء الخلق ، كأن يقول عنه شخص انه رجل طيب ويمدحه ، فيه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالحائف يجتهد دائما في أن يكون بعيدا عن موضع الخطر ، وفي هذا الاجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من حجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذي أدانه الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن الى جاههم ، ولا هو يقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته . فينبغي للملامتي أولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبرة ولا بالصغيرة في الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه في المعاملة كخوف القدرية ، ورجاؤه في معاملة اللائمين كرجاء المرجئة .

ولا يوجد في حقيقة المحبة شيء أطيب من الملامة ، اذ ليس للملامة الحبيب اثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب الا على حى الحبيب ، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب ، لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشنقين ، وسرور المريدن . وهذه الطائفة من الثقليين

(١) أحمد بن فاثك بن سعيد : كتيبه : أبو الفاثك . بغدادى . صاحب الجنيد والنورى . كان تلميذا للحلاج وخادما له . (انظر ترجمته في نفحات الانس ص ١٥٢) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج : من أهل بيضاء فارس . نشأ بواسط والعراق ، وقتل ببغداد سنة تسع وثلاثمائة (أرجع الي ما ورد عن الحلاج في القسم الاول ص ، ترجمة الحلاج في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٥ ، نفحات الانس ص ١٥٠ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٧٨) .

(٣) ورد في الرسالة القشيرية : سئل من الصوفي فقال : وجداني الذات لا يقتله أحد ، ولا يقبل أحدا . (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥١) وعلى هذا تكون العبارة السابقة لهذا القول : ويكونوا وجدانيين في أوصافهم .

(٤) يقول ابن حزم ان مرقى المقرين بلمة الاسلام خمسة وهم : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعية والخوارج . وأقرب مرقى المرجئة الى أهل السنة من ذهب مذهب أبى حنيفة الى أن الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا ، أما غلاة المرجئة فطائفتان : احدها تقول ان الايمان عقد بالقلب فقط وان أظهر الكفر والتلبيث بلسانه ، والطائفة الثانية تقول ان الايمان هو القول باللسان وان اعتقد الكفر بقلبه (انظر : الفصل في الملل ج ٢ ص ١١١ — ١١٢ ، ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٢٩) .

مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لأى أحد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضا لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة الا لهذا الفريق من هذه الأمة ، الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندي ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق ، والملاصق يسلك بالتكلف الطريق الذى يردده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة ، والاخرى خرجت بتلك . ولا يخطر على قلب الفقيه غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيد به شئ .

وقد اتفقت لى ذات مرة صحبة أحد الملامية فى ما وراء النهر ، وعندما تملكنى فى الصحبة حال من البسط قلت له : يا أخى ! ما مرادك من هذه الأعمال المشوشة ؟ قال : خلو الخلق منى . فقلت له : هؤلاء الخلق كثير ، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لاخلأ الخلق منك ، فاخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل ! ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم . أن أحدا لا يراك ، فلا تر أنت نفسك ! وآفة حالك من عينك . ثم ، ما شأنك بالغير ؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتماء ويطلبه من الغذاء ، فليس من الناس .

وهناك أيضا جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس ، لتأديب نفوسهم باحتقار الخلق لهم ، ويتنصفون منها ، لأن أطيب أوقاتهم ما يجدون فيه نفوسهم فى البلاء والمهانة .

ويروى عن السيد إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه سئل : أرايت نفسك قد بلغت المراد أبدا ؟ قال : نعم ، رايت ذلك مرتين : مرة ، كنت قد ركبت سفينة لم يعرفنى بها أحد ، وكنت ألبس خلعا ، وقد طال شعرى ، وكنت على حال كان أهل السفينة معه يسخرون منى ويهزأون بى . وكان مع القوم مهرج يأتى الى كل لحظة ويشد شعرى وينتزع منى ، ويستخف بى على سبيل السخرية . وكنت أجد نفسى على مرادى ، وأفرح بذل نفسى ، الى أن بلغ السرور يوما غايته بأن قام المهرج وتبول على !

والمرة الثانية : أتى بلغت قرية فى مطر عظيم ، وقد غلبنى برد الشتاء وابتلت المرتعة على جسدى ، فوصلت الى مسجد فلم يدعونى ادخل هناك . وقصدت مسجدا ثانيا وثالثا حتى عجزت ، وعصف بى البرد ،

فدخلت في موقد حمام ، وبسطت ذيلى على النار ، وتصاعد الدخان من تحتى فاسود ثوبى ووجهى ، فبلغت مرادى في تلك الليلة .

وقد وقعت لى أنا على بن عثمان لجلابى — وفقنى الله — واقعة ذات مرة ، وقمت بكثير من المجاهدة على أهل أن تحل تلك الواقعة ، فلم تحل . وكانت قد وقعت لى مثل تلك الواقعة من قبل ، فأقيمت مجاورا على قبر الشيخ أبى يزيد (البسطامى) الى أن حلت ، فقصدت هنالك هذه المرة أيضا ، وبقيت على قبره مجاورا ثلاثة أشهر ، وكنت اغتسل كل يوم ثلاث مرات ، وأتوضأ ثلاثين مرة ، أملا في كشف تلك الواقعة ، فلم تحل البتة . ونهضت وذهبت الى خراسان (١) ، وبلغت في الليل قرية في ولاية « كمش » (٢) حيث توجد خانقة بها جماعة من المتصوفة ، وكنت وفقا للسنة المشبعة ، ارتدى مرتقة خشنه ، ولم يكن معى من آلة أهل الرسم غير عصا وركوة ، وبدوت حقيرا جدا في أعين تلك الجماعة ، ولم يعرفنى منهم أحد ، وأخذ كل منهم يقول للآخر انى لست منهم ، وكان ذلك حتا لأنى لم أكن منهم ، ولكن كان لابد من قضاء تلك الليلة في ذلك المكان ! وفي تلك الليلة أجلسونى على سطح ، وذهبوا هم الى سطح أعلى ، وأجلسونى على أرض جافة ووضعوا أمامى خبزا غفنا ، وكانت تصل الى رائحة الاحسية التى كانوا يأكلونها ، وأخذوا يسخرون منى من ذلك السطح العلوى ، فلما فرغوا من الطعام أخذوا يأكلون الخبزوزج (٣) ، ويلقون بقشره فوق رأسى على سبيل المزاح . وكنت أتحمل استخفافهم راضيا وأقول : يا الهى ، لو لم يكونوا يرتدون ثياب أحبائك لما تحملت منهم هذا . وكلما ازدادت سخريتهم بى ازداد قلبى سرورا ، حتى حلت واتعنى بتحمل هذا العبء . وأدركت في الحال لماذا أنسح المشايخ — رحمهم الله — للجهال طريقا بينهم ، ويحتملون عبئهم .

هذه هى أحكام الملامة كاملة أوضحتها . وبالله التوفيق .

(١) « خراسان » : بلاد واسعة أول حدودها بها إلى العراق ، وآخر حدودها بها إلى الهد طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان وليس ذلك منها انها هو اطراف حدودها . ونشتل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهى كانت قصبتها وبلغ وطالقان ونسا وإبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون . وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحاً سنة ٣٠ في أيام عثمان . ونيسابور أكبر مدن خراسان وقد صارت عاصمة هذا الاقليم منذ اتخذها أبراء الطاهريين عاصمة لهم (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها) .

(٢) كمش : « قومس » : كورة واسعة تشتمل على مدن وقري ومزارع وهى في ذيل جبال طبرستان وقصبتها دامغان وهى بين الرى ونيسابور . ومن مدنها الشهيرة بسطام (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) الخبزوزج معرب (خريوزه) نوع من أنواع الشمام طو المذاق جدا وقوامه من الداخل أصلب من الشمام وأبيض اللون ، أما لون قشره من الخارج فأغبر تغلب عليه الخضرة الداكنة العفرة ، وأجود أنواعه بأصفهان .

الباب السابع

باب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين واتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين

والآن أذكر طرفاً من أحوال أئمتهم من الصحابة الذين كانوا هداة لهم وقدوتهم في المعاملة ، وأنفاسهم وقوادهم في الأحوال بعد الأنبياء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم ، ليكون تأكيداً لإثبات مرادك أن شاء الله تعالى عز وجل .

منهم شيخ الإسلام وبعد الأنبياء خير وأفضل الأنام ، خليفة النبي ، وإمام وسيد أهل التجريد، وهادي أرباب التفريد ، والبعيد عن الآفات النفسية، « أبو بكر عبد الله بن عثمان الصديق (١) » رضي الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة ، والآيات والدلائل الظاهرة في المعاملات والحقائق . وقد ذكر طرف من أحواله في باب التصوف . ويعدّه المشايخ مقدّم أرباب المشاهدة ، لقلة حكاياته ورواياته ، ويعدون عمر رضي الله عنه مقدّم أرباب المجاهدة ، لصلابته ومعاملته .

(١) اسمه عبد الله ، واسم أبيه ، أبو قحافة عثمان ، وكان اسم أبي بكر في الجاهلية ، عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ولقبه عتيقاً . ويقال لقب عتيقاً لجماله ، ويقال لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار . وسمى صديقاً ، لتصديقه خير الأسراء ، فهو : عبد الله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر إلى تيم قريش فيقال له التيمي ، وهو يلتقي مع الرسول عليه السلام عند مرة بن كعب .

وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به من أصحابه على بن أبي طالب ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر . وبويع أبو بكر في اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقبة بنى ساعده بن كعب بن الخزرج . ثم بويع بيعة العامة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال . مات في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . دفن مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ابنته زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . والصوفية يعدّون أبا بكر إمامهم وقدوتهم في التجريد . يقول أبو بكر الواسطي « أول لسان الصوفية : ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء . ويقول السراج في شرح قول الواسطي : أنه يشير بهذا إلى قول أبي بكر ، عندهما سؤاله النبي صلى

ومسطور في الأخبار الصحاح ، ومشهور بين أهل العلم ، أن أبا بكر حين كان يصلى بالليل ، كان يقرأ القرآن بصوت خفيض ، وكان عمر عندهما يصلى ، يقرأ بصوت جهير . وسأل الرسول عليه السلام أبا بكر : لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « أسمع من أناجى » فأنا أعرف أنه غير بعيد عني ، ويستوى لدى سمعه الخفيض والجهير . وسأل عمر ، فقال : « أوتظ الموصنان وأطرد الشيطان » ، فدل هذا (عمر) على المجاهدة ، وذاك (أبو بكر) على المشاهدة . ومقام المجاهدة في جنب مقام المشاهدة مثل قطرة في بحر ، ولهذا السبب قال النبي عليه السلام لعمر : « وهل أنت إلا حسنة من حسنات أبي بكر » فإذا كان عمر — وهو الذي كان به عز الإسلام — حسنة من حسنات أبي بكر ، فانظر كيف يكون العالمون ؟ !!

يرد عنه أنه قال : « دارنا فانية ، وأحوالنا عارية ، وأنفاسنا معدودة ، وكسلنا موجود » .

فعمارة الدار الفانية من الجهل ، والاعتماد على الحال العارية من البله ، وتوطين القلب على الأنفاس المعدودة من الغفلة ، وتسمية الكسل بالدين من الغين ، لأن ما هو عارية يسترد ، وما هو عابر لا يبقى ، وما يأنى تحت العدد ينتهى ، وليس للكسل دواء .

وقد بين لنا رضى الله عنه أنه لا خطر للدنيا والديوى حتى ينبغى شغل الخاطر بهما ، لأنك إذا شغلت بالفانى حجبت عن الباقي ، ولما صارت النفس والدينسا حجابا للطالب عن الحق ، أعرض أحباؤه عنهما . ولما عرفوا أن الدنيا عارية ، والعارية ملك لآخر ، كفوا عن التصرف في ملك الآخرين .

ويرد عنه أيضا أنه رضى الله عنه قال في مناجاته : « اللهم أبسط لى الدنيا وزهدهنى فيها » وتحت هذا رمز يعنى : أعطنى الدنيا أولا لأشكر ، ثم وفقنى لكى أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ، لأكون قد أدركت درجة

= الله عليه وسلم : ايش خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ، فهى اشارة جلية لأهل التوحيد فى حقائق التجريد .
وحكى عن الجنيد البغدادي ، أنه قال : اشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز من معرفته .
(انظر المعارف ص ٧٣ — ٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٦ — ١١٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٢ ، اللع ص ١٦٨ — ١٧٢ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٧ — ٩) .

الشكر والانفاق ، وكذلك مقام الصبر ، وحتى لا أكون مضطرا في الفقر ،
فيكون الفقر لى باختيارى .

وهذا رد شيخ المعاملة الذى قال : من يكون فقره اضطرارا فهو أتم
ممن يكون فقره اختيارا ، لأنه اذا كان فقره اضطراريا كان هو صنعة للفقر ،
واذا كان فقره اختيارا كان الفقر صنعة له ، وعندما يكون كسبه منقطعا
عن جلب الفقر فانه يكون أفضل من أن يجعله لنفسه درجة بالتكلف .

ونقول : ان صنعة الفقر تكون أظهر عند من تستولى ارادتها على قلبه
في حال الغنى ، الى حد أن يصرف عن محبوب آدم وذريته ، الا وهو الدنيا ،
وليس ذلك الذى تستولى على قلبه في حال الفقر الرغبة في الغنى الى
حد أنها تدفعه الى أعتاب الظلمة والسلطين من أجل المال ، فصنعة
الفقر هى الانتقال من الغنى الى الفقر ، لا طلب الرياسة في الفقر .

والصديق الأكبر رضى الله عنه — وهو المقدم على كل الخلق بعد الأنبياء
ولا يجوز أن يتقدمه أحد — قد قدم الفقر الاختيارى على الفقر الاضطرارى .
وكل مشايخ المتصوفة على هذا ، الا ذلك الشيخ الذى ذكرنا حجتة
ومقالاته ورددنا عليه . ثم ان الصديق الأكبر اكد هذا ، ودلل عليه بالدليل
الواضح .

روى عنه الزهرى انه حين بويع بالخلافة ، اعتلى رضى الله عنه المنبر
وخطب ، وقال في اثناء الخطبة : « والله ما كنت حريصا على الامارة يوما
ولليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ،
وما لى في الامارة من راحة » .

وحين يوصل الله عز وجل العبد الى كمال الصدى ، ويكرمه في محل
التمكين ، فانه ينتظر وارد الحق ليرى على أى صفة يجىء ويمضى عليها ،
فاذا جاء الأمر له بالفقر يكون فقيرا ، واذا جاء الأمر بالغنى يكون غنيا ،
فلا يتصرف في هذا ولا يختار ، كما فعل الصديق رضى الله عنه في البداية .
ولا يكون له فيه أيضا الا التسليم ، كما فعل في النهاية ، فبه اقتداء هذه
الطائفة في التجريد والتمكين ، والحرص على الفقر ، وترك الرياسة ،
من بعد أن أصبح امام دين المسلمين عامة ، وامام أهل هذه الطريقة خاصة ،
رضى الله عنه .

ومنهم : قائد أهل الايمان وفقير أهل الاحسان ، امام أهل الحقائق ،

وغريق بحر المحبة ، أمير المؤمنين « أبو حفص عمر بن الخطاب (١) » رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة والفراسات المذكورة ، خصه الله بالفراسة والصلابة ، وله لطائف في هذه الطريقة ، وحقائق في هذا المعنى ، كما قال عليه السلام : « الحق ينطق على لسان عمر (٢) » . وقال أيضا عليه السلام : « قد كان في الأمم محدثون فان يك في أمتي فعمير (٣) » . وله في هذه الطريقة رموز لطيفة كثيرة لا يمكن حصرها كلها في هذا الكتاب .

ويرد عنه انه قال : « العزلة راحة من خلطاء السوء » . والعزلة على نوعين ، أولهما : الاعراض عن الخلق ، والآخر : الانقطاع عنهم .

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وينسب الى عدى فيقال العدوى ، ويكنى أبا حفص . وكان يدعى الناروق لأنه أعلن الاسلام ونادى به والناس يخفونه ، ففرق بين الحق والباطل . وكان المسلمون يوم أسلم تسعة وثلاثين رجلا وامرأة بككة فكلهم عمر أربعين . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . عهد اليه أبو بكر واستخلفه بعده . وكان أول عمل قام به ، رد سبائيا أهل الردة الى عشائهم وقال : انى كرهت أن يصير النسي سنة على العرب . وحج بالناس عشر سنين متوالية ، ثم صدر الى المدينة ، نقله (فيروز أبو لؤلؤة) غلام المغيرة بن شعبة في أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقبر في حجرة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنهما . وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمسة ليال . من عمر قيام شهر رمضان وكتب بذلك الى البلدان . سمي أمير المؤمنين ، وكان يسمى خليفة رسول الله . وكتب اليه أبو موسى الأشعري « لعن الله عمر أمير المؤمنين » وحررت عليه . كان في وجهه خطان من كثرة الكاء ، وكان يحب الصلاة في وسط الليل ، وكان يمر بالآية في ورده فتخذه العبراب فيبكي حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يماد ، يحسبونه مريضا .

كان في أعلى درجات الصديقين وظهرت عليه دلائل ذلك ، وهو ما ذكر عنه من أنه كان يخطب فصاح فقال في وسط خطبته : يا سارية الحل ! وساربه في عسكر على باب نهاوند . فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو . وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ قال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول : يا سارية ! الجبل ! الجبل ! وكان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت .

ويقول السراج : لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر ، رضى الله عنه ، بمعاني . خص بذلك عمر من اختياره لبس الرقعة والخضونة ، ودرك الشبوات . واجتناب الشبهات ، وإظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انصاف الحق ، ومحق الباطل ، ومساوات الاقارب والاباعد في الحقوق ، والمسك بالأشد في الطاعات وغير ذلك مما روى عنه وبيانه بطول .

(أنظر ترجمته في : المعارف ص ٧٧ — ٨٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ — ١٣٩ ، مروح الذهب ج ١ ص ٤١٦ ، اللمع ص ١٧٣ — ١٧٥ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ١٤ — ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٩ — ١٣) .

(٢) رواه الحكيم عن الفضل بن عباس : « الحق بعدى مع عمر حيث كان » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبى هريرة : « قد كان فيما مضى تبلكم من الأمم أناس محدثون فان يك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٢) .

والاعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال ، وتجنب صحبة الأجناس بالظاهر ، والركون الى النفس لرؤية الأعمال ، وتخليص النفس من مخالطة الناس ، وتأمين الخلق من شرك .

أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب أى تعلق بالظاهر ، فحين ينقطع الشخص بقلبه عن الخلق وصحبته ، لا تكون له دراية بالخلوقات حتى يستولى التفكير فيهم على قلبه ، ومن ثم فإن هذا الشخص وإن يكن بين الخلق ، فإنه يكون وحيدا ، وتكون همته فريدة عنهم . وهذا مقام عال ويعيد جدا وصحيح . وكانت هذه صفة عمر رضى الله عنه ، الذى أشار الى راحة العزلة ، وإن كان بالظاهر فى ولاية الإمارة والخلافة .

وهذا دليل على أن أهل الباطن وإن خالطوا الخلق فى الظاهر ، فإن قلوبهم تكون متعلقة بالحق ، ويكونون راجعين اليه فى كل حال ، ويعدون ذلك القدر من صحبتهم للخلق بلاء من الحق . وهم لا يتحولون عن الحق تعالى بصحبته للخلق ، لأن الدنيا لا تصفو أبدا لأحباب الحق ، ولا تنهأ أحوالها ، كما قال عمر رضى الله عنه : « دار أسست على البلوى بلا بلوى محال » .

وكان عمر رضى الله عنه من خواص أهل الرسول عليه السلام وأصحابه ، وكان مقبولا فى حضرة الحق تعالى بجميع أفعاله ، الى حد أن جاء جبريل عليه السلام عندما أسلم عمر وقال للرسول عليه السلام : « يا محمد قد أشتى أهل السماء اليوم بإسلام عمر » . وبه اقتداء هذه الطائفة فى لبس المرتعة والصلابة فى الدين من بعد أن صار رضى الله عنه إماما للخلق فى كل شىء .

ومنهم أيضا : جوهر كنز الحياء ، وأعبد أهل الصفاء ، والمتعلق بأعتاب الرضا ، والتمكن على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه : « **أبو عمرو عثمان بن عفان (١)** » رضى الله عنه . ذو الفضائل الواضحة ، والمنائب الظاهرة فى جميع المعانى .

(١) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة ، ويجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته : رقية وأم كلثوم . سعى ذا النورين لجمعه بينهما . وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر الى الحبشة وهاجر الى المدينة . اشترى بشر رومة فى المدينة ، وكان ليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين بضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها =

ويروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه في يوم حرب الدار ، كنا عند عثمان رضى الله عنه ، فلما اجتمع الغوغاء على بابيه ، شهر غلمانته السلاح ، فقال لهم : عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حر منى . وخرجنا خوفا على أنفسنا ، فلاح الحسن بن على في الطريق ، ورجعنا معه ، ودخلنا على عثمان لنرى لم أقبل الحسن رضى الله عنه ، فلما دخل الحسن ، حياه وعزاه على تلك البلية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك وأنت أمام القوم ، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : « يا ابن أخى ! ارجع واجلس في بيتك حتى يأتى الله بأمره ، فلا حاجة لنا في اهراق الدماء » .

وهذا علامة التسليم في حال ورود البلاء ، في درجة الخلّة ، كما حدث لابراهيم عليه السلام عندما أشعل النمرود النار وألقى به فيها ، فقد جاءه جبريل عليه السلام وقال : « هل لك من حاجة » قال : « أما إليك ، فلا » فقال : فسل الله . قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ، فعثمان في مكان الخليل ، والغوغاء في مكان النبار ، والحسن في مكان جبريل . ولكن ابراهيم عليه السلام قد نجا من البلاء ، وعثمان رضى الله عنه هلك في البلاء .

فاشتري نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فكان يوم له ويوم لعثمان . فاذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكتفيهم يومين ، فقال اليهودى لعثمان : أفسدت على فاشترى النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم . بويح في غرة محرم سنة أربع وعشرين وهو ابن تسع وستين سنة . وكانت أيامه اثنتى عشرة سنة وحج بالناس إياه كلها إلا السنة الأولى . حوضر أربعين يوما وقتل في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل أن الذين قتلوه : محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى خذيفة وابن حزم . فلما دخلوا عليه من دار بنى حزم ضربه أحدهم بمشقص في وجهه فسال الدم على المصحف في حجره . ثم أخذ محمد ابن أبى بكر بلحيته ... ودفن بالبقيع ليلا وأخفوا قبره . ويقول السراج أن عثمان رضى الله عنه خص بالتمكين ، والتمكين من أعلى مراتب المتحققين . وما يتعلق به أهل الحقائق بعثمان ، ما روى عنه من أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه ، وكان له عدة مهالك ، فقيل له : لو دفعتها الى بعض عبيدك ؟ فقال : انى قد استطعت أن أفعل ذلك ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل يعجز عن ذلك وهل تكره ذلك ؟ فدل على أنه كان لا يدع افتقار نفسه ، وكان يفتقد رياضة نفسه لئلا يسكن الى ما جمع اليه من الأموال لانه ليس في ذلك كغيره .

وما يدل على تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره الى أن قتل ، رضى الله عنه ، وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع الآية : « نسيكتيكم الله وهو السميع العليم » .

(انظر ترجمته في المعارف ص ٨٢ — ٨٥ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٩ — ١٥٢ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ ، اللبس ص ١٧٦ — ١٧٨ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٣ — ١٥) .

والنجاة تعلق بالبقاء ، وللهلاك تعلق بالفناء ، وقد ذكرت طرفا من الحديث في هذا المعنى من قبل .

فاقتداء هذه الطائفة بعثمان رضى الله عنه في بذله المال والحياة ، والتسليم في الأمور ، والاخلاص في العبادة . وهو على الحقيقة امام حق في الحقيقة والشريعة ، وطريقته في المحبة ظاهرة . وبالله التوفيق .

● ومنهم ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء ، وقدرة الاولياء والاصفياء ، « أبو الحسن على بن أبي طلب (١) » كرم الله

(١) هو على بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ويكنى ابا الحسن ، ابن عم الرسول عليه السلام وزوج ابنته فاطمة . بويج بيعة العابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان بأربعة أيام . ويبيع له بالمدينة طلحة والزبير . وسار الى البصرة سنة ست وثلاثين وفيها كانت واقعة الجبل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة . وقتل طلحة وهزم من كان معهم . ورجع الزبير فقتل بوادى السباع . وأحيط بعائشة فأخذت ، ودخل على البصرة فباعه أهلها . وأرسل عائشة الى المدينة ووجه معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة ، ثم انصرف على بعد ذلك الى الكوفة واستعمل على البصرة عبد الله بن عباس . وتنبأ لحرب معاوية فسار بأهل العراق ، وأقبل معاوية في أهل الشام ومن أتبعه فكانتوقعة صنين ثم الحكيان . ولم يزل في حرب الى أن قتل رحمه الله ولم يحج لشغله بالحروب . وكان مقتله في رمضان سنة أربعين ، وقاتله عبد الرحمن بن ملجم ، ودفن بالكوفة عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة . وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة أشهر . ويقول السراج : لأمر المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني جليلة وإشارات لطيفة ، والفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان ، والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية : من ذلك أنه سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفني نفسه ، لا تشبه صورة ، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحه ، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشيء ولا من شيء ولا في شيء ولا بشيء . سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره .

وسأله رجل عن الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، نوصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فان صبح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات .

وذكر عنه أنه وقف على باب خزانة الأموال وقال : يا صفراء ويا بيضاء غري غري . ويقال أنه كان اذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك ياأمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجيال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، فلا أدري أحسن أداء ما احتضنت أم لا ؟

وكان رضى الله عنه يقول : القلوب أوعية وخيرها أوعاها . ويقول : التقوى هي ترك الإصرار على المعصية وترك الإغترار بالطاعة .

وكان الجنيد يقول : رضوان الله عليه أمر المؤمنين على لولا انشغاله بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة ، ذاك أمرؤ أعطى العلم اللدني . والعلم اللدني هو العلم الذي خص به الخضر عليه السلام .

(انظر : المعارف ص ٨٨ - ٩٠ ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤ - ١٨٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢ - ٤٥ ، اللمع ١٧٩ - ١٨٢ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ١٥ - ١٧ ، خزينة الاصفياء ط ص ٥ - ٢٦) .

وجهه . وله في هذه الطريقة شأن عظيم ، ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام . في دقة التعبير عن أصول الحقائق الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « شيخنا في الأصول والبلاء على المرتضى » رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو امام هذه الطريقة في العلم والمعاملة ، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات .

ويحكى أن رجلا ذهب اليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصنى . فقال له : « لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك ، فان يكن أهلك وولدك من أولياء الله ، فان الله لا يضيع أولياءه ، وان كانوا أعداء الله ، فما همك وشغلك لأعداء الله » .

وهذه المسألة تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله ، لأنه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقيئهم صادقا ، كما ترك موسى عليه السلام ابنه شعيب عليه السلام في حال قاسية وأسلم أمرها لله ، وكما حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل عليهما السلام الى واد غير ذى زرع ، وأسلم أمرهما لله جل جلاله ، ولم يجعلهما أكبر شغلها ، وربطتا قلبيهما بالحق تعالى حتى تحقق مرادهما في الدنيا والآخرة في حال انعدام المراد ، بتسليم الأمور لله عز وجل .

وهذا شبيه بما قاله على كرم الله وجهه لسائل كان قد سأله : ما أظهر الكسب ؟ قال : « غناء القلب بالله » .

وكل قلب يكون غنيا بالله تعالى لا يصيره عدم الدنيا فقيرا ، ووجودها لا يسره . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والصفوة ، وقد مر ذكرهما . فأهل هذه الطريقة يقتدون به في حقائق العبارات ودقائق الإشارات ، والتجرد عن معلوم الدنيا ، والنظر في تقدير الحق .

ولطائف كلامه أكثر من أن تحصي ، ومنهجى في هذا الكتاب هو الاختصار ، وبالله التوفيق .

الباب الثامن باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت

وأهل بيت النبي عليه السلام هم أولئك الذين اختصوا بطهارة الأصل ،
ولكل منهم في هذه المعاني قدم راسخة ، وكانوا كلهم قدوة هذه الطائفة ،
الخواص منهم والعوام . وأبين طريقا من أحوال طائفة منهم ، ان شاء
الله عز وجل .

● منهم فلذة كبذ المصطفى ، وريحانة قلب المرتضى، وقرّة عين الزهراء :
« أبو محمد الحسن بن علي (١) » كرم الله وجهه ، كان ذا نظر صائب في
هذه الطريقة ، وحظ وافر في دقائق العبارات ، الى حد أنه عندما أوصى
قال : « عليكم بحفظ السرائر فان الله تعالى مطلع على الضمائر » .

وحقيقة هذا ان العبد مخاطب بحفظ الاسرار مع الحق ، وحفظ الاظهار
من مخالفة الجبار .

(١) كان يكنى أبا محمد ، بويج بعد وفاة أبيه في رمضان سنة أربعين ، ووجه عماله
الى السواد والجبل ، ودعا بعبد الرحمن بن ملجم وقتله . وقدم معاوية العراق ،
وكان الحسن عليلا ، تد تفرق عنه أصحابه فلما رأى أنه لا قوة به ، صالح معاوية ،
وصعد المنبر وقال : « أيها الناس ! ان الله هداكم بأولنا وحقق دماءكم بأخونا ،
وقد سالت معاوية ، وأن أدري لعله فتنة لسكم ومنازع الى حين » . ودخل معاوية
الكوفة بعبد صالح الحسن . ومات الحسن في ربيع الاول سنة إحدى
وأربعين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وبقي خليفة بالحجاز واليمن والعراق نحو سبعة
أشهر .

ويقال ان معاوية عرض عليه امرأته جعدة بنت الاشعث بن قيس ، فدنس اليها
انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك مائة ألف درهم وزوجتك يزيد :
فكان ذلك الذي بعثها على سمه ، فلما مات وفي لها معاوية المال وأرسل اليها :
انا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

كان رضى الله عنه يقول : انى لاستحقى من ربى عز وجل أن ألقاه ولم أمش
الى بيته فبشى عشرين مرة الى مكة من المدينة على رجليه . وكانت الجنائب تقاد
معه . وخرج من ماله لله تعالى مرتين . وكان اذا اشترى أحد حائطا ثم افترق
البائع يرد عليه الحائط ويردنه بالثمن معه . وما قال قط لسائل : لا . ولما
نزل الموت به بعد شربه السم ، قال أخرجوا فراشى الى صحن الدار ، فأخرج ،
فقال : اللهم انى احتسب نفسي عندك فانى لم أصب بمثلها ، ثم قبض .

(انظر : المعارف ص ٩٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٩١ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ .
— ٥٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٦) .

ويرد عنه أنه عندما غلب شأن القدرية ، وتشنت مذهب الاعتزال في الدنيا ، كتب الحسن البصري رضى الله عنه الى الحسن بن على رضى الله عنهما ، كتابا قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : السلام عليك يا ابن رسول الله وقرّة عينه ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فانكم معشر بنى هاشم كالفلك الجارية في اللجج ، ومصاييح الدجى ، وأعلام الهدى ، والأئمة القادة الذين من تبعهم نجا كسفينة نوح المشحونة النى يأول إليها المؤمنون ، وينجو فيها المتمسكون . فما قولك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حيرتنا في القدر ، واختلافنا في الاستطاعة ؟ لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك ، فانكم ذرية بعضها من بعض ، بعلم الله علمتم ، وهو الشاهد عليكم ، وانتم شهداء الله على الناس . والسلام » .

وعندما وصل الكتاب كعب الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد انتهى الى كتابك عن حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا ، والذي عليه رأى أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله فقد فجر . ان الله لا يطاع باكراه ولا يعصى بغلبة ، ولا يهمل العباد من الملكة ، لكنه المالك لما ملكهم والقادر على ما غلبه قدرتهم ، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا ولا لهم عنها مثبطا ، فان أتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبينها ، فعل ، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها اجبارا ولا الزمهم اياها اكراها ، باحتجاجة عليهم أن عرفهم ومكنهم وجعل لهم السبيل الى أخذ ما دعاهم اليه وترك ما نهاهم عنه . ولله الحجة البالغة . والسلام » .

أى أن انكار التقدير مذهب القدر ، وحمل المعاصى على الله مذهب الجبر ، فالعبد مختار في كسبه بقدر ما حباه الله عز وجل من استطاعة ، والدين بين الجبر والقدر .

ولم يكن مرادى من هذا الكتاب أكثر من كلمة ، غير أنى أوردته كله لأنه غاية في الفصاحة والعذوبة . وقد أوردت كل هذا لكى أبرهن على أنه رضى الله عنه كان في علم الحقائق والأصول الى حد أن اشارة الحسن البصري — مع علو مكانته في العلم — كانت اليه .

ووجدت في الحكايات أن اعرابيا جاء من البادية ، وكان جالسا على بابهِ في الكوفة ، فسبه وسب أمه وأباه . فنهض وقال له : يا أعرابى ،

إذا كنت جائعا يحضر لك الطعام ، وإذا كنت ظمأنا يؤتى لك بالماء ،
والا ماذا ألم بك ؟ وكان الاعرابى يقول له : انت كذا ، وامك كذا ، وابوك
كذا . فامر الحسن رضى الله عنه غلامه فاحضر بدرة دنائير ، وقال له :
ايها الاعرابى ! أسألك المعذرة ، فلم يبق ببيتنا أكثر من هذا والا ما منعناك
اياه . فلما سمع منه الاعرابى هذا قال : أشهد أنك ابن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ! وقد جئت هنا لتجربة حبلك .

وهذه صفة محتقى المشايخ ، رضوان الله عليهم ، الذين يستوى لديهم
مدح الخلائق وذمهم ، ولا تغيرهم الجفوة في القول ، والله اعلم .

● ومنهم شمع آل محمد ، المجرد من العلائق ، سيد زمانه ، « أبو عبد الله
الحسين بن أبى طالب (١) » رضى الله عنهما . كان من الأولياء المحققين
وقبلة أهل البلاء ، وقتيل صحراء كربلاء (٢) . وجميع أهل الطريقة متفقون
على صحة حاله لأنه كان متابعاً للحق ما دام الحق ظاهراً ، فلما فقد
الحق شهر سيفه ، ولم يهدأ حتى جعل روحه العزيزة فداء الشهادة لله
عز وجل . وللرسول فيه اشارات خصه بها ، كما روى عمر بن الخطاب

(١) « أبو عبد الله » كنيته . وورد عنه أنه لما مات معاوية طولب (الحسين) بالبيعة
ليزيد بالمدينة ، فسأم التأخير وخرج الى مكة . وكتب أهل العراق اليه ووجهوا
الرسول ، فوجه اليهم مسلم بن عقيل وكتب اليهم وأعلمهم أنه أكثر كتابه . فلما
قدم مسلم بن عقيل بالكوفة بايحه أهلها . وخرج الحسين من مكة يريد العراق ،
وكان يزيد قد ولى على العراق عبيد الله بن زياد وكتب اليه يقول : قد بلغنى
أن أهل الكوفة قد كتبوا الى الحسين فى القعود عليهم وأنه قد خرج من مكة متوجهاً
نحوهم . وقد بلى بلدك من بين البلدان وأيامك من بين الايام ، فان قتلته والا رجعت
الى نسيك والى أبوك عبيد فاحذر أن يفوتك » . وسار الحسين الى العراق وفى
الطريق أتاه الخير يقتل مسلم بن عقيل فأراد أن يرجع ، فبعث اليه عبيد الله
بالحر بن يزيد فبغضه . ثم بعث اليه بممر بن سعد بن أبى وقاص فى جيش فلقى
الحسين فى كربلاء وقتل . وكان الذى قتله رجل من مزحج وأجتر رأسه وانطلق به
الى ابن زياد فبعث به الى يزيد ومعه الرأس . وكان مقتله يوم عاشوراء سنة
أحدى وستين وهو ابن ست وخمسين . وحملت رأسه الى مصر ودفنت بالمشهد
المشهور بها ومشى الناس أمامها حفاة من مدينة غزا الى مصر تعظيماً لها .
قيل له رضى الله عنه : ما سمعت من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول : أن
الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها . وعظمت عنه أنه يكبر فأكبر خلفه فإذا
سبح تكبى أعاد التكبير حتى يكبر سبعا . وسمعته يقول : من يطعم الله يرفعه ،
ومن يعص الله يضعه ، ومن يخلص نيته لله يزينه ، ومن يثق بما عند الله يغنيه ،
ومن يعزز على الله يذله .

وقال بعضهم : سمعت الحسين يقول : الصدق عز والكذب مجز ، والسر
أمانة ، والجوار قرية ، والمعونة صداقة ، والعمل تجربة ، والخلق الحسن
عبادة ، والصمت زين ، والشح فقر ، والسخاء غنى ، والرق لب .
(انظر : المعارف ص ٩٣ ، النعماني ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٨ ، مروج الذهب
ج ٢ ص ٨٦ - ٩٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفاء ج ١
ص ٢٨ - ٣٠) .

(٢) « كربلاء » : الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى طرف البرية
عند الكوفة . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩) .

رضى الله عنه ، قال : جئت النبی علیه السلام یوما ، فرأيتہ کان قد أركبه على ظهره ، ووضع حبلا في فمه ووضع طرفه في يد الحسين ، حتى كان الحسين يسير وهو عليه السلام يسير خلفه على ركبتيه ، فلما رأيت هذا قلت : « نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله » . فقيل النبی علیه السلام : « نعم الراكب هو يا عمر » .

وله كلام لطيف في طريقة الحق ، ورموز كثيرة ومعاملات طيبة . ويروى عنه أنه قال : « أشفق الأخوان عليك دينك » ، لأن نجاة المرء تكون في متابعة الدين ، وهلاكه في مخالفته ، فالرجل العاقل هو الذي يكون عند أمر المشفقين ، ويدرك أنهم يشفقون عليه ، ولا يسير إلا متابعا لهم . والأخ الحق هو الذي يبدي النصيحة ، ولا يفلق باب الشفقة .

ووجدت في الحكايات أن رجلا جاءه يوما وقال : يا ابن رسول الله عز وجل ! أنا رجل فقير ولى أطفال ، وأريد منك قوت ليلتي ! فقال له الحسين : اجلس فان لنا رزقا في الطريق الينا ، فانتظر حتى يحضروه . ولم يمض كثير حتى جىء اليه بخمس صرر من عند معاوية ، في كل منها ألف دينار ، وقالوا ان معاوية يعتذر لك ويقول : أنفق هذا المقدار على أتباعك ، الى أن تأتيك بعده معونة أوفى . فأشار الحسين رضى الله عنه أن اعطوها لذلك الفقير ، فأعطوه الصرر الخمس ، واعتذر اليه قائلا : لقد بقيت كثيرا ، ونلت قليلا ، ولو كنا نعرف أنه هذا المقدار لما حملناك على الانتظار ، فاعذرنا لاننا من أهل البلاء ، وقد تخلفنا عن كل راحت الدنيا ، وفقدنا مرادنا فيها ، ويجب أن نعيش لمراد الآخرين .

ومناقبه أشهر من أن تخفى على أحد من هذه الأمة ، والله أعلم .

● ومنهم أيضا : وارث النبوة ، وسراج الأمة ، السيد المظلوم ، والامام المحروم ، زين العباد ، وشمع الأوتاد : « أبو الحسن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب (١) » رضى الله عنه . كان أكرم وأعبد أهل زمانه ، وهو مشهور بكشف الحقائق والنطق بالدقائق .

(١) الامام الرابع من الأئمة الاثني عشر ويكنى بزين العابدين وهو على الاصغر ، وأما الأكبر فقتل مع الحسين . وليس للحسين رضى الله عنه عقب الا من ولد زين العابدين هذا . أمه بنت يزددجرد آخر ملوك الفرس . قال عنه الزهري : ما رأيت قرشيا أفضل منه . وكان يثنى على أبي بكر وعمر وعثمان ويترحم عليهم ، ويصلى كل يوم وليلة ألف ركعة . قيل توفي سنة أربع وتسعين أو اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن بالبقيع في قبر عه الحسن بن على رضى الله عنه ، وقيل توفي سنة تسع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال أبو خالد الكابلي : سمعت على ابن الحسين يقول : « من عفا عن محارم الله كان عابدا ، ومن رضى بقسم الله كان غنيا » . ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلما . (أنظر المعارف ٩٤ ، اليعقوبي ج ٣ ص ٤٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢٠ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٠) .

سئل : من أسعد أهل الدنيا والآخرة ؟ قال « من إذا رضى لم يحمله
رضاه على الباطل ، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من الحق » . وهذا
من أوصاف الكمال للمستقيمين ، لأن الرضا بالباطل باطل ، والكف عن الحق
في حال الغضب باطل ، ولا يكون المؤمن مبطلا .

ويروى عنه أنه حين قتل الحسين بن علي مع أولاده ، رضوان الله
عليهم ، في كربلاء ، لم يبق سواه ، لأنه كان قيما على النساء ومريضا .
وكان أمير المؤمنين الحسين رضى الله عنه يدعوه عليا الأصغر — فلما
حملوه على ابل عارية الى دمشق (١) لدى يزيد بن معاوية — أخزاه الله
— قال له رجل : « كيف أصبحت يا علي ، ويا أهل بيت الرحمة ؟ » قال :
« أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون : يذبحون أبناءنا
ويستحيون نساءنا فلا ندري صباحنا من مساءنا ، وهذا من حقيقة
بلائنا » ، ونحن نشكر الله جل جلاله على نعمائه ، ونحمده على بلوائه .

ورد في الحكايات أن هشام بن عبد الملك بن مروان (٢) ذهب للحج عاما ،
وكان يطوف بالكعبة . وأراد أن يقتل الحجر ، فلم يجد طريقا اليه لكثرة
الزحام ، فصعد المنبر وخطب . وفي أثناء الخطبة دخل زين العابدين على
ابن الحسين المسجد بوجه مقمر ، وخذ منور ، وثوب معطر وطاف بالبيت .
فلما اقترب ، ألقى الناس الحجر تعظيما له حتى يقبله . فلما رأى ذلك
رجل من أهل الشام (٣) ، قال لهشام : يا أمير المؤمنين ! لم يفسحوا لك
الطريق الى الحجر وأنت أمير ، فمن كان ذلك الفتى الجميل الذي جاء

(١) « دمشق » : مدينة جبلية قديمة . وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام .
ونهرها الأعظم يقال له بردا ، افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة
(البلدان ص ٨٧) . وقد روى عن كعب الأحبار أن أول حائط وضع في الأرض بعد
الطوفان حائط دمشق وهران (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٨٩) .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان يكنى أبا الوليد . بويع بعد يزيد بن
عبد الملك ويقال وأنته الخلافة وهو بقرية يقال لها الزيتونة من الجزيرة نجاء البريد
فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى جاء دمشق ، وكان ذلك في رمضان
سنة خمس ومائة . وفي عهده قتل زيد بن علي الشهيد سنة مائة واحد وعشرين
وتحررت الشيعة في خراسان وظهر أمرهم . كانت ولايته عشرين سنة إلا خمسة
أشهر وتوفي بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .
(انظر : اليعقوبي ج ٣ ص ٥٧ — ٦٨ ، المعارف ص ١٥٩ ، مروج الذهب
ج ٢ ص ١٨٠)

(٣) « الشام » : سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت
بالشامات . وقال آخرون سميت بالشام بسام بن نوح وذلك أنه أول من نزلها
فجعلت السين شيئا .

أما حددها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن =

فتفرق الناس جميعا عن الحجر وأخلوا المكان ؟ فقال هشام : لا أعرفه —
مخافة أن يعرفه أهل الشام ويتولون اليه ، ولا يرغبون في أمارته — وكان
الشاعر الفرزدق (١) هناك فقال : أنا أعرفه ، قالوا : من هو ، يا أبا فراس؟
أخبرنا لأننا رأيناه فتى مهيبا جدا . فقال الفرزدق : أنصتوا لأرتجل لكم
نسبه .

(شعر عربى)

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا ابن فاطمة الزهراء ويحكم اذا رآته قریش قال قائلها
ينمى الى ذروة العز التى قصرت من جده دان فضل الانبياء له
ينشق نور الدجى عن نور طلعت يكد يمسكه عرفان راحته
يفضى حياء ويفضى من مهابته فى كفه خيزران ريحها عبق
مشتقة من رسول الله تبعته كلتا يديه غياث عم نفعهما
هم البرية بالاحسان فانقشعت لا يستطيع جواد بعد غايتهم
هم الغيوث اذا ما أزمة أزم من معشر حبهم دين وبعضهم
ان عد اهل التقى كانوا أئمتهم والحل يعرفه والبيت والحرم
هذا التقى النقى الطاهر العلم وابن الرضى على خيركم قدم
الى مكارم هذا ينتهى الكرم عن نيلها عرب الاسلام والعجم
وفضل أمته دانت له الامم كالشمس ينجاب اشراقها الظلم
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم فما يكلم الا حين يبتسم
من كف أروع فى عرنيته شمس طابت عناصره والخيم والشيم
يستو كفان ولا يعرفهما العدم عنه الغيبة والاملاق والظلم
ولا يدانيهم قوم وان كرموا والاسد أسد الثرى والبأس يحتلم
كفر وقريهم منجا ومعتصم أو قيل من خير اهل الأرض قيل هم

= جبل طىء من نحو القبلة الى بحر الروم .. وبها من أمهات المدن حلب وحماة
وحمص ودمشق وبيت المقدس .. وهى خمسة أجناد : جند مسرين وجند دمشق
وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٤٤)
وقد بدى بفتح الشام سنة ثلاث عشرة وتم فتح مدنها سنة سبع عشرة (فتوح
البلدان ج ١ ص ٢٥ - ٤٤) .

(١) « الفرزدق » : أبو فراس همام الفرزدق ، ويقال هميم بالتصغير . الشاعر
المشهور وصاحب جرير وهما الشاعران المعروفان بالمهاجاة . وقد جمع لهما كتاب
يسمى « النقائض » وهو من الكتب المشهورة . وتوفى الفرزدق بالبصرة سنة عشر
ومائة قبل جرير بأربعين يوما وقيل ثمانين يوما . وقيل لما مات الفرزدق وبلغ
خبره جرير بكى وقال : أما والله أنى لا أعلم أنى قليل البقاء بعده ، ولقد كان
نجما واحدا ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقتلها مات ضد أو صديق
الا وتبعه صاحبه .

قيل التقى الحسن البصرى والفرزدق فى جنازة فقال الفرزدق للحسن البصرى : =

وقال في مدحهم أبياتا كثيرة كهذه ومدحه ومدح أهل بيت النبي عليه السلام ، فغضب عليه هشام وأمر بحبسه بعسفان — وهو موضع بين مكة (١) والمدينة (٢) — ونقلوا هذا الخبر بعينه الى (زين العابدين) فأمر فحملوا اليه اثني عشر ألف درهم ، وقال : قولوا له : يا أبا فراس ، اعذرنا لاننا معسرون لانملك أكثر من هذا والا أرسلناه لك . فأعاده الفرزدق وأرسل يقول : يا ابن رسول الله ، لقد قلت شعرا كثيرا قبل هذا من أجل المال ، وذكرت في تلك المدائح الكذائب ، فقلت هذه الأبيات ، لكفارة بعضها ، من أجل الله ومحبة رسول الله وأولاده . فلما أبلغوا زين العابدين الرسالة قال : أرجعوا وأعيدوا اليه المال ، وقولوا له : يا أبا فراس ، اذا كنت تحبنا فانك لا تترضى أن نستعيد شيئا وهبناه وأخرجناه من ملكنا . وعندئذ قبل الفرزدق المال .

ومناقب هذا السيد أكثر من أن يمكن جمعها ، والله أعلم .

● ومنهم : الحجة على أهل المعاملة ، وبرهان أهل المشاهدة ، أمام أولاد النبي ، والمختار من نسل على ، « أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، ورضي عنهم . ويقال أيضا أنه كان يكنى بأبي عبد الله (٣) ، ويلقب بالباقر .

= أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشرف الناس . فقال الحسن : كلا ، لست خيرهم ولست بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة . (انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٢) . وقد وردت هذه الحكاية والقصيدة في وفيات الأعيان في ترجمة الفرزدق . ونجد هنا اختلافا في ترتيب بعض الأبيات ، وتحريفا في بعض المفردات . (انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠) .

(١) « مكة » المكرمة : تقع بين جبال عظام . وهي أودية ذات شعاب فجالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الاعظم منه تشرق الشمس على المسجد الحرام ، وتقعيتان وفاضح والمحبس وثور عند الصفا وحراء وبئر وتفاحة والمطائح والفلق والحجون ومسقر . لها من الشعاب كثير يقع المسجد الحرام بين جبال وتقعيتان . وقد زاد في بنائه وتوسيعه — حتى صارت الكعبة في وسطه — الخليفة المهدي في سنة أربع وستين ومائة (انظر : البلدان ص ٧٨ — ٨٠) .

(٢) « المدينة » المنورة : كما سهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة في مستوى من الأرض عذبة بركة جبلية وذلك أن لها جبلين أحدهما : أحد والآخر . غير ، وأهلها المهاجرون والانصار والتابعون وبها قبائل العرب . وقد انتقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب معانها وأخط الناس بها الخطوط وكانوا قتل ذلك متفرقين واتصل البنيان بعضه ببعض حتى صارت مدينة . ومن المدينة الى مكة عشر مراحل عامرة أهلة (انظر : البلدان ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣) هذه الكنية ليست له وإنما لابنه جعفر الصادق (انظر : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥) .

كان مخصوصا بدقائق العلوم ، ولطائف الاشارات في كتاب الله عز وجل ، وكانت له كرامات مشهورة ، وآيت زاهرة ، وبراهين نيرة .

ويقال ان ملكا قصد هلاكه يوما ، وارسل اليه رجلا ، فلما دخل عليه اعتذر له الملك ، وقدم له هدية ، وردده بالاحسان ، فقيل له : أيها الملك ! لقد كنت تقصد اهلاكه ، ورأيك معه على حال آخر ، فماذا حدث ؟ قال : لما دخل على رأيت أسدين عن يمينه ويساره ، وكانا يقولان لي : اذا قصده بسوء اهلكناك .

ويرد عنه أنه قال في تفسير قول الله عز وجل « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (١) » قال : « كل من شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك » ، فتبين بأى شيء حجبت وتخلفت ، وتخل عنه لتحظى بالكشف . والمحجوب ممنوع ، والممنوع ينبغي أن لا يدعى القربة .

يروى عنه واحد من خواصه أنه حين كان يمضي هزيع من الليل ، ويفرغ من أوراده ، كان يرفع صوته مناجيا ويقول : يا الهى وسيدى ! أقبل الليل ، وانتهت ولاية تصرف الملوك ، وظهرت النجوم في السماء ، ونام جميع الخلق ، وهدأت اصوات الناس ونامت أعينهم ، وجفلوا عن أبواب بنى أمية واخفت رغائبهم ، واغلق بنو أمية أبوابهم ووكلوا بها حراسهم ، وتخلّى كل ذى حاجة اليهم عن حاجته . يا الهى انت الحى ، العليم ، البصير ، لا تجوز عليك سنة ولا نوم ، ومن لا يعرفك بهذه الصفة لا يستحق نعمتك . انت يا من لا يردك شيء عن شيء ، ولا يتطرق الخلل الى بقائك ليلا ونهارا ، أبواب رحمتك مفتوحة لمن يدعوك ، وخزائنك كلها فداء من يثنى عليك ! انت الاله الذى لا يجوز عليك رد أسائل حين يدعوك مؤمن ، ولا راد لأسائل بابك من خلق الارض والسماء ، يا الهى حين أذكر الموت والقبر والحساب ، كيف أسعد القلب بالدنيا ؟ وحينما أذكر الكتاب كيف أقر بشيء من الدنيا ؟ وحين أذكر ملك الموت كيف أقبل نصيبا من الدنيا ؟ فأنا أطلب منك يا الهى لأنى أعرفك ، وأبحث عنك لأنى ادعوك أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب ، وفى حال الحساب عيشا بلا عقاب . كان يقول كل هذا ويبكى ، حتى قلت له ذات ليلة : ياسيدى وسيد آبائى ! الأم تبكى والأم تصيح ؟ قال : يا صديقى ، لقد ضاع ليعقوب ولد فبكى حتى كف بصره وابيضت عيناه ، وأنا فقدت ثمانية عشر فردا مع أبى — اى الحسين وقتلى كربلاء — فلا أقل من أن تبيض عيناي على مفراقهم .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥٦ .

وهذه المناجاة في العربية فصيحة جدا ، ولكنى جئت بمعانيها بالفارسية تجنباً للاطالة حتى لا تتكرر ، ثم أجىء بها في موضع آخر ، ان شاء الله رب العالمين .

● ومنهم سيف السنة ، وجمال الطريقة ، ومعبر المعرفة ، ومزين المصفوة ، « أبو محمد (١) جعفر بن (محمد بن) علي بن الحسن بن علي » الصادق (٢) ، رضوان الله عليهم أجمعين . كان على الحال وحسن السيرة مزين الظاهر وعامر السريرة . وله اشارات جميلة في كل العلوم . وهو مشهور بين المشايخ ، رضى الله عنهم أجمعين ، بدقة كلامه ووقوفه على المعاني . وله كتب معروفة في بيان الطريقة .

يروى عنه انه قال : « من عرف الله أعرض عما سواه » ، لأن معرفته هي عين الإنكار للغير ، فانكار غيره هو معرفته ، ومعرفته غيره هي انكاره ، والعارف منقطع عن الخلق ومتصل بالحق ، وليس للغير في قلبه من القدر ما يجعله يلتفت اليهم ، أو يجعل لوجودهم كبير خطر يعقد ذكركم في خاطره .

ويروى عنه أيضا انه قال : « لا يصح العبادة الا بالتوبة » ، فقدم التوبة على العبادة ، لأن الله تعالى قدم التوبة على العبادة في قوله تعالى : « التائبون العابدون (٣) » ، لأن التوبة بداية المقامات ، والعبودية نهاية المقامات . ولما ذكر الله جل جلاله العصاة أمر بالتوبة وقال : « وتوبوا الى الله جميعا (٤) » ولما ذكر الرسول عليه السلام ، ذكره بالعبودية وقال : « فأوحى الى عبده ما أوحى (٥) » .

(١) كنيته : « أبو عبد الله » (انظر : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥) .
(٢) الإمام السادس من الأئمة الاثني عشر : « جعفر الصادق » : ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم . وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . لقب بالصادق لصدقه في مقاتله . وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل .. ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمسمائة رسالة . توفي سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالقيع في قبر أبيه وجده . دخل عليه سفيان الثوري يوما فرأى عليه جبة من خز ، فقال له : أنتم في بيت النبوة تلبسون هذا ؟ فقال : ما تدري أدخل يدك ، فإذا تحته مسح من شعر خشن .

(انظر ترجمته في : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ٢٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٩٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٩) .
(٣) سورة « التوبة » آية ١١٢
(٤) سورة « الزور » آية ٣١ .
(٥) سورة « النجم » آية ١٠

ووجدت في الحكايات أن داود الطائي رحمه الله جاء اليه وقال : يا ابن رسول الله ! عظمى ! فقد أسود قلبي . قال : يا أبا سليمان ! أنت زاهد زمانك ، فما حاجتك الي عظمى ؟ . قال : يا ابن رسول الله ! ان لك على جميع الخلق فضلا ، وعظمتك لكل الخلق واجب . قال : يا أبا سليمان ، انى أخشى أن يتعلق بى جدى يوم القيامة قائلا : لم لم تؤد حق متابعتى ؟ فهذا الأمر لا يكون بالنسبة الصحيحة ولا بالنسب القوى ، وانما بالمعاملة الحسنة في حضرة الحق تعالى . فبكى داود وقال : يا الهى ! اذا كان من طينته معجونة بماء النبوة ، وتركيب طبيعته من أصل البرهان والحجة ، جده الرسول ، وأمه البتول ، بهذه الحيرة ، فمن يكون داود حتى يعجب بمعاملته ؟ .

ويرد عنه أيضا أنه كان قد جلس يوما بين مواليه وأخذ يقول لهم : تعالوا لنبايع ونتعاهد على أن كل من يفوز منا يوم القيامة يشفع للجميع . فقالوا : يا ابن رسول الله ! ما حاجتك الى شفاعتنا ، وجدك الشفيع لجميع الخلق ؟ قال : انى أخجل بأفعالى هذه أن أنظر الى وجه جدى يوم القيامة .

وهذا كله من رؤية عيوب النفس ، وهى صفة من صفات الكمال . وجميع المتكئين في حضرة الله عز وجل من الأولياء والأنبياء والرسائل كانوا على هذا . والرسول عليه السلام قال : « اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وعيوب الدنيا (١) . » . وكل من يخفض رأسه من قبيل تواضع العبودية ، يرفع الله تعالى شأنه في الدنيا والآخرة .

واذا ذكرت أهل البيت جميعا ، وأحصيت مناقبهم فردا فردا لا يكفى هذا الكتاب ، بل أن كتبا كثيرة لا تحتل عشر عشر منها ، فهذا المقدار كاف لقوم يكون لعقولهم لباس الإدراك ، من مريدى ومنكرى هذه الطريقة .

والآن ، أورد ذكر أصحاب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الإيجاز والاختصار ، في هذا الكتاب . وقد ألقت قبل هذا كتابا وأسميته « منهاج الدين » ، بينت فيه مناقب كل منهم بالتفصيل ، ولكنى سأذكر هنا أسماءهم وكنياتهم بمفردها ، ليتم مقصودك — أعزك الله — وبالله التوفيق .

(١) رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس ، والبيهقى في شعب الإيمان من أنس : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه » (اشرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦) .

الباب التاسع باب في ذكر أهل الصفة

اعلم أن الأمة — زاد الله من عددهم — مجتمعة على أنه كان للنبي عليه السلام فريق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلزمون مسجده ، وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب . وأن الله عز وجل عاتب النبي عليه السلام من أجلهم ، فقال عز من قائل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (١) » وكتاب الله عز وجل ناطق بفضائلهم ، وللرسول عليه السلام في مناقبهم أقوال كثيرة بلغتنا في ذكرهم رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد ذكرت طرفا منها في مقدمة هذا الكتاب .

ويروى عن ابن عباس (٢) رضى الله عنه ، عن النبي عليه السلام ، قال : « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضيا بما فيه فنته من رفاقتى في الجنة » .

نذكر منهم : مؤذن حضرة الجبار ، ومختار محمد المختار : « بلال بن رباح (٣) » رضى الله عنه .

(١) سورة « الانعام » آية ٥٢ .

(٢) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم النبي عليه السلام وصاحبه ، وحبر الأمة وفتيها . مات سنة ثمان وستين بالطائف (انظر : المعارف ص ٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٢) .

(٣) بلال بن رباح : كان من مولدى مكة لرجل من بنى جمح ، فأسر ، فاشتراه أبو بكر بخميس أراق فأعتقه . وكان يعذب في الله . وشهد بدرا والمشاهد كلها . وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض رسول الله أتى أبا بكر فاستأذنه الى الشام فأذن له ، فلم يزل مقيما بها . ولم يؤذن بعد النبي ، فلما قدم عمر الى الشام لقيه فأمره فأذن فبكى عمر والمسلمون . مات بدمشق سنة عشرين (المعارف ص ٧٦) .

ومنهم : حبيب الله الحكيم ، ومحرم أحوال النبی : « أبو عبد الله سلمان الفارسی » رضى الله عنه .

ومنهم : قائد المهاجرين والأنصار ، والمتوجه الى الله الفجار : أبو عبيده عامر بن عبد الله بن الجراح (١) رضى الله عنه .

ومنهم : مختار الأصحاب وزينة الأرباب : « أبو اليقظان عمار بن ياسر (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : كنز العلم ، وخزينة الحلم : « أبو مسعود عبد الله بن مسعود الهذلي (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم المتمسك بباب الحرمة ، المبرأ من العيب والأمة : « عتبة بن مسعود (٤) » : أخو عبد الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : سالك طريق العزلة ، والمعرض عن عصائب الزلة : « المقداد ابن الأسود » رحمه الله .

ومنهم : راعى مقام التقوى ، الراضى بالبلاء والبلوى : « خباب بن الارت (٥) » رضى الله عنه .

(١) أبو عبيدة بن عبد الله الجراح نسبة الى جده . اسمه عامر وهو من بنى الحارث ابن فهر بن مالك بن النضر . وبنو فهر هم قريش ومن فهر تفرقت قبائلها . وأمه من بنى الحارث بن فهر وقد أسلمت وزوجها . قال فيه الرسول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . شهد بدرًا . ومات سنة ثمان عشرة بالشام ودفن بفوريبيسان (انظر : المعارف ص ١٠٨ ، اللع ص ١٨٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٧) .

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن عئس ، وعئس من مزحج من اليمن ، وياسر قدم من اليمن الى مكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي وزوجه أبو حذيفة أمة له اسمها سمية . ولم يزل ياسر وعمار ابنه مع حذيفة الى أن مات وجاء الاسلام فأسلم ياسر وعمار وسمية . وسمية أم عمار أول شهيدة في الاسلام ، قتلها أبو جهل بحرية . وشهد عمار صفين مع علي بن أبى طالب فقتل ودفن هناك ، وصلى عليه علي (انظر : المعارف ص ١١١) .

(٣) من بنى عامر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . وكان من خلفاء بنى زهرة . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد . وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لمصر وصدرًا بن خلافة عثمان ، ثم صار الى المدينة فتوفى بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع .

(٤) (انظر المعارف ص ١٠٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٨) . كان تقديم الاسلام . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا ، ومات في خلافة عمر . وكان له ابن يقال له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن مات بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان . وكان كثير الحديث والفتيا ، فقيها (انظر المعارف ص ١٠٩) .

(٥) من بنى سعد بن زيد مناة من تميم . ويكنى أبا عبد الله . أصابه سبأ فبيع بمكة فاستتره أم سباع الخزاعية فاعتقته . كان رجل فتيا . وابنه عبد الله بن خباب هو الذى قتل الخوارج فسال فيه كائنه شركا نعل . مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وهو أول من قبره على الكوفة وصلى عليه . (انظر المعارف ص ١٢٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٨) .

ومنهم : قاصد باب الرضا ، وطالب اللقاء في الفنا : « صهيب بن سنان (١) » رضى الله عنه .

ومنهم : درج السعادة ، وبحر القناعة : « عتبة بن غزوان (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : اخو الفاروق والمعرض عن الكونين والمخلوق : « زيد بن الخطاب (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب المجاهدات في طلب المشاهدات : « أبو كبشة (٤) » مولى رسول الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : العزيز التائب ، وعن كل الخلق آيب : « أبو مرثد كنان بن حصين الغنوى (٥) » رضى الله عنه .

ومنهم عابر طريق التواضع ، وسالك محجة التقاطع : « سالم مولى حذيفة اليماني (٦) » رضى الله عنه .

(١) صهيب بن سنان بن مالك . بدرى ، وجبىع الدينين يثبتون نسبه في النمر س قاسط . وأمه سلمى من مازن تميم . وقال بعضهم . كان أبوه سنان عاملا لكسرى وكانت منازلهم بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسيبوا صهيبا وهو غلام صغير فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدهان واعتقه ، وبعث به الى النبي صلى الله عليه وسلم . كان مزاحا ، قال له النبي : أأكل تمرأ وبك رمد ؟ فقال : يا رسول الله انما أضع بالناحية الاخرى ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم منه . توفي بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ، ودفن بالبقيع (المعارف ص ١٤ - ١٥) .

(٢) عتبة بن غزوان بن الحرث بن جابر من بنى مازن أخى سليم بن منصور بن عكرمة . من المهاجرين الأولين ، وهو ممن شهد بدرا وكان من الرماة المذكورين ، وهو الذى افتتح الابلية واختط البصرة وأمر محجن بن الازرع فاخبط مسجد البصرة . قدم المدينة في الهجرة ، وتوفي في طريق مكة بمعدن بنى سليم في خلافة عمر سنة سبع عشرة . (المعارف ص ١١٩) .

(٣) زيد بن الخطاب : أبه أسماء من بنى أسد بن خزيمه ، وكان اسلامه قبل اسلام عمر . شهد بدرا وكان بينه وبين عمر درع فجعل كل واحد منهما يقول والله لا يلبسها غيرك . ثم شهد يوم أحد فصبر في أربعة أنفس ولم يهرب فيمن هرب . وشهد يوم مسيلمة سنة اثنتى عشرة فقتل . (المعارف ص ٧٨) .

(٤) أبو كبشة : اسمه « سليم » . من مولدى أرض دوس ، ويقال من مولدى مكة . ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقه . توفي أول يوم استخلف فيه عمر ابن الخطاب . (المعارف ص ٦٤) .

(٥) أبو مرثد كنان بن حصين : من غنى ولذا يسمى بالغناوى . كان تريا لحزمة بن عبد المطلب ، وأخى الرسول عليه السلام بينه وبين عبادة بن الصامت . وأخى بين ابنه مرثد وبين ابن الصامت أخى عبادة . مات في خلافة أبى بكر سنة اثنتى عشرة ، وقتل مرثد في حياة الرسول يوم الرجيع شهيدا وكان أمير السرية . (المعارف ص ١٤٣) .

(٦) سالم مولى حذيفة اليماني : كان يكنى أبا عبد الله . وهو بدرى ، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى بكر . وكان ولاء سالم لامرأة أبى حذيفة . استشهد يوم اليمامة ولا عقب له . (المعارف ص ١١٨) .

ومنهم : الخائف من العقوبة ، والهارب من طريق المخالفة : « عكاشة
ابن محصن(١) » رضى الله عنه .

ومنهم : زين المهاجرين والأنصار ، وسيد بنى قار : « مسعود بن
الربيع القارى » رضى الله عنه .

ومنهم : حافظ أنفاس النبى ، وباب كل الخيرات : « عبد الله بن
عمر(٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : شبیه عيسى فى الزهد ، وبدرجة موسى فى الشوق : « أبو ذر
جندب بن جنادة(٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : المقيم فى الاستقامة ، والمستقيم فى المتابعة : « صفوان بن
البيضاء » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب الهمة والخالى من التهمة : « أبو الدرداء عويمر بن
عامر(٤) » رضى الله عنه .

ومنهم : شرف كيمياء الدين ، وصدق در التوكل : « عبد الله بن بدر
الجمهى » رضى الله عنه .

(١) عكاشة بن محصن بن خريثان : من أسد خزيمية . بدرى يكنى أبا محض ، واخته
أم قيس بنت محصن التى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم بآبن لها قد اعتقلت
عليه بالعذرة ، والمعدة وجع الحلق ، كان عكاشة من أجل الرجال وبشره الرسول
بالجنة بغير حساب ، وقتل ببزاة فى خلافة أبى بكر . (المعارف ص ١١٩) .
(٢) عبد الله بن عمر : كان يكنى أبا عبد الرحمن ، وأسلم مع اسلام أبيه بمكة وهو
صغير ، وشهد المشاهد بعد يوم بدر واحد ، وبقي الى زمن عبد الملك ، ويقال
مات بمكة ودفن بفخ ، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة . (المعارف ص ٨٠ ،
طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٠) .

(٣) أبو ذر الغفارى : يقال اسمه جندب بن السكن ، ولقبه برير . وقال آخرون :
جندب بن جنادة . وعن حفص بن المعتمر قال : جئت وأبو ذر أخذ بقلعة باب
الكمة وهو يقول : أنا أبو ذر الغفارى ، من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : مثل أهل بيتى مثل سفينة
نوح من ركبها نجا . وهو من غفار ، وغفار قبيلة من كنانة . أسلم أبو ذر بمكة
ولم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق لانه حين أسلم رجع الى بلاد قومه ، فأقام
حتى مضت هذه المشاهد ، ثم قدم المدينة . وكان عثمان سيره الى الريذة فمات
بها سنة اثنتين وثلاثين . (المعارف ص ١١٠) .

(٤) عويمر بن عامر بن الحرث بن الخزرج : كان آخر أهل داره اسلاما ، وكان قبل
اسلامه تاجرا . مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين (انظر ترجمته فى : المعارف
ص ١١٦ ، اللبع ص ١٨١ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٩)

ومنهم : المتعلق بباب الرجاء ، ومختار رسول مالك الملك : « أبو لبابة
ابن عبد المنذر (١) » رضى الله عنه .

وإذا ذكرتهم جميعا يطول بنا الكلام . وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن
محمد بن الحسين السلمى (٢) رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى
أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة (٣) ذكر فيه مناقبتهم
وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم ، ولكنه ذكر من جملتهم « مسطح بن أثانة
ابن عباد (٤) » ، وأنا أبغضه لأنه كان هو البادىء بفاك أم المؤمنين عائشة
رضى الله عنها .

أما « أبو هريرة (٥) » و « ثوبان (٦) » و « معاذ بن الحارث » و « سائب
ابن الخلد » و « ثابت بن الوديعة » و « أبو عبيس عويم بن ساعد »

(١) أبو لبابة الانصارى ، مكى بنبت له كانت تحت زيد بن الخطاب . اسمه بشير ،
ويقال رفاعه بن المنذر . توفى بعد مقتل عثمان وقبل قتل على (المعارف ص ١٤٢)
(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى النيسابورى ، العربى الاصل ،
المعروف بابى عبد الرحمن السلمى . اشتهر بنسبه الى السلميين وهم قبيلة والدته ،
فهو حفيد أبى عمرو بن نجيد السلمى . تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث
والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقلنى وأبو نصر
السراج الطوسى . كان مريدا لأبى القاسم النصارى وابتلى منه الخرقه .
وتتلمذ عليه عدد كبير من كبار الصوفية منهم الصوفى الفارسى أبو سعيد أبى
الخير ، وأبو القاسم القشبرى . ألف السلمى كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير
والتصوف ، والذي اشتهر به هو تأليفه فى التصوف المعروف بطبقات الصوفية .
توفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، ودفن فى نيسابور .
(انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢١١) .

(٣) كتاب تاريخ أهل الصفة : نقل عنه أبونعيم الاسفهانى فى حلية الاولياء . ويسميه
حاجى خليفة : « تاريخ أهل الصفة » . (انظر : كشف الظنون ج ١
عمود ٢٨٦) .

(٤) مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ويكنى أبا عباد . شهد
بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها . وكان أبو بكر يجرى عليه . وهو الذى تذف عائشة
رضى الله عنها ، وتوقف أبو بكر عن الاتفاق حتى نزلت الآية : « ولا يأتى أولو
الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » فقال أبو بكر : والله لأحب أن
يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه (المعارف ص : ١٤٣)
(٥) أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه ، فمنهم من قال هو عبد الله بن عمرو ، وقال
غيره هو عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس . كان من قبيلة من اليمن يقال لها دوس
وهو دوس بن عدنان من الأزد . قال أبو هريرة : نشأت بيتما وهاجرت مسكينا ،
وكنيت أجيرا لبسة بنت غزوان لطعام بطنى . وكان يكنى بابى هريرة بهرة كان
يلعب معها . وكان قدومه المدينة سنة سبع والنبي صلى الله عليه وسلم بخير ،
فسار الى خيبر حتى قدم مع النبي . توفى بالمدينة سنة تسع وخمسين . لما حضرته
الوفاة بكى فقيل له فى ذلك فقال : أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وإنى أصبحت
على مهبط جنة أو نار لا أدري أيهما يأخذ بى . (انظر : المعارف ص ١٢٠ ،
اللع ص ١٨٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٠) .

(٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا عبد الله ، وهو من
أهل السراة . أصابه سبب فاشتراه النبي وأعتقه ، ولم يزل معه حتى قبض
ثم تحول الى الشام فنزل حمص ومات سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية
(المعارف ص ٦٤) .

و « سالم بن عمر بن ثابت » و « أبو اليسر كعب بن عمرو بن وهب بن معقل (١) » و « عبد الله بن أنيس (٢) » و « الحجاج بن عمرو الأسلمي » رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانوا منهم وان تعلقوا من حين لحين بسبب ، ولكنهم كانوا جميعا بدرجة واحدة . وفي الحقيقة كان قرن الصحابة خير القرون ، وفي كل درجة كانوا فيها ، كانوا أحسن الخلق وأفضلهم في كل فن ، بعد أن وهبهم الله سبحانه وتعالى صحبة النبي عليه السلام ، وحفظ أسرارهم من جميع العيوب ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٣) » وقال الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان (٤) » .

والآن أثبت ذكر بعض من التابعين ، في هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ، وتتصل القرون بعضها ببعض ، ان شاء الله العزيز .

-
- (١) أبو اليسر كعب بن عمرو : من الأنصار . أسر العباس بن عبدالمطلب يوم بدر ، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم . توفي سنة خمس وخمسين في خلافة عثمان (المعارف ص ١٤٢) .
- (٢) عبد الله بن أنيس الأنصاري : كان يكنى أبا يحيى ويعرف بالجهني ، وجهنة من قضاة . اختلوا في بدر هل شهدوا أم لا . وهو الذي يقال فيه : ليلة الجهني ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن ينزل من باديته إلى مسجده فيصلي فيه ليلة ثلاث وعشرين ، فكان يدخل المسجد ليلة ثلاث وعشرين إذا صلى العصر ، ثم لا يخرج منه إلا لحاجة حتى يصلي الصبح ثم يخرج إلى أهله ، فقبل ليلة الجهني . وهو الذي روى عن الرسول في ليلة القدر أنه قال : التمسوها الليلة ، وكانت ليلة ثلاث وعشرين . مات بالمدينة في خلافة معاوية . (المعارف ص ١٢١) .
- (٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود . (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٣) .
- (٤) سورة «التوبة» آية ١٠٠ .

الباب العاشر باب في ذكر أئمتهم من التابعين وإلزامهم رضوان الله عليهم أجمعين

● منهم شمس الأمة ، وشمس الدين والملة :

« أويس القرني » رضى الله عنه . كان من مشايخ أهل التصوف ، ومعاصرا للرسول عليه السلام ، غير أنه منع من رؤية الرسول عليه السلام بشيئين ، أولهما : غلبة الحال ، والثاني : حق الوالدة .

وقال عنه النبي عليه السلام للصحابة : يوجد رجل من قرن (١) اسمه أويس يشفع يوم القيامة لعدد من أمتي مساو لأغنام ربيعة ومضر . والتفت الى عمر وعلى رضى الله عنهما وقال لهما : انظراه ، وهو رجل عني ، متوسط القامة ، غزير الشعر ، توجد على جنبه الأيسر شامة بيضاء في حجم الدرهم ، وبكنه بياض كالبرص ، وهو يشفع في عدد من أمتي مساو لعدد ربيعة ومضر ، وحين تريانه أبلغاه سلامي ، وقولا له أن يدعو لأمتي .

ولما قدم عمر مكة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وكان معه أمير المؤمنين على ، قال في خطبته : يا أهل نجد (٢) قوموا ، فنهض أهل نجد ، فقال : أيوجد بينكم رجل من قرن ؟ قالوا : نعم ، وأرسلوا اليه بنفر . فاستخبرهم أمير المؤمنين عن أويس فقالوا : يوجد رجل مجنون يدعى أويسا ، لا يرد الأماكن العامرة ، ولا يصاحب الناس ، ولا يأكل ما يأكله الناس ، ولا يعرف الترح والفرح : يبكي حين يضحك الناس ، ويضحك حين يبكون . فقال :

(١) « قرن » بفتح القاف والراء : بطن من مراد - اليمنى العابد . والنسبة اليها : قرني (معجم البلدان ج ٤ ص ١) .

(٢) « نجد » : نجد الحجاز ونجد اليمن . وجنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن ، وبين النجدين وعمان برية ممتدة (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٥١) .

أريده . قالوا : انه بالصحراء على مقربة من ابلنا . فنهض الأميران
رضى الله عنهما وذهبا اليه . ووجداه واقفا يصلى ، فجلسا حتى فرغ من
الصلاة وسلم عليهما وأراهما علامتى جنبه وكنه فعرفاه ، وطلبا منه الدعاء ،
وأبلغاه سلام النبى عليه السلام ، وأوصياه بالدعاء للامة . وظلا معه
بعض الوقت الى أن قال لهما : عودا الآن فان القيامة قريب ، ومن ثم تتعذر
رؤيتنا ، حيث لا رجعة ، لانى الآن مشغول باعداد عدة الطريق الى
القيامة .

ولما رجع أهل قرن الى بلدهم صارت له حرمة وجاه بينهم ، وغادرها
الى الكوفة (١) . وقد رآه هرم بن حيان رضى الله عنه يوما ، ولم يره
أحد بعد ذلك ، الى أن وقعت الفتنة والحرب مع أمير المؤمنين على
كرم الله وجهه ، فجاءه وكان يحارب معه أعداءه حتى استشهد في موقعة
صفين (٢) : « عاش حميدا ومات شهيدا » .

ويروى عنه انه قال : « السلامة فى الوحدة » ، لأن قلب المنفرد عن
الناس يكون متحررا من التفكير فى الغير ، ويأثسا من الخلق فى جميع
الأحوال ، ليسلم من كل آفاتهم ، ويعرض عنهم جميعا .

أما اذا ظن أحد معنى الوحدة أن يعيش المرء منفردا ، فهذا محال ،
لأنه طالما يصحب الشيطان قلبه ويكون للنفس سلطان على صدره ، وتخطر
الدنيا والعقبى على فكره ، ويجول التفكير فى الخلق فى رأسه ، لا تكون
هناك وحدة بعد ، لأن عين الشئ والتفكير فى الشئ كلاهما واحد .
والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه . وعلى ذلك فالوحيد اذا صاحب
لا تراحم الصحبة وحدته ، والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه ،
فالانقطاع عن الانس لا يكون بالانس . ومن يكون له انس بالحق تعالى
لا تضر مخالطة الانس أنسه ، ومن يأنس بالانس لا يخطر الانس على
قلبه ، ولا يدري شيئا عن الانس مع الحق ، لأن الوحدة صفة عبد صاف
سمع قوله تعالى : « ليس الله بكاف عبده (٣) » .

• ومنهم أيضا شيخ الصفاء ومعدن الوفاء :

-
- (١) « الكوفة » : اختطها سعد بن أبى وقاص الزهرى سنة سبع عشرة وهو عامل
مير بن الخطاب . وهى أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق (البلدان ص
٤ ، ٧٣) .
- (٢) « صفين » موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى . وكانت
موقعة صفين بين على رضى الله عنه ومعوية سنة ١٩ هـ (معجم البلدان ج ٣
ص ٤٠٢) .
- (٣) سورة « الزمر » آية ٣٦ .

« هرم بن حيان » رضى الله عنه ، كان من عظماء الطريقة ، ذا حظ موفور في المعاملة . وقد أكثر من صحبة الصحابة وكرامهم . وقصد زيارة أويس ، ولما سار الى قرن كان (أويس) قد غادرها ، فرجع يائسا . ولما عاد الى مكة علم انه بالكوفة ، فذهب اليها ولم يجده . وظل هناك مدة طويلة ، فلما أراد أن يرحل عنها الى البصرة لقيه في الطريق على شاطئ الفرات (١) يتوضأ ، وقد ارتدى مرقعة ، فعرفه . ولما تنحى (أويس) عن الشاطئ ومشط ذقنه ، تقدم اليه هرم وسلم عليه ، فقال له : عليك السلام يا هرم بن حيان . فسأله : كيف عرفت انى هرم ؟ قال : عرفت روحى روحك . وجلسا معا برهة ، وصرفه .

قال هرم : لقد حدثنى كثيرا عن الاميرين — أى عمر وعلى رضوان الله عليهما — وقال لى ان عمر روى له عن الرسول عليه السلام قوله عليه السلام : « انما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه (٢) . ثم قال : « عليك بحفظ قلبك » . وفي رواية : « عليك بقلبك » . أى : عليك بحفظ قلبك من التفكير فى الغير .

ولهذا الكلام معنيان ، أولهما : أن يجعل القلب متابعا للحق بالمجاهدة ، والثانى : أن يجعل نفسه متابعا للقلب بالمشاهدة ، وكلاهما أصل قوى .

وجعل القلب متابعا للحق شأن المريدين الذين يردون القلب عن ممارسة الشهوة وموانسة الهوى ، فتنقطع عنه الأفكار غير الملائمة ، الى حد أنه لا يبقى له فكر آخر سوى ذكر الحق .

وجعل النفس متابعة للقلب شأن الكاملين الذين ينور الحق تعالى قلوبهم بنور جماله ، ويحررها من جميع الاسباب والعلل ، ويبلغها أعلى الدرجات ، ويخلع عليها خلعة القرب ، ويتجلى عليها بالطائفة ، ويتولاها بالمشاهدة والقرب ، ومن ثم يجعل البدن موافقا للقلب .

فالطائفة الأولى أصحاب قلوب ، وهؤلاء مغلوبو قلوب ، وصاحب القلب هو مالك القلب وباقى الصفة ، ومغلوب القلب فانى الصفة .

(١) « الفرات » (نهر) : الفرات معرب عن لفظه ، وله اسم آخر وهو «فراز رود» لأنه بجانب دجلة ، والجنسية تسمى بالفارسية «فراز» و «رود» = نهر (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٠)

(٢) رواه الشيخان عن عمر ، ومالك فى الموطأ .

وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُرَدُّهَا إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : « إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » (١) — بِفَتْحِ اللَّامِ — وَالْمُخْلِصُ بِكَسْرِ اللَّامِ هُوَ الْفَاعِلُ وَيَبْقَى الصِّفَةُ . وَالْمُخْلِصُ يَفْتَحُ اللَّامَ هُوَ الْمَفْعُولُ وَفَاتَى الصِّفَةُ . وَسَأُورِدُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَكْثَرَ تَشْرِيحًا فِي مَكَانٍ آخَرَ ، أَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ فَاتَى الصِّفَةِ أَعْظَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْجِسَدَ مُوَافِقًا لِلْقَلْبِ ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ تَكُونُ مُحَوَّلَةً فِي حَضْرَةِ الْحَقِّ وَقَائِمَةً فِي مَشَاهِدَةِ الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ بَاقِي الصِّفَةِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْقَلْبَ مُوَافِقًا لِلْأَمْرِ بِالتَّكْلِيفِ .

وَبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَانِي عَلَى أَصْلِ الصَّحْوِ وَالسُّكْرِ وَالْمُجَاهِدَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَمِنْهُمْ أَيْضًا : إِمَامُ الْعَصْرِ وَغَرِيدُ الدَّهْرِ :

أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ « رَحِمَهُ اللَّهُ . وَهَنَّاكَ فَرِيقٌ يَجْعَلُونَ كُنْيَتَهُ « أَبَا مُحَمَّدٍ » ، وَآخَرُونَ يَجْعَلُونَهَا « أَبَا سَعِيدٍ » . وَلَهُ قَدْرٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ (أَيْ عِلْمِ التَّصَوُّفِ) بَلْ كُلِّ الْعُلُومِ . وَكَانَ لَطِيفَ الْإِشَارَةِ فِي الْمَعَامِلَةِ .

وَقَدْ قَرَأْتُ فِي الْحِكَايَاتِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ وَسْأَلَهُ عَنِ الصَّبْرِ ، فَقَالَ لَهُ : الصَّبْرُ نَوْعَانِ : أَوَّلُهُمَا : الصَّبْرُ فِي الْمَصَائِبِ وَالْبَلِيَّاتِ ، وَالثَّانِي : الصَّبْرُ عَنِ الْمُنْهَبَاتِ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَنْتَ زَاهِدٌ مَا رَأَيْتُ أَزْهَدَ مِنْكَ . فَقَالَ الْحَسَنُ : يَا أَعْرَابِي ! إِنَّمَا زَهْدِي فُكْلُهُ رَغْبَةٌ ، وَإِنَّمَا صَبْرِي فُكْلُهُ جُزَعٌ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : فَسِرْ لِي هَذَا الْكَلَامَ ، فَقَدْ اضْطَرَبَ اعْتِقَادِي . فَقَالَ لَهُ : صَبْرِي فِي الْبَلَاءِ أَوْ الطَّاعَةِ نَاطِقٌ بِخَوْفِي مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَهَذَا عَيْنُ الْجُزَعِ . وَزَهْدِي فِي الدُّنْيَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَذَا عَيْنُ الرِّغْبَةِ ، بَخٌّ بَخٍّ لِمَنْ كَانَ يَأْخُذُ نَصِييْهِ فِي الْوَسْطِ . حَتَّى يَكُونَ صَبْرُهُ خَاصًّا بِالْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ لَا خَوْفًا مِنْ جَهَنَّمَ ، وَزَهْدُهُ مُطْلَقًا لِلْحَقِّ عَمَّ نَوَالِهِ لَا لِلْوُصُولِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِخْلَاصِ .

وَيُرَوَّى عَنْهُ أَيْضًا ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، أَنَّهُ قَالَ : « صَحْبَةُ الْأَشْرَارِ تَوْرَثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ » .

وَهَذَا قَوْلٌ جَدِّ مُحْكَمٌ ، وَالْيَقِيْنُ لِأَهْلِ زَمَانِنَا هَذَا الَّذِينَ كُلُّهُمْ مُنْكَرٌ لِأَعْزَاءِ حَضْرَةِ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ . وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصْحَبُونَ الْمُسْتَصَوِّفَةَ

(١) سُورَةُ « الْحَجَرِ » آيَةُ ٤٠ .

وأهل الرسم ، ويرون أعمالهم قائمة على الخيانة ، والسنتهم تفيض كذبا وغيبة ، وسعيهم منصرفا الى استماع « الدوبيئات (١) » المليئة بالهزل والبطلان ، وأعينهم ملووة باللهو والشهوة ، وكل همتهم جمع الحرام والشبهة . ويظنون أن هذه هى معاملة المتصوف ، وأن مذهب المتصوفة هكذا . وليس الأمر كذلك ، بل فعلهم كله طاعة ، ولسانهم ذاك للحق والحقيقة ، وآذانهم محل استماع الشريعة ، وأعينهم موضع جمال المشاهدة ، وهمتهم كلها جمع فى محل الرؤية . فإذا ظهر قوم قد سلكوا طريق الخيانة ، فخيانة الخائنين تعود اليهم لا الى أحرار الدنيا وسادات الزمان هؤلاء . وإذا صاحب أحد أشرار قوم فإن ذلك يرجع الى شره ، لأنه لو كان فيه خير لصاحب الأخيار ، إذ الجنس أميل الى الجنس (٢) . فعلامه كل امرئ عليه ، لأنه يصحب صنوه وكفأه .

والمنكرون على الصوفية هم أشر خلق الله جل جلاله وأرذلهم ، لأن صحبتهم كانت مع أشرهم وأرذلهم ، فلما لم يدركوا هوى ومرادا أنكروا عليهم . أو أنهم اقتدوا بهم فلما هلكوا ، لم يتجهوا الى هؤلاء الأخيار والأعزاء على الله تعالى ، فينظروا بعين الرضا الى أخيارهم ، ويشترى صحبتهم بأرواحهم وقلوبهم ، ويختاروا من العالم طريقهم ، وينالوا ببركاتهم مقصودهم فى الدارين وينقطعوا عن الكل . وقد قيل فى هذا المعنى : (بيت من الشعر العربى)

فلا تحقرن نفسى وأنت حبيبها * فكل امرئ يصبو الى من يجانس

● **ومنهم** : رئيس العلماء ، وقدوة الفقهاء : « سعيد بن المسيب » (٣) رحمه الله . كان عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عزيز القول ، حميد الصدر ، وله مناقب كثيرة فى فنون العلم : من فقه وتوحيد وحقائق وتفسير وشعر ولغة وغير ذلك .

(١) « الدوبيت » : شعر مكون من أربع شطرات ، وهو نوع من الرباعيات يترنم به الصوفية فى حلقات السماع .

(٢) العبارة فى الأصل : « الجنس مع الجنس أثر » .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أنى وهب بن مخزوم القرشى المدنى . أحد الفقهاء السبعة بالمدينة . كان سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبى وقاص الزهرى وأبى هريرة رضى الله عنهما ، ولقى جماعة من الصحابة وسمع منهم . ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهم . أكثر روايته المسند عن أبى هريرة ، وكان زوج ابنته . ضربة عبد الملك بن مروان واليسه المسوح وطاف به أسواق المدينة حين امتنع عن مبايعته ، ومنع من مجالسته . كان يقول لنفسه إذا دخل الليل : قومى يا مأوى كل شر ، والله لأدعئك تزحفى زحف البعير . قيل توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل سنة خمس ومائة (انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٣ - ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٤) .

ويقولون انه كان رجلا عياراً^(١) المظهر زاهد الطبع ، لا زاهد المظهر عيار الطبع . وهذه طريق محمودة في الطريقة ، ومقبولة لدى جميع المشايخ رضى الله عنهم .

ويروى عنه انه قال : « أرض باليسير من الدنيا مع سلامة دينك ، كما رضى قوم بكثيرها مع ذهاب دينهم » . أى أن الفقر مع السلامة خير من الغنى مع الغفلة ، لأن الفقير اذا نظر في قلبه لا يجد فيه التفكير في الزيادة ، واذا نظر في يده يجد القناعة . والغنى حين ينظر الى قلبه يجد فيه التفكير في زيادة الدنيا ، وعندما ينظر في يده يرى الدنيا المليئة بالشبهات .

اذن فرضاء الأحباب بربوبية الله بلا غفلة خير من رضاء الغافلين بالدنيا المليئة بالغرور والآفة والحسرة والندامة والزلة والمعصية .

وحينما يحل البلاء يقول الغافلون : الحمد لله اذ انه لم يحل بالجسد ، ويقول الاحباب : الحمد لله انه لم يحق بالدين . واذا كان الجسد في بلاء ، فما دام القلب في اللقاء ، يطيب للجسد البلاء . وحين يكون القلب في الغفلة فانه وان يكن الجسد في النعمة ، فانه لا تكون نعمة ، بل نقمة . وفي الحقيقة فان الرضا بقليل الدنيا هو كثير الدنيا ، والرضا بكثير الدنيا هو قليل الدنيا ، لأن قليلها مثل كثيرها .

ويرد عنه رضى الله عنه انه كان جالسا في مكة وجاء اليه رجل وقال له : أخبرنى عن حلال ليس فيه حرام ، وحرام ليس فيه حلال . فقال رضى الله عنه : « ذكر الله حلال ليس فيه حرام ، وذكر غيره حرام ليس فيه حلال » ، لأن النجاسة في ذكره والهلاك في ذكر غيره ، والله أعلم بالصواب .

(١) العيار : هو الرجل الكثير المجيء والذهاب ، الذكى ، الكثير الطواف . وقيل الذى يتردد بلا عمل . ومنه العيار من الرجال ، الذى خلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزعجها (أقرب الموارد) .

الباب الحادى عشر باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين إلى يومنا

منهم شجاع الطريقة ، والمتمكن فى الشريعة ، « حبيب العجيب (١) » ،
رضى الله عنه . كان على الهمة ، جليل القدر ، وله فى مراتب الرجال
قيمة وخطر عظيم .

وكانت توبته فى البداية على يد حسن البصرى ، فقد كان فى أول عهده
يقرض بالربا ، ويعيث فسادا ، ووهبه الله عز وجل بكمال لطفه التوبة
النصوح ، ومن عليه بالتوفيق ، حتى أناب إلى حضرته جل جلاله ، وتعلم
قدرا من العلم .

وعن الحسن (البصرى) أن لسانه كان أعجيبا ، ولم يكن جاريا على
العربية . وقد خصه الله تعالى وتقدس بكرامات كثيرة إلى حد أن الحسن
مر يوما بباب صومعته وقت صلاة العشاء ، وكان قد أقام الصلاة ووقف
يصلى ، فدخل الحسن ولم يقتد به ، لأن لسانه لم يكن جاريا على قراءة
القرآن . ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى فى منامه ، فقال:
يا الهى ياذا الجلال ! فيم يكون رضاؤك ؟ فقال : يا حسن ، كنت قد أدركت
رضاءنا فلم تعرف قدره . فقال : يا الهى تعاليت ! ما هو ؟ قال : لو أنك
صليت خلف حبيب بالأمس ، ولم يردك عن صحة نيته انكار عبارته ،
لكننا رضينا عنك .

(١) ورد عنه أن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قد اجتمعا يوما ، فدخل عليهما حبيب .
فقال أحمد : سأسأله سؤالا ، فقال الشافعى : لا تفعل ، فهو رجل عجيب
فقال أحمد : لا متاصلى من ذلك . ولما اقترب حبيب منها سأله : ما تقولك
فى حق رجل فانتته صلاة من الصلوات الخمس ولا يعرف أى واحدة هى ، ماذا
يجب عليه أن يفعل ؟ قال حبيب : هذا قلب غفل عن الله فليؤدب ، وينبغى عليه
أن يقضى الصلوات الخمس . (انظر ترجمته فى تذكرة الأولياء ج ١ ص ٤٩) .

ومن المعروف بين هذه الطائفة أنه عندما فر الحسن من رجال الحجاج (١) ، دخل صومعة حبيب ، فلما جاءوا إليها قالوا : يا حبيب ، هل رأيت الحسن؟ قال : نعم ، قالوا : أين ؟ قال : هاهو في صومعتي ، فدخلوا الصومعة فلم يروا أحدا ، وظنوا أن حبيبا يهزأ بهم ، فأغلظوا له قائلين : انك تكذب . وأقسم لهم قائلا : انى أقول الصدق ، وها هو في صومعتي . فدخلوا الصومعة ثانية وثالثة ولم يجسدوه ، فأنصرفوا . وخرج الحسن وقال : يا حبيب انى أعرف أن الله تعالى لم يظهرنى لأولئك الظلمة ببركاتك ، فلماذا قلت لهم : انه هنا ؟ قال : يا أستاذ ! انه لم يكن ببركاتى ان الله لم يظهرك لهم ، بل كان ببركات الصدق ، ولو كنت كذبت لفضحونى ، أنا وأنت (٢) .

وله من هذا القبيل كرامات كثيرة .

سئل : فيم يكون رضاء الله تعالى ؟ . قال : « في قلب ليس فيسه غبار النفاق » . ذلك أن النفاق خلاف الوفاق ، والرضا عين الوفاق ، ولا تعلق للمحبة بالنفاق ، ومحلها الرضا ، فالرضا صفة الأحاب ، والنفاق صفة الأعداء . وهذا قول عظيم أبينه أن شاء الله في موضع آخر .

● ومنهم بقية أهل الانس ، وزين جملة الجن والانس :

(مالك بن دينار) رضى الله عنه . كان صاحب الحسن البصرى ، ومن كبار هذه الطريقة ، وله كرامات كثيرة مشهورة ، وفي الرياضة خصال مذكورة .

وكان دينار عبدا ، وقد ولد (مالك) في حال عبودية أبيه .

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى . كان يكنى أبا محمد . ولى شرط أبان بن مروان في بعض ولايات أبان فلما خرج بن الزبير أوتده عبد الملك بن مروان مع جيش من أهل الشام لقتاله فحاصره وقتله وصلبه . وولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنوات . وفي سنة ٧٤ هـ . ولاه عبد الملك العراق فوليهما عشرين سنة وأصلحها وذل أهلها . وتوفي سنة ٩٥ هـ في عهد الوليد عبد الملك (انظر : المعارف ص ١٧٣ ، اليعقوبى ج ٣ ص ١٧ - ٢٤) .

(٢) وردت هذه الحكاية على لسان أبى طالب المكي ، قال : « حدثونا أن الحسن رحمه الله اختفى عند حبيب العجى من الحجاج ، فسعى به فدخل عليه الشرط ففرغ الحسن وذهب ليتسور الحائط ويهرب ، فقال له حبيب : أبا محمد ، أتعبد حتى تبصر ، فقال : فدخل الشرط فقالوا أين الحسن ؟ قيل لنا انه عندك . فقال : هل ترون شيئا ؟ ففتشوا الدار كلها وخرجوا وهم لا يرونه ، فقال له الحسن : كيف لم ينظروا الى ؟ قال : لانك كنت عند الله فلم يروك ، ولو كنت عندى لأبصروك . قال له الحسن : انى رأيتك لما دخلوا ههههه بشيء ، فهل ذكرت اسم الله الاعظم ؟ قال : لا ، ولكن قلت : اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه » (موت القلوب ج ١ ص ١٣٧) .

وكانت بداية أمره أنه ذات ليلة ، شاء صبح السعادة الالهية أن ينثر شعلة من أنواره على روح مالك بن دينار ، وكان في تلك الليلة مشغولا بالطرب بين جماعة من رفاقه ، ولما ناموا جميعا أيقظ الحق جل جلاله بخته ، فانبعث من خلال العود الذي كان يضرب عليه صوت جميل يقول : « يا مالك مالك أن لا تتوب ؟ » . فكف يده عن هذا كله ، وجاء الى الحسن وتاب على يديه توبة نصوحا .

وبلغ من منزلته أنه ركب ذات مرة سفينة ، فضاع فيها جوهرة ، وكان يبدو أكثر القوم نكرا (١) ، فاتهوه بسرقتها . ورفع رأسه الى السماء ، فخرج في الحال كل ما في البحر من السمك على الماء ، وقد أمسكت كل سمكة بفمها جوهرة ، فأخذ من كل تلك جوهرة وأعطاها للرجل ، ووضع قدمه على الماء وسار عليه في يسر حتى خرج الى الساحل .

يرد عنه أنه قال : « أحب الأعمال الى (٢) الاخلاص في الأعمال » .

ذلك أن العمل يصير عملا بالاخلاص ، والاخلاص للعمل بمنزلة الروح للجسد . وكما أن الجسد بلا روح يكون جمادا ، كذلك الشخص الذي يؤدي العمل بالظاهر ألف عام لا يصير عمله عملا ما لم يربط الاخلاص به .

أما الاخلاص فهو من جملة الأعمال الباطنة ، والطاعات من جملة الأعمال الظاهرة . والأعمال الظاهرة تتم بالأعمال الباطنة ، والأعمال الباطنة تكتسب قيمتها بالأعمال الظاهرة ، فلو أن انسانا أخلص بقلبه ألف عام فانه ما لم يعمل بالاخلاص لا يكون اخلاصه اخلاصا . وإذا عمل أحد بالظاهر ألف عام فانه ما لم يتصل الاخلاص بعمله لا يصير عمله عملا .

● ومنهم الفقير الخطير ، وعلى سائر الأولياء الأمير :

« أبو حاتم حبيب بن سليم الراعي (٣) » رضى الله عنه . كان عظيم المنزلة بين المشايخ ، وله في جملة الأحوال آيات وبراهين كثيرة نيره . وكان صاحب سلمان الفارسي رضى الله عنه . ويروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وكان صاحب أغنام ، يقيم على شاطئ الفرات ، ويسلك طريق العزلة . ويروى أحد المشايخ قائلا : مررت به فوجدته يصلى ويحرس غنمه ذئب !

(١) أى مجهولا من الجميع أكثر من أى شخص آخر : إذ النكر بمعنى الجهل .

(٢) فى الأصل « على » .

(٣) لم ترد له ترجمة فى الكتب التى رجعت إليها .

فقلت : فلأزر هذا الشيخ فأنى أرى فيه آية كبرى . وبقيت لحظة حتى فرغ من الصلاة ، وسلمت عليه ، فقال : يا بنى ! لى أمر جئت ؟ قلت : لزيارتك . قال : خيرك الله . قلت : أيها الشيخ ! أنى أرى الذئب موافقا للغنم ! فقال : لأن راعى الغنم موافق للحق . قال هذا ، وكان لديه وعاء خشبى ! تحت حجر ، تفجرت فيه عينان : أحدهما لبن ، والأخرى عسل . فقلت له : يا شيخ ! بم نلت هذه الدرجة ؟ قال : بمتابعة محمد عليه الصلاة والسلام . يا بنى ! لقد كان قوم موسى يخالفونه ، ومع هذا حباهم الصخر الماء ، ولم يكن موسى فى درجة محمد ، وبما أنى متابع لمحمد ، فقد حبانى الله العسل واللبن ، فلا عجب . فقلت له : عظمى ! قال : « لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام » ، لأن هلاك الخلق فى هذين ، ونجاتهم فى حفظهما .

وكان لشيخى — رضوان الله عليه — روايات كثيرة عنه ، ولكن ليس من اليسر فى هذا الوقت أكثر من هذا ، لأن كتبى بقيت فى حضرة غزني — حرسها الله — وأنا فى ديار الهند ، فى بلدة لها نور^(١) من توابع الملتان ، أسير بين أناس ليسوا من جنسى ، والحمد لله رب العالمين .

● ومنهم الشيخ الصالح ، وبصلاحه الصالح ، « أبو حازم المدني »^(٢) رحمه الله ، كان قدوة لبعض المشايخ ، وله فى المعاملات حظ وافر وخطر كبير ، وفى الفقر قدم ثابتة ونفس صادق ، وفى المجاهدات مسلك كامل .

ويروى عنه عمرو بن عثمان المكي^(٣) رضى الله عنه — وكلامه فى كل القلوب مقبول ، وفى كثير من الكتب مسطور — انه قيل له : « ما مالك ؟ قال : « الرضا عن الله والغناء عن الناس » .

وكل من يرضى بالحق يستغنى لا محالة عن الخلق . والكنز الأكبر للبر : رضا الله تعالى وتقدس .

(١) « لاهور » .

(٢) يسميه فريد الدين العطار ، أبا حازم المكي . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٦) .

(٣) عمرو بن عثمان بن كعب : كنيته أبو عبد الله . كان ينتسب الى الجندى فى الصحبة ، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، روى عن محمد بن اسماعيل ويونس بن عبد الأعلى وسليمان بن سيف الحرائى وغيرهم . مات ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٠ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٦ ، نفحات الانس ص ٨٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٧١) .

والإشارة — هنا — الى الغناء بالله جل جلاله ، فكل من يغنى به يستغنى عن غيره ، ولا يعرف طريقا الى غير حضرته ، ولا يعرف غيره في الخلا والملا ، ولا يدعو غيره ، ولا يعرف معزا ومذلا غيره .

ويقول واحد من المشايخ : دخلت عند « أبى حازم » فوجدته نائما ، وبقيت برهة حتى أستيقظ ، فقال : رأيت النبی عليه الصلاة والسلام في هذه الساعة في المنام ، وقد حملنى اليك رسالة وقال : ان رعاية حق الأم أفضل من الحج ، فعد واطلب رضا قلبها . فرجعت من عنده ، ولم أذهب الى مكة . ولم أسمع منه أكثر من هذا .

● ومنهم داعى أهل المجاهدة ، والقائم في محل المشاهدة ، « محمد بن واسع (١) » رضى الله عنه ، الذى لم يكن له مثيل في زمانه ، وكان قد أدرك صحبة كثير من الصحابة والتابعين ، ورأى طائفة من الشيوخ المتقدمين .

وكان رضى الله عنه ذا حظ واف في هذه الطريقة ، وأنفاس عالية وإشارات كاملة في الحقائق .

ورد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه » . وهذا مقام المشاهدة ، لأن العبد في غلبة محبة الفاعل عليه يصل الى درجة أنه ينظر في فعله فلا يرى الفعل ، ويرى الكل فاعلا . كما ينظر شخص الى الصورة فيرى المصور .

وحقيقة هذا ترجع الى قول الخليل عليه السلام الذى قال : لكل من القمر والشمس والنجم : « هذا ربي (٢) » ، وكان ذلك في حال غلبة الشوق ، لأنه كان يرى كل ما يراه في صفة محبوبه ، فالأحبة حين ينظرون الى العالم يرونه مقهور قهر الله وأسير سلطانه ، فيتلاشى وجود العالم في جنب قدرة فاعله ، ويصير في ذل قوله تعالى « كن » (٣) لا شيء . وهم ينظرون فيه بعين الاشتياق ، فلا يرون المقهور ويرون القاهر ، ولا يرون

(١) محمد بن واسع بن جابر الأزدي ، أبو بكر البصري الزاهد . روى عن أنس بن مالك والحسن البصري . توفي سنة عشرين ومائة ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة . كان يلبس الصوف ، فدخل يوما على فتية بن مسلم فقال له فتية : ما دعاك الى لبس الصوف ؟ فسكت ، فقال : ألكم فلا تجيبني ؟ فقال : أكره ان أقول انى زاهد فأزكى نفسى ، أو فقير فأشكو ربي عز وجل (أنظر ترجمته في المعارف ص ٢٠٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٤٨) .

(٢) إشارة الى الآيات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ من سورة « الانعام » .

(٣) إشارة الى الآية : « واذا قضى أمرا فانه يقول له كن فيكون » سورة « البقرة » آية ١١٧ .

المفعول ويرون الفاعل ، ولا يرون المخلوق ويرون الخالق . وسأوضح هذا في باب المشاهدة ان شاء الله تعالى .

وهنا يخطئ فريق اذ يقولون : ان الرجل قال : « رأيت الله فيه » ، وهذا يقتضى المكان والتجزئة والحلول ، وهو كفر محض ، لأن المكان يكون جنس الممكن ، واذا قدر شخص أن المكان مخلوق ، فلا بد وأن يكون الممكن مخلوقا أيضا ، واذا قدر أن الممكن قديم ، فلا بد وأن يكون المكان قديما أيضا .

وبهذا القول يحصل نوعان من الفساد : فاما أن يقال ان الخلق قديم ، أو أن الخالق محدث ، وهذان كلاهما كفر . فرؤيته هذه (أى رؤية الله فى الأشياء) بمعنى رؤية آياته وأدلتة وبراهينه فيها ، بالمعنى الذى ذكرته أولا .

وفى هذا المعنى رموز لطيفة أجىء بها فى موضعها ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** امام العالم ومقتدى الخلق وشرف الفقهاء وعز العلماء : **((أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز))** رضى الله عنه ، كان له فى العبادات والمجاهدات قدم ثابتة ، وشأن عظيم فى اصول الطريقة .

قصد فى بداية حاله العزلة ، وتبرا من جملة الخلق ، واراد أن ينسلخ عنهم — لأنه كان قد طهر قلبه من ريائهم وجاههم ، وهذب للحق — الى أن رأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبی عليه السلام من لحدده ويتخير بعضها من بعض ، فهب من نومه فزعا من ذلك ، وسأل واحدا من أصحاب محمد بن سيرين (١) فقال له : ستصل فى علم النبی عليه السلام وحفظ سنته الى درجة عظيمة بحيث تتصرف فيها وتميز الصحيح من السقيم .

ومرة أخرى رأى النبی عليه الصلاة والسلام فى النوم ، وقال له : يا أبا حنيفة ! لقد جعلت سببا لاهياء سنتى فلا تقصد .

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصرى . كان من سبى ميسان . روى عن أبى هريرة وعند الله بن عمر وغيرهم . وروى عنه قتادة بن دعابة وخالد بن الحذاء وغيرهم . أحد فقهاء البصرة صاحب الحسن البصرى ثم تهاجرا فى آخر الأمر فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته . كانت نه اليد الطولى فى تعبیر الرؤيا . توفى سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصرى بمائة يوم .
(انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٢) .

وكان أستاذًا لكثير من المشايخ مثل : إبراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، وداود الطائي ، ويشر الحافى وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومدون لدى العلماء أنه في عهد أبى جعفر المنصور (١) ، فكروا في أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم الامام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم سفيان (٢) وثالثهم مسعر بن كدام (٣) ، ورابعهم شريك (٤) ، رحمة الله عليهم ، وكان هؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لاحضارهم جميعا . وأثناء سيرهم في الطريق قال أبو حنيفة رضى الله عنه : سأفترس في كل منا فراسة في ذهابنا هذا ! قالوا : يستصوب ، قال : أنا أدفع عن نفسي هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان في الطريق ، ولجأ الى سفينة وقال : خبئوني لانهم يريدون قطع رأسى ، وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين (٥) » ، فأخفاه الملاح . وحمل الثلاثة الى المنصور ، فقال أولا لأبى حنيفة رحمه الله : ينبغى أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل غير عربى ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمى . فقال أبو جعفر : هذا

(١) هيد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس . الخليفة العباسى . بويع في اليوم الذى توفى فيه أبو العباس سنة ١٣٦ هـ ، وكان حاجا فأخذ له عمه عيسى بن على البيعة على من حضر من الهاشميين والقواد بالانبار ووأنه الخبر بذلك بايعه أبو مسلم ومن حضر من القواد . قتل أبا مسلم سنة ١٣٧ هـ . وبايع ابنه المهدي بولاية العهد سنة ١٤٧ هـ . توفى عند وصوله مكة وهو حاج سنة ١٥٨ هـ ودفن بها . (انظر تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠٠ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) مسعر بن كدام — بكسر الكاف — طلبه أبو جعفر المنصور ليؤليه القضاء فقال له : مهلا يا أمير المؤمنين . ان أهلى يطلبون حاجة بدرهم ، فأقول لهم أنا أشتري لكم ، فيقولون لا يرضى بشرائك . فإذا كان أهلى لا يرضون بشرائى لهم حاجة بدرهم ، (فكيف) يوليئنى أمير المؤمنين القضاء ؟ فأعفاه . دخل عليه سفيان الثوري في مرض موته فقال له : ما هذا الجزع يا مسعر ؟ والله لو ددت أنى مت الساعة . فقال : انك اذا لوائق بعملك ياسفيان ! لكنى والله كائى على شاق جبل لا أدرى أين أهبط . فبكى سفيان وقال : أنت أخوف لله عز وجل منى يا أخى . توفى بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٦) .

(٤) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبى شريك النجعى . تولى القضاء بالكوفة أيام المهدي ثم عزله موسى الهادى ، وتولاه بالاهواز . توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة . . (انظر ترجمته في المعارف ص ٢٢٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) رواه أحمد في مسنده ، وابن داود ، وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة : « من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٩١)

العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغي له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان .
فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفي هذا القول إذ قلت : لا أليق ،
لا يخرج عن اثنتين : إذا قلت الصدق ، فقد قلت بنفسى : لا أليق . وإذا
كذبت ، فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتي
بكاذب وتجعله خليفة ، وتكل إليه أموال المسلمين وفروجهم ، وأنت
خليفة الله . قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر رحمه الله وأمسك بيد الخليفة وقال له : كيف
حالك وأولادك ، وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فإنه مجنون .

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء . فقال : أنا رجل سوداوى
وراسى خفيف ! فقال له المنصور : عالج نفسك بالعصائد الموافقة والأنبذة -
المثلثة ليكتمل عقلك . وعندئذ أسند القضاء الى شريك . وقاطعه أبو حنيفة
رضى الله عنه ، ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حاله ، لمعنيين :
أولهما : صدق فراسته في كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة
وصحة الملازمة ، واتصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم .

وهذه الحكاية دليل قوى على صحة الملازمة ، إذ أقصى هؤلاء الشيوخ
الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة . واليوم ، لا ينظر جملة العلماء
الى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنوا الى أهوائهم ، ونفروا من
طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء قبلتهم ، وصيروا دور الظلمة بيتهم
المعمور ، وجعلوا بيساط الجبابة موازيا (لمنزلة) قاب قوسين أو أدنى
وينكرون كل ما يخالف هذه المعانى .

ذات مرة كان أحد مدعى الإمامة والعلم قد قال في حضرة غزني -
حرسها الله - أن لبس المرقعة بدعة ! فقلت : ان الثياب الحشيشية
الديباجية والديبكية (١) ، وكلها مصنوعة من الأبريسم (٢) المحرم على
الرجال ، أخذها من الظلمة وجمعها من الحرام بالالاحاح واللجاج ، حرام
مطلق ، وهم يلبسونها ولا يقولون انها بدعة ، فلماذا يكون الثوب الحلال ،
من المكان الحلال ، المشتري بمال حلال بدعة ؟ ولو لم تكن رعونة الطبع
وضلالة العقل وسلطة عليك ، لقلت كلاما أكثر اتزاناً من هذا . والثياب
الأبريسمية حلال للناس ومباحة للمجانين ، فإذا أقررت بأحد هذين ففسد
عذرت نفسك ، والا فنعوذ بالله من عدم الانصاف .

(١) نسبة الى دبيق بلد بمصر واليه تنسب الثياب الديبكية . أقرب الموارد .

(٢) نوع من الحرير

ويقول الامام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه : حينما حضرت نوفل ابن حيان رضى الله عنه الوفاة رأيت في النوم أن القيامة قامت ، وجملة الخلق يحاسبون ، ورأيت النبي عليه السلام واقفا متشمرا على حوضه ، والمشايخ وقوفا عن يمينه ويساره ، ورأيت شيخا حسن الوجه يجلس رأسه شعر أبيض وقد وضع خده على خد النبي ، ورأيت أمه نوفلا واقفا ، فلما رأني أقبل على وسلم ، فقلت له : اسقني فقال : حتى استأذن النبي عليه السلام . فأشار اليه النبي عليه السلام بأصبعه فأعطاني الماء ، فشربت منه وسقيت أصحابي ، ولم ينقص من ذلك القدر شيء قط . وقلت : يا نوفل ! من الشيخ الذي على يمين النبي ؟ قال : انه ابراهيم خليل الرحمن ، والآخر أبو بكر الصديق . وهكذا كنت أسأله وهو يعقد على أصبعي ، حتى سألته عن سبعة عشر شخصا رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما استيقظت وجدت على أصبعي سبع عشرة عقدة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازي رضى الله عنه : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم ، فقلت له : اين أطلبك ؟ قال : عند علم أبي حنيفة ، رضى الله عنه .

وله في الورع طرف كثيرة ومناقب مشهورة أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — كنت بالشام يوما نائما على رأس قبر بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت نفسي بمكة في النوم وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم قد دخل من باب بنى شيبه وقد احتضن شيخا كما يحتضنون الأطفال بشفقة ، فهرعت اليه وقبلت يديه وتقدميه . وكنت أتعجب متسائلا : من يكون ذاك ، وما تلك الحال ؟ فأطلع عليه السلام — بحكم اعجازه — على باطني وفكري ، وقال لي : هذا امامك وامام أهل ديارك . ولي وأهل بلدي أمل كبير بذلك الحلم .

وصدق هذا الحلم . لأنه كان أحد هؤلاء الذين كانوا فائين عن أوصاف الطبع وباتين بأحكام اشرع وقائمين به . ولما كان مرشده هو النبي صلى الله عليه وسلم — فانه وان يكن قد مضى — فقد كان باقى الصفة ، وباتى الصفة : أما مخطيء أو مصيب ، وبما أن مرشده كان النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه يكون فائى الصفة ببقاء صفة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الخطأ لا يجوز على النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه لا يجوز كذلك على القائم به . وفي هذا رمز لطيف .

ويقال انه عندما حصل داود الطائي رحمه الله العلم ، وصار مصدرا
وقدوة ، جاء ابا حنيفة رضى الله عنه ، وقال له : ماذا افعل الآن ؟ فقال
له : عايك بالعمل فان العلم بلا عمل كالجسد بلا روح .

والعلم — فديتك — ما لم يقترن بالعمل ، فانه لا يصفو ولا يخلص
عهده ، وكل من يقتنع بالعلم المجرد لا يكون عالما ، لأن العالم لا يقتنع بمجرد
العلم ، فعين العلم تقتضى العمل ، كما تقتضى عين الهداية المجاهدة .
وكما ان المشاهدة لا تكون بدون المجاهدة ، فان العلم لا يكون بدون العمل ،
لأن العلم موارث العمل ، وتخريج العلم النافع وفتوحه يكون ببركات العمل .
ولا يمكن بأى معنى فصل العمل عن العلم ، كما لا يمكن فصل نور الشمس
عن عين الشمس .

وقد أوردنا في بداية الكتاب بابا مختصرا في العلم ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم سيد الزهاد وقائد الأوتاد : « عبد الله بن المبارك المروزي (١) »**
رضى الله عنه . كان من محتشمى القوم ، وعالما بجملة أحوال
واسباب الطريقة والشرعية . وكان أمام الوقت في عصره ، وأدرك كثيرا
من الشيوخ وصحبهم ، واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ،
واخذ عنه العلم . وله تصانيف مذكورة وكرامات مشهورة في كل فن من
فنون العلم .

والسبب في ابتداء توبته هو أنه كان قد فتن بجارية ، وذات ليلة نهض
من بين السكارى ، وصحب أحدهم ، ووقف تحت جدار المعشوقة ، وصعدت
هى الى السطح ، ووقفنا كلاهما في مشاهدة أحدهما الآخر حتى الفجر .
وعندما سمع عبد الله أذان الفجر ظنه أذان العشاء ، فلما طلع النهار
عرف أنه كان طول الليل مستغرقا في جمال المعشوقة ، فكان له من هذا
زاجر ، فقال لنفسه : خسئت يا ابن المبارك اذ وقفت طوال الليل على
تقديمك موافقة لهواك ، ولا تمل ، ولو أن اماما قرأ في الصلاة سورة طويلة
لجنت ! فأين معنى الايمان في مقابل هذه الدعوى ؟ (٢) . وعندئذ تاب

(١) كان يقيم بخراسان ، وكانوا يقدمونه في الأدب على سفيان ، وكان سفيان الثوري
يقول : جهدت جهدى على أن أداوم ثلاثة أيام في السنة على ما عليه ابن المبارك
فلم أقدر . وكان يقول : سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ، لأن سلطان الرعية
لا يجمع الناس الا بالعصا ، والزاهد ينفر من الناس فيتبعونه . توفي سنة احدى
وثمانين ومائة . (أنظر ترجمته في طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٧ ، تذكرة الأولياء
ج ١ ص ١٧٩) .

(٢) أورد القشيري هذه الحكاية ضمن ترجمة الفضيل بن مياض وذكر انها كانت السبب
في توبة الفضيل . انظر ترجمة الفضيل : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ .

واشتغل بالعام وطلبه ، حتى وصل الى درجة أن أمه دخلت عليه البستان يوما فمراثه نائها وقد امسكت حية كبيرة بغصن ريحان في فمها وكانت تذبح عنه الذباب .

ثم رحل عن مرو (١) وذهب الى بغداد وظل بها مدة في صحبة المشايخ . وذهب الى مكة وجاور هناك أيضا مدة ، ورجع الى مرو فتولاه أهلها ورتبوا له درسا . وفي ذلك الوقت كان نصف أهل مرو يتابع الحديث والنصف الآخر يسلك طريق الرأي ، كما هو الحال اليوم ، وكانوا يسمونه : « رضى الفريقتين » بحكم أنه كان موافقا لكل منهما . وقد اختصم فيه كلا الفريقين . واتخذ هناك رباطين : أحدهما لأهل الحديث ، والثاني لأهل الرأي ، وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ، ويسيران على قاعدة ذلك الأصل .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت راهبا قد هزل من المجاهدة ، وانحنى عوده من خشية الله ، فسألته : يا راهب ! كيف الطريق الى الله ؟ قال : لو عرفت الله لعرفت الطريق اليه ! ثم قال : أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه .

أى أن المعرفة تقتضى الخوف ، وأراك آمنا ، والامن كفر . والجهل يقتضى الكفر ، وأجد نفسى خائفا . قال ابن المبارك : فصارت لى هذه عظة ، ومنعتنى عن كثير مما لا ينبغى عمله .

ويروى عنه أنه قال : « السكون حرام على قلوب أوليائه » . أى أنها مضطربة فى الدنيا فى حال الطلب ، ومضطربة فى العقبى فى حال الطرب ، ولا يجوز لها السكون فى الدنيا بغيبتها عن الحق ، ولا ينبغى لها القرار فى العقبى بحضور الحق وتجليه ورؤيته ، فالدنيا لها كالعقبى ، والعقبى كالدنيا ، لأن سكون القلب يقتضى امرين : إما ادراك المقصود ، أو الغفلة عن المراد ، وادراك المراد لا يجوز فى العقبى والدنيا حتى يسكن القلب عن خفتان المحبة . والغفلة حرام على أحبائه حتى يسكن القلب عن حركات الطلب . وهذا أصل قوى فى طريق المتحققين ، والله أعلم بالصواب .

(١) « مرو » : هى أجل كور خراسان . انتتحتها حاتم بن النعمان الباهلى وهو من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان ويقال ان الأحنف بن قيس حضر فتحها وذلك فى سنة احدى وثلاثين (البلدان ص ٤٦) .

● ومنهم ملك أهل الحضرة وسُلطان ولاية الوصلة :
 «أبو على الفضيل بن عياض» (١) رضى الله عنه . كان من جملة صغاليك النوم
 وكبارهم ، وله فى المعاملات والحقائق حظ وافر ونصيب كامل ، وكان أحد
 مشاهير هذه الطريقة ، وممدوحا بكل اللسان بين الملل ، وأحواله عامرة
 بالصدق والاخلاص .

وكان فى بداية أمره عيارا يقطع الطريق بين مرو وباورد (٢) . وكان يميل
 كل الميل الى الصلاح ، وفى طبعه همة وفتوة ، بحيث اذا كان فى القافلة
 امرأة لم يكن يحوم حولها ، ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل ،
 وكان بترك لكل رجل شيئا بنسبة رأس ماله . الى أن جاء وقت خرج فيه
 تاجر من مرو فقالوا له : خذ معك حارسا لأن الفضيل على الطريق .
 قال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة ، فلا خوف . وصحب معه
 قارئاً ، وأركبه جملاً ليطلو القرآن ليلاً ونهاراً ، الى أن بلغت القافلة مكاناً
 كان الفضيل رحمه الله يكمن فيه . واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى :
 « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله (١) » ، فبدت رقة فى قلبه
 رضى الله عنه ، وأظهرت العناية الأزلية سلطان الطائفة لروحه ، فتأب
 عن ذلك العمل ، وكتب رسائل الى خصومه سرتهم .

وذهب الى مكة وظل بها مدة ، وأدرك بعض أولياء الله تعالى . ورجع
 الى الكوفة واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصحبه مدة ،
 وحصل العلوم . وله روايات عالية ومقبولة بين أهل الحديث ، وكلام رفيع
 فى حقائق النصوص والمعرفة .

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « من عرف الله حق معرفته عبده بكل
 طاقته » . ذلك أن كل من يعرفه يعرفه بالانعام والاحسان والرافة والرحمة ،
 فاذا عرفه أحبه ، فاذا أحبه أطاعه تدر طاقته ، لأن اطاعة أوامر الأحبة
 لا تكون شاقة ، وكل من يكون أكثر محبة يزداد حرصه على الطاعة . وكثرة
 المحبة من حقيقة المعرفة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :
 نهض النبی علیه السلام ذات ليلة من الفراش ، فنصورت أنه ذهب الى

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي . خرساني من ناحية مرو من قرية
 يقال لها « قندين » . ولد بسمرقند ، ونشأ بآبيورد . مات سنة سبع وثمانين ومائة .
 ورد عنه أنه قال : لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له الى الخلق حاجة لا الى
 الخلق فمن دونهم ، ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه . (أطر ترجمته
 فى طبقات الصوفية ص ٦ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ ، وفيات الاعيان ج ١
 ص ٤١٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٧٤ ، نفحات
 الانس ص ٢٧) .

(٢) « باورد » بفتح الواو وسكون الراء : وهى آبيورد : بلد بخراسان بين سرخس
 ونسا (معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) سورة « الحديد » آية ١٦ .

حجرة أخرى فنهضت ، وكنت أسير على اثره حتى وجدته في المسجد واقفا في الصلاة ، وكان يبكي ، الى أن أذن بلال لصلاة الفجر وهو في الصلاة ، فلما أدى صلاة الفجر ورجع الى الحجرة رأيت كلا قدميه متورمتين وأطراف أصابعها مشققة ، وكان يسيل منها سائل أصفر ، فبكيت وقلت : يا رسول الله ! لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلماذا تشق على نفسك كثيرا ، دع هذا لشخص غير مأمون العاقبة ! قال : يا عائشة ! هذا كله من فضل الله ومنته ولطفه ونعمته جل جلاله ، أفلا أكون عبدا شكورا (١) ؟

وقد قبل صلى الله عليه وسلم في ليلة المراج خمسين صلاة ولم يستثقلها ورجع الى الله بكلام موسى ، وعاد بخمس صلوات ، وذلك لأنه لم يكن في طبعه شيء مخالف للأمر قط ، لأن المحبة الموافقة .

ويروى عنه رضى الله عنه أنه قال : « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين ، وللمجانين في دار المرضى الغل والقيد » . وغلنا هوى نفوسنا ، وقيدنا معصيتنا .

روى الفضل بن الربيع (٢) ، رحمه الله ، قال : ذهبت الى مكة مع هارون الرشيد (٣) ، فلما حججنا قال لى هارون : أهنا رجل من رجال الله فنزوره ؟

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة ، والشيخان من عائشة : « حتى تنظر قدماء » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠١) .

(٢) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس : حاجب الرشيد ، ووزير الأمين . سعى بأنبرامكة وتمكن بالجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليه . وزر للرشيد بعد البرامكة ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته . كان في صحبة الرشيد عند وفاته فقر الأور للأمين ، ولم يعرج على المأمون وهو بخراسان . خاف من المأمون أن انتهت الخلافة اليه ، فزين للأمين أن يطلع المأمون من ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الى أن سار المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر ابن الحسين ووزيره الفضل بن سهل ، وأخرج الأمين جيشا من بغداد بإشارة وزيره الفضل بن الربيع مقدمه على بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان وقتل على بن عيسى ، ولما اضطربت أحوال الأمين وقويت شوكة المأمون ، استقر الفضل ابن الربيع ثم ظهر لى ادمى ابراهيم المهدي الخلافة ببغداد واتصل به ابن الربيع ، فلما اختل حال ابراهيم استقر ابن الربيع ثانيا ، ولم يزل بطالا الى أن مات . توفي سنة ثمان ومائتين . (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٢) .

(٣) الخليفة العباسى هارون الرشيد بن محمد المهدي . تولى الخلافة يوم أن توفي أخوه موسى سنة ١٧٠ هـ . وكانت ولانته ثلاثا وعشرين سنة . ولما أفضت اليه الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ! أنت أجلسنى في هذا المجلس ببركك وبينك ، وقد قلدتك الأمر . ودفن خاتمه اليه . بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥ هـ . وكان الغالب على الرشيد — صدرا من خلفته — يحيى بن خالد بن برمك وأبناء جعفر والفضل ، ثم بطش بهم فقتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومثل بجنته ، واعتقل أباه وأخوته وصادر أملاكهم . ونكل بالمعوليين . توفي سنة ١٩٣ هـ في طوس في قرية يقال لها « سناباد » (أنظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٣٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها) .

فقلت : نعم ؟ هنا عبد الرزاق الصنعاني (١) . قال : خذني اليه . فلما ذهبتا اليه وتحدثنا برهة ، أشار الى هارون أن أسأله أعليه دين ؟ فسألته ، فقال نعم ! فأمر فتضوا دينه . وخرجنا من هناك وقال — هارون — يا فضل ! ان قلبى ما يزال يتطلب رجلاً أكبر من هذا . فقلت : هنا سفيان بن عيينة (٢) ، قال : امض لنذهب اليه . ولما دخلنا وتحدث معه برهة وأردنا العودة ، أشار الى ثانية أن أسأله ، فقال : نعم ، على دين ، فأمر فتضوا دينه . وخرجنا من هنالك فقال : يا فضل ! لم يحصل مقصودى بعد . فتذكرت أن الفضيل بن عياض رحمة الله عليه ورضى الله عنه موجود ، فصحبته اليه . وكان يقيم في غرفة يتلو القرآن . وطرقنا الباب ، فقال : من ؟ قلت : أمير المؤمنين . فقال رضى الله عنه : « مالى ولأمر المؤمنين » . قلت : سبحان الله ، ألم يرو عن النبى عليه السلام أنه قال : « ليس للعبد أن يذل نفسه في طاعة الله ، فقال : بلى ، أما الرضا فعز دائم عند أهله » . وعندئذ نزل وفتح الباب ، وأطفأ المصباح ، ووقف في ركن ، فكان هارون يبحث عنه حتى وقعت يده عليه ، فقال : آه من يد لم أر أنعم منها اذا نجت من عذاب الله . فغلب هارون البكاء وظل يبكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال له : عظمى ! قال : يا أمير المؤمنين ! قد كان أبوك عم المصطفى صلوات الله عليه فطلب اليه أن : اجعلنى أميراً على قوم ، « قال : يا عم ، بك نفسك » . يعنى : « لأن تكون لحظة في طاعة الله ، خير من طاعة الخلق لك ألف عام ، « لأن الإمارة يوم القيامة الندامة » .

قال هارون : زد في عظمى ؟ قال : لما نصب عمر بن عبد العزيز (٣) للخلافة ،

(١) « عبد الرزاق الصنعاني » : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعاني البصري : من رواة البخارى ، ولد سنة ١٢٠ هـ — ٧٢٧ م ، وتوفى سنة ٢١١ هـ — ٨٢٦ م . من مؤلفاته : تركية الارواح ، تفسير القرآن ، الجامع الكبير ، كتاب السنن في الفقه ، كتاب المنازى . قال فيه مؤلف « قاموس الاعلام » : كان من مشاهير العلماء والمحدثين . . وكان الناس يقصدونه من كل فج عريق لفرارة علمه ، وكان يروى عنه المشاهير مثل سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل .
ومما هو جدير بالذكر أن أبا بكر الصنعاني من الشيوخ الذين ألصق بهم البعض قصة « شيخ صنعان » التى وردت في الرسالة الفارسية « تحفة الملوك » المنسوبة الى الإمام الغزالي ، وفي المنظومة الرمزية « منطق الطير » للشاعر الصوفي الفارسي « فريد الدين العطار » . (انظر : « بحث في حقيقة شيخ صنعان » أحمد ناجى القيسى : بغداد ١٢٨٤ هـ — ١٦٥ م) .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي . أحد أئمة الاسلام . قال الشافعى عنه : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . مات سنة ثمان وتسعين ومائة .
(« خلاصة تذهيب الكمال » ص ١٢٤) .

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . الخليفة الأموى الزاهد العابد العادل : استخلف في صفر سنة تسع وتسعين ، وتوفى بدير سمعان من أعمال حمص في رجب سنة احدى ومائة . وكانت خلافته ثلاثين شهرا . وقبره في هذا الموضع لم يتعرض لنشبهه كقبر غيره من بنى أمية . كان في نهاية النسك والتواضع ، ترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها) .

استدعى سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن كعب القرظي (١) .
رحمهم الله وقال : لقد ابتليت بهذه البلية ، فما تدبيري ؟ فأتى أرى هذا بلاء
مهما يظنه الناس نعمة . فقال واحد منهم : اذا أردت أن يكون لك الفوز
والنجاة غداة القيامة فاعتبر شيوخ المسلمين كأبيك ، وشبابهم كأخوتك ،
وأطفالهم كأبنائك ، وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وأخاك وولدك في دارك ،
لأن جميع ديار الاسلام بيتك ، وأهلها عيالك : « فزر أباك ، وأكرم أخاك ،
وأحسن الى والدك » .

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين ، انى أخشى على وجهك الجميل أن
يبتلى بنار جهنم ، فآخش الله تعالى ، وأدحقه خيرا من هذا .

وقال له هارون بعد ذلك : أعليك دين ؟ قال : نعم ، دين الله على وهو
طاعته ، فاذا قضيته نجيتنى من الويل . فقال : يا فضيل ، اتكلم عن دينك
للخلق . فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله ، اذ لدى منه نعم
كثيرة ، وليس لى منه أى شكوى حتى أشكوه الى عبادته . وعندئذ وضع
هارون أمامه صرة ذهب بها ألف دينار وقال له : اصرف هذا في وجه من
الوجوه . فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين ! ان عطائى هذه لم تفدك قط ،
ومن هنا أخذت في الجور وبدأت الظلم . قال : أى ظلم فعلت ؟ قال الفضيل :
أنا ادعوك الى النجاة وانت توقعنى في الهلاك ، أفلا يكون هذا ظلما ؟ فبكى
هارون ، وخرج من عنده وقال : يا فضل بن الربيع ! ان الملك حقا هو
الفضيل .

وهذا كله دليل صولته في الدنيا وأهلها ، وحقارة زينتها في قلبه ، وتركه
التواضع لاهل الدنيا من أجل الدنيا .

وله مناقب أكثر من أن يستوعبها الفهم .

● ومنهم سفينة التحقيق والكرامة ، وخزانة الشرف في الولاية :
« أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى (٢) » رضى الله عنه ، كان صبيبا
نوبيا اسمه « ثوبان » ، وكان من أخيار القوم وكبار هذه الطريقة وعياريها ،
سلك طريق البلاء ، وسار في طريق الملامة .

وكان أهل مصر جميعا متحيرين في شأنه ، ومنكرين عليه في حياته . ولم
يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله الى وقت وفاته . وفي تلك الليلة التى

(١) سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب القرظي : من الفقهاء في أيام

عمر بن عبد العزيز . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥١) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

فارق فيها الدنيا ، رأى سبعون رجلا النبي عليه السلام في النوم يقول :
ان حبيب الله ذا النون يزعم المجيء وقد جئت لاستقباله . وحين مات ظهر
مكتوبا على جبينه : « هـذا حبيب الله ، مات في حب الله ،
قتل الله » . فلما حملوا جنازته ، تجمعت طيور السماء وظللت
جنازته ، فتحير اهل مصر جميعا ، وتابوا عما كانوا قد ارتكبوه معه من
جفاء .

وله طرف كثيرة وكلمات طيبة في حقائق العلوم ، كقوله : « العارف كل
يوم أخشع ، لانه في كل ساعة اقرب (١) » .

ومن يكن الاقرب تكن حيرته اكثر لا محالة ، وخشوعه اوفر ، لانه صار
علما بهيية الحق وسلطانه ، فقد استولى جلال الحق على قلبه فلا يرى
نفسه بعيدا عنه وعن وصله ، فيزداد خشوعا على خشوع ، كما قال موسى في
حال مكالمته : « يا رب ! أين أطلبك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم » ، واليائسين
من صلاحهم . قال : يا الهى تعاليت ، لا قلب اكثر ياسا وانكسارا من قلبى !!
فقال : فأنا حيث أنت .

فمدعى المعرفة بلا وجل وخشوع جاهل لا عارف . وحقيقة المعرفة
علامة على صدق الارادة ، والارادة الصادقة صارمة للأسباب ، وقاطعة
للعبد عما سوى الله عز وجل ، كقول ذى النون رضى الله عنه : « الصدق
سيف الله في أرضه ، ما وضع على شىء الا قطعه (٢) » ، والصدق رؤية
المسبب لا اثبات السبب ، فاذا ثبت السبب انتفى حكم الصدق وسقط .

وقرأت في الحكايات أن (ذا النون) كان ذات يوم راكبا سفينة مع
أصحابه للنزهة في النيل ، كمادة اهل مصر ، وكانت سفينة أخرى قادمة
وبها جماعة من اهل الطرب يعبثون ، فكبر ذلك على تلاميذه ، فقالوا : أيها
الشيخ ! ادع ليفرق الله هؤلاء جميعا ، وينقطع عن الخلق شؤمهم . فنهض
ذو النون رحمه الله ورفع يديه وقال : يا الهى جل جلالك ! كما حبوت
هؤلاء في الدنيا عيشا طيبا ، امنحهم في الآخرة أيضا طيب العيش ! فتعجب
المريدون من قوله . ولما اقتربت السفينة ووقعت أعين ركبائها على ذى
النون ، بكوا ، وحطموا أعوادهم ، وتابوا وانبأوا الى الله . فقال رحمه الله
لتلاميذه : ان طيب عيش الآخرة توبة الدنيا ، أما رأيتم ان المراد كله قد
حصل ؟ وبلغتم انتم واياهم مرادكم دون أن يصيب أحدا اذى ؟

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٦) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٣) .

وكان ذلك من غاية شفقة الشيخ على المسلمين . وقد اقتدى في هذا بالنبي عليه السلام ، اذ كان كلما زاد الكفار من جفائهم لا يغضب ، وكان يقول : « اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون » .

ويرد عنه انه قال : كنت قادما من بيت المقدس (١) قاصدا مصر ، فرأيت في الطريق شيخا مهيبا من بعيد ، فخطر بقلبي أن أسأله سؤالا . فلما اقترب مني ، رأيته عجوزا بيدها عكاز ، وعليها جبة من صوف . فقلت : من أين ؟ قالت : من الله ! قلت : الى أين ؟ قالت : الى الله ! وكان معي دينار فأخرجته لأعطيها لها ، فلوحت بيدها في وجهي وقالت : ياذا النون ! ان الصورة التي تصورتها عنى من ركافة عقلك . اننى أعمل لله ، ولا آخذ شيئا من سواه ! وكما انى لا أعبد غيره ، فانى لا آخذ (شيئا) من غيره .

وفي هذه الحكاية رمز لطيف ، اذ قالت العجوز : انا أعمل لله ، فهذا دليل صدق المحبة ، لأن الخلق في المعاملة نوعان :

فريق يعملون ويخالون أنهم يعملون من أجل الله ، وهم في الحقيقة يعملون من أجل انفسهم ، ومهما يكن أربهم منقطعاً دنيويا ، فانهم — على كل حال — يرجون ثواب الآخرة .

والفريق الآخر ، انقطعت عن معاملاتهم ارادة الثواب (وخشية) العقاب في الآخرة ، والرياء والسسمعة في الدنيا . وكل ما يعملونه انما يعملونه من أجل تعظيم أمر الحق جل جلاله . ومحبة الحق تعالى تقتضيهم ترك نصيبهم ، في طاعته . ويخيل لهؤلاء — وهم لا يدرون — أن كل ما يعملونه من أجل الآخرة هو أيضا لهم ، ولا يعرفون أن نصيب المطيع في الطاعة أكثر من راحة العاصي في المعصية ، لأن راحة العاصي في المعصية ساعة ، وراحة المطيع في الطاعة دائمة .

وأى فائدة لله تعالى وتقديس من مجاهدة الخلق ، وأى ضرر عليه في تركها ؟ ولو عمل كل الخلق بصدق أبى بكر ، فمرد ذلك اليهم . وان عملوا

(١) « بيت المقدس » أو « القدس » : مدينة على فضاء وسط الجبال ، والمسجد الأقصى في طرفها الشرقى نحو القبلة . يقدسها المسلمون والنصارى واليهود ، فاليها كان مرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالقرب منها ولد المسيح ، وفيها مبعى اليهود . فتحت صلحا في عهد عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩٠ — ٦٠٢) وقيل فتحت سنة خمس عشرة أو ستة عشرة . ولما دخل عمر ببيت المقدس كشف عن الصحراء وأمر ببناء مسجد عليها (الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٤٠ — ٤٢) .

يكذب فرعون ، فضير ذلك عليهم ، لقوله تعالى : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم(١) » : وقوله تعالى : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه(٢) » .

والخلق انما يطلبون لأنفسهم الملك الأبدى ، ويقولون اننا نعمل من أجل الله . أما سلوك طريق محبته فشئ آخر ، انهم (الأحبة) يرعون في اطاعتهم للأمر حصول أمر الحبيب ولا يتطلعون لشئ آخر . وسوف يرد في هذا الكتاب أمثال هذا القول في باب الاخلاص ، ان شاء الله تعالى .

● ومنهم أمير الأمراء ، وسالك طريق اللقاء :

« أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور(٣) » رضى الله عنه . كان أوحده زمانه ، وسيد أقرانه في عصره ، وملك ملوك الرجال . وكان مريد « الخضر » عليه السلام ، أدرك كثيرا من قدماء الشيوخ ، واختلط بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وتعلم منه العلم .

وكان في بداية أمره . أمير بلخ(٤) ، فلمسا أراد الحق تعالى أن يكون سلطان عالم ، خرج يوما للصيد ، وانفصل عن عسكره ، وركض خلف غزال ، فأنطقه الله عز وجل له ، فقال بلسان عربى فصيح : « الهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ » . وكان هذا القول دليلا له ، فتاب(٥) وكف يده تماما عن ممالك الدنيا ، وسلك طريق الزهد والورع ، وأدرك الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وصحبهما .

(١) سورة « الاسراء » آية ٧ .

(٢) سورة « العنكبوت » آية ٦ .

(٣) سبق الإشارة اليه

(٤) « بلخ » مدينة مشهورة بخراسان ، على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون على رافده دهلس . منها الى فرغانة ثلاثون مرحلة مشرقا ، والى الري ثلاثون مرحلة مغربا ، والى سجستان ثلاثون مرحلة مما يلى القبلة ، والى كابل و قندهار ثلاثون مرحلة (انظر : « البلدان » ص ٥٣) افتتح بلخ الأخذ قيس من قبل عبد الله بن عامر في زمن عثمان (معجم البلدان ج ١ ص ٧١٣) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية أن أبى عبد الله السنجارى قال له : يا أبى اسحاق ! خبرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ قال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابا فركبت الى الصيد ، فخرجت يوما على دابة لى ومعى كلب ، فأنثرت أرنباً أو ثعلباً ، فبينما أنا اطلبه اذ هتف بى هاتف لا أراه فقال : يا ابراهيم ، الهذا خلقت أم بهذا أمرت . ففزعت ووقفت . ثم عدت فركضت ثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات . ثم هتف بى هاتف من قربوس السرج : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . قال : فصادفت راعيا لأبى يرعى الغنم فأخذت جبهته الصوف فلبستها ، ودفعت اليه الفرس وما كان معى ، وتوجهت الى مكة . فبينما أنا فى البادية اذا برجل يسير . ليس معى ازاء ولا زاد . فلما أمسى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أسمع به ، نادا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت . وكنت معه على هذا أياما . وعلمنى اسم الله الأعظم ثم غاب عنى وبقيت وحدى . فبينما أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله به نادا أنا بشخص أخذ بحجزتى وقال : سل تعط . فراعنى قوله ، فقال : لا روع عليك ولا بأس عليك . أنا أخوك الخضر (انظر : طبقات الصوفية ص ٢٩) .

ولم يأكل طيلة عمره الا من كسب يده . وله معاملات ظاهرة وكرامات مشهورة ، وفي حقائق التصوف كلمات بديعة ولطائف نفيسة . قال عنه الجنيد رحمة الله : « مفاتيح العلوم ابراهيم » .

ويزرى عنه انه قال : « اتخذ الله صاحباً وذر الناس جانباً (١) » .

والمراد من هذا القول انه حين يصح اقبال العبد على الحق تعالى ، ويخلص في توليه ، فان صحة اقباله على الحق تقتضى الاعراض عن الخلق ، لانه لاشأن قط لصحبة الخلق مع حديث الحق . وصحبة الحق هي الاخلاص في انفاذ امره ، والاخلاص في طاعته من خلوص محبته ، وخلوص محبة الحق يتأتى من معاداة النفس والهوى ، لأن كل من يعرف الهوى ينفصل عن الله عز وجل ، وكل من ينقطع عن الهوى يسكن الى الله . فأنت في الحق ، كل الخلق ، فاذا اعرضت عن نفسك فقد اعرضت عن الجميع . ومن يعرض عن الخلق ويقبل على نفسه فانه يكون كما لو أن الخلق جميعاً على صواب فيما هم فيه بحكم التقدير ، وقد صار لك معك شأن .

وبناء استقامة الظاهر والباطن للطالب في شيئين : أحدهما ، ما ينبغى معرفته ، والآخر : ما ينبغى عمله .

وما ينبغى معرفته : هو رؤية تقدير الحق من خير أو شر ، لانه في كل الملك لا يسكن أى متحرك ولا يتحرك أى ساكن الا بالحركة التى يخلقها الله تعالى فيه ، والسكون الذى يضعه الله تعالى فيه .

وما ينبغى عمله : هو انفاذ الأمر ، وصحة المعاملة وحفظ التكليف ، فلا يصير تقديره بأى حال حجة لترك امره .

والاعراض عن الخلق لا يستقيم مالم تعرض عن نفسك ، واذا اعرضت عن نفسك فانه يلزم كل الخلق لحصول مراد الحق ، واذا اقبلت على الحق تعالى فأنت تلزم لاقامة امره . اذن ، فلا وجه للركون الى الخلق .

وان أردت أن تركن الى شئ بدون الحق ، فاركن الى الغير (٢) ، لان الركون الى الغير رؤية للتوحيد ، والركون الى النفس اثبات للتعطيل ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٧) .
(٢) أى : الى غير نفسك .

ولهذا السبب كان شيخ الشيوخ أبو الحسن بن سألبة (١) رحمه الله يقول :
لأن يكون المرید فی حکم هرة خير من أن يكون فی حکم نفسه ، لأن صحبة
الغير تكون من أجل الله ، وصحبة النفس تكون من أجل تربية الهوى .
وسیأتی الكلام فی هذا المعنى فی موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله
تعالى .

وقرات فی الحکایات ان ابراهيم بن ادهم قال : لما وصلت البادية ، اتبعت
شيخ وقال لى : يا ابراهيم ! أنعرف اى مكان هذا حتى تسیر بغير زاد
ولا راحلة ؟ .

قال : فعرفت انه الشيطان . وكان معى أربعة دوانق ، كنت قد بعثت
بها زنبیلا فی الكوفة ، فأخرجتها من جیبى وقذفت بها ، ونذرت أن أصلى
بكل ميل أربعمئة ركعة . وبقيت فی البادية أربعة أعوام ، وكان الحق تعالى
يبعث الى بالرزق عند الحاجة ، دون عناء . واتفق لى فی ذلك الوقت
صحبة الخضر علیه السلام ، وعلمنى اسم الله الاعظم ، وعندئذ فرغ
قلبى كلية من الغير .

وله مناقب كثيرة ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم سریر المعرفة ، وتاج اهل المعاملة : « بشر بن الحارث الحافى (٢) »**
رضى الله عنه ، كان ذا شأن كبير فی المجاهدة ، وحظ واف فی المعاملة ،
أدرك صحبة الفضیل بن عیاض ، وكان مریدا لخاله على بن خثرم (٣) ،
وعالما بعلم الأصول والفروع .

وكانت بداية حاله أنه كان یسير ذات يوم شملا فی الطريق فوجد قطعة
ورق فتناولها بتعظیم ، ورأى مكتوبا علیها : « بسم الله الرحمن الرحيم (٤) » ،
فعطرها ووضعها فی مكان طاهر . ورأى الله تعالى فی تلك الليلة فی النوم
يقول له : يا بشر ! طيبت اسمى ، فبغزنى لأطيين اسمك فی الدنيا والآخرة ،
فلا یسمع أحد باسمك الا وتسرى فی روحه راحة . وعندئذ تاب وسلك
طريق الزهد .

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) سبق الاشارة اليه .

(٣) عبد الرحمن بن على بن خثرم بن هلال بن ماهان بن عبد الله . وكان عبد الله
يسمى « يعفور » فأسلم على يد على بن أبى طالب فسماه عبد الله . وبشر ابن
الحارث وعبد الرحمن فی القرابة متساويان ، وكان الحارث وخثرم أخوين من أب
وأم . (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٩ حاشية ١) . وورد فی الرسالة انه ابن
أخت على بن خثرم (انظر : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٨) .

(٤) سورة « الفاتحة » آية ١ .

ولم يكن — من شدة الغلبة في مشاهدة الحق — ينتعل شيئا قط ،
فسئل عن علة ذلك فقال : الأرض بساطة ، وأنا لا أجيز أن أدوس بساطه
وبين قدمي والأرض واسطة . وهذا من غرائب معاملاته ، إذ غدا النعل
حجابا له في جمع همته بالحق ! .

ويرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون عزيزا في الدنيا ، شريفا في الآخرة ،
فليجتنب ثلاثا : لا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر أحدا بسوء ، ولا يجيب
أحدا إلى طعامه » .

أما كل من يعرف الطريق إلى الله تعالى فلا يطلب من الخلق حاجة ،
إذ أن الحاجة إلى الخلق دليل عدم المعرفة ، لأنه لو كان عارفا بقاضى
الحاجات لما طلب حاجة من (مخلوق) مثله : « استعانة المخلوك بالمخلوق
كاستعانة المسجون بالمسجون » (١) .

وأما كل من يسئ القول إلى أحد ، فهذا تصرف في حكم الله تعالى ،
لأن ذلك الشخص وفعله من خلق الله عز وجل ، فعلى من ترده ؟ ومن يعيب
الفعل يكن قد عاب الفاعل ، (وذلك) بخلاف ما أمر به (الله) من ذم الكفار
موافقة له .

وأما قوله : تعففوا عن طعام الخلق ، فذلك لأن الرازق هو الله جل
جلاله ، فإذا جعل مخلوقا سبب رزقك ، فلا تنظره ، وأعلم أن ذلك رزقك
الذى أوصله الله تعالى إليك ، وليس ملكا له . وإذا خال أنه له ، وامتن
به عليك ، فلا تجبه ، إذ ليس لأحد على أحد منة في الرزق ، لأن الرزق
عند أهل السنة والجماعة غذاء ، وعند المعتزلة ملك ، والله هو الذى يمد
الخلق بالأغذية لا المخلوق . ولجاز هذا القول معنى آخر ، والله أعلم .

● ومنهم فلك المعرفة ، وملك المحبة :

« أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (٢) » رضى الله عنه ، كان من جلة
المشايخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شأنا ، إلى حد أن قال الجنيد رحمه الله :
« أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة » .

(١) ورد في الأصل : استعانة المخلوق إلى المخلوق كاستعانة المسجون إلى المسجون .
ورد في طبقات الصوفية كما أثبتته وهو الأصح . (انظر طبقات الصوفية ص ١٢٦) .

سبق الإشارة إليه

(٢) سبق الإشارة إليه .

وكان جده مجوسيا ، وأبوه أحد عظماء بسطام(١) ، وله في أحاديث
النبي عليه السلام روايات عالية .

كان أحد الأئمة العشرة المعروفين ، ولم يكن لأحد قبله في حقائق هذا
العلم كل تلك الاستنباطات التي له . وكان في كل الأحوال محبا للعلم
ومعظما للشريعة برغم ما يقال من أن غريقا يرمونه بالاحاد .

وكان وقته في البداية مبينا على المجاهدة وممارسة المعاملة . ويرد عنه
انه قال : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من
العلم ومتابعته . ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة
الا في تجريد التوحيد(٢) » .

والحقيقة ان الطبع أميل الى الجهل منه الى العلم ، ويمكن عمل الكثير
بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط
الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة . فيجب عليك أن تكون في كل
الأحوال بحيث اذا تخلفت عن الأحوال الرفيعة والمقامات الخطيرة وسقطت ،
أن تسقط في ميدان الشريعة . واذا زايك كل شيء يجب أن تبقى معك
المعاملة ، لأن أعظم الآفات للمريد ترك المعاملة . وكل دعاوى المدعين
تتلاشى في ممارسة الشريعة ، ويتعزى أمامها كل أرباب اللسان .

ويرد عنه رحمه الله انه قال : « الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ،
وأهل المحبة محبوبون بمحبتهم(٣) » .

أى أن الجنة ، وان تكن كبيرة ، مخلوقة . ومحبة : صفته ، وليست
مخلوقة ، وكل ما يبقى للمخلوق مما هو مخلوق ، لاخطر له . والاحباب
محبوبون بالمحبة ، ذلك أن وجود المحبة يقتضى الثنائية ، والثنائية لا تتأتى
في أصل التوحيد ، وطريق الاحباب من وحدانية الى وحدانية .

وفي طريق المحبة تتأنى علة المحبة ، وآفة ذلك أنه يلزم في المحبة مريد
ومراد ، فأما أن يكون المريد الحق والعبد المراد ، ولما أن يكون المراد
الحق والعبد المريد . فاذا كان المريد الحق والمراد العبد ، فان وجود العبد

(١) « بسطام » بكسر الياء ثم السكون : بلدة كبيرة يقومس على جادة الطريق الى
نيسابور بعد دامنجان بمرحلتين . فتحت مع الرى وقومس على يد نعيم بن مقرن في
عهد عمر بن الخطاب سنة تسع عشرة أو ثمانى عشرة (معجم البلدان ج ١
ص ٦٢٣) .

(٢)(٣) وردا بنصهما في طبقات الصوفية . (أنظر ص ٧٠) .

يثبت في مراد الحق . وإذا كان المرید العبد والمراد الحق فلا سبيل لطلب وإرادة المخلوق اليه . ويبقى هنا في كلا الحالين ، آفة وجود المحب .

اذن ففناء المحب في بقاء المحبة اصح وأتم من قيامه ببقاء المحبة .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : صرت مرة الى مكة ، فرأيت البيت مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجارا كثيرة من هذا الجنس . وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد بعد . وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ، ولا بيت . فنوديت فى سرى أن : يا أبا يزيد ! اذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركا . وإذا لم تر العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا . وعندئذ تبت ، وتبت أيضا عن رؤية وجودى .

وهذه حكاية لطيفة فى صحة حاله ، وعلامة طيبة لأرباب الأحوال ، والله اعلم .

● ومنهم أمام الفنون وجاسوس الظنون :

« أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى (١) » رضى الله عنه . كان عالما بالأصول والفروع ، وكان جميع أهل العلم فى زمانه يتولونه ويقددون به . وقد عمل كتابا فى أصول التصوف اسمه « الرعاية (٢) » . وله تصانيف أخرى كثيرة غيره .

وكان فى كل فن على الحال عظيم المهمة ، وكان شيخ مشايخ بغداد فى وقته .

يروى عنه أنه قال : « العلم بحركات القلوب فى مطالعة الغيوب ، اشرف من العمل بحركات الجوارح » .

والمراد بهذا أن العلم محل الكمال ، والجهل محل الطلب . والعلم فى الرواق افضل من الجهل فى البلاط ، لأن العلم يبلغ بالرجل درجة الكمال ، والجهل لا يتخطى به الاعتبار .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) ذكره السلمى باسم : « الرعاية لحقوق الله » (انظر طبقات الصوفية ص ٥٦) . وذكر باسم : « الرعاية فى التصوف » فى كشف الظنون ج ١ عامود ٩٠٨ ، هدية المارفين ج ١ عامود ٢٦٤ . وقد نشر كتاب الرعاية لحقوق الله فى سلسلة جب النذكار سنة ١٩٤٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا باسم : «الرعاية بحقوق الله» اشار اليه الهجویری ونسبه الى محمد بن خضرويه (انظر : كشف المحجوب ص ٤٢٩ :

والعلم — فى الحقيقة — اعظم من العمل ، لانه يمكن معرفة الله تعالى بالعلم ، ولا يمكن ادراكه بالعمل . ولو كان للعمل بغير العلم طريق اليه ، لكان النصرى والرهبان فى شدة اجتهاهم : فى المشاهدة ، ولكن عصاة المسلمين : فى المغايبة .

اذن ، فالعمل صفة العبد ، والعلم صفة الله تعالى .

وقد اخطأ بعض رواة هذا القول ، وهم يروون كلا — الكلمتين (أى العلم والعمل) : « العمل » ويقولون — ان المحاسبى يقول — « العمل بحركات القلوب اشرف من العمل بحركات الجوارح(١) » وهذا محال ، لان عمل العبد لا يتعلق بحركات القلب . واذا كانوا يريدون بهذا ، فكرة ومراقبة احوال الباطن ، فهذا ذاته ليس غريبا ، لان الرسول عليه السلام قال : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وفى الحقيقة : اعمال السر افضل من اعمال الجوارح ، وتأثير اعمال الباطن اتم من تأثير اعمال الظاهر ، ولذلك قيل : « نوم العالم عبادة ، وسهر الجاهل معصية » لان سر (العالم) مغلوب فى النوم واليقظة ، وعندما يغلب السر ، يغلب الجسد ايضا ، فالسر المغلوب بغلبة الحق افضل من النفس الغالبة بحركات الظاهر والمجاهدة .

ويرد عنه رحمة الله انه قال يوما لدرويش : « كن لله والا فلا تكن »
يعنى : ابق بالحق ، او افن عن وجودك .

أى : كن مجتهدا بالصفوة او مغترقا بالفقر ، وابق بالحق او افن عن نفسك . او : كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى : « اسجدوا لآدم(٢) » ، او على تلك الصفة حيث يقول : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(٣) » ، فاذا كنت لنفسك باختيارك فقيامك بنفسك ، وان لم تكن باختيارك فقيامك بالحق . وهذا المعنى لطيف والله اعلم بالصواب .

● ومنهم الامام المعرض عن الخلق وطلب الرياسة ، والمنقطع عن الخلق بالعزلة والقناعة : « أبو سليمان داود بن نصير الطائي(٤) » رضى الله

(١) ورد على هذا النحو فى طبقات الصوفية : انظر ص ٥٩ .

(٢) سورة « البقرة » آية ٣٤ ، سورة « الاعراف » آية ١١ ، سورة « الكهف »

آية ٥٠ ، سورة « طه » آية ١١٦ .

(٣) سورة « الانسان » آية ١ .

(٤) سبق الاشارة اليه .

عنه . كان من كبار المشايخ وسادات أهل التصوف ، منقطع النظر في زمانه ، وتلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، ومن أقران الفضيل وإبراهيم بن أدهم وغيرهما ، ومريد حبيب الراعى رضى الله عنه .

وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر ، وفى درجة عليا . وفى الفقه فقيه الفقهاء . اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد والتقوى ، وله مناقب كثيرة ، وفضائل مذكورة ، فقد كان عالما فى المعاملات ، وكاملا فى الحقائق .

يرد عنه أنه قال لمريد من مريديه : « ان أردت السلامة سلم على الدنيا ، وان أردت الكرامة كبر على الآخرة » .

أى أن هذين المحلين حجاب ، وكل الفراغ منوط بهما ، فكل من يريد أن يفرغ بالجسد ، قل له : أعرض عن الدنيا ، وكل من يريد أن يفرغ بالقلب قل له : انزع من قلبك ارادة العقبى .

ومشهور فى الحكايات أنه كان يخالط محمد بن الحسن ، ويقصى عنه أبا يوسف ، فقليل له : كلاهما عظيم فى العلم ، فلماذا تغز أحدهما وتقصى عنك الآخر ؟ قال : لأن محمد بن الحسن أقبل على العلم وهو صاحب دنيا ونعم كثيرة ، وصير العلم سبب عز دينه وذل دنياه ، وأبا يوسف أقبل على العلم من الذل والفقر ، وصير العز سبب جاهه وجماله وعزه ، فمحمد ليس مثله .

ويروى عن معروف الكرخى رحمه الله أنه قال : لم أر أحدا كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى ، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعا لديه بمقدار جناح بعوضة ، وكان ينظر الى الفقراء بعين الاحترام وان كانوا ملأى بالآفات . وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

● ومنهم شيخ أهل الحقائق ، والمنقطع عن جملة العلائق :

« أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى (١) » رحمه الله . كان خال الجنيد ، وعالما بجملة العلوم ، وذا شأن عظيم فى التصوف .

(١) قال عنه أنسلمى : أنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة احدى وخسين ومائتين . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٥٩ ، تذكره الأولياء ج ١ ص ٢٧٤ ، تفحات الانس ص ٥٣) .

وكان رحمه الله أول من خاض في ترتيب المقامات وبسط الأحوال ،
وأكثر مشايخ العراق (١) من مريديه . رأى حبيبا الراعى وصحبه ، وكان
مريد معروف الكرخي .

كان يتجر في سوق بغداد ، وعندما احترق السوق قالوا له : احترق
دكانك . فقال : فرغت من قيده . ولما نظروا ، لم يكن دكانه قد احترق
واحتترقت كل الدكاكين من جهاته الأربع ! فلما رأى ذلك ، وهب الفقراء
كل ما يملك ، واختار طريق التصوف .

سئل : كيف كانت بداية حالك ؟ قال : مر حبيب الراعى بدكانتي ذات
يوم ، فأعطيته كسرة قاثلا : أعطها للفقراء ؟ فقال لى : خيرك الله ! ومنذ
ذلك اليوم الذى سمعت فيه دعاءه هذا ، زایلنى الفلاح الدنيوى .

ويرد عنه أنه قال : « اللهم مهما عذبتنى بشيء فلا تعذبنى بذل
الحجاب (٢) » ، لأنه حين لا أكون محجوبا عنك ، يسهل على بذرك
ومشاهدتك العذاب والبلاء ، ومتى أكون محجوبا عنك يصبح نعيمك الأبدى
هلاكا لى ، بذل حجابك .

ذلك أن البلاء الذى يكون فى مشاهدة المبلى لا يكون بلاء بل يكون نعمة ،
والنعمة فى حجاب المبلى هى البلاء الحقيقى ، لأنه لا يوجد فى الجحيم
بلاء أشد من الحجاب ، ولو كان أهل الجحيم فى الجحيم مكاشفين لله
تعالى ، لما خطرت الجنة لعصاة المؤمنين ، لأن رؤية الحق عز اسمه تمنح
الروح من المسرات ما ينسيها عذاب الجسد ، ويشغلها عن بلاء البدن .
ولا يوجد فى الجنة نعمة أتم من الكشف ، لأنه لو كانت كل تلك النعم ومئات
من أمثالها حاصلة لهم (٣) وهم محجوبون عن الله لتصاعد الهلاك من قلوبهم
وأرواحهم .

أذن ، فسنة الله تعالى أنه يجعل قلوب أحبائه بصيرة به فى جميع الأحوال
حتى تستطيع تحمل جميع المشقات والرياضات والبلايا بشرابه ، ويكون
دعاؤهم : أن كل ألوان العذاب أحب إلينا من حجابك ، لأنه حين ينكشف
جمالك لقلوبنا ، لا نبالى بألوان العذاب . والله أعلم .

(١) « العراق » : العراق المشهور : ملاد ، والعراقان : الكوفة والبصرة . قال قطرب
إنما سمي العراق عراقا لأنه دنا من البحر . وقال الخليل : العراق شاطئ البحر
وسمى العراق عراقا لأنه على شاطئ دجلة والفرات (معجم البلدان ج٣ ص ٤٢٨) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : اللهم ما عذبتنى بشيء (أنظر ص ٥١) .
(٣) أى لأهل الجنة .

● ومنهم قائد أهل البلوى ، وأساس الزهد والتقوى :
«أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدي»^(١) رضى الله عنه . كان عزيز القوم
ومقتداهم ، وعالما بجميع علوم الشرع والمعاملات والحقائق ، وله مؤلفات
كثيرة في فنون العلم . صحب إبراهيم بن أدهم ، ورأى كثيرا من المشايخ وأدرك
صحابتهم .

يرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « جعل الله أهل طاعته أحياء في مماتهم
وأهل المعاصي أمواتا في حياتهم »^(٢) .

أى أن المطيع يكون حيا وإن يكن ميتا ، لأن الملائكة تتننى على طاعته
إلى يوم القيامة ، وثوابه مؤبد ، فهو باقى في فناء الموت ببقاء الله .

ويرد عنه أن شيخا جاءه وقال : يا شيخ ! ذنوبى كثيرة وأريد أن
أتوب ؟ فقال له : تأخرت ! قال : كلا ، بل بكرت ! فقال له كيف ؟ قال :
كل من يأتى — للتوبة — قبل الموت وإن يكن جاء متأخرا فهو مبكر .

ويقال : كانت بداية حاله أنه كان قد حدث في سنة من السنين قحط
في بلخ ، وكان الناس يأكلون بعضهم ، وكان المسلمون مهمومين ، غراوا
غلاما كان يضحك ويمرح في السوق ، فقال له الناس : لم تضحك ؟ ألا تخجل
من أن كل الناس في حزن وأنت تفرح الى هذا الحد ؟ فقال : لا هم لى
قط ، فأنا عبد لسيد يملك قرية ، وقد أخلى قلبى من شغلى . فقال شقيق
رضى الله عنه : يا الهى تعاليت ! ان هذا الغلام فرح كل هذا الفرح بسيد
يملك قرية ، وأنت مائك الملك ، وقد تكفلت بأرزاقنا ، وقد وكلنا بقلوبنا
كل هذا الحزن !! وانصرف عن شغل الدنيا ، وسلك طريق الحق ، ولم
يهتم برزقه قط . وكان لشدة تواضعه يقول دائما : أنا تلميذ غلام ،
وما أدركته أدركته به .

وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

(١) كنيته « أبو على » أو « أبو موسى » . من مشاهير مشايخ خراسان ، من أهل
بلخ . له لسان في التوكل ، وقيل أنه أول من تكلم في علم الأحوال بكورة
خراسان .

يقول الجامى أنه توفى سنة أربع وسبعين ومائة في « الخلل » وقره بها .
(أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٦١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٧٧ ،
طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٩٦ ، نفحات الانس
ص ٤٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٣) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ٦٦) .

● ومنهم شيخ وقته ، والمجرد لطريق الحق :

« أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (١) » رضى الله عنه ، كان عزيز القوم ، وريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة ، وكان عالما بعلم الوقت ، ومعرفة آفات النفس وبصيرا بكمائنها ، وله كلام لطيف في المعاملات وحفظ القلوب ورعاية الجوارح .

ويرد عنه أنه قال : « اذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت (٢) » ، لأن الوقت رعاية الحال ، ومادام العبد يرعى الحال لا يستولى الخوف على قلبه ، فاذا زال ذلك ، يصير تارك الرعاية ويفسد وقته ، واذا غلب الخوف على الرجاء يبطل توحيده ، لأن غلبة الخوف من اليأس ، واليأس من الحق شرك . فحفظ التوحيد في صحة رجاء العبد ، وحفظ الوقت في صحة خوفه ، واذا تساويا : يحفظ التوحيد والوقت ، ويكون العبد مؤمنا بحفظ التوحيد ، ومطيعا بحفظ الوقت .

وتعلق الرجاء ينصرف الى المشاهدة التى يكون فيها الاعتقاد جملة ، وتعلق الخوف ينصرف الى المجاهدة التى يكون فيها الاضطراب جملة ، والمشاهدات موارد المجاهدات .

ومعنى هذا أن كل الآمال تتولد من اليأس : وكل من يقنط من فلاحه بعمله ، يقوده قنوطه الى النجاس والفلاح بكرم الحق تعالى وتقديسه ، ويفتح عليه باب الانبساط ، وينجو قلبه من آفات الطبع ، وتكشف له جميع الأسرار الربانية ، كما يقول أحمد بن أبي الحواري رحمه الله : كنت أؤدى الصلاة فى الخلوة ذات ليلة ، وشعرت بكثير من الراحة فى تلك الأثناء ، وفى اليوم التالى حدثت أبا سليمان بذلك ، فقال : انت رجل ضعيف لأن الخلق لا يزالون أمامك ، فأنت فى الخلاء على حال وفى الملا على حال آخر . وليس فى الدنيا والآخرة شئ قط له من الخطر ما يمنع العبد عن الحق ، وحين يجلون العروس على الملا ، فانهم يفعلون ذلك ليراهم الخلق ، ويكون لها مزيد من العز بمشاهدة الخلق . ولكن ينبغى أن لا ترى نفسها بغير ذلك القصد ، حتى لا يكون لها من مشاهدة الخلق مذلة . فلو رأى الخلق عز طاعة المطيع فلا ضير عليه ، وانما الضرر يكون فى رؤيته لطاعته ، فان فى ذلك هلاكه . والله أعلم .

(١) عبد الرحمن بن عطية ، ويقال : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وهو من أهل « داريا » : قرية من قرى دمشق . مات سنة خمس عشرة ومائتين . انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٧٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٦ ، ونبات الاعيان ج ١ ص ٢٧٦ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٩ ، نفحات الانس ص ٣٩ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر ص ٧٦) .

● ومنهم المتعلق بحضرة الرضا ، وريبب على بن موسى الرضا :
« أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي (١) رضى الله عنه ، كان من قدماء
المشايخ وسادتهم ، معروفا بالفتوة ، ومذكورا بالورع والانابة .

وكان ينبغي تقديم ذكره عن هذا الترتيب — ولكنى ذكرته في هذا الموضع
موافقة لشيخين : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : أولهما
الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، الذى كتبه على
هذا الترتيب ، والثانى : الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه
الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة ، فاثبتته فى هذا الموضع — لأنه كان
استاذ السرى السقطى ، ومريد داود الطائى .

يرد عنه انه قل : « للفتيان ثلاث علامات : وفاء بلا خلاف ، ومدح
بلا جود ، وعطاء بلا سؤال (٢) .

أما الوفاء بلا خلاف ، فهو ان العبد فى العبودية يحرم على نفسه المخالفة
والمعصية .

وأما المدح بلا جود فهو أن يثنى على شخص لم ير منه احسانا .

وأما العطاء بلا سؤال فهو أن لا يميز فى العطاء عند الميسرة ، وعندما
يعرف حال أحد لا يسأله . وهذا كله يكون من الخلق للخلق .

وهذه الصفات الثلاث عارية فى الخلق جميعا ، لأنها صفات الحق جل
وعلا ، وأفعال له مع عباده : لأنه فى الوفاء لا يخالف أحباءه ، فمهما خالفوه
فى وفائهم ، يزيد جل جلاله لطفه بهم . وعلامة وفائه أن العبد دعاه فى الأزل
بلا فعل ، وهو لا يصدده عنه اليوم بمعصيته .

والمدح بلا جود لا يفعله غيره ، لأنه جل جلاله فى غير حاجة الى فعل
العبد ، ويثنى على العبد على قليل من الفعل . له الحمد فى الآخرة
والأولى .

(١) معروف بن فيروز ، ويقال معروف بن على . كان بعد اسلامه يحجب لعلى ابن
موسى الرضا ، فازدحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع
معروف ، فمات ودفن ببغداد وقبره يستشفى به . يقول البغداديون : قبر
معروف ترياق مجرب . توفي سنة مائتين ، وقيل سنة احدى ومائتين . (انظر
ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٨٣ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٠ ،
(وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٤ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٧ ، تذكرة الاولياء
ج ١ ص ٢٦٩ ، نفحات الانس ص ٢٨) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٨٩) .

والعطاء بلا سؤال لا يستطيعه غيره ، لأنه كريم يعلم حل كل فرد ،
ويحقق مقصود كل واحد دون سؤال .

وإذا كرم الله عز وجل العبد وعظمه وخصه بقربه ، وفعل معه هذه
الأمور الثلاثة ، وهو يجتهد بقدر إمكانه أن يعامل الخلق هذه المعاملة ،
فإنهم عندئذ يطلقون عليه اسم الفتوة ، ويثبتون اسمه في زمرة الفتيان .
وكانت هذه الصفات الثلاث لإبراهيم عليه السلام على الحقيقة ،
وسأورد هذا في موضعه إن شاء الله عز وجل .

● ومنهم زين العباد وجمال الأوتاد :

« أبو عبد الرحمن حاتم بن عفوان الأصم (١) » رضى الله عنه . كان من
محتشمى بلخ ، ومن قدماء مشايخ خراسان . مريد شقيق ، وأستاذ أحمد
ابن خضرويه رحمه الله . ولم يخط في كل أحواله من البداية الى النهاية
خطوة بغير صدق ، حتى قال الجنيد عنه : « صديق زماننا حاتم الأصم » .

وله كلام عال في دقائق رؤية آفات النفس ورعونات الطبع ، وتصانيف
مشهورة في علم المعاملات .

يرد عنه أنه قال : « الشهوات ثلاث : شهوة في الأكل ، وشهوة في
الكلام ، وشهوة في النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ،
والنظر بالعبرة (١) » .

فكل من يتوكل في الأكل ينجو من شهوة الأكل ، وكل من يتحدث بلسان
الصدق ينجو من شهوة اللسان ، وكل من يرى بعين الصواب ينجو من
شهوة العين .

وحقيقة التوكل من صدق معرفته ، لأنك إذا عرفت صدقت بمنحه
الرزق ، ومن ثم يتكلم (العبد) بصدق المعرفة ، وينظر بصدق المعرفة ،
فلا يكون أكله وشربه غير المحبة ، ولا تكون عبارته غير الوجد ، ولا يكون
نظره غير المشاهدة .

(١) ذكر في الرسالة : حاتم بن عفوان الأصم . ويقال حاتم بن يوسف الأصم .
مات بقرية من قرى ما وراء النهر اسمها « وأشجرد » سنة سبع وثلاثين ومائة .
(أنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٩ ،
طبقات الشعراى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، فتحات الانس
ص ٦٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .
(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ٩٦) .

وعندما تصح معرفة العبد يكون أكله حلالا ، وعندما يصح كلامه يتحدث بذكره ، وعندما يصح نظره يشاهده ، لأن أكل غير ما أعطاه بأذنه لا يحل ، وذكر أحد سوى ذكره في الثمانية عشر ألف عالم لا يصح ، والنظر إلى غير جماله وجلاله في الموجودات لا يجوز . فإذا أخذت منه وأكلت بأذنه فلا شهوة ، وإذا تحدثت عنه وتكلمت بأذنه فلا شهوة ، وإذا رأيت فعله ورأيت بأذنه فلا شهوة . وأيضا ، إذا أكلت بهواك فانه وإن يكن حلالا يكن شهوة ، وإذا تكلمت بهواك فانه وإن يكن ذكرا يكن كذبا وشهوة ، وإذا نظرت بهواك فانه وإن يكن استدلالا يكن وبالا وشهوة .

وهو أعلم .

● ومنهم الإمام المطلبى ، وابن عم النبى : « أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى (١) » رضى الله عنه ، كان من كبار وقته ، وأما في جميع العلوم ، ومعروفا بالفتوة والورع ، وله مناقب كثيرة ومشهورة ، وكلام عال .

وكان أولا تلميذ الإمام مالك (٢) طالما كان بالمدينة ، فلما قدم العراق اختلف الى محمد بن الحسن رضى الله عنه .

وكان في طبعه دائما الميل الى العزلة ، ويطلب تحقيق هذه الطريقة ، حتى اجتمع عليه قوم واقتدوا به ، وكان منهم أحمد بن حنبل ، ثم انتقل بطلب الجاه ومزاولة الامامة وتخلف عنه .

وكان محمود الخصال في جميع الأحوال ، وفي بداية حاله كان في قلبه قسوة على المتصوفة ، الى أن رأى سليما الراعى وتقرب اليه . وكان بعد ذلك طالبا للحقيقة أينما ذهب .

(١) أحد الأئمة الأربعة . يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب في عبد مناف . ولد بفزة وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقرأ القرآن ، ورحل الى الإمام مالك بالمدينة . أقام بمصر أربع سنين وتوفى بها سنة أربع ومائتين . كان كثير المناقب ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة ما لم يجتمع في غيره حتى قال أحمد بن حنبل عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٥٠) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . أحد الأئمة الأربعة ، وإمام دار الهجرة ، قال عنه الشافعى : « مالك حجة الله تعالى على خلقه » . وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادى بالمدينة : « الا لا يفتى الناس الا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » . ضرب سبعين سوطا لفتوى لم توافق السلطان . توفى سنة تسع وسبعين ومائة وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالقيع (انظر ترجمته في : المعارف ص ٢١٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٢ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٤٦) .

يرد عنه أنه قال : « اذا رأيت العالم يشغل بالرخص فليس يجيء منه شيء » .

أى أن العلماء قبله كل أصناف الخلق ، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد فى أى معنى ، ولا يمكنهم السير فى طريق الحق بغير الاحتياط والمبالغة فى المجاهدة ، وطلب الرخص شأن من يهرب من المجاهدة ويريد أن يخفف على نفسه ، فطلب الرخص درجة العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة الشريعة ، وممارسة المجاهدة درجة الخواص ليجدوا ثمرة ذلك فى أسرارهم ، العلماء خواص ، وحين يرضى الخاص بدرجة العام لا يتأتى منه شيء .

وطلب الرخص أيضا تخفيف للأمر ، والعلماء أحباء الحق تعالى ، والحبيب لا يخفف أمر الحبيب ولا يختار أدنى درجانه ، وإنما يحتاط فى ذلك .

يروى أحد المشايخ قائلا : رأيت الرسول عليه السلام فى النوم فقلت له : يا رسول الله ! روى لى عنك أن الله عز وجل أوتادا وأولياء فى الأرض . فقال : لقد أصدقك الراوى عنى هذا الخبر . قلت : يا رسول الله ! يلزمنى أن أرى واحدا منهم . فقال : محمد بن ادريس واحد منهم .

وله مناقب كثيرة غير هذا .

● ومنهم شيخ أهل السنة ، وقاهر أهل البدعة : « أبو عبد الله أحمد ابن حنبل (١) » رضى الله عنه . اختص بالورع والتقوى . وكان حافظا لحديث النبى عليه السلام . وكانت هذه الطبقة بجملة من الفريقين تتبرك به .

(١) الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، من بنى شيبان بن ذهل . ولد فى بغداد سنة أربع وستين ومائة . كان إمام المحدثين ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الحديث ما لم يتوفر لغيره . وقيل أنه كان يحفظ ألف ألف حديث . كان من أصحاب الإمام الشافعى وخوادمه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر وقال فى حقّه : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أنقى ولا أفقه من ابن حنبل . دعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فحُرب وحبس وكان ضربه فى سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، ولم يزل يعذب إلى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، ناشد الأمر عليه وقال لا أسكن بلد الحد فيه . ماتم مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المنوكل فرجع الحنة عن أحمد وأمر باحضاره وإكراهه وإعزازه ، وكتب إلى الأفاق برفع الحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق ، وخدعت المعتزلة . توفى ببغداد سنة أربعين ومائتين ودفن بمقبرة باب حرب (انظر ترجمته فى : وفیات الأعيان ج ١ ص ١٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٤٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ ، خزينة الأصفاء ج ١ ص ٦٤) .

وكان قد أدرك صحبة المشايخ الكبار مثل ذى النون المصرى ، وبشر الحافى ، وسرى السقطى ، ومعروف الكرخى وامثالهم رضى الله عنه .
كان ظاهر الكرامات وصحيح الفراسات ، وكل ما ينسب إليه اليوم بعض المشبهة (١) انها هو محض افتراء وموضوع ، وهو برىء من كل ذلك .
وله اعتقاد فى اصول الدين ومرضى من كل العلماء .

ولما غلب المعتزلة فى بغداد قالوا : يجب أن يكلف بأن يقول ان القرآن مخلوق . وكان شيخا وضعيفا ، فشدوا ذراعية على العقابين (٢) وضربوه ألف سوط وهم يقولون : قل ان القرآن مخلوق ! فلم يقل . وفى اثناء ذلك حل رباط أزراره وكانت يده مغلولتين فظهرت يدان أخريان وعقدتا الأزار ، فلما رأوا هذا البرهان تركوه . وقد مات متأثرا بتلك الجراح .

وفى أواخر عهده جاء إليه قوم وقالوا له : ماذا تقول فمين ضربوك ؟ فقال : ماذا أقول ، لقد ضربونى من أجل الله لأنهم ظنوا انى على باطل ، فان يكونوا على حق ، فائنى لن اختصاصهم يوم القيامة لمجرد جرح .

وله كلام عال فى المعاملات . وكل من كان يسأله عن مسألة كان يجيبه عنها اذا كانت من المعاملات ، ويحيله على بشر الحافى اذا كانت من الحقائق ، كما حدث أن جاء إليه رجل ذات يوم وقال : « ما الإخلاص ؟ قال : الإخلاص هو الخلاص من آفات الأعمال » . قال : « ما التوكل ؟ قال : الثقة بالله » . قال : « ما الرضا ؟ قال : تسليم الأمور الى الله » . قال : « ما المحبة ؟ » قال : سل عن هذه بشرا الحافى ، فانه طالما كان حيا لا أجيب عن هذا .

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله ممتحنا فى جميع الأحوال : فى حال حياته

(١) المشبهة صنفان : صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره . وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى .
والمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره منهم السبابة الذين سبوا عليا الها وشبهوه بذات الله ، والبيانبة أتباع بيان بن سميان الذى زعم أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان فى أعضائه ، وأنه يبنى كله الا وجهه . ومنهم المغيرة أتباع المغيرة بن سعيد الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضائه على صورة حروف الهجاء . ومنهم المنصورية والخطابية والحلولية والمقتمية والهشامية والمشبهة المنسوبية الى داود للجواريس .

وأما المشبهة لصفات الله بصفات المخلوقين فأصناف : منهم الذين شبهوا ارادة الله تعالى بارادة خلقه ، ومنهم الذين شبهوا كلام الله بكلام خلقه ، ومنهم الأزرارية الذين قالوا ان جميع صفات الله من جنس صفاتنا . (« الفرق بين الفرق » أبو منصور البغدادى : القاهرة ١٩٤٨ أنظر : ص ١٢٨ - ١٤١) .
(٢) آلة للتعذيب يوثق عليها المجرمون .

بطعن المعتزلة ، وفي حال مماته باتهامات المشبهة ، الى حد أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقفوا على حالة يتهمونهم ، وهو برىء من ذلك ، والله أعلم .

● ومنهم سراج الوقت والمشرف على آفات المقت : « أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري (١) » رضى الله عنه ، كان من أجلة مشايخ الشام ، وممدوح جملة المشايخ ، الى حد أن قال الجنيد : « أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام » .

وله كلام عال وإشارات لطيفة في فنون علم هذه الطريقة ، وروايات صحيحة من حديث النبي عليه السلام . وكان إليه رجوع أهل وقته في وقعاتهم .

وكان مريد أبي سليمان الداراني رضى الله عنه ، وقد صحب سفيان ابن عيينه (٢) ومروان بن معاوية الفزازي (٣) والنباجي (٤) وأخذ عن كل منهم أدبا وفائدة .

ويرد عنه أنه قال : « الدنيا مزبلة ومجمع للكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف عنها ، والمحِب لها لا يزول عنها بحال (٥) » .

هكذا كان من حقارة الدنيا لدى همة ذلك الشَّهْم أن شبهها بالمزبلة وشبه أهلها بأقل من الكلاب ، وعلل ذلك بأن الكلب حين يأخذ حاجته من المزبلة ينصرف عنها ، أما أهل الدنيا فقد عكفوا دائما على جمع أسبابها ولا يرجعون أبدا عن محبتها وجمعها .

وهذه علامة على انقطاعه عن الدنيا وأخواتها ، واعراضه عن أصحابها . والانقطاع عن الدنيا مجال طيب ، وروضة ناضرة .

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) سبق الإشارة إليه .

(٣) مروان بن معاوية الفزازي : كان واسع الرواية جدا ، وكان ثقة ثبتا حافظا . مات فجأة سنة ثلاث وتسعين ومائة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٩) .

(٤) سعيد بن يزيد النباجي : كتبه أبو عبد الله . من قدماء المشايخ من أقران ذي النون المصري ومن أساتذة أحمد بن أبي الحواري ، يحكى عنه أحمد بن أبي الحواري وغيره حكايات وأحوالا (أنظر ترجمته في «نفحات الانس» ص ٩١) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية : « والمحِب لا يزايها بحال » (أنظر ص ١٠٢) .

وقد طلب العلم في البداية ، وبلغ درجة الإمامة ، ثم حمل كنبه وألقى بها في البحر وقال : « نعم الدليل أنت ، وأما الاشتغال بالدليل بعد الوصول محال » ، لأن الدليل إنما يكون طالما كان المريد في الطريق ، فإذا لاحت الحضرة فما قيمة السدة والطريق ؟

وقد قال المشايخ إنما يكون هذا في السر ، ومن قال في هذا الطريق : « وصلت ، فقد فصل ، لأن الوصول تخلف ، فالشغل شغل ، والفراغ فراغ ، والوصول وصول .

والنسبة تكون في الشغل والفراغ لأنهما صفتان للعبد ، أما الوصل فهو عناية الحق وأرادته الأزلية لخير العبد ، وهذا لا يتأتى بشغل العبد أو فراغه ، فلا أصول لوصله ، ولا تجوز عليه — سبحانه وتعالى — الملازمة والقرب والمجاورة ، ووصلة كرامة للعبد ، وهجرة اهانة له ، ولا يجوز على صفاته التغيير .

ويقول على بن عثمان الجلابي رضي الله عنه : من المحتمل أن يكون مراد ذلك الشيخ الكبير في لفظ الوصول : الوصول إلى طريق الحق ، إذ أن طريق الحق ليس في الكتب ليعبر عنه ، لأنه حين يتضح الطريق تنقطع العبارات ، فالعبارات تكون لها القوة في غياب المقصود ، فإذا حصلت المشاهدة تلاشت العبارات . وإذا كانت الألسنة قليلة في صحة المعرفة ، فمن الأولى أن تضع (المعرفة) من عبارات الكتب .

وقد فعل غيره من المشايخ عين هذا ، مثل شيخ المشايخ أبي سعيد فضل الله بن محمد الميهني وغيره ، حين ألقوا بكتبهم في البحر (١) . وقد قلد فريق من المترسمين الأحرار في ذلك ، لكسلهم وجهلهم . ويبدو أن أولئك الأحرار لم يكونوا يريدون بذلك غير انقطاع العلائق ، وترك الالتفات ، وفراغ القلب مما دون الحق . وهذا لا يصح إلا من سكر الابتداء ، وحرارة الصبا ، لأن المتمكن لا يحجبه الكونان حتى تحجبه قطعة ورق ، فإذا ما انقطع للقلب عن العلائق فما قيمة قطعة ورق .

وأما من مراده بغسل الكتب نفى العبارات عن تحقيق المعنى — كما

(١) ورد في أسرار التوحيد أن الشيخ أبا سعيد عندما تحول عن دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية جمع كنبه ومذكراته ودفنها وشيد فوقها دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه ونما في وقت قصير وصار شجرة كبيرة . واعتاد أهل ميهنة عند ولادة الأطفال وغسل الموتي أن يستعملوا بعض أغصان هذه الشجرة أهلا في الحصول على البركة .

(أنظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٦١) .

ذكرنا — فالأولى أن تنتفى العبارات من اللسان ، لأن مافى الكتاب عبارة مكتوبة ، وما على اللسان عبارة جارية ، وليست عبارة أولى من عبارة .

ويخيل لى أن أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله ، لم يجد مستمعا فى غلبة حاله ، فشرح حاله على الورق ، ولما اجتمع له من ذلك شئ كثير ولم يجده جديرا بالنشر ، القى به فى الماء وقال : « نعم الدليل أنت » ، لما وقد تحقق مرادى فمن المحال أن انشغل عنه بك .

ويحتمل أيضا أن يكون قد اجتمعت لديه كتب كثيرة ، وكانت تمنعه عن الأوراد والمعاملات وتشغله ، فأزال الشغل من أمامه ، وطلب فراغ القلب للمعنى ، وقال بترك العبارات .

● ومنهم قائد الفتيان وشمس خراسان : « أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى(١) » رضى الله عنه . كان مخصوصا بعلو الحال وشرف الوقت . وكان فى زمانه مقتدى القوم ، ومرضيا لدى الخاص والعام ، سلك طريق الملامة ، وارتدى ثياب الجنود .

وكان لفاطمة زوجه شأن عظيم فى الطريقة ، فقد كانت ابنة أمير بلخ ، ولما رغبت فى التوبة بعثت رسولا الى أحمد تقول : اطلبنى من أبى ، فلم يجبها ، فأرسلت اليه تقول : يا أحمد ! لم أكن اظنك ذلك الرجل الذى يقطع طريق الحق ، فكن دليلا هاديا لا قاطعا . فأرسل أحمد رجلا وطلبها من أبيها ، فأعطاهما لأحمد بن خضرويه بحكم التبرك . وقالت فاطمة بترك الانشغال بالدنيا ، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد ، الى أن قصد زيارة السيد بايزيد فرافقته فاطمة . ولما أقبلت على بايزيد رفعت ابصر عن وجهها ، وكانت تتحدث معه بجرأة ، فتعجب أحمد من ذلك ، واستولت الغيرة على قلبه ، فقال : يا فاطمة ! أى جرأة تلك التى كانت لك مع بايزيد ؟ فقالت : لأنك أنت محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى ، والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج الى .

وكانت دائما جريئة مع بايزيد ، حتى وقعت عينه يوما على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء ، فقال : يا فاطمة ! لم الخضاب بالحناء ؟ قالت : يا بايزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدي وحنائي ، والآن وقد وقعت عينك على يدي فقد صارت صحبتنا حراما .

(١) سبق الإشارة اليه .

ورجعا من عند بايزيد ، واقاما في نيسابور (١) . وكانت علاقة اهل نيسابور ومشايخها بأحمد طيبة .

وعندما جاء يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله من الرى (٢) الى نيسابور ، وقصد بلخ ، أراد أحمد أن يدعوه ، فشاور فاطمة فيما ينبغي لدعوة يحيى ، فقالت : يلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل ، وكثير من الشمع والعطر ، ومع كل هذا يلزم أيضا ذبح عشرين حمرا . فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير ؟ قالت : حين يكون كريم ضيفا ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك ؟

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فليتنظر الى فاطمة » .

ويقول أبو حفص الحداد رحمة الله : « لولا أحمد بن خضرويه ماظهرت الفتوة » .

وكان له كلام عال ، وأنفاس مهذبة ، وتصانيف مشهورة في كل فن من فنون المعاملات والأدب ، ونكت لا يحة في الحقائق .

ويرد عنه أنه قال : « الطريق واضح ، والحق لا يح ، والداعى قد اسمع ، فما التحير بعدها الا من العمى (٣) » .

أى أن البحث عن الطريق خطأ ، لأن طريق الحق واضح كالشمس الساطعة ، فابحث عن نفسك أين أنت ، فان وجدتتها فاسلك الطريق ، لأن الحق أظهر من أن يجىء تحت طلب الطالب .

(١) « نيسابور » : عاصمة اقليم خراسان . وهى بلد واسع كثير الكور ، فمن كور نيسابور الطيبين وقوهستان ونسا وأبيورد وأبرشهر وجام وباخرز وطوس . ومن نيسابور الى مرو عشر مراحل ، وإلى هراة عشر مراحل وإلى جرجان عشر مراحل وإلى الدمغان عشر مراحل وإلى سرخس ست مراحل (البلدان ص ٤٥) .

(٢) « الرى » : على جادة طريق خراسان ، واسم مدينة الرى « المحمدية » وسميت بهذا الاسم لأن المهدي نزلها في خلافة المنصور لما توجه الى خراسان لحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، وبنائها وبها ولد الرشيد لأن المهدي أقام بها عدة سنين . افتتح الرى قرصه بن كعب الأتصاري في خلافة عمر ابن الخطاب سنة ثلاث وعشرين (البلدان ص ٤٢) وورد في معجم البلدان أن الذى فتحها زيدا الخيل الطائي في عهد عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٩٢) .

(٣) ورد في طبقات الصونية (انظر ص ١٠٥) .

ويرد عنه أنه قال : « استر عز فقرك » . أى لا تقل لأحد أنتى فقير حتى لا ينكشف سرى ، لأنه كرامة عظيمة من الله تعالى .

ويرد عنه أيضا أنه قال : دعا فقير فى شهر رمضان واحدا من الأغنياء ، ولم يكن فى منزله غير رغيف يابس ، فلما عاد الغنى أرسل اليه صرة ذهب ، فلم يقبلها ، وقال : هذا جزاء من يكشف لك سره ، أو يعتبر الأغنياء أهلا لعز الفقر .

وهذا لصحة صدق فقرة ، والله اعلم .

● ومنهم امام المتوكلين ونخبة أهل زمانه : « أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى (١) » رضى الله عنه . كان من أجلة مشايخ خراسان ومن ساداتهم ، ومشهورا بالفتوة والزهد والورع ، وله كرامات كثيرة وعجائب لا تحصى رآها فى البادية .

وكان من كبراء سياحى المتصوفة ، قطع بوادى كثيرة على التجرد ، وكانت وفاته فى بادية البصرة . وبعد بضع سنوات جاء جماعة فوجدوه واقفا على قدميه ووجهه الى القبلة ، وقد اسلم الروح ، ويس . وقد وضع ركوة امامه وامسك بيده عصا . ولم يحم حوله أى سبع من السباع (٢) .

يرد عنه أنه قال : « الفقير قوته ما وجد ، ولياسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل (٣) » لأن التصرف فى هذه الثلاثة شغل . وقد بقى أهل العالم جميعا فى بلاء هذه الثلاثة لأنهم يتكلفون ، وهذا من وجهة المعاملة ، ولكن من وجهة التحقيق ، فغذاء الفقير الوجد ، ولياسه التقوى ، ومسكنه الغيب ، لأن الله عز من قائل قال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (٤) » . وقال تعالى أيضا : « وريثا ولباس التقوى (٥) » . وقال الرسول عليه السلام : « الفقر وطن الغيب (٦) » . فحين يكون

(١) يقال له : عسكر بن محمد حصين . بفتح على مذهب الامام الشافعى ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل . صاحب أبا حاتم العطار البصرى وحاشا الأسمم البلخى . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٤٦ ، الرسالة ج ١ ص ٩٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٩٨ ، نفحات الانس ص ٥١) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية والرسالة عن وفاته أنه نهشته السباع .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية بنصه (أنظر ص ١٤٩) .

(٤) سورة « الجن » آية ١٦ .

(٥) سورة « الاعراف » آية ٢٦ .

(٦) لم أجد له سنداً .

غذاؤه ومشربه من شراب القربى ، ولباسه التقوى والمجاهدة ، ووطنه الغيب وانتظار الوصل : يكون طريق الفقر واضحا ومعاملاته لا نحة ، وهذه درجة الكمال .

● ومنهم لسان المحبة والوفاء ، وزين الطريقة والولاء : ((أبو زكريا بن معاذ الرازي (١))) رضى الله عنه ، كان على الحال ، حسن السيرة ، وكانت له في حقيقة الرجاء في الحق تعالى قدم ثابتة : حتى ليقول عنه الحصرى رحمه الله : كان الله تعالى رجلا نسميان يحيى ، أحدهما من الأنبياء والثاني من الأولياء ، فأما يحيى بن زكريا عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس كل مدعى الخوف من فلاحهم ، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدى ادعاء الرجاء في التراب . قالوا : حال يحيى بن زكريا عليه السلام معروف ، فكيف كان حال يحيى هذا ؟ قال : بلغنى أنه لم تكن له جاهلية ، ولم تجر عليه كبيرة ، وكان جادا في المعاملة والرياسة ، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقته .

قيل له : أيها الشيخ ، مقامك مقام الرجاء ، ومعاملتك معاملة الخائفين . قال : أعلم يابنى أن ترك العبودية ضلالة ، وأن الخوف والرجاء قائمتا الايمان ، فمحال أن يقع أحد في الضلالة بممارسة ركن من أركان الايمان . فالخائف يعبد خشية القطيعة ، والراجى أملا في الوصل ، ومالم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء ، فإذا حصلت العبادة يكون الخوف والرجاء جملة عبادة ، وحيثما يجب العبادة لا تفيد العبارة .

وله في هذه المسائل تصانيف كثيرة ، ونكت وإشارات بديعة . وكان أول من اعتلى المنبر بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة . وأنا أحب كلامه جدا لأنه رقيق في الطبع ، ولذيذ في السمع ، ودقيق في الأصل ، ومفيد في العبارة .

يرد عنه أنه قال : « الدنيا دار الأشغال ، والآخرة دار الأهوال . ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال ، حتى يستقر به القرار أما إلى الجنة وأما إلى النار (٢) » . يخ بخ لذلك القلب الذى نجا من الاشتغال بالدنيا ، وأمن أهوال الآخرة ، وقطع همته عنهما ، واتصل بالحق .

وكان مذهبه : تفضيل الغنى على الفقر . وحين تجمعت عليه في الرى ديون كثيرة قصد خراسان ، فلما بلغ بلغ احتجزه الناس فيها ، فكلّم هناك مدة ، ونصحهم ووعظهم . وقدم له الناس مائة ألف درهم فضة ، فلما

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٠) .

رجع ليعود الى الرى قطع عليه اللصوص الطريق ، واخذوا منه المال كله ، فجاء الى نيسابور مجردا ، وكانت وفاته بها .

وكان عزيزا فى كل الاحوال ، وحيدا بين الخلق .

● ومنهم شيخ مشايخ خراسان ، ونادرة كل الدنيا والزمان : « أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى (١) ، الحداد » رضى الله عنه . كان من كبار القوم وسادتهم ، وممدوح كل المشايخ ، صحب أبا عبد الله الأبيوردى ، ورافق أحمد بن خضروية ، وجاءه شاه بن شجاع من كرمان (٢) للزيارة ، وذهب (أبو حفص) الى بغداد لزيارة المشايخ .

ولم يكن له نصيب من العربية ، فلما جاء بغداد قال المريدون لبعضهم البعض : انه لشين أن يلزم لشيخ شيوخ خراسان ترجمان ليرجم كلامه . فلما ورد مسجد الشونيزيه ، اجتمع حوله المشايخ جملة ، وكان معهم الجنيد ، فكان يتحدث اليهم بعربية فصيحة بحيث حاروا جميعا من فصاحته ، وسألوه : ما الفتوة ؟ قال غلبدوا بواحد منكم ، ولتكلّموا ! فقال الجنيد : « الفتوة عندى ترك الرؤية واسقاط النسبة » . فقال أبو حفص : « ما أحسن ما قال الشيخ ! ولكن الفتوة عندى أداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف (٣) » ، قال الجنيد رحمه الله : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته » ، فى الفتوة .

ويقال انه فى بداية حاله كان قد فتن بجارية ، فقبل له ان بمدينة نيسابور يهوديا ساحرا ، ولديه احتيال أمره هذا . فذهب اليه أبو حفص ، وشرح له حاله ، فقال له اليهودى : ينبغى لك أن تكفى عن الصلاة أربعين يوما وليلة ، والا تحوم حول الحق وأعمال الخير والنية الحسنة ، لاحتل لك ، ويتحقق مرادك ، ففعل . ولما انتقضت الأربعون يوما ، صنع له اليهودى الطلسم ، ولم يتحقق المراد . فقال اليهودى : لا محالة انه قد مر عليك شيء ، ففكر جيدا جدا . فقال أبو حفص : انا لا أعلم انه قد جرى على ظاهرى وباطنى شيء من أعمال الخير ، ولا أذكر الا انى كنت قادما فى الطريق فأبعدت حجرا بقدمى حتى لا ترتطم به قدم انسان . فقال له اليهودى : لا تغضب ذلك الاله الذى أضعت أمره أربعين يوما ، ولم يضع هذا المقدار من تعبك ! فتاب ، وأسلم اليهودى .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) « كرمان » : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة بمعبرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . فتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٣) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية . (انظر ص ١١٨)

وظل يعمل حدادا حتى صار الى باورد ، ورأى ابا عبد الله الباوردي ، وعاهده على أن يكون مريدا له . ولما عاد الى نيسابور كان هناك رجل ثقيف يقرأ القرآن يوما بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه ، فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وادخل يده في النار وأخرج حديدة محمأة دون ملئط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا قائلين : يا أستاذ ، يدك ! يدك ! وزايلهم صوابهم ، فلما عاد أبو حفص الى حال صحوه ، كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضا الى الدكان .

ويرد عنه أنه قال : « تركت العمل ثم رجعت اليه ، ثم تركت العمل فلم أرجع اليه (١) » ، لأن كل شيء يكون تركه بتكلف العبد وكسبه ، تركه أولى من فعله في صحة هذا الأصل ، إذ أن جملة الاختساب محل الآفة ، والقيمة للمعنى الذي يأتي من الغيب بلا تكلف ، وفي كل محل يحصل الاختيار ويتصل به العبد ، تزول عنه لطيفة الحقيقة .

اذن ، فالترك والأخذ لا يصحان أبدا على العبد ، لأن العطاء والزوال من الله تعالى وتقدس ، وبتقديره ، فإذا جاء العطاء من الحق ، جاء الأخذ ، وإذا جاء الزوال ، جاء الترك ، وإذا كان هكذا ، فالقيمة له لأن الأخذ والترك به ، لا أن العبد جالب ودافع لهما بالاجتهاد .

وإذا قال المريد انى سنة بقبول الحق ، فانه لا يكون كما يقول الحق بقبوله لمحة ، لأن الإقبال الذى لا يزال ، منعقد في القبول الأزلى ، والسرور السرمدي في السعادة السابقة ، ولا سبيل للعبد الى الخلاص الا بخلوص عناية الحق . والعبد الكثير العزة هو الذى يدفع المسبب الاسباب عن حاله ، والله أعلم .

● ومنهم قدوة أهل الملامة ، والراضى بالبلاء من السلامة : « أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار (٢) » رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ ومتورعيهم ، وكان على أعلى درجة في الفقه والعلم ، وذهب بذهب الثورى .

وكان (في الطريقة) مريد أبى تراب النخشبى ، ومن أتباع على النصرابادى وله رموز رقيقة في المعاملات ، وكلام دقيق في المجاهدات .

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٨) .
(٢) « أبو صالح حمدون » : شيخ أهل الملامة في نيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة . توفى سنة احدى وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة الحيرة . (انظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٣١ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

ويروى أنه لما عظم شأنه في العلم ، جاءه أئمة وكبار نيسابور ، وقالوا له : ينبغي اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب . قال : لا يجوز لى الكلام . قالوا : لماذا؟ قال : لأن قلبي متعلق بالدنيا وجاهاها ، فلا يفيد كلامي ولا يؤثر في القلوب ، والكلام الذي لا يؤثر في القلوب يكون استخفافا بالعلم أو استهزاء بالشرعية . والكلام مسلم به لمن يكون في صمته خلل الدين ، فإذا تكلم ارتفع الخل .

وسئل : ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا ؟ قال : « لأنهم تكلموا لعز الاسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق » (١) ، فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى وينطق بالحق ، يكون في ذلك الكلام قهر وسطوة تؤثر على الأسرار ، ومن يتكلم وفق مراد نفسه ، يكون في كلامه من الهوان والذل ما لا يكون للخلق منه فائدة ، وصمته خير من كلامه ، فخير للمرء أن يتجنب الكلام .

وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه تركا للجاه والشهرة .

● ومنهم الشيخ ذو الوقار ، والمشرف على الخواطر والأسرار : « أبو السري منصور بن عمار » (٢) رضى الله عنه ، كان من عظماء المشايخ في الدرجة ، ومن كبرائهم في المرتبة ، محبوبا من العراقيين ، ومقبولا من الخرسانيين . وكان أحسن الكلام في الموعظة كلامه ، والطف البيان بيانه ، وكان يعظ الناس بفنون العلم والروايات والدرايات والأحكام والمعاملات . وبعض المتصوفة يبالغون في أمره مبالغة تفوق الحد .

يرد عنه أنه قال : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع » (٣) .

وفي هذا عبرة هي : أن الله تعالى أودع في كل عضو خلقه معنى متجانسا ، كما خلق الأيدي محل البطش ، والأرجل محل المشي ، والأعين محل النظر ، والأذان محل السمع ، واللسان محل النطق ، وهي لا تختلف كثيرا في ظهور هذه المعاني وخفائها . وأما القلوب ، فقد أودع في كل منها معنى

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ١٢٥) .

(٢) أصله من مرو ، من قرية « داندانقان » وقيل من « أبيورد » وقيل من « بوشنج » . أقام بالنصرة ، وكان من أحسن الناس كلاما في الموعظة ، وأسند الحديث (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٣٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠١ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٣٥ ، نفحات الانس ص ٦١) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا » (انظر ص ١٣٥) .

مختلفا ، و ارادة مغايرة ، وهوى مختلفا : فجعل قلبا محلا للمعرفة ،
وآخر موضعا للضلالة ، وثالثا موضعا للقناعة ، وهكذا . ولا شيء قط
يكون فيه اعجوبة الخالق أظهر منها في القلوب .

ويرد عنه أيضا أنه قال : « الناس رجلان : عارف بنفسه فشفله في
المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه فشفله بخدمته وعبادته ومرضاته » (١) ،
فالعبادة رياضة للعارفين بأنفسهم ، ورياسة للعارفين بالحق ، فهذا يعبد
لينال درجة ، وذاك يعبد وقد نال كل شيء ، وشتان ما بين المنزلتين :
عبد قائم بالمجاهدة ، وآخر قائم بالمشاهدة .

ويرد عنه أنه قال : « الناس رجلان : مفتقر الى الله فهو في أعلى الدرجات
على لسان الشريعة ، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من
الخلق والرزق والأجل والحياة والسعادة والشقاوة ، فهو في افتقاره اليه
وأنستغنائيه به » (٢) ، فذاك الفريق في افتقاره ، محجوب عن رؤية التقدير
برؤية الافتقار ، وهذا الفريق في تركه لرؤية افتقاره ، مكاشف ومستغن به ،
فأحدهما مع النعمة ، والآخر مع المنعم ، فمن يكن مع النعمة في رؤية
النعمة فهو فقير وان يكن غنيا ، ومن يكن مع المنعم ومشاهدته فهو غني
وان يكن فقيرا . والله أعلم .

● ومنهم ممدوح الأولياء ، وقدوة اهل الرضا : « أبو عبد الله أحمد بن
عاصم الأنطاكي (٣) » رضى الله عنه ، كان من اعيان القوم وساداتهم ،
وعالما بعلوم الشريعة والأصول والفروع والمعاملات . عمر طويلا ،
وصاحب القدماء ، وأدرك أتباع التابعين . وكان من أقران بشر والسري ،
ومريد الحارث المحاسبى ، وكان قد رأى الفضيل وصحبه .

وكان ممدوحا بكل اللسن ، وله اقوال عالية ، ولطائف سامية في فنون
علم هؤلاء القوم .

يرد عنه — رضى الله عنه — أنه قال : « أنفع الفقير ما كنت به متجملا ،
وبه راضيا (٤) » . أى أن جمال الخلق جميعا في اثبات الأسباب ، وجمال
الفقير في نفي الأسباب واثبات المسبب ، والرجوع اليه ، والرضا بأحكامه ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٣٦) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية مع اختلاف يسير في ترتيب الكلمات (انظر ص ١٣٥) .

(٣) من الطبقة الاولى من الصوفية ، ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى . وكان

أبو سليمان الداراني يسميه : جاسوس القلب لحدّة فراسته (انظر ترجمته في

طبقات الصوفية ص ١٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٠ ، طبقات الشعرائى ج ١

ص ٦٦ ، مذكرة الأولياء ج ٢ ص ١ ، نفحات الانس ص ٦٢) .

(٤) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٣٨) .

لأن الفقر فقد السبب ، والفنى وجود السبب . وفائد السبب يكون مع الحق ، وصاحب السبب يكون مع نفسه . فصار السبب محل الحجاب ، وترك الأسباب محل الكشف ، وجمال الدنيا والآخرة فى الكشف والرضا ، وسخط كل العالم فى الحجاب .

وهذا بيان واضح فى تفضيل الفقر ، والله أعلم .

● ومنهم سالك طريق الورع والتقوى ، وهو فى الأمة بزهد يحيى :
« أبو محمد عبد الله بن خبيق (١) » رضى الله عنه ، كان من زهاد القوم ومتورعيهم فى كل الأحوال ، وله روايات عالية فى الحديث .

وكان على مذهب الثورى فى الفقه والمعاملة وحقيقتها ، ورأى أصحابه وصحبهم ، وله فى معاملات هذه الطريقة أقوال لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون حيا فى حياته ، فلا يسكن الطمع فى قلبه (٢) » ليتحرر من الكل ، لأن الطماع ميت فى قيد طمعه ، فالطمع فى القلب كالطمع على القلب ، والقلب المختوم ميت لا محالة ! بخ بخ للقلب الذى يموت عما سوى الحق ويحيا بالحق ، لأن الله تعالى خلق الذل ، والطمع ذل . وخلق الذكر ، والذكر عز .

كما قال أيضا : « خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن الشهوات ، ولا يمحو الشهوات الا خوف مزعج أو شوق مقلق (٣) » ، فالخوف والشوق قائمتا الايمان ، وحين يكون القلب محل الايمان يكون قرينه القناعة والذكر ، لا الطمع والغفلة . فقلب المؤمن لا يكون طماعا ولا متابعا للشهوات ، لأن الطمع والشهوة نتيجة الوحشة ، والمستوحش لا علم له بالله ولا بالايمان ، لأن الايمان أنس بالحق ووحشة من غيره ، كما قيل : « الطماع مستوحش منه كل واحد » . والله أعلم .

● ومنهم شيخ المشايخ فى الطريقة ، وإمام الأئمة فى الشريعة ، « أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريرى (٤) » رضى الله عنه ، كان مقبولا لدى

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكي — وفى طبقات الشعرائى : عبد الله ابن حنيف — من زهاد الصوفية . أصله من السكونية ، ولكنه من النافذة الى أنطاكية . وطريقته فى التصوف : طريقة النورى (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٤١ ، الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣ ، نجات الانس ص ٦٦) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « من أراد أن يعيش غنيا فى حياته فلا يسكن الطمع فى قلبه » (انظر ص ١٤٤) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٤٤) .

(٤) سبق الإشارة اليه

اهل الظاهر وارباب القلوب ، وكاملا في فنون العلم ، ومفتيا واماما لاصحاب
ابى ثور في الاصول والفروع والوصول والمعاملات . وله اقوال عالية واحوال
كاملة ، فكل اهل الطريقة متفقون على امامته ، ولا مجال لاعتراض واعراض
فيه لاي مدع او متصرف .

وكان ابن أخت السرى السقلى ومريده . سئل السرى يوما : هل يكون
لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ ؟ قال : نعم ، وبرهان هذا ظاهر ،
فللجنيد درجة فوق درجتى . وكان هذا القول من ذلك الشيخ العظيم
تواضعا ، وما قاله قاله بالبصرة ، ولا رؤية لأحد لما فوقه ، فالرؤية
تتعلق بما تحت ، وقوله دليل واضح . فقد رأى الجنيد فوق درجته ، وهو
وإن رآه — حين رآه — فوق ، فهو تحت .

ومشهور أنه في حال حياة السرى قال المريدون للجنيد : فليكلما الشيخ
ليكون في ذلك راحة لقلوبنا ، فلم يجيبهم ، وقال : ما دام شيخى موجودا
فأنا لا أتكلم . الى أن كان نائما ذات ليلة فرأى النبی عليه السلام في النوم
يقول : يا جنيد ! كلم الخلق ، لأن كلامك سبب راحة قلوب الخلق ، وقد
صر الله تعالى كلامك سبب نجاة عالم . فلما استيقظ وقر في قلبه أن
درجته جاوزت درجة السرى ، وقال لقد جاعنى من الرسول صلوات الله
عليه الأمر بالدعوة . ولما كان الصباح ، أرسل السرى مريدا وقال له :
حينما يسلم الجنيد من صلاته ، قل له : أنك لم تتحدث الى المريدین بناء
على قولهم ، ورددت شفاعة شيوخ بغداد ، وأرسلت لك رسالة أيضا فلم
تتكلم . والآن قد أمرك الرسول عليه السلام فاطع أمره ! قال الجنيد رضى
الله عنه : غذهب ذلك خاطر من رأسى ، وأدركت أن السرى في كل الاحوال
مطلع على ظاهرى وباطنى ، وأن درجته فوق درجتى ، لأنه مشرف على
اسرارى ، وأنا لا علم لى بأحواله . وذهبت اليه وطلبت منه المغفرة ،
وسألته : كيف عرفت أنى رأيت النبی عليه السلام في النوم ؟ قال : قد
رأيت الله تعالى وتقدس في النوم ، وقد قال لى : انى أرسلت الرسول
— عليه السلام — ليقول للجنيد : عظم الخلق ، ليتحقق منه مراد اهل
بغداد .

وفي هذه الحكاية دليل واضح على أن الشيوخ — بأى صفة يكونون —
مشرفون على أحوال مريديهم .

والجنيد كلام عال ، ورموز لطيفة .

يرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « كلام الأنبياء نبأ عن الحضور ، وكلام الصديقين إشارة عن المشاهدات » (١) ، فصحة الخبر من النظر ، وصحة المشاهدة من الفكر . ولا يمكن الأخبار إلا عن عين ، والإشارة لا تكون عن عين ، فكمال ونهاية الصديقين ، بداية للأنبياء . والفرق واضح بين الولي والنبي وتفضيل الأنبياء على الأولياء ، خلافا لما ينزع اليه فريقان من الملاحدة ممن يؤخرون الأنبياء في الفضل ويقدمون الأولياء .

ويرد عنه أنه قال : تمنيت وقتنا ما أن أرى إبليس — عليه اللعنة — وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فإذا بشيخ يقبل من بعيد متجها الى ، فلما رأيته أحسست وحشة في قلبي ، فلما اقترب منى قلت : من أنت ايها الشيخ ، اذ لا طاقة لعيني برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبي بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : أنا الذي تتمنى مشاهدتى . قلت : يا ملعون ! ما منعك أن تسجد لآدم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور أنى أسجد لغيره ؟ قال الجنيد : فتحيرت في كلامه ، فنوديت في سرى أن : « قل له : كذبت ، ولو كنت عبدا لما خرجت عن أمره ونهيه . فسمع النداء من قلبي ، فصاح وقال : احرقتنى بالله ! وغاب » .

وفي هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظ أوليائه في كل الأحوال من كيد الشيطان .

ويرد عنه أن مريدا من مريديه مرض قلبه يوما وظن أنه بلغ درجة ، فأعرض عنه ، وجاء ذات يوم لتجربته . وكان (الجنيد) بحكم اشرافه مطلعا على مراده . وسأله (المريد) سؤالا ، فقال له الجنيد : أتريد جوابا عباريا أم معنويا ؟ قال : كلاهما : فقال الجنيد : ان أردت العباري ، فلو أنك جربت نفسك لما احتجت الى تجربتى ولما جئت الى هنا للتجربة . وان أردت المعنوى ، فقد عزلتك من ولايتك . فأسود وجه المريد في الحال وصاح : لقد ضاع من قلبي راحة اليقين ! وانشغل بالاستغفار ، وكف عن الفضول . وعندئذ قال له الجنيد : انك لم تعرف أن أولياء الله تعالى هم أولياء الأسرار ، ولا طاقة لك بتجربتهم . ونفخ عليه ، فعاد الى مراده ، وتاب عن التصرف في المشايخ رحمهم الله . والله أعلم .

● ومنهم ملك اهل التصوف ، والمبرا من آفة التكلف : « أبو الحسن أحمد ابن محمد النورى (٢) » رضى الله عنه ، كان له أحسن المعاملات وأبين

(١) ورد في طبقات الصوفية : « كلام الأنبياء نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات » (انظر ص ١٦٢) .

(٢) سبق الإشارة اليه

الكلمات ، وأظرف المجاهدات . وله مذهب خاص في التصوف ، وتوجد
فرقة من المتصوفة يقال لها « النورية » يقتدون به ، ويتولونه .
وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة ، منهم فرقتان مردودتان ، وعشر
مقبولة .

وأولى الفرق المقبولة : الحاسبية ، والثانية : القصارية ، والثالثة :
الطيفورية ، والرابعة : الجنيدية ، والخامسة النورية : والسادسة :
السهلية ، والسابعة : الحكيمية ، والثامنة : الخرازية ، والتاسعة :
الخفيفية ، والعاشر السيارية . وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة
والجماعة .

أما الفرقتان المردودتان ، فواحدة منهما : الطولية المنسوبة الى الحلول
والامتزاج ، واليهم ينتمى السالمية والمشبهة . والآخرى : الحلاليون
المردودون لتركهم الشريعة والحادهم ، واليهم ينتمى الإباحيون والفارسيون .
وسوف أورد في هذا الكتاب — في موضعه — بابا في الفرق بين الفرق ،
وأبين اختلاف تلك الفرق العشر ، واختلاف هاتين الفرقتين ، لتتم الفائدة
إن شاء الله تعالى .

أما طريق (النورى) فكان محمودا في ترك المداينة ، ورفع المسامحة ،
ودوام المجاهدة .

ويرد عنه أنه تدخل على الجنيد ورآه جالسا في الصدر ، فقال له :
« يا أبا القاسم ! غششتهم فصدروك ، ونصحتهم فرموني بالحجارة » .
لأن المداينة توافق الهوى ، والنصيحة تخالفه ، والإنسان يعادى من يخالف
هواه ، ويحب من يوافق .

وكان أبو الحسن النورى رفيقا للجنيد ومريدا للسرى ، وقد رأى كثيرا
من المشايخ وصحبهم ، وأدرك صحبة أحمد بن أبى الحوارى .

وله في طريقة التصوف اشارات لطيفة وأقاويل جميلة ، وفي فنون العلم
نكت عالية .

يرد عنه أنه قال : « الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره
جمع به » (١) . أى أن كل من همته مجتمعة بالحق تعالى فهو مفترق عن
غيره ، وكل من هو مفترق عن غيره مجتمع به ، فجمع الهمة بالحق تعالى ،
افتراق عن التفكير في المخلوقات ، فإذا صح الأعراض عن المكونات ، صح

(١) ورد بنفسه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

الاقبال بالحق ، واذا صح الاقبال بالحق ، صح الاعراض عن الخلق ،
لأن الضدين لا يجتمعان .

وورد في الحكايات أن (النورى) فى وقت ما ، ظل يصرخ لمدة ثلاثة أيام
وليل فى بيته ، واقفا فى مكان واحد ! فأخبروا الجنيد ، فنهض وذهب اليه ،
وقال : يا أبا الحسين ! اذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه ، فأخبرنى
لأصرخ أنا أيضا ، وان كنت تعرف أنه لا يفيد ، فأرض بالتسليم ليسعد
قلبك . فكف النورى عن الصراخ وقال : ما أحسنك معلما لنسا يا أبا
القاسم !

ويرد عنه أنه قال : « أعز الأشياء فى زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ،
وعارف ينطق عن حقيقة » (١) .

أى أن العلم والمعرفة كلاهما عزيزان فى هذا الزمان ، لأن العلم بلا عمل
لا يكون علما ، والمعرفة بلا حقيقة لا تكون معرفة . وقد دل الشيخ بهذا
الكلام على زمانه ، ولئن كان ذلك عزيزا فى كل الأوقات ، فهو اليوم أعز .
وكل من ينشغل بطلب عالم وعارف تتشوش أوقاته ، ولا يجد (طلبته) ،
فيجب أن ينشغل المرء بنفسه ليرى كل العالم عالما ، وأن يرجع عن نفسه
الى الله ليرى كل العالم عارفا ، لأن العالم والعارف عزيزان ، والعزيب صعب
المنال ، والشئ الذى يصعب ادراكه ، طلبه اضاعة للعمر . فيجب طلب
العلم والمعرفة من نفسك ، والعمل والحقيقة من ذاتك .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من عقل الأشياء بالله فرجوعه
فى كل شئ الى الله » (٢) ، لأن الإقامة ملك ، والملك بالمالك ، فالاستراحة
تكون فى رؤية المكون لا فى رؤية الكون ، لأن (العبد) اذا اعتبر الأشياء
علة للأفعال يتألم دائما ، ورجوعه الى كل شئ يكون منه شركا ، لأنه
يرى أسبابا للفعل ، والسبب لا يقوم بنفسه ، بل هو قائم بالسبب ،
فاذا رجع الى مسبب الأسباب ، نجا من الانشغال .

● ومنهم مقدم السلف ، والخلف من السلف :

((أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى)) (٣) رضى الله عنه ، كان من
قدماء الصوفية وأجلتهم ، والأوحد فى زمانه ، وقدره رفيع فى كل القلوب .

(٢٤١) وردا بنصها فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٩) .

(٣) سعيد بن اسماعيل بن سعيد بن منصور الحيرى النيسابورى . أصله من الرى .
كان فى وقته أوحد المشايخ فى سيرته ، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور ،
ومات بها سنة ثمان وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٧٠)
الرسالة ج ١ ص ١٠٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ٥٥ ، نفحات الانس ص ٨٧) .

وكان قد صحب في البداية يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، ثم كان في صحبة شاه بن شجاع الكرماني مدة ، وذهب معه الى نيسابور لزيارة أبى حفص الحداد ، فتوقف عنده ، وقضى عمرا في صحبته .

ويروى الثقة عنه انه قال : كان قلبي دائما يطلب الحقيقة في حال الطفولة ، وينفر من أهل الظاهر . وكنت أعتقد ان للشيعة ، لا محالة ، سرا غير الظاهر الذي تجرى عليه العامة ، حتى أدركت البلوغ . وكنت يوما بمجلس يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، فأدركت ذلك السر ، وتحقق مقصودي ، فتعلقت بصحبته ، الى ان جاء جماعة من عند شاه بن شجاع وتحدثوا عنه ، فوجدت قلبي مائلا لزيارته . فقصدت كرمان من الري ، وكنت أطلب صحبة (شاه) فلم يأذن لى ، وقال : ان طبعك ربيب الرجاء ، وقد صحبت يحيى ، وله مقام الرجاء ، والشخص الذى اشرب مشرب الرجاء لا يتأنى منه سلوك الطريقة ، لأن تقلد الرجاء يورث الكسل . فتضرعت اليه كثيرا وبكيت ، وأقيمت عشرين يوما على اعتابه حتى أذن لى وقبلنى . ولبثت في صحبته مدة ، وكان رجلا غيوراً ، الى ان خطر له قصد نيسابور لزيارة أبى حفص ، فذهبت معه . وفي اليوم الذى دخلنا فيه على أبى حفص كان شاه يلبس قباء ، فلما رآه أبو حفص نهض على قدميه ، وتقدم اليه وقال : « وجدت في القباء ما طلعت في العباء » . وبقيت هناك وقد استولت صحبة أبى حفص على كل همى ، ومنعتنى حشمة شاه بن شجاع من مداومة خدمته ، ورأى أبو حفص في تلك الإرادة . وكنت أتضرع الى الله أن ييسر لى صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منى شاه بن شجاع ، الى ان قصد شاه العودة ، فأنزلت نعلى موافقة له ، وقلبي كله عند أبى حفص ، الى ان قال رضى الله عنه لشاه مباسطا : اترك صحبة هذا الصبى هنا ، لأنى مسرور منه . فالتفت شاه الى وقال : « أجب الشيخ » . ورحل هو ، وبقيت هنالك حتى رأيت ما رأيت من العجائب في صحبة أبى حفص رضى الله عنه ، وكان له مقام الشفقة .

وقد أجاز الله عز وجل أبا عثمان من ثلاثة مقامات بثلاثة شيوخ ، وهذه الاشارات الثلاثة التى أشار اليها في نفسه هى : مقام الرجاء بصحبة يحيى ابن معاذ ، ومقام الغيرة بصحبة شاه بن شجاع ، ومقام البشفقة بصحبة أبى حفص .

ويجوز ان يصل المرید الى المنزل بعدد من أو بست أو بأكثر من هذه الصحبة ، ويصير كل شيخ وصحبة ، سبب كشف مقام له . ولكن الأفضل ان لا يشوب المشايخ بمقامه ولا يستهدف نهاياتهم في ذلك المقام ، ويقول : كان هذا نصيبى من صحبتهم ، ولكنهم كانوا فوق هذا ، ولم يكن لى منهم

نصيب أكثر من هذا ، ويكون هذا أقرب الى الأدب ، لأنه لا شأن أبداً
لبالغى طريق الحق بالمقامات والأحوال .

وكان (أبو عثمان) السبب في انتشار التصوف في نيسابور وخراسان .
وقد صحب الجنيد وروبا ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل رحمة
الله عليهم . ولم يدرك أى من المشايخ من قلوب شيوخه ذلك الحظ الذى
أدركه .

وقد وضع له اهل نيسابور منبرا ليتحدث اليهم بلسان التصوف وله
كتب عالية ، وروايات متينة في فنون علم الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذله بالمعصية » (١) .
ويكون تعلق هذا بكسب العبد ومجاهدته على دوام رعاية أمور الحق .
وإذا كان هنالك رأى على هذا المعنى ، فهو : أن الله عندما يعز شخصاً
بالمعرفة فإنه لا يذله بالمعصية ، لأن المعرفة عطاؤه ، والمعصية فعل العبد ،
ومن يعز بعباء الحق لا يذل بفعل نفسه ، مثل آدم عليه السلام الذى
أعزه (الله) بالمعرفة ، ولم يذله بزلاته .

● ومنهم : سهيل المعرفة ، وقطب المحبة :

« أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء » (٢) رضى الله عنه . كان من
كبار القوم ، وسادات الوقت ، وصاحب طريق حسن وسيرة مرضية .
صحب الجنيد ، ورأى أبا الحسن النورى وجماعة من كبار الصوفية رضى
الله عنهم . وله كلام عال في الحقائق ، وإشارات لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « همة العارف الى مولاه فلم يعطف الى شئ سواه » (٣)
لأنه لا يكون للعارف شئ قط غير معرفته ، فحين يكون رأس مال قلبه المعرفة
يكون مقصود همته الرؤية ، لأن تشتت الهمم يثر الهموم ، والهموم ترد
عن حضرة الحق .

ويحكى عنه أنه قال : رأيت ذات يوم نصرانيا حسن الوجه ، فتحيرت
في جماله ، وتوقفت قبله ، فمر على الجنيد رحمه الله ، فقلت : يا أستاذ !
لن يحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم ! فقال رضى الله عنه :

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٧٣) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : « سمعت هم العارفين الى مولاهم ، فلم تعكف على
شئ سواه ، وسمعت هم المريدين الى طلب الطريق اليه ، فأمعنوا نفوسهم في الطلب .

(انظر : ص ١٧٩) .

يا بنى ! هذه سويقة النفس التى تحملك على هذا ، لا نظرة العبرة ،
لأنك اذا نظرت بالعبرة فى كل ذرة من الموجودات ، فهذه الاعجوبة موجودة .
ولكن سرعان ما نعذب بهذا الخزى ! قال : فلما انصرف عنى الجنيد نسيت
القرآن فى الحال ، وظللت سنوات اطلب العون من الله تعالى ، وثبت حتى
استعدت القرآن . والآن لا أجرؤ على الالتفات الى شئ او اضيع وقتى
فى النظر الى الاشياء .

● ومنهم : وحيد العصر وامام الدهر :

((أبو محمد رويم بن أحمد)) (١) رضى الله عنه ، كان من جملة أجلة المشايخ
وساداتهم ، ومن أصحاب سر الجنيد وأقرانه ، وعلى مذهب داود (٢) فقيه
الفقهاء رضى الله عنه .

كان ذا حظ وافر فى علم التفسير والقراءات ، ولم يكن فى ذلك الزمان
مثيله فى فنون العلم . وقد بلغ منزلته بعلو الحال ورفعة المقام والسفر
الطويل بالتجريد ، والرياضات الشديدة فى التفريد .

وفى آخر عمره أخفى نفسه بين أصحاب الدنيا ، واعتمد عليه فى القضاء ،
وكانت درجته أكمل من أن يحجب بذلك ، حتى قال عنه الجنيد : نحن
الفارغين مشغولون ، ورويم المشغول فارغ .

وله تصانيف فى هذه الطريقة فى السماع ، وبخاصة الكتاب الذى أسماه
« غلط الواجدين » ، وأنا ممتنون به .

ويرد أن رجلا جاء اليه يوما وقال : « كيف حالك ؟ » فقال : « كيف حال
من دينه هواه ، وهمة دنياه ، ليس بصالح تقى ، ولا بعارف نقى » (٣) .

وقد أشار بهذه الإشارة الى عيوب نفسه ، لأن الدين يكون لدى النفس
هوى ، ومتابعو النفس قد أسموا الهوى ديناً ، ومتابعة الهوى ممارسة
للشريعة ، وكل من يكون على مرادهم وان يكن مبتدعاً فهو لديهم دين ،
وكل من يسير على خلاف هواهم وان يكن متقياً فهو لديهم لا دين له .
وهذه الآفة شائعة فى زماننا ، فنعوذ بالله من صحبة من تكون هذه صفته .
أما ذلك الشيخ فقد أشار على التحقيق الى زمان السائل . ويجوز

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) داود بن علي بن خلف : امام اهل الظاهر . ولد بالكوفة سنة مائتين أو اثنتين
ومائتين . كان أحد أئمة المسلمين وهداتهم ، واليه انتهت رئاسة العلم ببغداد .
أصله اصفهان ، ومولده بالكوفة ومنتشؤه ببغداد وبها قبره . مات سنة سبعين
ومائتين . (طبقات الشافعية ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٤) .

أيضا أنه — في تلك الحال — قد ترك لنفسه ، حتى عبر عن وصف وجوده وأنصف صفته .

● ومنهم : بديع العصر ، ورفيع القدر :

« أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي » (١) رضى الله عنه . كان من كبار أئمة وقته ، وقدماء الشيوخ في زمانه . عمر طويلا ، وكان مريدا لدى النون المصرى ، وصحب كثيرا من الشيوخ وخدمهم جميعا .

يرد عنه أنه قال : « أذل الناس الفقير الطموع ، والمحِبُّ لمحبوبه » (٢) . أى أن الفقراء الطماعين هم أذل الناس ، كما أن الفقراء الصادقين أشرفهم . والطمع يلتقى بالفقر في ذل الدنيا والآخرة ، لأن الفقراء أنفسهم حقراء في نظر أهل الدنيا ، فإذا طمعوا صاروا أحقر . فالغنى بالعز أتم من الفقر بالذل . والطمع ينسب للفقر إلى الكذب الصرف .

ثم إن المحب كذلك ، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا ، لأن المحب يرى نفسه في مقابل محبوبه حقيرا ، وهو يتواضع له ، وهذا أيضا من نتائج الطمع ، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزا . وطالما كانت زليخا طامعة في يوسف ، كانت تزداد كل لحظة ذلا ، وعندما انقطع عنها الطمع ، رد الله تعالى إليها جمالها وشبابها .

وقد جرت السنة على أن اقبال المحب يقتضى اعراض المحبوب ، فإذا كتم المحب المحبة في صدره ، وفرغ بصرف المحبة من الحبيب ، وسكن إلى المحبة ، فلا محالة أن يقبل عليه الحبيب . والمحب عزيز في الحقيقة ما لم يطمع في الوصل ، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلا . وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه ، تكون محبته معلولة .

● ومنهم : شمس سماء المحبة ، وقُدوة أهل المعاملة :

« أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص » (٣) رضى الله عنه . كان

(١) شيخ الرى والجمال في وقته . كان أوحِد في طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص . وكان عالما دينا . مات سنة أربع وثلاثمائة . وروى الحديث . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٨٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣١٦ ، نفحات الأنس ص ٩٧) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٨٩) .

(٣) سمنون بن عبد الله : أبو الحسن الخواص ، ويقال كنيته أبو القاسم . سُمى نفسه سمنون الكذاب لكتبه عمر البول بلا تضرر . صاحب سرىا السقطى ومحمد ابن على القصاب وأبا أحمد القلانسي وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام . من كبار مشايخ العراق . مات بعد الجنيد ، أى بعد سنة سبع وتسعين ومائتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٢ ، طبقات =

منقطع النظر في زمانه ، وذا شأن عظيم في المحبة . وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونه « سمنون المحب » ، وأسمى هو نفسه : « سمنون الكذاب » !

وقد عانى متاعب كثيرة من (غلام الخليل) (١) . فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة ، وكان الشيوخ جميعا يتألمون لذلك .

وكان (غلام الخليل) هذا ، رجلا مرثيا ويدعى الزهد والتصوف . وصير نفسه — بمكره وشعوذته — معروفا عند الخليفة وأهل السلطان ، وباع — مثل الكثيرين في عصرنا — الدين بالدنيا . وقد آلى على نفسه التشهير بالمشايخ وال دراويش لدى الخليفة ، وكان مراده أنه طالما هجر المشايخ ، ولم يتبرك بهم أحد ، بقى جاهه على حاله ! بخ بخ لسمنون وغيره من المشايخ الذين لم يتصد لهم أكثر من واحد بهذه الصفة ! واليوم ، في هذا الزمان ، يوجد لكل رجل محقق مائة ألف (غلام الخليل) ! ولكن لا ضير ، فالعقبان أولى بالجيف .

ولما كبر جاه سمنون في بغداد وتقرّب كل شخص إليه ، تألم من ذلك (غلام الخليل) وأخذ في اختلاق الأوضاع ، حتى وقعت عين امرأة على جمال سمنون ، وعرضت المرأة نفسها عليه ، فأبى . وذهبت هذه المرأة الى الجنيد قائلة : قل لسمنون أن يتزوجنى ، فغضب منها الجنيد وزجرها . فذهبت الى (غلام الخليل) واتهمت (سمنون) بتهمة مما تهتم به النساء الرجال ، واستمع (غلام الخليل) اليها كما يسمع الأعداء ، وأخذ في السعاية ، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله . فلما أحضروا السياف ، واستنؤذن الخليفة ، انعقد لسانه حين اصدار الأمر ! ولما جن الليل ، نام فرأى في النوم من يقول له : ان زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك ! وفي اليوم التالي اعتذر لسمنون وردّه مكرما (٢) .

وله كلام عال وإشارات دقيقة في حقيقة المحبة .

وانفق أنه حين كان قادما من الحجاز ، أن قال له أهل فيد (٣) : حدثنا ، فاعتلى المنبر ، وكان يتحدث ولا مستمع له ، فالتفت الى القناديل وقال : انى اتحدث اليك ! فاصطكت كل تلك القناديل وتحطمت .

= الشمرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٣ ، نفحات الانس ص ١٠٠ ،

خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٧٢) .

(١) أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس . ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ، لكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء (ميزان الاعتدال : ص ٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية في اللبع ، وهنا بعض الاختلاف (انظر اللبع ص ٤٦٨) .

(٣) « فيد » : هي المدينة التى ينزلها عمال طريق مكة ، وأهلها طيء ، وهى في سفح جبلهم المعروف بسلمى (البلدان ص ٧٦) .

ويرد عنه ، رضى الله عنه ، انه قال : « لا يعبر عن شيء الا بما هو أرق منه ، ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها ؟ » (١) .

والمراد من هذا : أن العبارة منقطعة عن المحبة ، لأن العبارات صفة المعبر ، والمحبة صفة المحبوب ، فعبارة هذا لا تستطيع ادراك حقيقة ذاك . والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم : سلطان الشيوخ ، ومن التغير عن عهده منسوخ :**

« **أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى** » (٢) ، رضى الله عنه . كان من أبناء الملوك ، وفريدا في عصره ، صاحب أبا تراب النخشبى ، وأدرك كثيرا من المشايخ . وقد ذكر طرف من حاله في ذكر أبى عثمان الحيرى .

وله في التصوف رسالات مشهورة ، وعمل كتابا يسمى « مرآة الحكماء » ، وله أقوال عالية .

ويرد عنه انه قال : « لأهل الفضل فضل مالم يروه ، فإذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فإذا رأوها فلا ولاية لهم » (٣) . والمراد من هذا القول انه حيثما يوجد الفضل والولاية تسقط عنهما الرؤية ، وعندما تحدث الرؤية يسقط معناهما ، لأن الفضل صفة لا يراها الفضل ، والولاية صفة لا تراها الولاية . فإذا قال شخص : أنا فاضل ، أو : أناولى ، فانه لا يكون فاضلا ولا وليا .

وورد في آثاره انه لم ينم لأربعين عاما ، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى في النوم ، فقال : يا الهى ! كنت اطلبك بسهر الليل فرأيتك في النوم ! فقال : يا شاه ! لقد أدركت في النوم بغيتك بسهرك الليل ، ولو كنت نمت هنالك ، لم أرايت هنا . والله أعلم .

● **ومنهم سرور القلوب ونور الأسرار :**

« **عمرو بن عثمان المكى** » (٤) رضى الله عنه . كان من كبراء أهل الطريقة وساداتهم ، وله تصانيف مشهورة في حقائق هذا العلم .

وكان ينتسب الى الجنيد بعد أن رأى أبا سعيد الخراز وصحب النباجى ، وكان امام الوقت في الاصول .

(١) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٦) .
(٢) سبق الإشارة اليه .
(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٣) .
(٤) سبق الإشارة اليه .

يرد عنه أنه قال : « لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين (١) » . وكل ما تستطيع عبارة العبد التصرف فيه لا يكون سرا للحق ، لأن كلية تكلف العبد منقطعة عن الأسرار الربانية .

ويقال انه حين جاء عمرو الى أصفهان ، اتصل بصحبته حدث ، وقد منعه أبوه من صحبة عمرو الى أن مرض . ومضت مدة ، ونهض الشيخ يوما وذهب لعيادته مع جماعة من الدراويش ، فأشار الحدث الى الشيخ ليقول للقول ان ينشد شعرا ، فقال عمرو للقول : انشد . فقال :

(شعر عربى)

مالى مرضت فلم يعيدنى عايد منكم ويمرض عبدكم فأعود
فلما سمع المريض ، نهض وجلس ، وقل لهب المرض وسلطانه ، وقال :
زدنى . فأنشد القول :

وأشدد من مرضى على صدودكم وصدود عبدكم على شديد
فنهض المريض وقد زايه الله (٢) ، وأذن له والده بصحبة عمرو ، وتاب
عما كان يهجنس في قلبه ، وصار ذلك الحدث من عظماء الطريقة .

● ومنهم : مالك القلوب ، وماحى العيوب :

((أبو محمد سهل بن عبد الله التستري)) (٣) رضى الله عنه . كان امام
وقته ، ممدوحا بكل الألسن ، وله رياضات كثيرة ، ومعاملات طيبة ، وكلام
لطيف فى الاخلاص وعيوب الافعال .

ويقول عنه علماء الظاهر : « هو جمع بين الشريعة والحقيقة » .
وهذا خطأ ، لأن أحدا لا يفرق بينهما ، فالشريعة ليست سوى الحقيقة ،
والحقيقة ليست سوى الشريعة . وهم يقولون هذا بحكم أن عبارات ذلك
الشيخ أسهل فى الإدراك ، وأيسر فى الفهم على الطبائع . وبما أن الحق
تعالى قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، فمحال أن يفرق بينهما أولياؤه .

(١) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف بسيط (أنظر ص ٢٠٢) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٣) سهل بن عبد الله بن بونس ، صاحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون
المصرى سنة خروجه الى الحج بمكة . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . (انظر
ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الرسالة ج ١ ص ٨٢ ، طبقات الشعرائى
ج ١ ص ٦١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٥١ ،
نفحات الانس ص ٦٩ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٦٤) .

واذا حصل الفرق ، فلا محالة أن يتأتى رد واحدة منهما وقبول الأخرى .
ورد الشريعة الحاد ، ورد الحقيقة شرك .

وهذا الفرق الذى يفرقونه ليس لتفريق المعنى ، بل لاثبات الحد ،
كتقولك : « لا اله الا الله » ، فهذا حقيقة ، وقولك : « محمد رسول الله »
شريعة . واذا أراد أحد — فى حال صحة الايمان — أن يفصل بينهما ،
لا يستطيع ، وتكون ارادته باطلة .

وفى الجملة : الشريعة فرع الحقيقة ، كما أن المعرفة هى الحقيقة ،
وقبول الأمر بالمعروف : شريعة ، وأهل الظاهر هؤلاء ينكرون ما لا يتفق
مع طباعهم ، والانكار لأصل من أصول طريق الحق امر خطير . والحمد
لله على الايمان .

ويرد عنه أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت على وجه اهل الارض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته » (١) .

يعنى : أن كل من يعتقد أن له يدا فى نصيبه ، فذلك دليل على أنه
جاهل بالله عز وجل ، لأن معرفته تقتضى ترك التدبير ، وترك التدبير تسليم ،
واثبات التدبير من الجهل ، والله أعلم .

● ومنهم اختيار اهل الحرمين ، ولجملة المشايخ قرة العين :

« أبو عبد الله محمد بن الفضل الباخي » (٢) رضى الله عنه . كان من
جملة الشيوخ ، ومرضيا لدى اهل العراق وخراسان ، ومريدا لاحمد ابن
خضرويه . وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم اليه .

وقد أخرجه المتعصبون من بلخ لافئتان الناس بمذهبه ، فصار الى
سمرقند (٣) ، وقضى هنا لك عمره .

يرد عنه أنه قال : « أعرف الناس بالله ، أشدهم مجاهدة فى أوامره ،
وأتيعهم لسنة نبيه » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الارض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته »
(انظر ص ٢٠٧) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « سمرقند » : من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدّها امتناعا . انفلت
سمرقند بعد أن افتتحت عدة مرات لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة إبطالها .
انتقحها قتيبة بن مسلم الباهلى فى أيام الوليد بن عبد الملك وصالح ملوكها
(البلدان ص ٥٨) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢١٤) .

وكل من يكون أقرب الى الحق ، يكون أحرص على اتباع أوامره ،
وكل من يكون أبعد عنه يكون أبعد عن متابعة رسوله ، وأشد اعراضا .

ويرد عنه أنه قال : « عجبت ممن يقطع البوادي والقفار والمفاوز حتى
يصل الى بيته وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه
حتى يصل الى قلبه لأن فيه آثار موله » (١) .

أي أن القلب ، وهو محل المعرفة ، أعظم من الكعبة وهي قبلة الخدمة .

والكعبة هي ما يكون اليه نظر العبد دائما ، والقلب ما يكون اليه نظر
الحق دائما — حيثما يكون قلب الحبيب فأنا هنالك ، وحيثما يكون حكمه
فمرادى هنالك ، وحيثما يكون أثر أنبيائه ، فقبلة أحبائي هناك — والله
أعلم .

● ومنهم : الشيخ ذو الخطر ، والفاني عن أوصاف البشر :

« أبو عبد الله محمد بن علي الترمذی » (٢) رضى الله عنه . كان كاملا
واماما في فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة ،
وكرامات مشهورة . مثل كتاب : « ختم الولاية » ، وكتاب « النهج » ،
وكتاب « نواذر الأصول » . وقد عمل كتباً أخرى كثيرة غير هذه . وهو
معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له ، وكان شيخى يقول : « محمد در يتيم » ،
اذ لا قرين له في العالم كله .

وله كتب في علوم الظاهر ، واسناد عال في الأحاديث . وكان قد بدأ
تفسيرا ، فلم يف العمر باتمامه ، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى
عمله .

وكان قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة . ويسمونه
في ترمذ (٣) : محمد الحكيم ، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة . وله مناقب
خيرة ، منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام .

ويروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يأتى اليه كل
يوم أحد ، وكانا يتساءلان المواقف .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢١٤) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « ترمذ » : مدينة مشهورة . رابطة على نهر جيجون من جانبه الشرقى . وأشهر
من أخرجهم من العلماء أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، الترمذى الضريع ،
صاحب الصحيح . أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في الحديث (معجم البلدان ج ١
ص ٨٤٣) .

ويرد عنه أنه قال : « من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنعوت الربانية أجهل » (١) . أى : كل من لا يصل الى معرفة النفس وهى مخلوقة ، فانه لا يصل الى معرفة الحق تعالى وهو الخالق ، وكل من لا يرى آفات الصفة البشرية ، انى له أن يرى لطائف صفات الربوبية ؟! لأن الظاهر يتعلق بالباطن ، وكل ما يتعلق بالظاهر دون الباطن ، محال . وكل ما يتعلق بالباطن دون الظاهر ، محال . فأوصاف الربوبية منعقدة فى صحة أركان العبودية ، ولا تصح بغيرها .

وهذه الكلمة أصيلة جدا ومفيدة ، وسنتمها فى موضعها ان شاء الله عز وجل .

● ومنهم : شرف زهاد الأمة ، ومزكى أهل الفقر والصفوة :

« أبو بكر محمد بن عمر الوراق » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وزهادهم ، رأى أحمد بن خضرويه ، وصحب محمد بن على ، وله كتب فى الآداب والمعاملات . وقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : « مؤدب الأولياء » .

ويحكى عن محمد بن على الحكيم فيقول : أعطانى كراسة قائلا : ألقها فى جيحون (٣) ! فلم يطعننى قلبى ، وأخفيتها فى منزلى ، وجئته وقلت : ألقيتها . فقال : ماذا رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها ، عد وألقها فى البحر . فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبى ، وألقيتها فى الماء ، فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء . فعدت ورويت له ما حدث ، فقال : الآن ألقيتها . وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثنى به . قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن ادراكه ، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله اليه .

ويرد عنه أنه قال : « الناس ثلاثة : العلماء والفقراء والأمراء . فإذا فسد العلماء ، فسد الطاعة ، وإذا فسد الفقراء ، فسد الأخلاق ، وإذا فسد الأمراء ، فسد المعاش » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٩) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « جيحون » (نهر) : وهو اسم أعجمى . سعى بذلك لاجتياحه الأرضين . وقال ابن الفقيه بجىء جيحون من موضع يقال له « ريوسباران » وهو جبل متصل بناحية السند والهند وكابل ، ومنه عين تخرج من موضع يقال له « عنديس » (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧١) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والفقراء . فإذا فسد الأمراء فسد المعاش ، وإذا فسد العلماء فسد الطاعات ، وإذا فسد الفقراء فسد الأخلاق » (أنظر ص ٢٢٢) ، وورد فى طبقات الشعرانى باختلاف فى ترتيب الفئات (أنظر ج ١ ص ٧٣) .

فساد الأمراء والسلاطين يكون بالجور ، وفساد العلماء يكون بالطمع ، وفساد الفقراء يكون بالرياء . وما لم يعرض الملوك عن العلماء ، لا يفسدون . وما لم يصحب العلماء الملوك ، لا يفسدون . وما لم يطلب الفقراء الرياسة — بمعنى العظمة — لا يفسدون ، لأن جُور الملوك من الجهل ، وطمع العلماء من عدم التدين ، ورياء الفقراء من عدم التوكل . فالأمر بلا علم ، والعالم بلا تقوى ، والفقر بلا قوكل ، كلهم أقران الشيطان ، وفساد الخلائق جميعا مرتبط بفساد هذه الطوائف الثلاث .

● ومنهم : سفينة أهل التوكل والرضا ، وسالك طريق الفناء :

« أبو سعيد بن عيسى الخراز » (١) رضى الله عنه . وكان لسان أحوال المريدين ، وبرهان أوثاق الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء . وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متألثة ، وكلام ورموز عالية . وقد صحب ذا النون المصرى وبشرا الحافى ، والسرى السقطى .

ويرد عنه أنه قال فى قول النبى عليه السلام : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » (٢) : وأعجبا لمن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته الى الله » (٣) . لأن الاحسان على الحقيقة هو ما يفعله مالك الأعيان . والاحسان هو عمل الخير لمن يكون فى حاجة الى ذلك الخير ، ومن يلزمه الاحسان من الغير ، كيف يستطيع الاحسان ؟

أى أن الملك والملك لله جل جلاله ، لأنه مستغن عن الغير ، وجميع أهل الدنيا والآخرة وما فى الكونين محتاجون اليه ، ولما عرف أحبباء الحق هذا المعنى ، رأوا المنعم والمحسن فى الانعام والاحسان ، فصارت قلوبهم بكليتها أسيرة لمحبتة ، وأعرضوا عن غيره . والله أعلم .

● ومنهم : شاهد المحققين ، ودليل المريدين :

« أبو الحسن على بن محمد الأصفهاني » (٤) رضى الله عنه . ويقال له

(١) من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصرى وأبا عبد الله النابجى وأبا عبيد البهرى . مات سنة ثمان وسبعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٠ ، نفحات الانس ص ٧٣) .

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الأيمان عن ابن مسعود : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها . وبغض من أساء إليها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣١) .

(٤) على بن سهل بن الأزهر . من قدماء مشايخ اصفهان . صحب محمد بن يوسف ابن معدان المعروف بالبناء المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٠ ، نفحات الانس ص ١٠٣) .

أبضا : « على بن سهل » . كان من كبار المشايخ . وللجنيد معه مكاتبات
لطيفة . وقام عمرو بن عثمان بزيارته في أصفهان .

وكان محفوظا من الفتن والآفة ، وذا لسان طيب في الحقائق والمعاملات
وبيان لطيف في الدقائق والإشارات .

يرد عنه أنه قال : « الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات ،
واليقين خطرات » (١) . لأن الحضور متوطن القلب ولا تجوز عليه الغيبة ،
واليقين خاطر يرد حيناً ويذهب حيناً ، فالحاضرون يكونون في الحضرة ،
والمؤمنون على الاعتاب . وسأورد بابا في الغيبة والحضور في هذا الكتاب .

وقال رحمة الله عليه : « من وقت آدم الى قيام الساعة ، الناس يقولون :
القلب ، القلب ، وأنا أحب أن أرى رجلا يصف أيش القلب أو كيف القلب ،
فلا أرى » (٢) .

والعوام يسمون تلك القطعة من اللحم : القلب ، وتلك تكون للمجانين
والصبية والأطفال والمخلوبين ، ولكنهم بلا قلب . فما هو القلب ، فأننا
لا نسمع عنه الا العبارة .

أى : اذا أسمينا العقل القلب ، فذلك ليس القلب ، واذا كنا ندعو
الروح قلبا ، فذلك ليس القلب . واذا قلنا للعلم القلب ، فهو ليس بالقلب .
وقيام كل شواهد الحق بالقلب ، ولا يوجد منه سوى العبارة .

● ومنهم : شيخ أهل التسليم ، وفي المحبة : المستقيم :

« أبو الحسن محمد بن اسماعيل » (٣) : (خير النساج) رضى الله عنه .
كان من كبار المشايخ في وقته ، وذا معاملة وبيان حسن في العظات ،
وعبارة مهذبة في الإشارات . عمر طويلا ، وتاب الشبلى وإبراهيم الخواص
كلاهما في مجلسه ، وبعث بالشبلى الى الجنيد ، حفاظا على حرمة الجنيد
رضى الله عنه .

وكان مريدا للسرى ، ومن إقران الجنيد ، وأبى الحسين النورى ، وكان
الجنيد يحترمه كثيرا ، وقد أجازته أبو حمزة البغدادي .

(١) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٢٤) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٢٥) .

(٣) أصله من « سامرا » وأقام ببغداد . صاحب أبا حمزة البغدادي . وكان من إقران
النورى وطبقته . عمر مائة وعشرين سنة ، وتوفي سنة اثنين وعشرين وثلثمائة
(أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، وفيات
الاعان ج ١ ص ١٧٥ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ١١١ ، نفحات الانس ص ١٣٥ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٨٧) .

ويروى أن السبب في تسميته بخير النساج ، أنه عندما خرج من موطنه « سامرا » (١) قاصدا الحج ، مر بالكوفة ، فأمسك به بكار على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدى ، واسمك خير . فرأى ذلك من الحق ، ولم يخالفه . وظل سنوات طويلة يقوم له بالعمل ، وكلما كان يقول له : يا خير ! يقول : لبيك ، الى أن ندم الرجل على فعلته ، وقال له : اذهب ، لقد أخطأت ، ولست عبدى ! فذهب ، وصار الى مكة ، وبلغ تلك الدرجة التى قال معها الجنيد : « خير خيرنا » .

وكان أحب اليه أن يدعى خيرا ، ويقول : لا يجوز أن أغير اسما أسماى به رجل مسلم .

ويقال انه حين اقتربت وفاته ، حان وقت الصلاة ، فلما أفاق من غشية الموت فتح عينيه ونظر نحو الباب ، وقال رضى الله عنه : « قف عافاك الله ، فأنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور . وما أمرت به لا يفرك ، وما أمرت به فهو شيء يفوتنى ، فدعنى امضى فيما أمرت ثم امض بما أمرت » (٢) .

أى : دعنى أؤدى صلاة العشاء لأقضى أمر الحق ، لأتركك أنا أيضا تؤدى أمر الحق . ثم طلب الماء وتوضأ ، وصلى صلاة العشاء ، وأسلم الروح . رحمة الله عليه .

وقد رآه بعضهم فى النوم فى تلك الليلة ، فقيل له : ما فعل بك الله عز وجل ؟ قال رحمه الله : « لا تسألنى عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم » (٣) .

ويرد عنه أنه قال فى مجلسه : « شرح الله صدور المتقين بنور اليقين وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الايمان » (٤) ، فحيثما يكن الايمان يكن اليقين ، وحيثما يكن اليقين تكن التقوى ، لأنهما قرينا أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما تابع للآخر .

(١) « سامرا » : تخفيف « سر من رأى » وهى وبغداد مدينتا الملك ودار الخلافة . كانت صحراء من أرض الطبرستان لا عبارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى اشترى أرضه المصطفى العباسى سنة احدى وعشرين ومائتين وبنى المدينة وخط القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع والأسواق ، وأفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس وأفرد لكل مهنة مكانا وأخذ يزيد فى البقاء حتى توفى سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الخلافة الواثق نزار من عمرائها وسكنها من جاء بعده من الخلفاء (انظر : البلدان ص ٢٢ - ٣٥) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف لطيف (انظر ص ٣٢٣) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية « استرحت من دنياكم الوضرة » (انظر ص ٣٢٣) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية « شرح صدور المتقين ، وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الايمان » (انظر ص ٢٢٤) .

● ومنهم : داعى العصر ، وفريد الدهر :

« أبو حمزة الخراسانى » (١) رضى الله عنه ، كان من قدماء مشايخ خراسان ، صاحب أبا تراب ، ورأى الخراز . وكان ذا قدم ثابتة فى التوكل . ومن المشهور فى الحكايات انه كان يسير يوما فى طريق ، فوقع فى بئر ، وظل بها ثلاثة أيام وليال ، فجاء جماعة من السيارة الى البئر ، فقال لنفسه ، أناديهم ، ثم قال : لا ، لا يحسن أن أستعين بغير الحق ، وهذه تكون شكاية أشكوها اليهم ، فكأنى أقول : ان الله تعالى أوتعننى فى البئر فأخرجونى ! ولما أقبلوا ورأوا بئرا فى وسط الطريق بلا حائل وحاجز ، قالوا : تعالوا نغط رأس هذه البئر لكيلا يقع فيها أحد . قال : فاضطربت ويئست من حياتى . فلما أحكموا فوهة البئر ومضوا ، ناجيت الحق تعالى ، ووطنت قلبى على الموت ، ويئست من الخلق جميعا . فلما حل الليل ، سمعت صوتا من رأس البئر ، فلما أمعنت النظر ، نزع شخص الغطاء عن البئر ، فرأيت حيوانا ضخما ، فأمعنت النظر ، فكأنت حية دلت بذيلها ، فأدركت أن نجأتى فى ذلك ، وأنها رسول الحق تعالى وتقدس ، فتملقت بذيلها حتى أخرجتنى . وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ! ما أحسنها نجاة نجاتك هذه ، فقد نجيناك من التلف بالتلف (٢) .

وسئل : من الغريب ؟ قال : « المستوحش من الألف » (٣) ، اذ لا وطن للفقر فى الدنيا والعقبى ، والألفة فى غير الوطن وحشة ، ومن تنقطع الفته من الكون مستوحش من الجميع ، ومن ثم يكن غريبا .

وهذه درجة رفيعة ، والله أعلم .

● ومنهم : داعى المريدين بحكم الأمر :

« أبو العباس أحمد بن مسروق » (٤) رضى الله عنه . كان من كبار وأجلة خراسان ، وكان باجماع أولياء الله عز وجل من أوتاد الأرض ، وقد صاحب القطب المدار عليه .

(١) أصله من نيسابور من محلة ملقباد . صاحب مشايخ بغداد ، وهو من أقران الجنيد ، ومن أئمة المشايخ وأورعهم ، مات سنة تسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٦ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٧ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٣ ، نفحات الانس ص ٧٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة القشيرية مع اختلاف فى أن الذى نجاه : « سبع » (أنظر ج ١ ص ٣٨٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٢٦) .

(٤) اسمه : أحمد بن محمد بن مسروق . من أهل طوس ، وسكن بغداد ، ومات بها . توفى سنة تسع وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٣١ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٧٤ . تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٥ ، نفحات الانس ص ٨٩) .

سئل : من القطب ؟ قال : لم يظهر ، ولكن يبدو من الإشارة أنه الجنيد
رضي الله عنه ، فقد خدم أربعين من أصحاب التمكين وأفاد منهم ، ولكن
فارسا في علوم الظاهر والباطن .

ويرد عنه أنه قال : « من كان سروره بغير الحق ، فسروره يورث الهموم ،
ومن لم يكن أنسه في خدمة ربه ، فإنه يورث الوحشة (١) » .

أي أن كل ما سواه فناء ، وكل من يسر بالفناء فإنه عندما يفنى الفناء
يفتحم . وكل ما سوى خدمته هباء ، وعندما تظهر حقارة المكونات يصير
أنسه كله وحشة ، فغم كل العالم ووحشته في رؤية الغير ، والله أعلم .

● ومنهم أستاذ المتوكلين ، وشيخ المحققين : « أبو عبد الله محمد بن
إسماعيل المغربي (٢) » رضي الله عنه . كان من كبار ومقدمي وقته ، ومقبول
الأساتذة في زمانه ، ومراعيا لمريديه .

وكان إبراهيم الخواص وإبراهيم بن شيبان كلاهما من مريديه . وله
كلام عال وبراهين واضحة ، وقدم راسخة في التجريد .

ويرد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا أنصف من الدنيا ، إن خدمتها
خدمتك ، وإن تركتها تركتك (٣) » .

أي أنها تطلبك مادمت تطلبها ، وإذا أعرضت عنها وأقبلت على خدمة
الله تعالى تفر منك ، ولا يتعلق فكرها بقلبك ، فكل من يعرض بصدق عن
الدنيا يأمن شرها ، وينجو من آفتها ، إن شاء الله تعالى .

● ومنهم : شيخ زمانه ، وأوحد عصره وأوانه : « أبو علي الحسن بن
علي الجوزجاني (٤) » رضي الله عنه . كان منقطع النظر في وقته ، وله
تصانيف زاهرة في علم المعاملات ورؤية الآفات .

(١) ورد في طبقات الصوفية : « من لم يكن أنسه في خدمة ربه فهو من أنسه في وحشة »
(انظر ص ٢٤١) .

(٢) أبو عبد الله المغربي : صاحب علي بن رزين . وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين
سنة ، ومات على جبل طور سيناء ، وقبره عليه ، مع قبر أستاذه علي بن رزين .
مات سنة تسع وتسعين ومائتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٢ ،
الرسالة ج ١ ص ١٣٠ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ١١٦ ، نفحات الاس ص ٩٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢٤٣) .

(٤) ورد في الأصل : أبو علي الحسن بن علي « الجرجاني » . وورد في طبقات الصوفية :
« أبو علي الجوزجاني » ، وفي نفحات الانس : « أبو العلي الجوزجاني » : من
كبار مشايخ خراسان . له التصانيف المشهورة . نكلم في علم الآفات والرياضات
المجاهدات ، صاحب محمد بن علي الترمذي (٢٨٥ هـ) ومحمد بن الفضل (٣١٩ هـ)
وهو قريب السن منها . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٦ ، طبقات الشمراني
ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٨ ، نفحات الانس ص ١٢٨) .

وكان مريد محمد بن على ، ومن اقتران أبى بكر الوراق . وكان ابراهيم
السمرقندى مريدا له .

يرد عنه انه قال : « الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون ، وعلى
الظنون يعتمدون ، وعندهم انهم فى الحقيقة يتقلبون ، وعن المكاشفة
ينطقون (١) » .

وكانت اشارة الشيخ الى خيلاء الطبع ورعونة النفس ، لان الشخص
وان يكن جاهلا فانه يعتقد فى جهله ، وبخاصة جهال المتصوفة . وكما أن
علماءهم اعز ما خلق الله ، فجهاالهم اذل ما خلق الله ، فما يكون لعلمائهم
حقيقة يكون لجهاالهم ظنا لا حقيقة . وهم يرتعون فى ميدان الغفلة ويخالونه
ميدان الولاية ، ويعتمدون على الظن ويخالونه يقينا ، ويسرون مع الرسم
ويظنون حقيقته ، وينطقون عن الهوى ويتوهمون انه المكاشفة ، لان الظن
لا يفارق رأس الآدمى الا برؤية جلال الحق وجماله ، لانه فى اظهار جماله
يرونه كل شئ فيفنى ظنهم ، وفى كشف جلاله لا يرون انفسهم فيتبدد ظنهم ،
والله اعلم .

● ومنهم : باسط العلوم ، وواسط الرسوم : « أبو محمد أحمد بن الحسين
الجريرى (٢) » رضى الله عنه . كان من أصحاب سر الجنيد ، وأدرك صحبة
سهل بن عبد الله . وكان خبيرا فى مختلف العلوم ، وإمام الوقت فى الفقه ،
وعلى علم جيد بالأصول ، وبلغ فى طريقة التصوف درجة جعلت الجنيد
يطلب منه أن يؤدب مريديه ، ويشرف على رياضاتهم . وكان بعد الجنيد
ولى عهده الذى خلفه .

ويرد عنه انه قال : « دوام الايمان وقوام الاديان وصلاح الابدان فى
خلال ثلاث : الاكتفاء ، والانتقاء ، والاحتفاء . فمن اكتفى بالله صلحت
سريره ، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته ، ومن احتفى ما لم
يوافقه ارتاضت طبيعته ، فثمرة الاكتفاء صفوة المعرفة ، وعاقبة الانتقاء
حسن الخليفة ، وغاية الاحتفاء اعتدال الطبيعة (٣) » .

أى أن كل من يكتفى بالله : تصفو معرفته ، وكل من يستمسك بالمعاملة :
يحسن خلقه فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى عليه السلام : « من كثر

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٤٨) .
(٢) أبو محمد الجريرى : يقال ان اسمه : أحمد بن محمد بن الحسين . مات سنة
أحدى عشرة وثلاثمائة . (انظر ترجمه فى طبقات الصوفية ص ٢٥٩ ، الرسالة
ج ١ ص ١٣٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٢ ،
تفحات الانس ص ٣٩١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٦) .
(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « قوام الاديان ، ودوام الايمان ... الخ » (انظر
ص ٢٦٢) .

صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار (١) . و في خبر آخر ان المتقين يأتون يوم القيامة « ووجوههم نور على منابر من نور » . وكل من يسلك طريق الاحتماء : يحفظ جسده من العلة ، ونفسه من الشهوة .

وهذه أقوال جامعة وحسنة ، والله أعلم .

● **ومنهم :** شيخ الظرفاء ، وقدوة الأصفياء : « أبو العباس أحمد بن سهل الأدمي » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وأكثرهم حشمة ، مبجلاً بين أقرانه ، وعالمًا بعلوم التفسير والقراءات ، وكان ذا بيان في فهم القرآن ولطائفه ، اختص به .

وكان من كبار مريدى الجنيد ، وصاحب إبراهيم المارستاني . وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيراً ، ولا يسلم لأحد غيره بالتصوف .

ويرد عنه أنه قال : « السكون الى مآلوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق (٣) » .

أى أن كل من يسكن الى مآلوفات الطبع يتخلف عن الحقيقة ، لأن الطباع أدوات النفس وآلاتها ، والنفس محل الحجاب ، والحقيقة محل الكشف ، والمريد المحجوب والساكن لا يكشف أبداً ، فادراك الحقائق منعقد في الأعراض عن مآلوفات الطباع . والطبع يألف اثنتين ، أحدهما : الدنيا وأخوانها ، والأخرى : العقبى وأحوالها ، فهو يألف الدنيا بحكم الجنسية ، ويألف العقبى بحكم الظن . والفه يكون مع وهم العقبى لا مع عين العقبى ، لأنه لو عرفها حق المعرفة ، لانتقطع عن هذه الدار الفانية ، وإذا ما انتقطع عن هذه (أى الدنيا) تفنى ولاية الطبع ، ومن ثم يكون كشف الحقائق ، لأنه لا صلة لتلك الدار (أى العقبى) بالطبع إلا بفناء الطبع ، « لأن فيها مالا خطر على قلب بشر » . وخطر العقبى في أن طريقها مملوء بالخطر ، وكل ما يخطر في الخواطر ليس فيه كثير خطر . ولما كان الوهم عاجزاً عن معرفة حقيقة العقبى ، فكيف يكون للطبع الف مع عينها ؟

أذن ، فقد صح أن الف الطبع يكون مع وهم العقبى ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مستغرق المعنى ، ومستهلك الدعوى : « أبو مغيث الحسين

(١) رواه ابن ماجه من جابر : « من كثرت صلاته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣١٤) .

(٢) هو أبو العباس بن عطاء : سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٧٢) .

ابن منصور الحلاج (١) « رضى الله عنه ، كان من سكارى هذه الطريقة ومشتاقيا ، وإذا حال قوى وهمة عالية .

ومشايخ هذه الطريقة مختلفون في شأنه ، فهو مردود عند طائفة ، ومقبول عند أخرى ، فتسد رده فريق من أمثال عمرو بن عثمان ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأبى يعقوب الأقطع ، وعلى بن سهل الاصفهاني وغيرهم . وقبله ابن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وأبو القاسم النصر ابادى وجملة المتأخرين من الصوفية . وتوقف في أمره فريق مثل : الجنيد والشبلى والجريرى والحصرى وغيرهم ، ونسبة فريق آخر الى السحر وأسبابه .

أما في أيامنا هذه ، فقد كان للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، والشيخ أبى القاسم الجرجاني ، والشيخ أبى العباس الشقاني — رضى الله عنهم — في حديثه سر ، وكان لديهم معظما . وأما الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه ، فيقول : إذا كان من أرباب المعاني والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وإن يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق ، فلن يصير مقبولا بقبول الخلق . ونحن نتركه لله بحكم التسليم ، ونجمله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق (٢) . ولا ينكر كمال فضله وصفاء حاله وكثرة مجاهداته ورياضاته الا قلة من جملة الشيوخ .

وقد كان من غير الأمانة اغفال ذكره في هذا الكتاب ، لأن بعض أهل المظاهر يكفرونه وينكرون عليه ، وينسبون أحواله الى العذر* والاحتيال والسحر ، ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج (٣) ، ذلك الملحد البغدادي الذي كان أستاذ محمد بن زكريا ، ورفيق سعد القرمطى . ولكن الحسين هذا الذي اختلف في أمره كان فارسيا من بيضاورد (٤) ، ولم يكن هجر المشايخ له يعنى الطعن في دينه ومذهبه ، بل في حال دنياه ، فقد كان في بداية أمره مريد سهل بن عبد الله وانصرف عنه دون استئذان ، واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا إذن وتعلق

(١) ارجع الى ما ورد عن الحلاج في القسم الاول .
(٢) امتنع القشيري عن ايراد ترجمة للحلاج ضمن تراجم الشيوخ في القسم الخاص بالتراجم في الرسالة . * هكذا في الاصل (يعذر) . عذر الرجل عذرا وعذرا (لازم) كثر ذنوبه وعيوبه : (اقرب الموارد) .
(٣) كان الهجویری اول من طرق فكرة أنه كان هناك شخصان باسم الحلاج : أحدهما « الحسن بن منصور » الملحد المنسوب الى بغداد ، والآخر « الحسين بن منصور » الحلاج الحقيقي الفارسی المنسوب الى بيضاورد . وقد نقل « المعطار » في تذكرة الاولياء و « محمد فارسا » في فصل الخطاب هذه الفكرة عنه .
(٤) « البيضاء » (بيضا ورد) : مدينة بفارس وهي أكبر مدينة في كورة اصطخر . وانها سميت البيضاء لان لاهلها تبين من بعد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للمسلمين يقصدونها في فتح اصطخر . وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ (معجم البلدان ج ١ ص ٧٩١) .

بالجنيد فلم يقبله ، ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة
لا مهجور الأصل .

أما رأيت أن الشبلى قال : « أنا والحلاج شيء واحد فخلصنى جنونى
وأهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعوناً في دينه لما قال الشبلى أنا والحلاج
شيء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم ربانى (١) » ومثل هذا ،
فغضب شيوخ الطريقة والمشايخ — رضى الله عنهم — وعقوبتهم ، أثمر
الهجران والوحشة .

وله تصانيف زاهرة ورموز وكلام مهذب في الأصول والفروع . وأنا
على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفاً (٢) في بغداد ونواحيها ،
وبعضها في خوزستان (٣) وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعاً — كما هو
الحال في بداية أمر المريدين — اقوالاً : بعضها أقوى ، وبعضها أضعف ،
وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع . وحين يكون لانسان دليل وبرهان من
الحق وتواتره العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقاً ،
خاصة وأن المعبر يغرب في عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ،
وتعجز العقول عن ادراكه ، ومن ثم يقولون أن هذا الكلام عال ، فينكره
فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون انكارهم كاتقارهم . ولكن
حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون
بالغرابة ، ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من انكاره واتقاراه .

ثم إن هؤلاء الذين نسبوا ذلك الرجل الى السحر باطل زعمهم ، لأن
السحر في أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، واطهار السحر
في حال الكمال كفر ، واطهار الكرامة في حال الكمال معرفة ، لأن الأول
يكون نتيجة سخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة رضاه . وسنزيد هذا الكلام
شرحاً في باب اثبات الكرامات إن شاء الله تعالى .

وبإجماع أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة ، لا يكون المسلم ساحراً
والكافر مكرماً ، لأن الأضداد لا تجتمع . وكان الحسين رضى الله عنه طوال
عمره في لباس الصلاح : من صلوات طيبة ، واذكار ومناجيات كثيرة ،

(١) ورد في طبقات الصوفية . (أنظر ص ٣٠٨) .

(٢) ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين كتاباً من كتب الحلاج (أنظر الفهرست ص ٢٧١)

(٣) « خوزستان » : (معربها « الأخواص ») وهو اسم لجميع بلاد الخوز .

قال ابن النقيب الأصمى : الخوز هم الفعلة الذين بنوا السرخ . وقال أبو زيد :

وليس بخوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتأخم نواحي تستر وجند يسابور .

وأما أرض خوزستان فأشبه شيء بأرض العراق . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٦٦) .

وصيامات متصلة ، وتحبيدات مهذبة ، ونكات لطيفة في التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . فصح إذن أنها كانت كرامات ، والكرامات لا تكون الا لولى محقق .

وقد رده بعض أهل الأصول ، وهم يعترضون عليه في كلماته التي تعبر عن الامتزاج والانحاد ، وذلك مبالغة منه وتهويل في العبارة لا في المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته في غلبة الحال .

ويجوز أيضا أن يكون معنى العبارة مشكلا فلا يستطيعون فهم المعنى المقسود ، ويصور لهم وهمهم صورة عنه ، فينكرونه ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى .

غير انى رايت غريقا من الملاحدة — أخزاهم الله — في بغداد ونواحيها يدعون توليهم له ، وقد جعلوا أقواله حجة لزندقتهم ، واسموا أنفسهم الحلاجيين . وهم يغالون في أمره كفلو الرافضة (١) في تولى على رضى الله عنه .

وسأورد بابا في الفرق بين الفرق أرد فيه على كلماتهم ان شاء الله عز وجل .

وفي الجملة : أعلم انه لا يجوز الاقتداء بكلامه لأنه كان مغلوبا في حاله لا متمكنا ، وينبغي للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به . وهو عزيز على قلبى كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقه غير مستقيمة على أى أصل ، وحاله غير مستقر على أى وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة . وكان لى في ابتداء حالى منه قوى في معنى البراهين . وقد صنف قبل هذا كتابا في شرح كلامه ، وأثبت بالدلائل والحجج علو كلامه وصحة حاله في ذلك الكتاب ، وذكرت بدايته ونهايته في كتاب آخر اسمه المنهاج ، وقد أوردت هنا أيضا هذا المقدار . والطريق الذى ينبغي اثبات أصله بكثير من الاحتراز ، لما إذا ينتمى الناس اليه ويقتدون به ؟ ولكن الهوى لا يتفق أبدا مع الاستقامة ، ويبحث دائما عن الطريق المعوج ليعتلق به .

(١) « الرافضة » : فرقة من الشيعة سميت بذلك لأنه لما خرج زيد بن على بن الحسين سئل عن رأيه في أبى بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما فسموا رافضة . وانقسم الشيعة اذ ذاك فرقتين : رافضة وزيدية ، وكلاهما يفضل عليا على أبى بكر وعمر ، ولكن الزيدية أقل طعنا عليهما وأعدل حكما فيهما .

« ضحى الاسلام » أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٦ ج ٣ ص ١٣٦

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها
مستهلكات » (١) .

وهذه العبارة كلها آفة ، وفي حقيقة المعنى هذر . وإذا حصل المعنى
لا يفقد بالعبارة ، وإذا فقد المعنى لا يوجد بالعبارة ، لأن الوهم يظهر فيها
ويهلك الطالب ، لأنه يخال العبارة : المعنى . والله أعلم .

● **ومنهم : قائد المتوكلين ، ورئيس المستسلمين : « أبو اسحق إبراهيم
ابن أحمد الخواص (٢) »** رضى الله عنه . كان ذا شأن عظيم ومنزلة رفيعة
في التوكل ، أدرك كثيرا من الشيوخ ، وله آيات وكرامات كثيرة ، وتصانيف
طيبة في معاملات هذه الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضع
ما استكفيت » (٣) .

والمراد من هذا هو أن لا تتكلف في القسمة ، لأن القسمة الأزلية لا تتغير
بتكلفك . ولا تقصر في الأمر لأن الأمر يثمر لك العقوبة .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت منها الكثير ، ولكن
ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبني
فلم أجبه . قيل : لم ؟ قال : لا لأنى كنت أطلب رفيقا خيرا منه ، ولكنى
خشيت أن أعتمد عليه دون الحق ، وتضر صحبتته بتوكلى ، وأتخلف بالناغلة
عن الفريضة .

وهذا من درجات الكمال ، والله أعلم .

● **ومنهم : حجاب الأسرار والتمكين . وأساس أهل اليقين : « أبو حمزة
البغدادي البزاز (٤) »** رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومتكلميهم ،

(١) ورد في طبقات الصوفية : « السنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات . وأنس
مستهلكات تحت استعمالها مستهلكات » (أنظر ص ٣١٠) .

(٢) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل : كان أوحداً المشايخ في وقته ، ومن أقران الجنيد
والنوري . مات في جامع الرى سنة إحدى وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته في
طبقات الصوفية ص ٢٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٦ ، طبقات الشعرا ج ١
ص ٧٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٤٩ ، نفحات الأنس ص ١٣٦ ، خزينة الأصفاء
ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٨٥) .
(٤) اسمه : محمد بن إبراهيم . كان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة قبل كلامه في
مسجد المدينة . وكان ينتسب إلى حسن المسوحى . وتكلم يوما في جامع المدينة ،
فتغير عليه حاله ، وسقط عن كرسيه ، ومات في الجمعة الثانية . كان من رفقاء
أبى تراب النخشبى في أسفاره ، ودخل البصرة مرارا . وتوفى سنة تسع وثمانين =

ومريد الحارث المحاسبى ، وصاحب السرى . وكان من أقران النورى وخير
النساج ، وصاحب محتشمى المشايخ .

كان يعظ في مسجد الرصافة في بغداد ، وكان عالما بالتفسير والقراءات ،
وله في احاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

وكان رفيق الثورى في وقعته وبلائه اللذين خلصهما الله تعالى منهما ،
وسأذكر ذلك في شرح مذهب النورى ان شاء الله عز وجل .

ويرد عنه انه قال : « اذا سلمت منك نفسك فقد أدبت حقها ، واذا
سلم منك الخلق قضيت حقوقهم (١) » .

أى ان الحقوق اثنان : أحدهما حق نفسك عليك ، والثانى حق الخلق عليك
فاذا منعت نفسك من المعصية ، وطلبت طريق سلامة أخراها ، فانك تكون
قد قضيت حقها ، واذا أمنت الخلق من اذاك ولم تطلب أساءتهم ،
فانك تكون قد قضيت حقهم . فاجتهد أن لا يصيبك والخلق منك أذى ،
ومن ثم انشغل بقضايا حق الحق . والله أعلم .

● ومنهم : الامام في فنه ، العالى الحال ، اللطيف الكلام : « أبوبكر محمد
ابن موسى الواسطى » (٢) رضى الله عنه . كان من محققى المشايخ ، وذا
شأن عظيم ودرجة رفيعة في الحقائق ، ومرضيا لدى جملة المشايخ .

وكان من قدماء أصحاب الجنيذ ، وذا عبارات غامضة لا يفهمها أهل
الظاهر . ولم يستقر ببلد قط ، فلما ورد مرو قبله أهلها للطف بطبعه
وحسن سيرته ، وسمعوا أقواله . وقضى هنالك عمره .

ويرد عنه انه قال : « الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره (٣) »
لأنه اذا ذكره الذاكر ، فلا ضير اذا نسي ذكره ، وانما الضير فى أن يذكر
ذكره وينساه ، لأن الذكر غير المذكور ، فالاعراض عن المذكور مع ذكر
الذكر يكون أقرب الى الغفلة من الاعراض بلا ذكر ، ولا يكون للناسي
في النسيان وغيبية الذكر حضور .

= ومائتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ،
طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ ، نفحات الانس
ص ٧١ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٦٦) .
(١) ورد في طبقات الصوفية : اذا سلمت منك نفسك فقد أدبت حقها ، واذا سلم منك
الخلق فقد أدبت حقوقهم (انظر ص ٢٩٨) .
(٢) سبق الإشارة اليه .
(٣) ورد في طبقات الصوفية : « الذاكرون في ذكره أكثر من الناسين لذكره ، لان ذكره
سواء » (انظر ص ٣٠٥) .

وللذاكر في الذكر والغيبة عن المذكور : ذكر الحضور ، وذكر الحضور
بلا حضور أقرب الى الغفلة من الغيبة بلا ذكر ، لان هلاك طالب الحق في
ذكرهم ، فحيثما يكون الذكر أكثر ، يكون المعنى أقل . وحيثما يكون المعنى
أقل ، يكون الذكر أكثر . وحقيقة ذكرهم من تهمة العقل ، والعقل يحصل
من الهمة ، ولا اقتران للهمة قط بالهمة والتهمة .

وأصل الذكر يكون في الغيبة أو الحضور ، فحين يكون للذاكر غيبة عن
نفسه وحضور مع الحق تعالى ، فانه لا يكون ذكرا ، بل مشاهدة . وحين
يكون غائبا عن الحق وحاضرا مع نفسه ، فذلك لا يكون ذكرا ، بل غيبة ،
والغيبة من الغفلة ، والله أعلم .

● ومنهم : سكينه الأحوال ، وسفينه المقال : « أبو بكر دلف بن جحدر
الشبلي » (١) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومذكورهم ، وإذا حال
مهذب ووقت مطيب مع الحق تعالى ، وله اشارات لطيفة ومقبولة ، « كما
قال واحد من المشايخ المتأخرين : ثلاثة من عجائب الدنيا : اشارات الشبلي ،
ونكات المرتعش ، وحكايات جعفر » .

وكان من كبار أهل التصوف وسادات الطريقة . وكان أولا ابن حاجب
حجاب الخليفة ، وتاب في مجلس خير النساج رحمه الله ، وصار مريدا
للجنيد ، ورأى كثيرا من المشايخ .

يرد عنه أنه قال في معنى قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من
أبصارهم » (٢) أى : أبصار الرعوس عن المحارم ، وأبصار القلوب عما سوى
الله ، « فمناجاة الشهوة وملاحظة المحارم من الغفلة ، والمعصية الكبرى
لأهل الغفلة هي أنهم يجهلون عيوبهم ، ومن يكن جاهلا في الدنيا يكن أيضا
جاهلا في الآخرة ، لقوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة
أعمى » (٣) .

وفي الحقيقة أنه اذا لم يطهر الله قلب انسان من ارادة الشهوة ، فانه
لا يحفظ عينه من غوامضها ، واذا لم يثبت ارادته في قلب انسان فانه
لا يحفظ بصيرته من النظر الى الغير .

ويرد عنه أنه دخل السوق يوما ، فقال قوم : « هذا مجنون » ! . فقال
رضى الله عنه : « أنا عندكم مجنون وأنتم عندي أصحاء ، فزاد الله في
جنونى وزاد في صحتكم » ، فجنونى من شدة المحبة ، وصحتكم من غاية

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سورة « النور » آية ٣٠ .

(٣) سورة « الاسراء » آية ٧٢ .

الغفلة ، فليزد الله في جنوني لأزداد قريبا على قرب ، وليزد في صحتكم(١)
لتزدادوا بعدا على بعد .

وهذا القول من الغيرة ، والا فكيف يكون في تلك الدرجة شخص لا يميز
بين المحبة والجنون ؟!

● ومنهم : حاكي أحوال الأولياء بالطف الأقوال والأداء :

« أبو محمد جعفر بن نصير الخلدي (٢) » رضى الله عنه ، كان من كبار
أصحاب الجنيد ، ومن قدماء الصوفية ، متبحرا في فنون هذا العلم ، وحافظ
أنفاس المشايخ وراعى حقوقهم .

وله كلام عال في كل فن ، وقد ربط كل مسألة بحكاية ونسبها الى غيره ،
تجنباً للرعونة .

ويرد عنه انه قال : « التوكل استواء القلب عند العدم والوجود » (٣) .

أى ان التوكل هو ان يكون وجود الرزق وعدمه لدى قلبك سواء ،
فلا تفرح بوجود الرزق ، ولا تغتم لعدمه ، لأن الجسد ملك للمالك ، والحق
تعالى أولى برعايته وهلاكه ، وهو يحفظه كما يريد فلا تتدخل بينهما ،
ودع الملك للمالك ، واقطع تصرفك .

ويروى هذه الحكاية فيقول : دخلت على الجنيد فوجدته محموما ، فقلت
يا استاذ ! ادع الحق تعالى أن يشفيك . فقال : لقد كنت أدعو بالأمس
فنفذت في سرى : ان جسدك ملك لنا ، فاذا شئنا جعلناه صحيحا ، واذا
شئنا جعلناه عليلا ، فمن أنت حتى تتدخل بيننا وبين ما نملك ؟ فاقطع
تصرفك لتكون عبدا . والله أعلم بالصواب .

(١) الكلمة الفارسية في الاصل تعطى معنى « صحوكم » .

(٢) اسمه : جعفر بن محمد بن نصير . بغدادى المنشأ والمولد . صاحب الجنيد وأبا
الحسين النورى وغيرهم من مشايخ الوقت . وكان المرجع اليه في علوم القوم وكبهم
وحكاياتهم وسيرهم . كان من أفنى المشايخ وأجلتهم وأحسنهم قولاً . توفي ببغداد
سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة . أسند الحديث ورواه . (انظر ترجمته في طبقات
الصوفية ص ٤٣٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٧ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٤ ،
تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨٣ ، نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزنة الاسماء ج ٢
ص ٢٠٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : سئل عن التوكل فقال : استواء القلب عند العدم والوجود ،
بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود ، بل الاستقامة مع الله تعالى على
الحالين » (انظر : ص ٤٣٧) .

ومنهم الشيخ المحمود ، ومعدن الجود :
« أبو على بن محمد بن القاسم الرودباري (١) » رضى الله عنه كان من
فتيان المتصوفة وقادتهم ، ومن أبناء الملوك ، وذا شأن عظيم في فنون المعاملات ،
ومناقب كثيرة وأقوال لطيفة في دقائق الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « المرید لا يريد لنفسه إلا بما أراد الحق له ،
والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره (٢) » ، فيجب أن يكون الراضى بارادة
الحق تاركا لارادته ، ليكون مریدا . وليس للمحب نفسه ارادة حتى
يكون له مراد ، ومن يريد الحق لا يريد إلا ما يريده له . والمراد من الحق
لا يريد غير الحق ، فالرضا من بداية المقامات ، والمحبة من نهاية الأحوال .
والمقامات تنسب إلى تحقيق العبودية ، والدرجات تنسب إلى تأييد الربوبية .
وما دام الأمر كذلك ، يكون المرید قائما بنفسه ، ويكون المراد قائما بالحق ،
والله أعلم .

● ومنهم : خازن التوحيد ، وسمسار التفريد :
« أبو العباس القاسم بن مهدي السيارى (٣) » رضى الله عنه . كان من
أئمة عصره ، عالما بعلوم الظاهر والباطن ، صاحب أبا بكر الواسطى ، وأخذ
الأدب عن كثير من المشايخ .
وكان أظرف القوم في الصسحبة ، وأزهدهم في الآفة ، وله كلام عال
وتصانيف محمودة .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد أن لا يخطر بقلبك ما دونه (٤) » . لأن
التفكير في الغير من اثباتهم ، وإذا ثبت الغير : سقط حكم التوحيد .

وكان في البداية من بيت علم ورئاسة ، ولم يكن أحد من أهل مرو يتقدم
على أهل بيته في الجاه ، وورث عن أبيه ميراثا كبيرا ، فدفعه كله ثمنا
لشعرتين من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن الله عليه بالتوبة

(١) كنيته أبو على ، واسمه : أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار . من
أهل بغداد . سكن مصر وصار شيخها ومات بها . صاحب الجنيد والنورى ومن في
طبقتهم ، وصاحب بالشام ابن الجلاء . كان عالما فقيها عارفا بعلم الطريقة ،
حافظا للحديث . توفى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات
السويرة ص ٣٥٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٥١ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٨ ،
تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٣) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٥٦) .
(٣) اسمه القاسم بن القاسم بن مهدي ، كان من أهل مرو وشيخهم ، وأول من تكلم
عندهم في دقائق الأحوال . كان فقيها عالما ، كتب الحديث الكثير ورواه . توفى
سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٤٠ ، الرسالة
ج ١ ص ١٦٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٠٤ ،
نفحات الانس ص ١٤٥ ، خزنة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية : « حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب مادونه » (أنظر ص ٤٤٤)

ببركات ذلك ، وصحب إبا بكر الواسطى رحمه الله ، وبلغ من الدرجة أن صار امام صنف من المتصوفة . ولما اشرف على ترك الدنيا ، أوصى فوضعوا الشعرتين في فمه .

وقبره اليوم ظاهر بمرور ، والناس يذهبون اليه لطلب الحاجات ، وتحقيق الأمنيات ، وهو مجرب ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مالك وقته في التصوف ، والخالى طبعه من التكلف والتصرف ، « أبو عبد الله محمد بن خفيف (١) » رضى الله عنه . كان امام زمانه في مختلف العلوم ، وذا شأن عظيم في المجاهدات ، وبيان شاف في الحقائق ، وعهد مهياً وواضح في التصانيف . وقد أدرك ابن عطاء ، والشبلى ، والحسين بن منصور والجريرى ، وصحب أبا يعقوب النهرجورى بمكة ، وقام بأسفار طيبة على التجريد .

وكان من أبناء الملوك ، فرزقه الله تعالى التوبة ، وأعرض عن الدنيا ، وشأنه عظيم عند أهل المعانى .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد : الاعراض عن الطبيعة » . لأن الطبائع كلها مكفوفة عن نعمائه ، ومحجوبة عن آلائه ، فما لم يحصل الاعراض عن الطبع ، لا يتأتى الاقبال على الحق ، وصاحب الطبع محجوب عن حقيقة التوحيد . ومتى رأيت آفة الطبع ، بلغت حقيقة التوحيد .

وله آيات وبراهين كثيرة . والله أعلم .

● **ومنهم :** سيف السياسة ، وشمس السعادة :

« أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار أهل التمكن ، ذا حظ وافر في فنون العلم ، وصاحب رياضات وسياسات ، وله في رؤية الآفات آيات كثيرة وبراهين طيبة .

(١) كان شيخ المشايخ في وقته . وكان عالماً بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) سعيد بن سلام : من ناحية « قيروان » وهى مدينة عظيمة بأفريقية ، مصرها عقبة ابن نافع بعد أن أتم فتح أفريقية . أقام بالحرم مدة وكان شيخه . كان أوحى في طريقته في الزهد ، ورد نيسابور ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٧٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٧ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٨١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٦) .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من أثر صحبة الأغنياء على مجالسة
الفقراء ابتلاه الله بموت القلب » .

أى قال : ان الصحبة تكون مع الأغنياء ، والمجالسة تكون مع الفقراء .
فإنما يعرض عن الفقراء من يكون قد جالسهم ، لا من يكون قد صحبتهم
— لأنه لا اعراض فى الصحبة — وحين ينصرف عن مجالستهم الى صحبة
الأغنياء ، يموت قلبه بموت الاحتياج ، ويبتلئ جسده بالعجب والغرور ،
وإذا كان الاعراض عن المجالسة يثمر موت القلب ، فكيف يكون الاعراض
عن الصحبة ؟

وقد ظهر فى هذه الكلمات الفرق بين الصحبة والمجالسة ، والله أعلم .

● ومنهم : المبرز فى صفوف الصوفيين ، والمعبر عن أحوال العارفين ،
« أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمود (١) النصر آبادى (٢) » رضى الله عنه .
كان فى نيسابور كالمملك شابور (٣) من نسابور ، أى أنه ملك نيسابور بعلو
الحال ومرتبة الرجال ، غير أن عز الملوك يكون فى الدنيا ، وعزه فى الآخرة .
وله كلمات بديعة وآيات رفيعة . وكان مريد الشبلى وأستاذًا للمتأخرين
من أهل خراسان . ولم يكن له مثيل فى عصره ، فقد كان أعلم وأورع أهل
زمانه فى فنون العلم .

(١) ورد هذا الاسم فى الأصل « محمود » وفى الحاشية « حمويه » وفى طبقات الصوفية
ونفحات الأنس « حمويه » .

(٢) أبو القاسم النصر آبادى : نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . شيخ خراسان فى
وقته . أقام بنيسابور ثم خرج فى آخر عمره الى مكة وحج سنة ست وثلاثين
وثلاثمائة ، وأقام بالحرم مجاوراً ، مات سنة سبع وستين وثلاثمائة . كتب الحديث
الكثير ورواه ، وكان ثقة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٤ ، الرسالة
ج ١ ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣١١ ،
نفحات الأنس ص ٢٣٠) .

(٣) « شابور » : شابور الأول ابن أردشير بن بابك : الملك الساسانى . تولى الملك
بعد أبيه سنة ٢٤١ م ، وفى أيامه ظهر « مانى » وقال بالآيتين ، وعاب مذهبه .
ومال شابور اليه . وقال مالى أن مدبر العالم اثنان وهما شينان قديمان : نور
وظلمة ، خالقان : فخالق خير وخالق شر . فلجأه شابور الى هذه المقالة وأخذ بها
أهل مملكته . وأقام شابور على هذه المقالة عشرين سنة ثم رجع عن الثنوية الى المجوسية ،
وهم يقتل مانى ، فهرب الى بلاد الهند ، وأقام بها حتى مات شابور .
وفى حروبه مع الرومان انتصر عليهم وحاصر ملكهم « فاليريان » بمدينة انطاكية ،
واسره وحمله وجماة كثيرة معه وأسكنهم « جندى شابور » . ولكن شابور هذا
الذى تغلب على الروم ، استطاع « أذينة » العربى حاكم « تدبر » أن يهزمه وعلى
أثر هذه الهزيمة استولى على آسيا الصغرى والشام وجزء كبير من العراق ،
واعترف به الإمبراطور الرومانى « جالينوس » وخلق عليه لقب إمبراطور . وخلفته
زوجته « الزباء » بعد وفاته ، واستطاعت بوصفها وصية على ابنها « وهب اللات »
أن تدفع اغارة الجيوش على تدبر .

يرد عنه أنه قال (١) : « أنت بين نسبتي : نسبة الى آدم ، ونسبة الى الحق . فاذا انتسبت الى آدم دخلت في ميادين الشهوات ، ومواضع الآفات والزلات ، وهى نسبة تحقق البشرية لقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا (٢) » . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في ميادين الكشف والبراهين والعصمة والولاية ، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا (٣) » .

ونسبة آدم منقطعة يوم القيامة ، ونسبة عبوديته قائمة دائمة ولايتطرق اليها التغير . وعندما ينسب العبد نفسه الى نفسه أو الى آدم ، فان كمال هذه النسبة ان يقول : « ائني ظلمت نفسي (٤) » . وخين ينتسب الى الحق يكون الادمى اهلا لقول الحق تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم (٥) » . والله أعلم .

● ومنهم : سرور سر سالكى الطريق ، وجمال ارواح اهل التحقيق ، « أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى (٦) » رحمه الله ، ورضى عنه . كان من محتشمى احرار حضرة الحق تعالى ، ومن كبراء ائمة المتصوفة ، ولم يكن له نظير في زمانه ، وله كلام عال وعبارات حسنة في كل المعانى .

= ويتصل بتاريخ سابور أيضا قصته مع صاحب « الحضر » — وكان يقال له : « الساطرون » أو « الضيزن » — وابنته « النضيرة » التى عشقت سابور وعشقها ، واتلفت معه على حيلة يستطيع بها ان يدخل مدينة أبيها بجيوشه ويقتله في مقابل أن يتزوجها ، ففعل وتداعت المدينة مفتحة عنوة وقتل الضيزن وخرّب المدينة وحبل معه النضيرة وتزوجها ثم لم يلبث أن قتلها . وينسب الى سابور بناء مدينة نيسابور في خراسان ، ومدينة « جندى سابور » في الاهواز . وملك سابور احدى وثلاثين سنة . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٢٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٠٤ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٧ — ٥١) .

(١) ورد هذا القول في طبقات الصوفية : « أنت بين نسبتي : نسبة الى الحق ، ونسبة الى آدم . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في مقامات الكشف والبراهين والمعلية ، وهى نسبة تحقق العبودية قال تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا » ، وقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وقال : فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعليناها من لدنا علما » . واذا انتسبت الى آدم دخلت في مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(٢) سورة « الاحزاب » آية ٧٢ .

(٣) سورة « الفرقان » آية ٣٦ .

(٤) سورة « القصص » آية ١٦ .

(٥) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

(٦) أبو الحسن الحصرى : بصرى الاصل وسكن بغداد . كان شيخ العراق ولسانها ، ومن أجل المشايخ . له لسان في التوحيد يختص هو به ، ومقام في التجريد والتجريد مسلم له ، لم يشاركه فيه أحد بعده .

استاذ العراقيين وبه تأدب من تأدب منهم . صاحب الشبلى وغيره ، وتوفى سنة احدى وسبعين وثلاثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٩٨ . المنتظم ج ٧ ص ١١٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

يرد عنه أنه قال : « دعوني في بلائى ، هاتوا مالكم . الستم من أولاد آدم الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ثم أمره بأمر مخالف ، إذا كان أول الدن درديا(١) فكيف يكون آخره ؟(٢) » .

أى انه اذا ترك الآدمى لنفسه يكون كله مخالفة ، أما اذا وافاه بعنايته يكون كله محبة .

فعدد حسن عناية الحق ، وقابلها بقبح معاملتك ، واقتض العمر في هذا .
وبالله العون والعصمة .

هذا طرف من سيرة بعض المتقدمين من المتصوفة واهل القدوة منهم رضى الله عنهم ، ولو ذكرتهم جميعا وشرحت أحوالهم العزيزة ، وأوردت حكاياتهم في هذا الكتاب لعجزت عن المقصود ، ولطال الكتاب .

والآن : أتحق بهم فريقا من المتأخرين لتكون الفوائد والموائد أكثر ، وبالله العون والتوفيق .

(١) « درد » كلمة فارسية تعنى : رواسب الخير في الدن .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٤٩٠) .

الباب الثاني عشر باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين رضوان الله عليهم أجمعين

اعلم — خيرك الله — أنه يوجد في زماننا هذا جماعة لا قدرة لهم على تحمل الرياضة ، وهم يطلبون الرياسة بدون الرياضة ، ويظنون كل أهل التصوف مثلهم ، وعندما يسمعون أقوال السلف ، ويرون شرفهم ، ويقرأون معاملاتهم ، ينظرون في أنفسهم فيرون أنهم يعيدون عنهم ، ولكنهم لا يقصدون إلى القول : اننا لسنا كذلك ، ولكن يقولون : لم يبق في زماننا أمثال هؤلاء . وتقولهم هذا محال ، لأن الله تعالى لا يترك الأرض أبدا بلا حجة ، ولا هذه الأمة بلا ولي ، كما قال النبي عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتي على الخير والحق حتى تقوم الساعة » ، ولقوله عليه السلام : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق إبراهيم » (١) .

وفريق من أولئك الذين أذكركم في هذا الباب قد ماتوا وأسلموا الروح للراحة والروح ، وفريق أحياء ، رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين ، واشملنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

● ومنهم : طراز طريق المولاية ، وجمال جمع أهل الهداية :
« أبو العباس أحمد بن محمد القصاب » (٢) رضى الله عنه . وقد أدركه

(١) ورد في طبقات الصوفية : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق إبراهيم عليه السلام ، إذا جاء الأمر قبضوا » (انظر ص ٢) .
(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم القصاب الأملی : خليفة محمد بن عبد الله الطبري ، ومريد أبي محمد الجبري . شيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، لجأ إليه أبو سعيد بعد وفاة مرشده أبي الفضل محمد بن حسن السرخسي ، وسافر إليه في آمل وظل يمارس الرياضة تحت إشرافه عاما ، ونال على يديه الخرقه الثانية . توفي في أواخر

المتقدمون منا وصحبوه ، وهو معروف ومشهور بعلو الحال ، وصدق فمراصة
المقال ، وكثرة البراهين والكرامات .

ويقول أبو عبد الله الخياط إمام طبرستان (١) : من أفضال الله عز وجل
أن صير فينا رجلا غير متعلم نسأله إذا أشكل علينا شيء في علوم الدين
وأصوله ودقائق التوحيد ، وهو أبو العباس القصاب رضي الله عنه .

وكان أميا ، غير أن أقواله ونكاته في علم انتصوف والأصول كانت رفيعة
جدا . وكان في ابتداء حاله وانتهاه عظيمًا وحسن السيرة . وقد سمعت
عنه حكايات كثيرة ، ولكن مذهبي في هذا الكتاب هو الاختصار .

يقال أن صبيًا كان قد أمسك بزمام بعير يحمل حملاً ثقيلاً ، وكان يسير
به في سوق آمل (٢) — ويوجد وحل هنالك دائماً — فانزلت رجل البعير
ووقع وانكسرت رجله ، فقصص الناس انزال الحمل عن ظهر البعير ،
واستغاث الصبي . ومر بهم (أبو العباس) وقال : ماذا حدث ؟ فأخبروه ،
فأمسك رضي الله عنه بزمام البعير ، واتجه إلى السماء قبلة الدعاء ، وقال :
الهم أشف هذا البعير ، وإذا لم تشأ أن تبرئه ، فلم أحرقت قلب القصاب
ببكاء هذا الصبي ! وفي الحال نهض الجمل ، ومضى صحيحاً معافى .

ويرد عنه أنه قال : يجب على العالم جميعاً — أرادوا أو لم يريدوا —
أن يأنسوا بالله ، والا فانهم يتألمون . لأنك إذا أنست به ترى المبلى في البلاء
فلا يكون البلاء بلاء ، وإذا لم تأنس به فانه عندما يحل البلاء تتأذى ، والله
تعالى لا يغير تقديره برضاء أحد أو سخطه ، فمراضاؤنا بحكمه راحة لنا ،
وكل من يأنس بالله يرتاح قلبه ، وكل من يعرض عنه يتألم لورود القضاء .
والله أعلم .

= القرن الرابع الهجري . قيل له : ألف السلمي كتاباً في طبقات الشيوخ . فسأل :
هل ذكر اسمي فيه ؟ قالوا : لا . قال : لم يفعل شيئاً . (انظر ترجمته في تذكرة
الأولياء ج ٢ ص ١٨٥ ، قفحات الأنس ص ٢٨٦ ، وما ورد عنه من إشارات في أسرار
التوحيد الترجمة العربية ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩) .
(١) « طبرستان » : بلد منفرد له مملكة جليّة ولم يزل ملكه يسمى الأصهبدي . وهو بلد
كثير الحصون منيع بالأودية وأهله أشراف العجم أبناء ملوكهم (البلدان ص ٤٣)
فزاها سعيد بن العاص في عهد عثمان بن عفان (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠١) .
(٢) « آمل » : مدينة طبرستان الثانية . من الرى إليها مرحلتان . وآمل على بحر
الديلم . (البلدان ص ٤٣) .

● ومنهم : بيان المريدين ، وبرهان المحققين :

« أبو علي الحسن بن محمد بن علي الدقاق » (١) رضى الله عنه . كان امام فقه ، منقطع النظر في زمانه ، وذا بيان صريح ولسان فصيح في كشف طريق الله تعالى . رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وكان مريد النصرابادي ، ويذكر الناس .

يرد عنه انه قال : « من أنس بغيره ضعف في حاله ، ومن نطق من غيره كذب في مثاله » ، لأن الانس بالغير غاية في الجهل وعدم المعرفة ، والانس به وحشة من الغير . والمستوحش من الغير لا ينطق عن الغير .

وسمعت شيخا يقول : ذهبت يوما الى مجلسه وأنا أنوي أن أسأله عن حال المتوكلين ، وكان قد لبس عمامة طبرية حسنة ، فمال اليها قلبي . وقلت له : أيها الشيخ ! ما التوكل ؟ قال : إن تقصر الطمع عن عمائم الناس . قال هذا وألقى الى بالعمامة ، رضى الله عنه .

● ومنهم : الامام الاوحد ، وشرف أهل الزمان :

« أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني » (٢) رضى الله عنه . كان من أجلة المشايخ وقدمائهم ، وممدوحا في وقته من جميع أولياء الله . وقد قصد الشيخ أبو سعيد زيارته ، وكانت له معه محاورات لطيفة في كل فن . وحين كان بهم بالعودة قال له (الخرقاني) قد اخترتك لولاية عهدي .

وسمعت من حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبي سعيد أنه عندما ذهب الشيخ الى (أبي الحسن الخرقاني) لم يتحدث قط ، وكان فقط يستمع اليه ، ويجيب على أسئلته . وقلت له : أيها الشيخ ! لم صمت هكذا ؟ فلم يجب بغير كلمة واحدة هي : كفى (٣) .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري رضى الله عنه يقول : عندما بلغت

(١) أبو علي الدقاق الصوفي . أستاذ أبي القاسم القشيري وصهره . توفي في نيسابور سنة خمس وأربعمائة ، ويقول آخر سنة ست وأربعمائة . (انظر ترجمته في تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٧٧ ، نفحات الانس ص ٢٩١ ، سفينة الأولياء ص ١٥٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١٤ ، شذرات الذهب ص ١٧٨) .

(٢) أبو الحسن الخرقاني : اسمه علي بن جعفر . مريد أبي العباس القصاب ، ومن معاصري أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلسي وأبي سعيد بن أبي الخير . من الصوفية أصحاب السكر ، والمروجين لوحدة الوجود ، فقد كان يعتنق مذهب أبي يزيد البسطامي . توفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته في : تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٠١ ، نفحات الانس ص ٢٩٨ ، رياض العارفين ص ٤٧ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥٢٢) .

(٣) انظر قصة زيارة أبي سعيد للخرقاني في اسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٦٠ وما بعدها .

خرقان (١) انتهت فصاحتى وزالت عبارتى من حشمة ذلك الشيخ ، حتى ظننت
أنى عزلت عن ولايتى .

ويرد عنه أنه قال : الطريق طريقان : طريق الضلالة ، وطريق الهداية ،
فطريق الضلالة هو طريق العبد الى الله ، وطريق الهداية هو طريق الله
الى العبد . وكل من يقول : وصلت ، لم يصل . وكل من يقول : أوصلونى ،
وصل ، لأن الايصال منعقد فى الوصول ، وعدم الوصول مرتبط بالوصول ،
والله أعلم .

● ومنهم : ملك وقته وزمانه ، والمفرد فى بيانه وعيانه :

أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالداستانى (٢) « رضى الله عنه .
كان عالما بأنواع العلوم ، وسائسا مهذبا ، ومن محتشمى حضرة الحق .
وله أقوال مهذبة ، وإشارات لطيفة .

وكان الشيخ السهلکى (٣) ، امام تلك الديار خلفا طيبا له . وقد سمعت
من السهلکى بعض أقواله ، وهى أقوال عالية وطيبة جدا ، كتوله :
« التوحيد عنك موجود ، وأنت فى التوحيد مفقود » .

أى أن التوحيد صحيح عنك ، ولكنك غير صحيح فى التوحيد ، لأنك
لا تقوم بمقتضى حقه . وأقل درجة فى التوحيد ، نفى التصرف عنك فى الملك ،
وإثبات التسليم فى أمورك للحق عز وجل .

قال الشيخ السهلکى (٣) : فى وقت من الأوقات هجم الجراد على بسطام ،
وقد أسودت الأشجار والمزروعات جميعا من كثرتهم ، فضج الناس بالدعاء .
وسألنى الشيخ : ماذا حدث ؟ قلت : أقبل الجراد والناس فى عناء منه .

(١) « خرقان » : قرية من قرى بسطام على طريق استراباد بها قبر أبى الحسن على
ابن أحمد . له كرامات . مات سنة ٤٢٥ هـ (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤) .
(٢) أبو عبد الله الداستانى : من أقران أبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير ،
ومن أتباع مذهب أبى يزيد البسطامى . كان يلقب بشيخ المشايخ . توفى سنة سبع
عشرة وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٩٩ ، خزينة الاصفهائى ج ٢
ص ٢١٦) .

(٣) كان شيخ الصوفية فى بسطام . أشار اليه ابن الاثير فذكر أنه عندهما حمل الشيخ
أبو اسحاق الشيرازى رسالة الخليفة المقتدى بالله الى السلطان ملكشاه
السلجوقى والوزير نظام الملك ، كان كلما وصل الى مدينة من بلاد العجم خرج
أهلها لاستقباله . ولما وصل بسطام خرج اليه السهلکى شيخ الصوفية بها ، وهو
شيخ كبير ، فلما سمع أبو اسحاق بوصوله خرج اليه ماشيا ، فلما رآه السهلکى
لقى نفسه من دابة كان عليها ، وقبل يد الشيخ أبى اسحاق ، فقبل أبو اسحاق
رجله وأجلسه فى موضعه . (ابن الاثير : انظر حوادث سنة ٤٧٥) . وهذه القصة
وردت أيضا فى المنتظم فى ترجمة أبى اسحاق الشيرازى (انظر المنتظم ج ٩ ص ٧)

فنهض الشيخ وصعد الى السطح ، ورفع وجهه نحو السماء ، فطار الجراد كله في الحال ! وعند صلاة العصر لم تبق منه واحدة ، ولم تترك ورقة زرع لآحد . والله اعلم .

● ومنهم : سلطان السلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين :
« أبو سعيد فضل الله بن محمد الميمني (١) » رضى الله عنه . كان سلطان الطريقة ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال .

كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة ، وشأن عظيم في درجة الاشراف على الأسرار . وكان له — غير هذا — آيات وبراهين كثيرة ، كما هو ظاهر من آثاره اليوم في العالم .

ترك في بداية حاله « ميمنه (٢) » وذهب الى « سرخس (٣) » لطلب العلم ، واتصل بأبى على زاهر (٤) رحمه الله ، وكان يصوم يوما كل ثلاثة أيام ، ويقضى تلك الأيام الثلاثة في العبادة ، الى أن رأى فيه ذلك الامام الرشيد ، وزاد في تعظيمه .

وكان ولى الصوفية في سرخس في ذلك الوقت الشيخ أبو الفضل حسن (٥) رحمه الله عليه ، وذات يوم كان (أبو سعيد) يسير على شاطئ نهر سرخس ، فتقدم اليه أبو الفضل حسن وقال : يا أبا سعيد ! ليس هذا طريقك الذى تسير فيه ، فاسلك طريقك . فتعلق به الشيخ ، ورجع من عنده الى موطنه ، وانشغل بالرياضة والمجاهدة ، حتى فتح الحق عليه باب الهداية ، وأوصله الى الدرجة الأعلى .

(١) سبق التعريف به في القسم الاول ضمن الشخصيات التى تآثر بها الهجویری .

(٢) « ميمنه » : من قرى خابران . وهى ناحية بين أيبورد وسرخس قد نسب اليها جماعة من أهل العلم والتصوف منهم أبو سعيد أسعد بن أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير وأبو الفتح طاهر وكانا من أهل التصوف وبيته (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٣) .

(٣) « سرخس » من قرى خابران مثل نسا وأيبورد . وقد فتحت هذه البلاد في سنة ٣٠ في أيام عثمان رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٧١) .

(٤) أبو على زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسى : الفقيه المقبرى . كان من كبار الشافعية ، وشيخ مصره في خراسان . وكان يعد من تلاميذ الأشعرى في علم الكلام . توفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة : « طبقات الشافعية » انظر : ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٤٣ .

(٥) أبو الفضل حسن : اسمه محمد بن الحسن السرخسى : نسبة الى سرخس . كان مريدا لأبى نصر السراج الطوسى ، ومرتدا لأبى سعيد بن أبى الخير . توفى في أواخر القرن الرابع الهجرى ، ودفن بموطنه سرخس وقبره بها . (انظر ماورد عنه في أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٢ — ٧٢ ، ترجمته في تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٣٧ ، نفحات الأنس ص ٢٨٤) .

سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسي (١) يقول : كنت معه دائما في خصومة . وذات يوم ذهبت اليه وقد ارتديت مرقعة صارت كالجلد من القذارة . ولما دخلت عليه وجدته جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية ، فقلت لنفسى : هذا الرجل يدعى الفقر مع كل هذه العلائق ، وأنا ادعى الفقر مع كل هذا التجريد ، فكيف أكون على وفاق معه ؟ فأشرف على ما يجول بفكرى ، ورفع رأسه وقال : يا أبا مسلم ! في أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما في مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ .

أى أن أصحاب المشاهدة أغنياء بالحق ، والفقراء هم أرباب المجاهدات . قال (أبو مسلم) فندمت على ظنى ، وطلبت منه المغفرة على سوء ظنى . يرد عنه أنه قال : « التصوف : قيام القلب مع الله بلا واسطة » ، وهذا أيضا إشارة الى المشاهدة .

والمشاهدة تنأتى من غلبة المحبة ، واستغراق الصفة في تحقيق الشوق والرؤية ، وفناء الصفة ببقاء صفة الحق . وسأذكر في كتاب الحج بابا في المشاهدة ووجودها ، أن شاء الله عز وجل .

في وقت من الأوقات ، خرج (أبو سعيد) من نيسابور قاصدا طوس ، وكان فيها عقبة شديدة البرودة ، وكانت قدماه تتجمدان في نعله . قال درويش : فكرت في أن أثق الفوطة نصفين وألقى بها على قدميه ، ولم يطاوعنى قلبى لأنها كانت فوطة جميلة جدا . وعندما بلغنا طوس قلت في المجلس : فليفرق لنا انشيخ بين وسواس الشيطان والهلم الحق ؟ قال : الإلهام هو ما قيل لك أن مزق الفوطة حتى لا تبرد أقدام « أبى سعيد » والوسواس هو ما منحك .

وقد نواتر عنه من ذلك كثير ، وليس هذا مرادنا . والله أعلم .

● ومنهم زين الأوتاد ، وشيخ العباد :

« أبو الفضل محمد بن الحسن الفخري (٢) » رضى الله عنه ، وبه قدوتى في هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب في التصوف مذهب الجنيد .

(١) أبو مسلم الفارسي : فارس بن غالب . من شيوخ الصوفية في فارس . أدرك أبا عبد الرحمن السلى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، وكان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى الفتح بن ساليه المتوفى سنة ٤٧٣ هـ . أشير اليه في أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٥٢ ، شد الأزار ص ١٨٠ حاشته ٣ أرجع الى ما ورد عنه في القسم الأول من شيوخ الهجویری ، وانظر ترجمته في : نفحات الأنس ص ٢١٥ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ٢٢١ .

كان مريد الحصرى (١) وصاحب سره ، ومن أقران أبي عمرو القزوينى (٢) ،
وأبى الحسن بن سألبة (٣) . وقد ظل ستين عاما وهو يفر الى الزوايا طلبا
للغزلة الصادقة ، واختفى اسمه من بين الخلق ، وكان كثيرا ما يلجأ الى جبل
اللكام .

عمر طويلا ، وكانت له روايات وبراهين كثيرة ، غير أنه لم يكن يرتدى
ثياب المتصوفة ويمارس رسومهم ، وكان شديدا مع أهل الرسم . ولم أر
قط من هو أكثر منه مهابة .

وسمعه يقول : « الدنيا يوم ، ولنا فيها صوم » . أى أننا لا نأخذ منها
شيئا ، ولا نتقيد بقيودها ، لأننا راينا آفتها ، ووقفنا على حجبها ، فأعرضنا
عنها .

وذات يوم كنت أصب الماء على يديه للوضوء ، وجال بخاطري أنه مادامت
الاعمال بالتقدير والقسمة ، فلم يجعل الأحرار انفسهم عبيدا للشيوخ ؟
فقال لى : يا بنى ! عرفت ما فكرت فيه . واعلم أن لكل حكم سببا ، وحين
يريد الحق تعالى أن يتوج صبيا بتاج الكرامة ، فإنه يمنحه التوبة ، ويشغله
بخدمة حبيب لتصير هذه الخدمة سببا لكرامته .

وكانت تظهر لنا منه كل يوم لطائف كثيرة كهذه .

ويوم أن وافته الوفاة « ببيت الجن » — وهى قرية على رأس عقبة بين
بانيار ودمشق — كانت رأسه فى حجرى ، وكان قلبى متمعضا من أحد
أصحابى ، كما هى عادة الأدميين ، فقال لى : يا بنى ! سأحدثك فى مسألة
من الاعتقاد ، فإذا قومت نفسك عليها نجوت من كل الآلام ! اعلم أن الله
عز وجل هو خالق الأحوال من خير وشر ، فى كل مكان ، فلا ينبغى أن
تعترض على فعله أو تألم له .

ولم يوص بأكثر من هذا ، واسلم روحه للحق . رحمة الله عليه ، ورضى
الله عنه ، وسقاه صوب رضوانه .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) أبو الحسن على بن عمرو القزوينى الزاهد . أشار اليه ابن الأثير وذكر أنه كان
من الصالحين . روى الحديث والحكايات والأشعار (انظر : الكامل حوادث ٤٤٢) ،
صفحة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) سبق الإشارة اليه :

● **ومنهم : الاستاذ الامام ، وزين الاسلام :**

« **ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (١)** » رضى الله عنه ، البديع في زمانه ، والرفيع في قدره . ومنزلته كبيرة ومعلومة لاهل زمانه . وله من احواله وانواع فضله لطائف كثيرة في كل فن ، وتصانيف نفيسة كلها محققة . وقد حفظ الله تعالى حاله ولسانه من الحشو .

وسمعه يقول : « مثل الصوفي كعلة البرسام : اوله هذيان ، وآخره سكوت ، فاذا تمكن خرس » .

فالصفوة لها طرفان : أحدهما الوجد ، والآخر الدليل . فالدليل يكون للمبتدئين ، والتعبير عن الدليل في الدليل هذيان . والوجد يكون للمنتهين ، والتعبير عن الوجد في الوجد محال .

والطالبون ماداموا في حال الطلب ، فانهم يتحدثون في الهمة بعلو الهمة ، والنطق يبدو لاهل المنى : هذيانا ، فاذا ما وصلوا فانهم أيضا لا يبقوا لهم الى الوصول عبارة وإشارة .

ومثال هذا : أن موسى ، حينما كان مبتدئا ، كانت همته كلها محصورة في الرؤية ، فعبر عن الهمة ، كما ورد في قوله تعالى بشأنه : « أرني أنظر اليك » (٢) . وقد بدت هذه العبارة هذيانا لعدم ادراك المقصود .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان في نهاية حاله وممكنا ، وعندما وصل شخصه الى مقام الهمة فنيت همته ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك » (٣) . وهذه منزلة رفيعة ، ومقام عال .

● **ومنهم : الشيخ الأوحى ، وفي طريقته المفرد :**

« **ابو العباس أحمد بن محمد الشقائي (٤)** » رضى الله عنه . كان اماما في فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا في جميع المعانى ، رأى كثيرا من المشايخ وكان من كبار أهل التصوف وأجلتهم .

(١) أرجع الى ما ورد عنه في القسم الأول ضمن من تأثر بهم الهجویری .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .

(٣) ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده : « أعوذ برضك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك » . أنت كما أثنيت على نفسك » (أنظر اللع ص ١٥٨) .

(٤) أرجع الى ما ورد عنه في القسم الأول ضمن شيوخ الهجویری .

وكان يعبر عن طريقته في الفناء بعبارة مغلقة اختص بها . وقد رأيت طائفة من الجبهة قلده في تلك العبارات ، واختاروا شطحاته . والتقليد غير محمود في المعنى ، فكيف به في العبارة ؟ ! .

وكان لى معه انس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة ، وكان أستاذى في بعض العلوم . ولم أر طيلة حياتى قط رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

وقد انقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الامام المحقق لدقة عباراته . وكان طبعه دائما ينفر من الدنيا والعقبى ، ويصيح قائلا : « اشتهى عدما لاعود نيه » . وكان يقول بالفارسية : لكل آدمى غاية مطلوب ، ولا بد لى أيضا من غاية مطلوب ، وأنا أعلم يقينا أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتى هى أن يحملنى الله تعالى الى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ماهو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمى عاشقا لحجابه ، والعدم في المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب . ولما كان الحق جل جلاله وجودا لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر في ملكه اذا جعلنى عدما ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط .

وهذا أصل قوى في صحة الفناء . والله أعلم .

● ومنهم : قطب زمانه ، وفريد عصره وأوانه :

« أبو القاسم على الجرجاني (١) » رضى الله عنه وأرضاه . لا نظير له في وقته ، ولا بديل له في زمانه ، وكانت له بداية طيبة . وقام بأسفار شاقة في المعاملة . وتتجه اليه في هذا الوقت تلوب أهل الحضرة جميعا ، ويعتمد عليه جملة الطالبين . وهو آية ظاهرة في كشف وقائع المريدين ، وعالم بفنون العلم ، وكل من مريديه زينة لعالم . وسبق له من بعده خلف طيب يكون ان شاء الله قدوة القوم ، وهو لسان الوقت أبو على الفضل بن أحمد الفارمدى (٢) — أبقاه الله — الذى تخلى عن نصيبه في حق ذلك الشيخ العظيم ، وأعرض عن انكل ، وجعله الحق تعالى وتقدس ببركاته لسان حال ذلك السيد .

وذاث يوم كنت جالسا في حضرة الشيخ (أبى القاسم الجرجاني) أعدد أحوالى والرؤى التى ظهرت لى ، لأصفى عليه وقتى ، لأنه ناقد الوقت ، وكان هو رضى الله عنه يصفى لى في احترام . وكانت نخوة الصبى وجذوة

(١) أرجع الى ما ورد عنه في القسم الاول ضمن شيوخ الهجويرة .

(٢) سبق الإشارة اليه في القسم الاول .

الشباب تجعلنى حريصا على قول ذلك ، وقد خطر لى أن : عسى الشيخ لا يكون قد مر بهذا فى البداية ، فهو يبدى نحوى كل هذا الخضوع ، ويتودد الى . وراى هو فى الحال هذا فى باطنى ، فقال : يا حبيب ابيك ! ان خضوعى ليس لك أو لحالك ، لأن محول الأحوال يجيء فى محل المحال ، فخضوعى هذا لمحول الأحوال . وهذا الذى حدث لك ، يكون عاما لكل الطالبين ، وليس خاصا بك . فلما سمعت هذا استقط فى يدى ، فراى ذلك فى ، وقال : يا بنى ! ليس للادى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة ، فنفيه واثباته ، وفقده ووجوده كلاهما زهو ، والادى لا يخلص أبدا من أسار الزهو ، ويجب عليه أن يستمسك بأعتاب العبودية ، ويدفع عن نفسه كل نسبة غير الآدمية والطاعة .

وكانت لى معه من بعد ذلك أسرار كثيرة ، ولو شغلت باظهار الآيات لعجزت عن المقصود ، والله أعلم .

● ومنهم : رئيس الاولياء ، وناصح اهل الصفاء :

« أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان (١) » رضى الله عنه . كان متربعا فى الرئاسة ، وقد فتح الله عز وجل عليه أبواب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة . وكان له بيان حسن وعبرة عالية فى الفناء والبقاء .

قال شيخ المشايخ أبو سعيد رحمة الله عليه : لقد جىء بنا الى ساحة الحق عن طريق العبودية ، وجىء بالشيخ المظفر اليها عن طريق السيادة .

اى أننا أدركنا المشاهدة بالمجاهدة ، وجاء هو الى المجاهدة بالمشاهدة .

وقد سمعته يقول : ان ما أدركه العظماء بقطع البوادر والمفايزات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى الصدارة .

ويحمل جماعة من أصحاب الرعونة هذا القول من الشيخ على الادعاء ، وذلك لتقص كياستهم ، لأن عبارته عن صدق حاله وليست ادعاء ، وبخاصة أنه كان ذا اهل . وقد بقى لنا منه اليوم خلف طيب وعظيم ، وهو السيد « أحمد » سلمه الله .

وكنيت لديه ذات يوم ، وكان عنده رجل من ادعياء نيسابور ، وكان يقول فى حديثه : أنه يغنى حينما يبقى . فقال له السيد المظفر رحمة الله عليه :

(١) ارجع الى ماورد عنه فى القسم الاول ضمن اسانذة الهجوبرى .

كيف يتأتى البقاء على الفناء ؟ والفناء عبارة عن العدم ، والبقاء اشارة الى الوجود ، وكل واحد منهما ينفي الآخر ، أى أنه ضده .

والفناء معروف ، أما اذا غنى ، فانه ان وجد ، لا يكون عين ذاك ، وانما يكون شيئا آخر .

ولا يجوز ان تقنى الذوات ، ولكن فناء الصفة وفناء السبب جائز ، فاذا فنيت الصفة والسبب ، يبقى الموصوف والمسبب ، ولا يجوز الفناء على ذاته .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : اننى لم اذكر عين عبارة فلك السيد ، أما معناها فهو هذا الذى ذكرته . وأوضح الآن المراد من هذه العبارة لتصير اعم .

والمراد منها : ان اختيار العبد صفة له ، والعبد محجوب باختياره عن اختيار الحق ، فصفة العبد حجاب له عن الحق .

واختيار الحق ازلى لا محالة ، واختيار العبد محدث ، ولا يجوز الفناء على الازلى . وحين يبقى اختيار الحق فى حق العبد ، فان اختياره يبنى لا محالة ، وينقطع تصرفه ، والله اعلم .

وقد دخلت عليه يوما فى القبط القناظ ، بثياب الطريق ، اشعث ، فقال لى : قل لى ما تريد فى الحال ؟ قلت : يلزمنى السماع . فأرسل شخصا فى الحال ، فأحضروا القوال وجماعة من أهل الطرب . وصيرتنى جنوة حدثتى ، وقوة ارادتى ، وحرقة بدايتى مضطربا فى السماع ، فلما انقضى على ذلك وقت ، وقت فى سلطان تلك الآمة وجليانها ، قال لى : كيف كان حالك فى هذا السماع ؟ قلت : أيها الشيخ ! كنت مسرورا جدا . فقال : سوف يأتى وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع . واياك ان تتعود هذا حتى لا يصير طبيعة لك ، وتتخلف بذلك .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثالث عشر باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان

وإذا ذكرنا الآن الجميع ، وشرحنا أحوالهم في هذا الكتاب فإنه يطول ،
وإذا أغفلنا البعض فإن المقصود لا يتحقق أيضا .

والآن : أذكر في هذا الكتاب هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون (أحياء) في عهدي
من أئمة القوم ومشايخهم من أرباب المعاني ، ممن هم غير أصحاب الرسوم ،
لأكون أقرب إلى حصول مرادى أن شاء الله عز وجل .

من كانوا في الشام والعراق ، منهم :

« الشيخ زكى بن علاء » : كان من كبار المشايخ ، وسادات الزمان .
وتد وجدته شعلة من شعل المحبة ، وذا آيات وبراهين ظاهرة .

والشيخ الكبير : « أبو جعفر محمد بن الصباح الصيدلانى » كان من
رؤساء المتصوفة ، وذا لسان حسن في التحقيق ، وميل عظيم إلى الحسين
ابن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه .

و « أبو القاسم السدسى » : كان شيخا صاحب مجاهدة ، طيب الحال ،
وراعيا للدرأويش وموضع اعتقادهم بحسن الاعتقاد .

أما أهل فارس ، فمنهم :

شيخ الشيوخ : « أبو الحسين بن سالبه (١) » : وكان لسانه في التصوف
أفصح لسان ، وبيانه في التوحيد أوضح بيان ، وله أقوال معروفة .

(١) سبق الإشارة إليه . انظر ، ص : ٤٩ .

والشيخ المرشد : « أبو اسحاق بن شهریار (١) » : وكان من محتشمى القوم ، وذا مهابة عامة .

والشيخ الظريف : « أبو الحسن على بن بكران » : وكان من كبار المتصوفة .

والشيخ : « أبو مسلم (٢) » : وكان رجلا عزيز الوقت طيب الحال .
والشيخ : « أبو الفتح بن سالبه (٣) » : وهو خلف طيب لأبيه ، ومرجو فيه .

والشيخ : « أبو طالب » : وكان رجلا أسير كلمات الحق .

ولم أر من هؤلاء شيخ الشيوخ والشيخ إبا اسحاق .

أما أهل قهستان (٤) وأذربايجان ، وطبرستان وقومس ، فمنهم :

الشيخ « شقيق فرج » المعروف بأخى الزنجاني (٥) : كان رجلا حسن السيرة ، محمود الطريقة .

والشيخ « وندرى » : وهو من عظماء هذه الطريقة ، وتؤثر عنه خيرات كثيرة ، وكان ساطنا تائبا ، ورجلا عبارا فى طريق الحق .

والشيخ « أبو عبد الله الجنيد » : وكان شيخا رفيقا ومحترما .

والشيخ « أبو طاهر المكشوف » : وكان من أجلة وقته .

(١) اسمه إبراهيم بن شهریار الكازرونى . فارسى الأصل والمولد ، ونشأ فى كازرون . كان مريدا للفرز أبادى ، وصحب كثيرا من رجال الحديث . توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٥٤ ، سفينة الاولياء ص ١٦١ ، خزنة الاصفىاء ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٢) سبق الإشارة اليه . انظر ، ص : ٣٨٠ .

(٣) سبق الإشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

(٤) « قهستان » : مخفف : « قوهستان » تعريب « كوهستان » ومعناها : موضع الجبل . وأكثر بلاد المعجم لا يخلو من موضع يقال له كوهستان وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحى هراة ثم يمتد فى الجبل طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمدان . فتحها عبد الله بن عامر بن كرز فى أيام عثمان سنة ٢٩ هـ (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥) أخى الزنجاني : من كبار الشيوخ فى وقته . كان مريدا للشيخ أبى العباس النهاوندى مريد جعفر الخلدى تنسب اليه كرامات وخوارق كثيرة . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وقبره فى زنجان (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ١٤٨ ، سفينة الاولياء ص ١١٢ ، خزنة الاصفىاء ج ٢ ص ٨) .

والسيد « حسين السمناني » : وهو رجل ذو بلاء ورجاء .

والشيخ « السهلکی (١) » : وكان من فحول المتصوفة وصعاليكهم .

و « أحمد (٢) » بن شيخ خرقان ، وهو لأبيه نعم الخلف .

و « أديب الكندي (٣) » : وكان من سادات زمانه .

وأما أهل كرمان ، فمنهم :

السيد : « على بن الحسين السيركاني (٤) » ، وكان سياح الوقت ،
وذا أسفار طيبة ، وابنه « حكيم » رجل عزيز .

والشيخ : « محمد بن سلمة » ، وكان من كبار وقته وقبله كان المكتومون
من أولياء الله عز وجل ، ويوجد الآن شبان وأحداث ذوو رجاء .

وأما أهل خراسان (٥) ، التي يظلها اليوم اقبال الحق ، فمنهم :

الشيخ المجتهد : « أبو العباس الشرمقاني (٦) » وكان ذا عيش حسن ،
ووقت طيب .

والسيد « أبو جعفر محمد بن على الجويني (٧) » ، وكان من عظماء هذه
الطائفة والمحققين منهم .

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) أحمد بن أبي الحسن الخرقاني المتوفى سنة ٤٢٥ هـ . وردت منه إشارة في أسرار
التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٦٠ .

(٣) أورد له الجاني ترجمة لاتتمدى الإشارة الواردة في كشف المحجوب (انظر تفحات
الأنس ص ٢١٨) .

(٤) أظن أنه : (خواجه) على بن الحسن الكرمانى : كان من شيوخ كرمان ، ومريدا
للشيخ « عمو » المتوفى سنة ٤٤١ هـ . ويبدو مما ذكره مؤلف أسرار التوحيد أن
الكرمانى كان معاصرا لأبى طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ،
وأبى على الخباز (انظر : أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٣٩٤ ، تفحات
الأنس ص ٢٦٣ ، شد الأزار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٥) هذه المجموعة من الصوفية من أهل خراسان كانوا جميعا من معاصري أبى سعيد
ابن أبى الخير ، وبعضهم كانوا من طبقة الشيوخ اقتران أبى سعيد ، والبعض
الآخر من تلاميذ الشيوخ وأبنائهم ، ووردت في أسرار التوحيد اشعارات بشأنهم ،
وان كان هناك بعض التحريف في الأسماء .

(٦) الشرمقاني : نسبة الى « شرمقان » : بلدة قريبة من اسفرائين بنواحي نيسابور .

(٧) أبو محمد الجويني : من معاصري أبى سعيد بن أبى الخير ، وزميله في الدراسة
على أبى بكر القفال . كان اماما من الشافعية ، تفقه على أبى الطيب سهل بن
محمد الصطوكي ، ثم خرج الى أبى بكر القفال وعاد الى نيسابور . كان عالما
بالأدب وغيره من العلوم . توفي سنة ٤٣٨ هـ (انظر : المنتظم ج ٨ ص ١٣٠ ،
الكامل : حوادث سنة ٤٣٨ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٠) .

والسيد « أبو جعفر الترشيزي (١) » ، وكان من أعزاء الوقت .

والسيد « محمود النيسابوري (٢) » ، وكان مقتدى الوقت ، وذا لسان حسن .

والشيخ « محمد المعشوق (٣) » : وكانت حياته حسنة وطيبة .

والشيخ « حمزة الحب (٤) » : وكان شيخا طيب الباطن ، وميمونا .

والسيد « المظفر (٥) » ابن الشيخ أبي سعيد : وهو ذو رجاء في أن يصير مقتدى القوم وقبلة القلوب .

والسيد « أحمد بن حماد السرخسي (٦) » ، مبارز الوقت ، وكان رفيقاً مدة طويلة ، ورأيت من أمره عجائب كثيرة ، وكان من فتيان الصوفية .

والشيخ « أحمد النجار السمرقندي (٧) » ، وكان سلطان زمانه ، يقيم بمرور .

والشيخ « أبو الحسن علي بن أبي علي الأسود (٨) » ، وكان خلفاً طيباً لأبيه ، وفريد عصره في علو الهمة ، وصدق الفراسة .

-
- (١) أبو علي الترشيزي : من معاصري أبي سعيد وأبي القاسم القشيري . وردت شأنه حكاية في أسرار التوحيد . (انظر الترجمة العربية ص ١٠٤ — ١٠٦) .
- (٢) محمود النيسابوري : كان يعزف بالمريد ، وبلغ من عظمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل إليه المريدين ، ويقول أنه سالك طيب (أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٨١) .
- (٣) المعشوق الطوسي : كان من عقلاء المحائين ، وشيخاً عظيماً كاملاً ، يقيم في طوس . التقى به أبو سعيد بن أبي الخير في طوس وهو في طريقه إلى نيسابور . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٧٧ ، ترجمته في نفحات الأنس ص ٣٠٩) .
- (٤) حمزة التراب : من معاصري أبي سعيد . من أهل نيسابور . كان يقال له حمزة التراب لأنه كتب يوماً رقعة إلى أبي سعيد ووقعها ، لشدة تواضعه ، بكلمة : « تراب القدم » ، فكتب أبو سعيد بيتاً من الشعر على ظهر الرقعة وأرسلها إليه . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣١) .
- (٥) أبو الوفا المظفر : الابن الثاني لأبي سعيد بن أبي الخير (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٣٩٠) .
- (٦) كان رفيقاً للهجويزي في ما وراء النهر ، وسافر معه إلى لاهور ، وظل بها إلى أن توفي ، ولا يزال قبره بها داخل ضريح الهجويزي ، ومعروفاً باسمه .
- انظر القسم الأول . ص ٩٠ .
- (٧) أحمد النجار : من أقران أبي سعيد : أشير إليه أكثر من مرة في أسرار التوحيد (انظر الترجمة ص ٥٧ ، ٢٨٩ ، ٣٩٩) .
- (٨) هو ابن الشيخ أبي علي الأسود (سياه) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ . كان من كبار مشايخ مرو ، ومعاصراً لأبي العباس القصاب ، وأبي علي الدقاق وأبي سعيد بن أبي الخير ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أبي سعيد (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ١٩٣ ، ٢٦٩ ، وترجمته في نفحات الأنس ص ٢٩٠) .

واذا عددت جميع المتصوفة من أهل خراسان فان ذلك يصعب ، فقد رأيت ثلثائه متصوف في خراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، ويكفى أن يكون في العالم واحد منهم ، لأن شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان .

وأما أهل ما وراء النهر ، فمنهم :

السيد الامام ، مقبول الخاص والعام ، « أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمي (١) » : وهو رجل مستمع ومطلوب ، ذو همة عالية ووقت صافي ، وشفتة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق .

والسيد الفقيه ، وبين أصحابه الوجيه : « أبو محمد البائغري » كان ذا وقت طيب ، ومعاملات قوية .

و « محمد الأبلقي » وكان شيخ وقته ، وعظيم زمانه ، وتاركا للرسم والعادات والأسباب .

والسيد « العارف » : وكان فريد وقته ، وبديع عصره .

و « على بن اسحاق » : وكان سيد زمانه ، ورجلا محتشما ، وذا لسان عذب .

هذه أسماء الجماعة الذين رأيتهم جميعا وعرفت مناقبهم فردا فردا ، وكانوا جميعا من أهل التحقيق .

أما أهل غزني وسكانها ، فمنهم :

الشيخ العارف ، وفي زمانه المنصف ، « أبو الفضل بن اسد » : وكان شيخا عظيما ، وماحب براهين ظاهرة وكرامات زاهرة . وكان كشعة من نار المحبة ، وحاله مبنى على التلبيس .

والشيخ المجرد ، المفرد من العلائق ، « اسماعيل الشاشي » ، وكان شيخا محتشما ، يسلك طريق الملامة .

(١) على بن عمر بن محمد بن الحسين الحرمي المعروف بالقزويني : كان من كبار الصالحين ، قال أحمد بن علي بن ثابت : كان أبو الحسن القزويني أحد الزهاد المذكورين من عباد الله الصالحين . وتوفي سنة ٤٤٢ هـ سنة الصفة ج ٢ ص ٢٧٥ .

والشيخ « سالار الطبرى » ، وكان من علماء المتصوفة وصاحب حال طيب .

والشيخ العيار ومعدن الأسرار ، « أبو عبد الله محمد بن الحكيم » المعروف بالمريد ، رحمه الله ، وكان من سكارى قرب حضرة الحق ، وأوحد فنه . وإحاله مستورة عن الخلق ، وله براهين ظاهرة ، وآيات زاهرة . وكان حاله فى الصحبة أطيب منه فى الرؤية .

والشيخ المحترم والمقدم على جميع العظماء ، « سعيد بن أبى سعيد العيار » : وكان حافظا لحديث النبى ، وعمر طويلا ، ورأى كثيرا من المشايخ . وكان قوى الحال ، ومطاعا ، ولكنه كان يتستر ولا يظهر معناه لأحد .

والسيد العظيم ، وقاعدة الاحترام والوقار ، « أبو العلاء عبد الرحيم ابن أحمد السفرى » ، كان عزيز القوم ، وسيد الوقت ، ويميل قلبى اليه . وهو صاحب وقت مهذب وحال طيب ، وخير بفنون العلم .

والشيخ الأوحد ، « قسورة بن محمد الجرديزى » : المشفق على اهل الطريقة تمام الشفقة ، ولكل منهم لديه حرمة ، ورأى المشايخ .

وانى ، وفقا لما يرجوه عامة الناس وعلماء تلك المدينة ، أرجو أن يظهر فيها بعد هؤلاء رجال نعتقد فيهم ، وأن تتخلص من الطائفة التى تفرقت فيها وشوهت صورة هذه الطريقة ، وأن تصير أيضا محطاً للأولياء والعظماء ان شاء الله تعالى .

فهرس موضوعات القسم الأول

الصفحة	
كلمة وفاء	٥
تقديم	٧
الباب الأول : التعريف بالهجويرى	١٣—١٠٦
الفصل الأول : عصر الهجويرى من النواحي السياسية والثقافية والدينية	١٥
الفصل الثانى : التصوف فى عصر الهجويرى	٢٧
الفصل الثالث : التعريف بالهجويرى : موطنه ، أسرته ، مولده وزواجه	٣٩
الفصل الرابع : ثقافته ، أساتذته وشيوخه ، الشخصيات التى تأثر بها	٥٥
الفصل الخامس : رحلات الهجويرى	٧٣
الفصل السادس : المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى : استقراره فى لاهور ، وفاته ، قبره	٧٩
الفصل السابع : مؤلفات الهجويرى	٩٧
الباب الثانى : التعريف بكتاب كشف المحجوب	١٠٧—١٨٨
الفصل الأول : تعريف بالكتاب : اسمه ، موضوعه ، تاريخ تأليفه	١٠٩
الفصل الثانى : أقسام الكتاب	١٢٣
الفصل الثالث : مصادر الكتاب	١٤٣
الفصل الرابع : مكانة الكتاب بين كتب التصوف	١٥١

الصفحة

- الفصل الخامس : مظاهر التأثير والتأثر ١٦٥
- الفصل السادس : القيمة العلمية للكتاب ١٨١
- الفصل السابع : مخطوطات الكتاب ، طبعاته ، الترجمة الانجليزية ١٨٥

فهرس موضوعات القسم الثانى
(ترجمة كتاب كشف المحجوب)

- مقدمة المؤلف ١٩١
- الباب الأول : باب اثبات العلم ٢٠٣
- الباب الثانى : باب الفقر ٢١٥
- الباب الثالث : باب التصوف ٢٢٧
- الباب الرابع : باب لبس المرقعة ٢٤١
- الباب الخامس : باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ٢٥٥
- الباب السادس : باب بيان الملامة ٢٥٩
- الباب السابع : باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة ٢٦٧
- الباب الثامن : باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت ٢٧٥
- الباب التاسع : باب فى ذكر أهل الصفة ٢٨٥
- الباب العاشر : باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار ٢٩١
- الباب الحادى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا ٢٩٧
- الباب الثانى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين ٣٧٥
- الباب الثالث عشر : باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين من أهل البلدان ٣٨٧

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

.

.

.

.

:

|

|

|

|

|

.

.

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

.

.

.

.

.

.

.

.

.